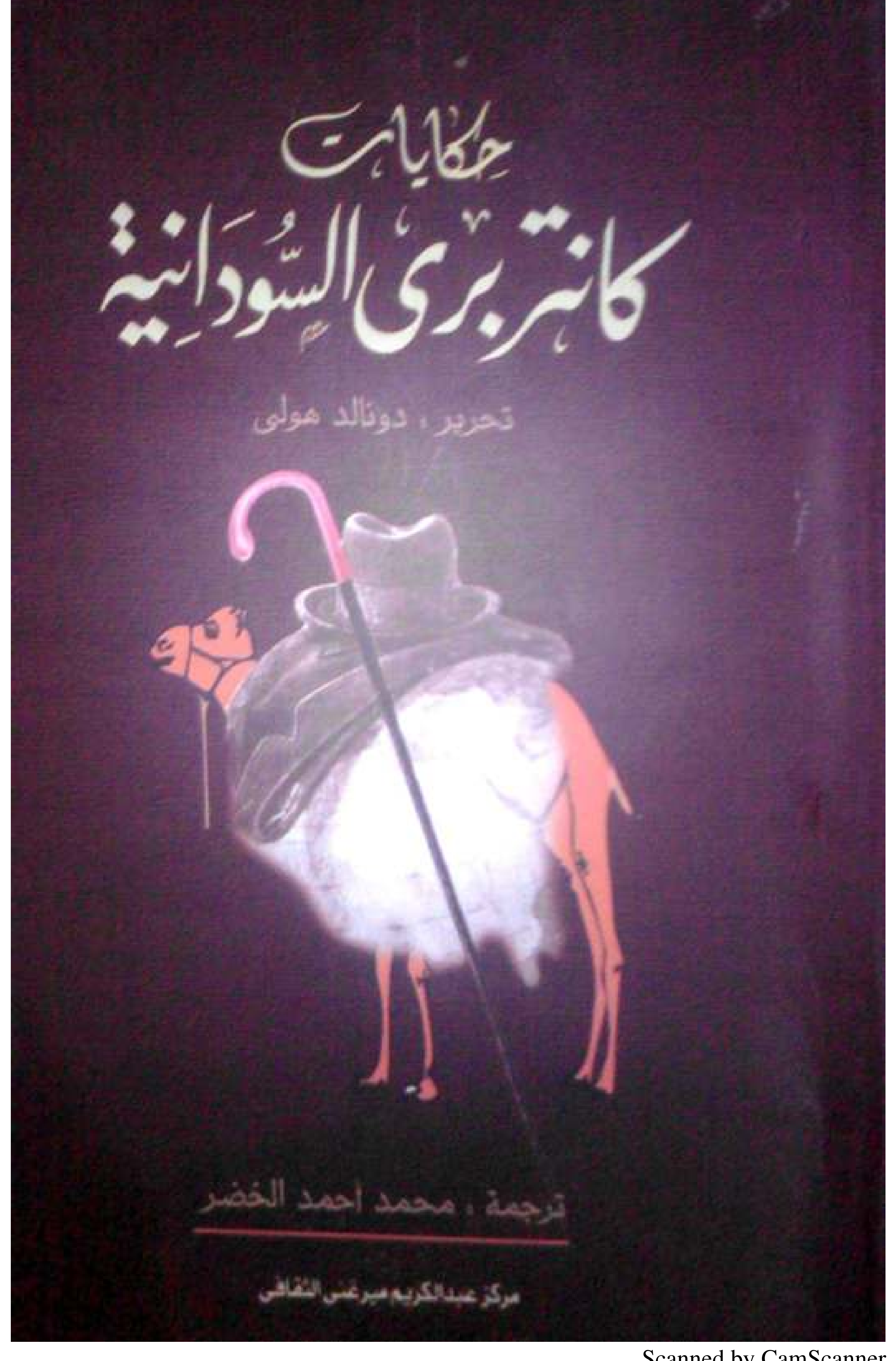


Scanned by CamScanner


المرتضى
لكتب السودانية

حكايات كنتربري السودانية

Sudan Canterbury Tales

المحرر : دونالد هولي

ترجمة : محمد احمد الخضر التوم

Scanned by CamScanner

الناشر

مركز عبد الكريم ميرغني

حكايات كنتربرى السودانية

تحرير: دونالد هولى

ترجمة: محمد أحمد الخضر التوم

مقدمة المترجم

لفت نظرى فى أواخر عام ١٩٩٩ مقالات للدكتورة منى الماحى نشرت بصحيفة «الخرطوم» التى كانت تصدر آنذاك من القاهرة. كانت المقالات تلخيصاً جذاباً لكتاب (حكاوى كنتربرى السودانية Sudan Canterbury Tales). وبعد أسابيع قليلة وصل إلينا فى مسقط الأخ الدكتور/ حسن ابشر الطيب، زوج الدكتورة/ منى، فى زيارة قصيرة، فعبرت له عن إعجابى بالمقالات، وعن رغبتى فى اقتناء نسخة من الكتاب، فوعدنى خيراً. وبعد ثلاثة أيام فقط من عودته إلى القاهرة تفضل مشكوراً وأرسل إلىّ نسخته الخاصة، وألح علىّ أن أفكر جدياً فى ترجمة الكتاب.

قرأت الكتاب، وتملكنى شعور قوى بضرورة ترجمته إلى اللغة العربية لأسباب عديدة أود أن أجملها فى خمس نقاط :

أولاً: يضم الكتاب بين دفتيه مجموعة من المقالات فى شكل حكاوى رواها موظفون بريطانيون عملوا فى مختلف مهن الخدمة المدنية بالسودان أثناء فترة الحكم الثنائى الإنجليزى المصرى، وهى بالتالى تؤرخ لفترة هامة من تاريخ السودان قد تفيد الباحثين والعاملين فى الخدمة المدنية بفروعها المختلفة.

ثانياً: حرص رواة هذه الحكاوى بشكل عام على عدم الانزلاق فى الشئون السياسية، وسجل كل منهم انطباعاته وملاحظاته وتجربته الشخصية من

الناحيتين المهنية والاجتماعية فقط فى تجرد وصدق بائنين، مع إضافة بعض اللمسات الإنسانية.

ثالثاً: لقد عمل هؤلاء الأشخاص فى السودان فى ظروف بالغة الصعوبة من حيث وعورة الطرق، وبدائية وسائل المواصلات (الجمل والثور واللورى أخيراً)، ومحدودية الخدمات، وتفشى الأمراض فى كثير من المناطق النائية، ولكنهم بالرغم من ذلك كانوا يؤدون واجبهم بحيوية دافقة، وبمستوى عال من المسئولية يصلح أن يكون نموذجاً يحتذى به فى تقديس العمل واحترامه.

رابعاً: استرعى انتباهى أن اختيار هؤلاء الأشخاص الذى كتبوا هذه الحكاوى وغيرهم من الموظفين البريطانيين الذى عملوا فى السودان لم يكن عشوائياً، فكانوا جميعاً يحملون مؤهلات أكاديمية عالية، ويخضعون لاختبارات قاسية، وفوق ذلك كله يُفرض على كل منهم اجتياز امتحان خاص فى اللغة العربية إذا أراد الترقى والاستمرار فى وظيفته، وقد ساعدهم ذلك على تقوية علاقاتهم الاجتماعية والمهنية، بل وأجرى الكثيرون منهم بحوثاً علمية فى مجالات تخصصهم، وأعتقد أنه قد حان الأوان لإحياء هذه القيم السامية إذا ما أريد لخدمتنا المدنية فى السودان أن تنهض من كبوتها وتقف على أرجلها من جديد.

خامساً: قد يكون فى ترجمة هذا العمل إلى اللغة العربية حافزاً للكثيرين من رجالات الخدمة المدنية السودانيين الذين عملوا مع البريطانيين فى تلك الفترة، لكتابة مذكراتهم تكملة للصورة، وإثراء لتاريخ تلك الحقبة التاريخية الهامة.

وفي يوليو من عام ٢٠٠٠ قمت بزيارة إلى القاهرة حاملاً فى حقيبتى كنموذج الترجمة العربية لـ (حكاية الضابط الإدارى)، وهى أولى حكاوى المجموعة، إلى جانب مقدمة الكتاب بقلم محرره السير/ دونالد هولى الذى عمل أيضا فى السودان فى تلك الفترة المشار إليها، وقد سعدت بمقابلته فيما بعد عند زيارته لمسقط، كما أقامت الجالية السودانية بمسقط حفل تكريم له وزوجته. وفى

القاهرة قدمنى الأخ/ الدكتور حسن أبشر الطيب إلى الأخ الكريم الوجيه/ محمود صالح عثمان صالح، الذى اطلع على النموذج، وشجعنى بدوره على مواصلة الترجمة، بل وشرفنى برعايته الشخصية لهذا العمل. كما تعهد مشكوراً بأن يطبع الكتاب بواسطة مركز «عبدالكريم ميرغنى» الثقافى بأم درمان.

استلهم السيد دونالد هولى فكرة الكتاب من «حكاوى كنتربرى» (Canterbury Tales) الشهيرة، * وهى مجموعة من القصص ألفها الشاعر الإنجليزى جفرى تشوسر Geoffrey Chaucer باللغة الأنجليزية الوسيطة التى نسبت إليه فيما بعد، وشاع استعمالها فى الفترة ما بين ١١٠٠ - ١٤٨٥م ، وتعد هذه الحكاوى من روائع الأدب الغربى.

لقد جمع جفري تسوشر تسعة وعشرين شخصاً من مختلف طبقات المجتمع فى العصور الوسطى، وعبر معهم نهر التايمز فى رحلة حج إلى ضريح القديس توماس بيكيت (Saint Thomas Becket) فى كنتربرى، ووافق كل منهم على أن يحكى حكايتين فى رحلة الذهاب، وحكايتين فى رحلة الإياب تزجية للوقت. غير أن تسوشر لم يكتب منها سوى أربع وعشرين حكاية، ومنها أربع لم تكتمل. تتضمن الحكايات وصفاً دقيقاً لمظهر أولئك الحجيج، وحياتهم الخاصة، والموضوعات المختلفة التى تطرقوا إليها، والتى يدور معظمها حول الحب، والزواج، والوفاق الأسرى، فجاءت مرآة صادقة لشخصياتهم، مع نقد لاذع لمساوئ الكنيسة تجسد فى شخصيات الراهب، والناسك، وبائع صكوك الغفران.[1] ولعل محرر الكتاب عندما اختار له عنوان (حكاوى كنتربرى السودانية) كان يرمز بذلك إلى تشبيه المشاركين فى تأليفه بأولئك الحجيج.

ولا يسعنى فى ختام هذه المقدمة إلا أن أتقدم بجزيل شكرى وفائق عرفانى إلى السيدة الفضلى الدكتورة/ منى الماحى فى القاهرة، لمؤازرتها لى، ولما بذلته من مجهود مضن فى استخراج هذه الحكاوى بالطابعة من البريد الإليكترونى حيث كنت أرسل ما أترجم أولا بأول، لتتكرم بتسليمهم إلى الأخ/ محمود صالح

عثمان صالح الذى لم يبخل علىّ بملاحظاته القيمة المستنيرة التى كان يمليها إياها عن طريق الهاتف مهما استغرق ذلك من وقت. وقد أتاحت لى تلك المحادثات الهاتفية فرصة التعرف عليه عن قرب، فوجدته مثالا للمثقف الموسوعى الذى يندر أن تجد مثيلاً له فى هذا الزمان، فله منى خالص التحية وعظيم الامتنان. والشكر موصول أيضاً إلى الأخ الكريم الدكتور/ الحاج سالم مصطفى لما بذله من جهد مخلص فى مراجعة هذه الحكاوى من حيث التراكيب اللغوية صياغة ومعنى، ولما أمدنى به من مراجع أعانتنى كثيراً على فهم بعض المصطلحات اللغوية الإنجليزية. وأتوجه بشكر خاص إلى الأخ الأستاذ الأديب/ الزاكى عبد الحميد أحمد الذى تفضل بترجمة جميع القصائد الشعرية التى وردت ضمن عدد من هذه الحكاوى، ونقلها إلى العربية فى صياغة شعرية جذابة، خاصة ما بذله من جهد مقدر فى ترجمته الرائعة لتلك القصيدة التى تصدرت (حكاية الراهبة) والتى كتبت باللغة (السوشرية) الصعبة. ولا يفوتنى أن أتوجه بالشكر أيضاً إلى الأخ/ عمار محجوب محمد زكى الذى تولى مشكوراً مراجعة الطباعة وضبطها من النواحى الفنية، وإلى الأخ المهندس/ محمد أحمد أبو القاسم الذى أمدنى بالمقابل العربى المستخدم حالياً للمصطلحات الفنية التى وردت فى (حكاية مهندس المساحة).

إلى هؤلاء جميعاً أكرر شكرى وعرفانى بالجميل، سائلاً الله العلى القدير أن يمتعهم بموفور الصحة والسعادة، وأن يجزيهم عنى خير الجزاء.

محمد أحمد الخضر التوم

٢٠٠٢/١٠/١م



لقد خطرت لى منذ فترة فكرة جمع عدد من القصص التى رواها بعض الرجال والنساء الذين عملوا بالسودان أثناء الحكم الإنجليزى المصرى خلال الفترة من عام ١٨٩٨ حتى عام ١٩٥٦م . ودار بخلدى ما يشبه "حكاوى كنتربرى" (Canterbury Tales) حيث يقوم الأشخاص بسرد قصصهم من خلفية عملهم بالسودان. غير أننى لم أبدأ فى تنفيذ هذا المشروع إلا منذ فترة قريبة نسبياً ، ولم يكن العمل فيه وفقاً لخطة محكمة كما قد يكون مرغوباً فيه ، فقد تم جمع هذه المجموعة من الحكاوى بصورة عشوائية وحسب ما سمحت به الظروف . لربما لم تكن هناك وسيلة واقعية أخرى أفضل من ذلك ، نظراً إلى أن الأحياء الذين عملوا بالسودان فى عهد الإدارة البريطانية السابق أصبحوا محدودى العدد الآن . وتقدم بهم العمر، ذلك أن جميعهم تقريباً قد تقاعدوا فى عام ١٩٥٦م. وعليه مازالت هناك بعض الفجوات التى فضلت ألا أقوم بملئها ، إذ أنه لم يتبق من الأحياء من يتحدث فى مجالات بعينها، أو فى بعض الحالات الأخرى ، شعرت أن بعض من تقدمت بهم السن غير قادرين على المساهمة.

كان أول من تطوع بالمساهمة زملاء فى " لجنة اتحاد متقاعدى حكومة السودان". فمثلاً تم الحصول على حكاية مهندسة الجيولوجيا بالصدفة عندما وجدت فرانسيس ديلانى (Frances Delany) جالسة أمامى فى حفلة غنائية بمدينة باث Bath) ؛ وجاءت حكاية "الطالبة " أثناء حفل زواج ؛ وعلى نحو غير

متوقع ، قدمت لى جوديث روبنسون (Judith Robinson) حكاية والدتها مارى برودبنت (Mary Broadbent) بعنوان "حكاية زوجة" . أما حكاية دنكان وير (Duncan Weir) التى قدمتها أرملته نورا (Norah) فقد كتبت أصلاً لمجلة بلاك وورد ماجزين ((Blackword Magazine تحت الاسم المستعار "أشقر" (Ashgar) ، وهى من الأدب القصصى رغم أنها تستوحى المعرفة والصدق والمعانى الأخلاقية . ثم أعطانى إليوت بالفور (Elliot Balfour) "حكاية مفتش المركز" قبل وفاته بفترة قصيرة للتصرف فيها بما أراه مناسباً .

لقد تم الاحتفاظ ببعض الحكايات الرائعة للأجيال القادمة حتى تساعد على تصحيح غياب القصص التى كان يمكن أن تروى . وأضيف الملحق (أ) للإشارة إلى ما هو متوافر فى أرشيف السودان بمكتبة جامعة درم (Durham) ، وقد تكون قائمة الكتب والمراجع التى اخترتها طويلة نوعاً ما ولكنها قيض من فيض ، ذلك ان المبدأ الذى اتبعناه هو أن نسجل الكتب التى تلقى ضوءً على السودان أثناء حقبة النفوذ البريطانى الرئيسية ، بالإضافة إلى كتب البحوث الأكاديمية حول السودان التى ألفها كتاب بريطانيون وآخرون.

أود أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى جميع الأشخاص الذين ساهموا فى هذا العمل، ووافقوا على أنه فى حالة وجود أى فائض مالى يفوق تكاليف نشر هذا الكتاب، أن يحول لصالح إحدى الجمعيات الخيرية السودانية . كما أود أن أعبر عن عميق شكرى وتقديرى للعمل الذى قام به جيم هودجز (Jim Hodg- es) الذى قرأ كل الحكايات وأكمل مهمة التنقيح الأولى الشاقة للكتاب، وكذلك إلى جينفر وارن (Jennifer Warren) التى تولت طباعة بعض الحكايات الطويلة على القرص ، وإلى جوانا بكلى (Joanna Buckley) التى لولا مساعدتها ما كان ليتم إخراج هذا الكتاب إلى وقت طويل ، ولم تكتف بإخراج النسخة النهائية وطباعتها على القرص فحسب، وإنما قامت كذلك بإعداد الفهرست وقائمة المراجع وساعدتنى كثيراً فى تنقيح النص النهائى.

وفى الختام . لا يفوتنى أن أعبر عن شكرى الحار للبروفسير/ برايان جودلول (Brian Goodall) . وهيثر براونج (Heather Browning) التى تعمل رسامة للخرائط فى قسم الجغرافيا بجامعة ريدنج (University of Reading) وذلك لتوليهما إعداد الخرائط رغم إخطارهما بوقت قصير .

دونالد هولى (Donald Hawley)

ليتل شيفريل، اكتوبر ١٩٧٧م

1

حكاية الضابط الإدارى يوم الانتخابات فى «أم بطيخ»

Sudan Canterbury Tales

بنو حنظل من قبائل الأبالة الرحل ، والقرية الوحيدة الموجودة فى أراضيهم تسمى أم بطيخ رغم أنه لا يوجد من الأحياء من يذكر وجود بطيخ فى هذه القرية، وكل ما هنالك بئر ماء مالح تحيط بها مجموعة من المبانى المستطيلة مشيدة بالطوب الأخضر وترتفع فوق سهل حصوى منبسط ، ويمتلكها التجار القادمون من المدن البعيدة ، وهى عبارة عن سوق تجارى يأتى إليه أفراد بنى حنظل من الصحراء على ظهور إبلهم لشراء احتياجاتهم البسيطة ؛ قليل من البن ، رأس أو رأسين من السكر ، بعض البهارات ، تمباك ، ولربما ، فى حالات الإسراف والتبذير، قطعة قماش يابانى أو مرآة تشيكوسلوفاكية.

لذلك عندما اقترب موعد الانتخابات ، لم يكن هناك مكان آخر يصلح أن نقيم فيه مركز انتخابات دائرة بنى حنظل غير أم بطيخ .

كانت لجنة الإشراف على الانتخابات العامة المسئولة عن " نزاهة وكفاءة سير الانتخابات" تتكون من أشخاص آحاديى التفكير علمتهم خبرتهم أن أفراد القبائل الرحل ليسوا أكثر الناخبين تعاوناً، وأنه لا يوجد بدوى أصيل يعطى أكثر من اهتمام عابر بأسابيع وشهور التقويم، وهو فى الغالب يحسب الزمن من خلال هطول الأمطار أو عندما تحبل نوقه. لذلك إذا أردت إنجاز أى مهمة لدى بنى حنظل، بالذات وفى وقت محدد، فلا بد كما جرت العادة أن تسمح بهامش خطأ لا يقل عن أسبوع تبكيراً أو تأخيراً .

لذلك ، أصدرت لجنة الانتخابات توجيهات باتخاذ " كافة الاجراءات الممكنة للتأكد من أن الناخبين فى دائرة بنى حنظل يدركون أن الواجب العام وحقهم

الديموقراطى يحتمان عليهم الحضور إلى مركز الاقتراع للإدلاء بأصواتهم بين التاسعة صباحا والخامسة مساء من يوم "الاقتراع". وتم نشر هذا الإعلان بين أفراد القبيلة بعد إجراء التعديلات المناسبة عليه ، ولكن يبدو أنه كان أملاً بعيد المنال.

لقد كان من الصعب طبعاً إقناع بنى حنظل بأى نوع من الانتخابات ، ذلك أنه منذ أجيال مضت ظل قائد القبيلة ممثلاً لهم بالوراثة فى جميع الأغراض ، يحرس اهتماماتهم ، ويوجه مسار حياتهم ، فإذا كانت الدولة تريد نائباً لهم ، فليس هناك من هو أحق منه بهذا المنصب . ولذلك تم إقناع القائد من الناحية الشكلية ليسمح لنفسه بالتوقيع بقبول الترشيح كنائب للدائرة فوق توقيعات أخوانه الخمسة أو بالأحرى بصماتهم . وهكذا أصبح القائد مستعداً لمسايرة الدولة ، بل وافق ، ولو مُكرهاً ، على دفع قيمة التأمين القانونى الذى يجب توريده عند الترشيح وقدره عشرة جنيهات، ولكن تخفيضه فيما بعد عند تقديرات الضرائب بنفس المبلغ المذكور لم يكن مجرد مصادفة .

عند اقتراب موعد الترشيح ، تأكد لى أن الأحوال تسير بشكل مرضٍ فى اتجاه أن يكون القائد هو المرشح الوحيد للدائرة . واستمر بنو حنظل يمارسون حياتهم الهادئة كالمعتاد . غير أنه فى صبيحة يوم الترشيح لاحت فى الأفق كتلتان من الغبار، ولم تمض نصف الساعة بعد ذلك حتى وصل إلى البلدة لوريان أحدثا جلبة وضوضاء ، ثم ما لبث أن ترجل منهما رجلان معفران بالغبار. تلى ذلك نشاط محموم بين الدكاكين . وقبيل منتصف النهار بقليل ، ومع اقتراب موعد قفل باب الترشيح حدث ما هو أسوأ ؛ فقد أصبح يتنازع الدائرة مرشحان إضافيان ، أحدهما السيد/عاقل القوم وهو من بين تجار أم بطيخ المعروفين بالخبث والماحكة ، والآخر هو السيد / الستار الحديدى الذى كان مؤهله الوحيد للشهرة هو محاولة فاشلة لابتزاز القائد.

كانت النتيجة الفورية لهذه التطورات أن قام القائد بزيارة رسمية إلى مركز الترشيح حيث طلب استرداد العشرة جنيهات مبلغ التامين . وعندما أبلغ بأن الوقت قد تجاوز منتصف النهار ، ولا يحق له بعد ذلك الانسحاب من الترشيح ، ما كان منه إلا أن غادر المكان دون أن ينبس بكلمة واحدة .

بعد ذلك سارت الأمور فى أم بطيخ من سيئ إلى أسوأ ، فقد بقى فى القرية الرجلان القادمان من المدينة ينظمان حملاتهما الانتخابية باسم حزبيهما، غير أن بنى حنظل لم يكترثوا كثيراً لاجتماعاتهما وخطبهما التى رأوا بفطرتهم السليمة أنها لا تعدو أن تكون من ضمن أكاذيب التجار وأهل البندر، ولكن بالرغم من ذلك استطاع "عاقل القوم" و"الستار الحديدى" أن يقسما القرية إلى قسمين، وبسبب الكراهية المتبادلة تجاه التاجرين المرشحين بلغت حدة المزاج العام أقصى درجات الغليان، وسرت إشاعات بأن هناك رشاوى قد دفعت لبعض الناخبين مقابل الإدلاء باصواتهم.

ولذلك أصبح من الضرورى أن تدار الانتخابات بالطريقة التى تضمن إدلاء كل ناخب بصوته فى سرية تامة، وبذلك يكون شراء الأصوات عملاً غير مربح، خاصة أن بنى حنظل يتميزون بالكثير من الصفات الحميدة اللهم إلا إذا كان الأمر يتعلق بالمال!

وهكذا تم نصب سقيفة ضخمة من البروش وسط حظيرة المواشى بمدخل ضيق فى جانب منها، ومخرج مماثل فى الجانب الآخر، على ألا يسمح لأى شخص بالدخول إلى الحظيرة ما عدا ضابطى الانتخابات اللذين يجب أن يجلسا فى العراء على مرأى من الجمهور فى منتصف الساحة الواقعة بين بوابة الحظيرة ومدخل السقيفة. ويسمح للناخب بدخول الحظيرة بمفرده حيث يقوم ضابط الانتخابات بمراجعة بيانات تسجيله، ثم يسلمه بطاقة خاصة مدموغة بختم الدولة بطريقة يصعب معها محوه أو إزالته.

ثم يدخل الناخب منفرداً إلى داخل السقيفة ليجدها خالية من أى شىء سوى ثلاث صناديق حديدية لكل منها فتحة من أعلى، ومكتوب على كل صندوق اسم ورمز أحد المرشحين الثلاثة. ثم يقوم الناخب بإدخال بطاقة الترشيح فى الصندوق الذى اختاره ويغادر السقيفة، ثم الحظيرة قبل أن يسمح لمن يليه بالدخول.

وبالرغم من كل هذه الاحتياطات لم أكن مطمئناً، ولذلك قررت أن أكون على مقربة من المركز فى يوم الانتخابات لأراقب بنفسى مجريات الأحداث من موقع مناسب خارج أسوار الحظيرة. غير أنه فى آخر لحظة وصلت إشارة عاجلة من لجنة الانتخابات العامة توضح أن وجود المسئولين الإداريين فى مراكز الاقتراع يعتبر تدخلا مباشرا فى حرية الانتخابات، وعليه يتعين على المسئولين الإداريين عدم القيام بأى دور شخصى فى إجراءات التصويت، ولا يسمح لهم حتى بالوجود فى مراكز الاقتراع.

لذلك ما كان منى الا أن أقوم بالشىء الوحيد الممكن ، فاستدعيت الأمباشى "روكوسا" وشرحت له الوضع وعدت إلى كوخى فى أقصى ضواحى القرية. ومن هناك ، ولدهشتى الشديدة ، كنت أرى طوال النهار أفواجا من بنى حنظل تتدفق إلى الحظيرة من كل الاتجاهات ، وقد أتى معظمهم بالطبع على ظهور الإبل ، بينما جاء آخرون على الحمير أو سيراً على الأقدام ، وهذا نوع من التحرك يلجأ إليه بنو حنظل فى حالات الاستعجال القصوى ، ولهم فيه أهازيج ودعابات.

من الواضح إذن أنه كان هناك أمراً ما ، ولذلك فكرت فى شىء واحد فقط يمكن أن يكون قد جذب اهتمام بنى حنظل للتحرك بهذه الطريقة ؛ الا وهو المال ! ولم يكن أمامى إلا الانتظار فى يأس، والاعتماد على كفاءة إجراءات التصويت وفطنة الأمباشى " روكوسا " ، ولذلك بقيت فى كوخى أشغل نفسى

ببعض الأعمال. وفى تمام الخامسة مساء قمت بعمل فتحة فى السور العشبى لأسترق منها النظر، فلاحظت أن بوابات الحظيرة الخمسة مغلقة ورأيت الناس يتسابقون إلى الخلاء الذى تركوا فيه إبلهم. وما هى إلا برهة قصيرة حتى اشتعل الخلاء بنيران صغيرة لإعداد قهوة المساء. عند حلول الظلام تناولت وجبة العشاء وأنا أتساءل: ما هو الوقت الذى تعتبره لجنة الانتخابات العامة مناسبا لظهورى من جديد فى عالم بنى حنظل؟

وفى حوالى الثامنة رأيت ضوء رتينة يشع فى الحظيرة، ثم سمعت ضرباً على الطبول، وما هى إلا لحظات، حتى بدأ الناس يتجمهرون من مختلف أنحاء القرية ليتجمعوا حول أسوار الحظيرة القصيرة، وكان يقف بالقرب من الرتينة أحد الكتبة يقرأ عليهم من ورقة فى يده ، ولكن لم استطع أن أسمع ماذا كان يقول لهم. ثم توقف الكاتب عن القراءة ، وتلت ذلك لحظة صمت أعقبها هدير من الجمهور، ثم سمعت صوت آلاف السيوف تسحب من أغمادها، وأصوات طلقات نارية من ذخيرة مصنوعة محليا يلبد دخانها أجواء الليل، وأمسكت بمسدسى وناديت على الحارس، ثم دلفت إلى خارج الكوخ لأجد نفسى بين ذراعى القائد الذى قال لى والابتسامة تعلو وجهه:(جماعتى الحمد الله مبسوطون)، فقلت له: (الحمد الله) وأنا اشد على يديه وأشعر بكثير من الارتياح.

استمر القائد فى الحديث وهو لا يزال مبتسما: (لقد أمرت بإحضار خروف لك (كرامة)، ولكنى علمت من الأمباشى "روكوسا" أنه فى مثل هذه المناسبة يخشى أن تفسر مثل هذه الهدية - مع كونها تافهة - بتفسير آخر، ولذلك صرفت عنها النظر.

فقلت له: كلامك صحيح، وأشكرك على كل حال، وتكفينى كلماتك الطيبة التى هى مثل الهدية تماما.

فقال : نعم ، أعتقد ان روكوسا أعلم منا بهذه الأمور ولذلك أعطيناه الخروف لأنه أدار الانتخابات بجدارة ودون تكاليف ، وداعاً أسعدت مساءً .

إستمر الاحتفال إلى ساعة متأخرة من الليل ، وعندما خرجت فى الصباح بدت قرية أم بطيخ كأن لم تجر فيها أية انتخابات ، فقد اختفى بنوحنظل فى الصحراء بأكثر من السرعة التى أتوا بها ، وكان يمكن أن يعتبر كل ذلك حلماً لولا آثار رُكَب الجمال على حصباء القرية ، وآلاف الدوائر السوداء الصغيرة التى تمثل بقايا الفحم الذى أعدت عليه القهوة بالأمس ، إضافة إلى خليط من نكهة القهوة ورائحة بول الجمال يفوح فى الجوّ.

بعد ذلك خرجت بالإبل يرافقنى "روكوسا" جنباً إلى جنب لمدة نصف ساعة من أجل ترويض مفاصلها والاستمتاع بنسمات الصباح. وعندما توسطنا الخلاء تركناها ترعى على راحتها ثم أشرت إلى الأمباشى "روكوسا " بأن يأتى إلىّ، وعندما حضر قال لى : (سيدى لقد ظللت أفكر كثيرا فى موضوع هذه الانتخابات لأننى ناخب أيضاً. ولان الحكومة تقول أن التصويت واجب ، كذلك أنا شرطى يجب علىّ أن أؤدى واجبى ، وهذا هو ما فعلته.

لا يخفى عليك بالطبع أن إخواننا بنى حنظل لا تهمهم الانتخابات طالما أن القائد هو الذى يمثلهم فى كل الأمور، وتعلم أيضا انه لم يفت عليهم أنهم إذا لم يصوتوا للقائد فإنهم سيجدون أنفسهم مع نائب لهم فى برلمان الدولة لم يحلموا من قبل أن يكون قائداً بينهم.

ومنذ أن علمت أنت بذلك وتشككت فى الرجلين اللذين جاءا من المدينة فى يوم الترشيح لتسجيل أولئك الحمارين ، "عاقل القوم" و"الستار الحديدى"، فقد أمرت بعمل تلك الراكوبة (السقيفة) الجيدة لينحصر التصويت داخل زريبة (حظيرة) المواشى، وبذلك يتم كل شيء بعدل وكفاءة كما تريد الدولة له أن يكون.

لقد فوجئت كثيراً عندما رأيت أعداداً كبيرة من إخواننا بنى حنظل قد حضروا إلى التصويت مع أننى كنت سأندهش كثيراً إذا زاد عدد الحاضرين عن اثنى عشر شخصاً. ولذلك عندما أمرت الدولة بان تبقى انت فى كوخك وتترك لى الأمر باكمله، لم يكن أمامى غير أن أبذل كل ما أستطيع من جهد من أجل التأكد من سلامة وكفاءة عملية الاقتراع حتى لا تفوت الفرصة على انتخاب القائد. ألم يدفع القائد للدولة عشر جنيهات من أجل أن يتم انتخابه؟

لقد علمت أن الرجلين وقرديهما "عاقل القوم"، و"الستار الحديدى" قد اشاعوا فى القرية أنهم سوف يدفعون مبلغ خمس شلنات لأى شخص من بنى حنظل يعد بإعطاء صوته حسب ما يريدون. عندما بلغنى ذلك اعتقدت فى البداية أن التدابير التى قمت أنت باتخاذها لعملية الاقتراع سوف تفسد عليهم خطتهم، ولن يكون هناك ما يمنع بنى حنظل (وهم بحمد الله ليسوا بطيئين فى فهم المسائل المتعلقة بالمال) من قبول المبلغ والتصويت للقائد بالرغم من ذلك. هذا هو الذى فكر فيه بنو حنظل، وهذا هو الذى جعلهم يأتون إلى أم بطيخ بالمئات.

غير أن القردين عاقل القوم، والستار الحديدى لم يكونا بهذه البلادة، فقد أخبرا كل ناخب قابلاه بأنه من الضرورى أن يذهب إلى مكان الاقتراع ليحصل على بطاقة التصويت، ولكن عند دخوله إلى مكان الاقتراع يتعين عليه الا يدخل البطاقة فى أى من الصناديق الثلاثة، وإنما يبقى فى الغرفة لبعض الوقت ريثما يخفى البطاقة فى مكان آمن داخل ملابسه. وبعد ذلك كل من يحضر بطاقته إلى عاقل القوم أو الستار الحديدى ، كيفما ما يكون الحال، سوف يتسلم خمسة شلنات.

لقد كانت الفكرة كما تلاحظ الا يتم طوال النهار إدخال أية بطاقات فى الصناديق وإنما تسلم كلها إلى الستار الحديدى أو زميله - بعر الجمل - عاقل

القوم. وحيث أن كليهما ناخبان ، فإنهما عندما يذهبان للإدلاء بصوتيهما فى حوالى الساعة الخامسة مساءً سيكونان قد أخفيا عشرات بل مئات البطاقات داخل ملابسهما ليقوم كل منهما بسرعة بحشر ما جمعه فى صندوقه.

لقد فكرت فى الأمر ملياً، واتضح لى أن أصوات القائد بهذه الطريقة سوف تكون قليلة. وتملكتى حيرة شديدة ، ذلك انه بالرغم من أن هذين القردين قد ضمنا هزيمة القائد، إلا أننى لا زلت أتساءل كيف ضمن أحدهما هزيمة الآخر. غير أننى سمعت خلال النهار إشاعة أخرى بأن عاقل القوم قد رفع سعر الصوت الواحد إلى ستة شلنات بدلا عن خمسة.

لم يكن صعبا علىّ اكتشاف المكان الذى كان يقوم فيه عاقل القوم والستار الحديدى بجمع البطاقات من الناخبين، ولكننى قررت عدم التدخل فى ذلك الوقت، ذلك أن بنى حنظل سوف يربحون فى النهاية من هذه العملية، خاصة وأن تلك السنة كانت صعبة بالنسبة لصغار الإبل. وهكذا عندما اقترب المساء ارتديت جلبابا أبيض لأغطى به الزى الرسمى، ثم ذهبت إلى المكان الذى كان يختبىء فيه عاقل القوم لشراء الأصوات حيث وجدت أمامه كوما من البطاقات ، فما كان منى إلا أن أكشف له عن شخصى، فارتعد من الخوف خاصة عندما أخبرته بأن الدولة قد جعلت عقوبة التزوير والغش فى الانتخابات عشر سنوات سجناً.

أخذ عاقل القوم يتوسل إلىّ أن أرحمه، بل قدم لى جنيها كرشوة، ولكنى رفضت توسله، وقمت بجمع البطاقات التى أمامه فى كيس من القماش وأخبرته بأننى سوف اقدمها كمعروضات عند محاكمته. وسألنى وهو يكاد أن يبكى عمن أوشى به، فقلت له إن صاحبه الستار الحديدى هو الذى أفشى بالمعلومات.

وبعد ذلك ذهبت إلى مكمن الستار الحديدى لأجده مشغولاً بشراء البطاقات

رغم أن ما جمعه لم يكن بحجم كوم عاقل القوم. أخبرته بان عاقل القوم قد فتح بلاغا ضده لانتهاكه قوانين الانتخابات، وقمت ايضا بوضع ما جمعه من بطاقات داخل الكيس.

ثم ذهبت بعد ذلك إلى مركز الاقتراع للإدلاء بصوتى حيث وضعت بطاقتى فى صندوق القائد الذى سوف يظل دائما قائداً لى ولجميع أبناء قبيلة بنى حنظل، وفى ذات الوقت بدأت فى وضع البطاقات الأخرى التى حصلت عليها من الرجلين فى صندوق القائد.

لقد استغرق ذلك بعض الوقت لضيق فتحة الصندوق . وبينما كنت أقوم بهذا العمل كنت أفكر فى أن الدولة تريد أن يتم كل شىء على ما يرام، كذلك فكرت فى الرجلين اللذين قد أرسلا إلى أم بطيخ لينالا أصوات الناخبين لحزبيهما، وفى أنه سيكون هناك عدد من الناس فى أم بطيخ (مثل عاقل القوم والستار الحديدى وأهلهم) لن يصوتوا للقائد. لذلك قمت بوضع بعض البطاقات فى الصندوقين الآخرين بعد أن تأكدت من امتلاء صندوق القائد وعدم تقبل فتحة صندوقه للمزيد من البطاقات.

بعد ذلك واصلت السير فى صمت لبعض الوقت و"روكوسا" إلى جانبى، وكان الأمباشى روكوسا يترنم بنغم عاطفى ثم قال لى: (طبعاً لم تعد لدينا أية معروضات نقدمها فى محاكمة عاقل القوم والستار الحديدى، ولذلك يجب علينا إطلاق سراحهما، ولكنى لن أخبرهما بذلك الآن فلا أحد من هذين القردين لديه العقل الذى يستطيع أن يفهم به أن البينة ضده قد تلاشت بذهاب البطاقات إلى صندوق قائد القبيلة، ولكن لا ضير فى ذلك، فليظلا خائفين لبعض الوقت من عقوبة العشر سنوات سجنا).

كنت أميل إلى موافقة الأمباشى روكوسا فى رأيه، ولكن جريا للعادة صححته قائلا: (إن العقوبة لن تتجاوز ستة اشهر كحد اقصى يا أمباشى)

ولكنه تظاهر بانه لم يسمع ما قلت، ورجع ببعيره إلى مكانه الرسمى خلفى، وعندما التفت إليه وجدته يعالج أسنانه بمقدمة خنجره الحنظلى ذى الشفرة المزدوجة - وهو إنجاز يندر أن يتم على ظهور الإبل.

بعد عدة أيام وصل البريد الرسمى، وكانت من بينه برقية من لجنة الانتخابات أكدت فوز القائد عن دائرة بنى حنظل، واختتمت بالآتى:

انقلوا لكافة المعنيين شكر وتقدير اللجنة للطريقة التى تم بها تنفيذ توجيهات وتعليمات اللجنة، خاصة فى تلك الدوائر النائية التى تعتذر اللجنة عن عدم توفير مشرفين لها لتنظيم الانتخابات نظراً لصعوبة المواصلات. قف. إن العدالة والكفاءة اللتين أديرت بهما الانتخابات هما بفضل كفاءة وتفانى الإدارة والناخبين. انتهى.

كما وصل خطاب من ليروكس، وهو شخص محدود الذكاء يعمل مسئولاً إدارياً لمنطقة مجاورة أكثر تقدماً، يقول فيه:

..كانت الانتخابات عبارة عن مهزلة، فلقد أوقفت الناظرة القديمة آمنة عن العمل لأنها كانت تقوم بتحفيظ البنات أناشيد بذيئة عن جميع المرشحين ما عدا السيد ابنعوف الذى هو ابن أخيها. كما سرت إشاعة بأن بعض المرشحين قد اشتروا الأصوات، ولا أعرف كيف تسنى لهم ذلك بالرغم من تطبيقنا لنظام الغرفة ذات الحواجز الحديدية عند الإدلاء بالأصوات. لقد كان الإقبال على التصويت بنسبة ١٠٠% بما فى ذلك جميع المرضى فى المستشفى، غير أن الدكتور ماكى العجوز كان يتميز غيظاً لأنه كان قد طلب طائرة الإسعاف التى قطعت طول المسافة إلى هنا من أجل نقل اثنين من الحالات الحرجة"، وعندما وصلت الطائرة لم يجد المريضين بالمستشفى لأنهما قد ذهبا إلى التصويت، ولذلك عادت الطائرة خالية الوفاض.

كذلك ألقت الشرطة القبض على شخصين وجدتهما متلبسين بشراء

البطاقات، وهما الآن يواجهان تهمة التزوير وعقوبتها ستة اشهر سجنا. أما البطاقات التى عثر عليها معهما فعددها يقارب الألف، وسوف تعرض فى المحكمة كمعروضات. تقوم لجنة الانتخابات العامة حاليا باتخاذ الإجراءات اللازمة لإرسال ما يسمى بـ " لجنة التحقيق الخاصة " لإجراء التحريات اللازمة حول الموضوع. كما تريد اللجنة أن تحقق فى أسباب تجاهل تعليماتها القاضية بضرورة الابتعاد عن مكان الاقتراع. إنى أسألك: كيف كنت أستطيع مغادرة مكان الاجتماع مع هذا التزوير والاحتيال اللذين كانا يجريان فى الساحة.

يقولون أنه سيوجه سؤال فى مجلس العموم بشأن " تدخلى فى سير انتخابات ديمقراطية". إننى أحيانا أكاد أحسدك وعربك الرحل بإبلهم كريهة الرائحة. فقد سمعت أن كل شيء سار على ما يرام فى قرية أم بطيخ، وتم انتخاب القائد بأغلبية ساحقة. ولكنى لا زلت استغرب كيف استطعت إقناع بنى حنظل بالحضور للإدلاء بأصواتهم؟!

بالمناسبة، لقد تسلمنا للتو طلباً من الأمباشى روكوسا للحصول على قطعة أرض بمساحة كبيرة بالمنطقة الصناعية لدينا. إننى استغرب من أين يحصل مثل هؤلاء الأشخاص على المال؟ يبدو لى أن روكوسا ، لكونه من بنى حنظل، لا بد أنه يملك أعداداً ضخمة من الإبل، ولكن ربما التحق بالشرطة كوسيلة للتهرب من زوجة "كثيرة الشكوى" أو شيء من هذا القبيل.

دنكان وير (Duncan Weir)

■■■

2

حكاية
مفتش الزراعة

Sudan Canterbury Tales

التحقت بخدمة مصلحة الزراعة والغابات بالسودان الإنجليزى المصرى خلال العقد السابق لاستقلال السودان.

إن الحكاوى هى زاد المسافرين، ولذلك فإن حكايتى ستكون عن السفر أكثر منها عن الزراعة ، خاصة واننا كموظفين بريطانيين كنا نسافر كثيراً طوال أيام الحكم الثنائى. لقد كان إلزاما علينا أن نقضى الإجازة السنوية فى الوطن، وكان القليلون منا يعملون فى أماكن يسهل الوصول إليها مثل الخرطوم، لذلك كان التنقل مرة فى كل عام، بين المملكة المتحدة وبعض الأصقاع النائية فى السودان، يعتبر فى حد ذاته سفراً كافياً . بالإضافة إلى ذلك كان أغلبنا بحاجة إلى التحرك كثيراً من خلال عملنا اليومى، وكان القليلون منا ممن يعتبرون بناة للإمبراطورية المزعومة. مع أن الإمبراطورية قد بدأت تضمحل بسرعة. يتحركون باكثر مما يفعل مفتش زراعة ناشئ عازب فى مناطق نائية كجبال النوبة والاستوائية. بالمناسبة، هذا المسمى الوظيفى بمدلوله الإضافى الأنجلو/ هندى يصف فقط ما كان يصطلح عليه فى نظام الخدمة الاستعمارى بالضابط أو المسئول الزراعى، ولكن أياً كان المسمى تظل الحقيقة باقية؛ أنك لن تستطيع أن تفعل الكثير فى مجال التفتيش الزراعى دون أن تكون متحركاً باستمرار أكثر من جلوسك وراء الطاولة فى المكتب، وفى كل الحالات كنا نعتبر أنفسنا الأفضل فى نظام الخدمة الاستعمارى.

بالنسبة لى كانت البداية فى شهر سبتمبر من عام ١٩٤٦ على ظهر السفينة أنديز(Andes) التابعة لشركة بى آند أو (P & O) الملاحية والتى أخلى

سبيلها للتو من العمل كناقلة جنود أيام الحرب، ومع أنها كانت لا تزال معدة للقيام بهذا الدور، إلا انهم رحمة بنا قد شغلوا فقط نصف الأسرة الاثنين والستين المزدوجة رأسياً والتى كانت مكدسة فى كابينة عادية . لقد أبحرت (الأنديز) فى هذه الرحلة من ميناء ليفربول بعد تحويلها قبل أيام من ميناء تيلبرى. ما كنا نعرف لماذا تم هذا التحويل، ولكن علمنا بالخبر عن طريق التلغراف بعد أن شحن عفشى عليها الذى كان يتكون من قطعة واحدة عبارة عن صندوق خشبى يحتوى على سرير خلوى، وطاولة قابلة للطى، وكرسى متنقل، وحقيبة سفرية، وحمام من المشمع، وغيرها من الأمتعة المماثلة التى تم شراؤها مؤخراً من محلات لون آند ألدر (Lawn & Alder) فى شرق لندن. وكما جرت العادة فى ذلك الوقت، فقد تمّ شحن العفش بالسكة الحديد إلى تيلبرى بعد أن ألصقت عليه ديباجة كتب عليها " لا حاجة إليه أثناء الرحلة " ليسبقنى مقدماً إلى السفينة كعفش صحبة راكب. كانت هناك دائماً قاعدة ذهبية ألا يفارق الإنسان عفشه قط، وهى حكمة اكتشفتها فيما بعد من خلال العديد من التجارب المريرة الأخرى، ولكن فى هذه المناسبة بالذات فقد اتسم هذا النظام بعدم المرونة، ولكن لم تكن هناك فى الواقع أية وسيلة أخرى يمكن استخدامها. ومع ذلك كان مدهشا أن جاءت النهاية سعيدة بعد ثلاثة أشهر، وكانت معجزة أن وصل صندوق العفش إلى الأُبيض سليماً تماماً، وفى الوقت المناسب مع أعياد الكريسماس.

لقد استغرقت الرحلة من ليفربول إلى الإسكندرية حوالى ثمانية أيام، أعقبتها رحلة أخرى مثيرة بالسكة حديد المصرية إلى مدينة الشلال على النيل، وهى ميناء نهرى فى أقصى حدود مصر الجنوبية تقوم بخدمتها باخرة نهرية تابعة للسكك الحديد السودانية إلى وادى حلفا على حدود السودان فى الجنوب. تعرضت الرحلة عبر مصر إلى بعض التأخير لعدة أيام فى القاهرة

فى انتظار تأكيد الحجز قطار/باخرة/ قطار إلى الخرطوم، مع أنه فيما بعد أصبح بإمكان السواح القيام بمثل هذه الرحلة بقليل من التكلفة. أما بالنسبة لنا كموظفين مرتبطين بالعمل فى السودان التقينا على ظهر السفينة انديز، وكان أكثرهم قادمين مثلى كموظفين تحت التجربة لأول مرة . إضافة إلى عدد آخر من الموظفين القدامى الذين كانت تعتبر هذه الرحلة بالنسبة لهم مجرد روتين . فكان الأمر برمته يبدو شاقاً غير محبب للنفس .

فى الواقع أننى استمتعت بقضاء يوم أو يومين فى مصر، ولكن بعد ذلك قصرت نقودى، مما كان له آثار محبطة على التجربة. كانت المشكلة فى أنه بالرغم من أن مصروفات السفر للإجازة ذهاباً وإيابا، أو عند التعيين لأول مرة، كانت تسترد لاحقاً. إلا أنه فى العادة ما كان يمكن المطالبة بها إلا بعد وصول الموظف إلى موقع العمل. وبما أننى كنت بحاجة إلى بعض المال فى الطريق، فقد حلّت المشكلة جزئياً بزيارة إلى مكتب وكيل السودان بالقاهرة الذى تكرم وأقرضنى مبلغاً متواضعاً، ولكن مع أنه كان لدى تذاكر السفر بالقطار والباخرة إلى الخرطوم، إلا أننى كنت مواجهاً بسداد فواتير الميز للأيام المقبلة طوال الرحلتين بالقطار والباخرة، ولذلك كان لابد من الاقتصاد فى المعيشة. هذه التجربة بالنسبة لشخص قادم مباشرة من الجامعة (ومعتاد كذلك على أغذية أيام الحرب) لربما لم تكن قاسية كثيراً، ولكنى تأسفت أنه فى السنوات اللاحقة ، وفى الأوقات التى كانت أكثر رخاء وبحبوحة، لم تتح لى الفرصة مرة أخرى (لأسباب سياسية أساساً) للسفر مرة أخرى بالطريق البرى عبر مصر عند الذهاب والعودة من الإجازة.

لم تنته رحلة عام ١٩٤٦ بعد ، فلم يزل هناك ما كان يسمى "الانتقال" من السكة حديد إلى النهر فى مدينة الشلال. لقد سمعنا أن مستوى النيل هناك كان منخفضاً جداً، وكان علىّ أن افهم أن نهر النيل العظيم، بالرغم من كونه

أحد عجائب الدنيا الطبيعية، نادراً ما يكون فى المستوى الحقيقى، إذ كان دائما يبدو إما عاليا جداً، أو منخفضاً جداً فى نقطة ما على طول مجراه العظيم. وبما أنه كان منخفضاً جداً عند مدينة الشلال فى ذلك الوقت ، فكان معنى ذلك أن باخرة سكك حديد السودان التى ستلاقى القطار الذى كان يقلنا من القاهرة سوف ترسو على بعد ميل تقريبا من محطة السكة الحديد المصرية، ولو أنه بعد بناء السد العالى فى السنوات الأخيرة ، وإنشاء بحيرة ناصر قد طرأ تغيير جذرى على الطبوغرافيا والحدود الدولية فى هذا الجزء من وادى النيل ، ولكن فى عام ١٩٤٦ كانت مدينة الشلال مجرد قرية نهرية غير جذابة داخل الحدود المصرية. كان النزول من محطة الشلال إلى الباخرة السودانية، بأفراد طاقمها المضيافين الأكفاء، يشكل فى واقع الممارسة الفعلية النقطة التى يفارق فيها الشخص الأراضى المصرية ويدخل منها إلى السودان، حيث كنا أثناء الساعات القلائل الماضية، والقطار المصرى المنهك بالسفر يشق طريقه عبر الصحراء الشرقية فى جو حار أغبر، نتجاذب أطراف الحديث حول متعة تلك اللحظات القادمة.

بدءً، وبسبب انخفاض مستوى مياه النيل كان يتعين أن يكون الانتقال إلى الباخرة سيراً على الأقدام، أو باستخدام أية وسيلة مواصلات محلية تكون معروضة بالأجرة . وكان ذلك من بين أشياء أخرى يعنى بالضرورة حدوث معركة مع جماعة الحمالين المصريين، ولذلك عندما وصل بنا القطار إلى نهاية الخط، وبينما كانت الباخرة السودانية لا تزال تبدو بقعة صغيرة فى الأفق، ثم توقف بعيداً، إذا بالحمالين ينزلون علينا كسرب من الجراد ...

والآن، وبالرغم من ذلك الصندوق الكبير الذى أشرت إليه آنفاً والذى كنت آمل أن يكون حينئذ فى أعالى البحار، مع أننى كنت أخشى أن يكون لا يزال قابعاً على جانب الرصيف فى ميناء تيلبرى ، فقد سافرت بكمية من الأمتعة

الأخرى التى كانت تفوق ما يستطيع أن يحمله شخص بمفرده، وتشمل صندوقاً أسود للملابس من الصفيح اليابانى الصلب، وصندوقا كبيراً آخر من عهد ما قبل الحرب، وكان كلاهما يحمل اسمى مكتوباً بأحرف كبيرة بالطريقة التقليدية القديمة، وكلاهما كانا يرافقانى دائماً طوال مدة خدمتى فى السودان، ومازال كلاهما يستريحان فى شيشستر (Chichester) بعد أن أحيلا إلى التقاعد. وفى تلك اللحظة التى أكتب عنها الآن، كان هذان الصندوقان وأمتعتى الأخرى يتم تحميلها بسرعة على عربة كارو معطوبة يجرها حمار دون أدنى اعتبار لرغبتى، لينطلق بها بعد ذلك إلى قرية الشلال التى كانت فى الاتجاه المضاد تماماً للباخرة النهرية. لذلك وفى ذهنى تلك القاعدة الذهبية بعدم مفارقة الشخص لمتاعه، ما كان أمامى إلا أن أهرول مسرعاً فى أعقابه.

لقد كان الحل الوحيد لهذه المشكلة والذى لم يكن منه مفر، هو دفع مبلغ من المال أدى إلى استنزاف، بل كاد أن يقضى على مالى الإحتياطى الضئيل. الآن، وقد أنزل متاعى من عربة الكارو فى وسط بلدة الشلال، فى الوقت الذى كانت الباخرة تطلق صافرتها الأخيرة معلنة موعد المغادرة الوشيك، ونظراً لضآلة معرفتى باللغة العربية، فقد استسلمت للابتزاز ووافقت على دفع مبلغ طائل حتى استكمل نقل متاعى مرة أخرى من وسط البلدة إلى الباخرة المنتظرة فى عرض النهر. ورغم أن القوة هى جوهر المساومة، إلا أننى لم أكن أملك منها إلا القليل، ومع ذلك أرانى قد حققت بعض الانتصار بدفعى نصف المبلغ مقدماً لأقوم بسداد ما تبقى عند الوصول إلى الباخرة. وهناك استقبلنى عند ممشى الباخرة كبير المضيفين، وكان رجلاً ضخم الجسم ذا بشرة سوداء فاحمة، وهو أول سودانى أقابله فى حياتى، حيث أجرى تفاوضا سريعاً مع صاحب العربة الكارو لصالحى.

برغم ما جرى ، فإننى فى تلك اللحظة كنت قد دخلت السودان فعلاً وفى جيبى خمسة وعشرون قرشاً فقط ، وهى راسمال لا يعتبر سالباً تماماً ولو أنه

يقترب من ذلك، ولكن بمساعدة المبلغ الذى اقترضته من أحد زملائى الجدد (سيمور جراى Seymour Gray ، ذلك الرجل الحزين المؤثر الذى كان يعمل أيضاً فى مصلحة الزراعة والغابات) تمكنت من الوصول إلى الخرطوم دون أن أجوع فى الطريق.

كانت محطتى الأولى هى مدينة تلودى فى جبال النوبة، التى كانت فى يوم ما مقراً لرئاسة المديرية ولها مديرها الخاص، أما الآن فقد أصبحت مجرد بلدة نائية ضمن مديرية كردفان. عند وصولى، كان جون فيلبس (John Phil-lips) مساعد مفتش المركز موجوداً، ولكن لم يلبث أن غادر تاركاً لى منزل مدير المديرية السابق بأكمله وأصبحت الأجنبى الوحيد لمسافة عدة أميال. كان العمل المناط بى هو تشجيع إنتاج القطن كمحصول نقدى من خلال دورة زراعية مكرسة أيضاً لزراعة بعض المحاصيل الغذائية، ولكن ليس بمستوى مشاريع القطن المروية الكبرى فى أماكن أخرى من البلاد، وذلك عن طريق حواشات صغيرة يقوم بزراعتها الأهالى البسطاء الذين كانوا يفتقدون كل شىء ولا يملكون حتى قطعة من القماش.

كان السفر أثناء موسم الجفاف، الذى يمتد إلى حوالى تسعة أشهر، يتم باستخدام العربات التى تسير على الطرق التى تشق أراضى القطن السوداء الصلبة، والتى لم تكن تلقى سوى معالجة سطحية بسيطة، ولذلك أصبحت وعرة ومتعرجة بمرور الزمن، مما كان يسبب ارتجاج العظام للمسافرين. وكان العلاج الوحيد لذلك، وفقاً لحكمة مأثورة، هو قيادة السيارة بأقصى سرعة ممكنة! كانت العربة المخصصة لمفتش الزراعة بتلودى عبارة عن شاحنة من نوع فورد العتيق ماركة ما قبل الحرب حمولة ثلاثة أرباع طن ومحرك قوة ١٢ حصان، وهى نموذج للعربات التى كانت مستخدمة فى الأسطول الحكومى آنذاك. ويتم استيرادها بالشاصى والمحرك فقط، إضافة إلى غطاء المحرك

والزجاج الأمامى الحاجب للريح ليتم تصنيع بقية اجزاء الجسم محلياً من الحديد المُزَوَّى والألواح الفولاذية. وفى العادة يتسع الجزء الأمامى لهذا النوع من العربات لثلاثة أشخاص، وهو مسقوف بالمشمع أو المعدن وبدون أبواب. اما الجزء الخلفى فعبارة عن مسطح بجانبين منخفضين وغير مسقوف مما يسمح بدخول كمية وافرة من الهواء الطلق الذى يعتبر شيئاً هاماً بالنسبة للأحوال المحلية. كان هذا النوع من العربات مناسباً جداً للسفريات الطويلة (فى السودان لا يطلق عليها لفظ "سفارى"، راجع الملاحظات التى كتبت مبكرا حول الخدمة الاستعمارية)، برفقة خادم أوخادمين، ومعدات سفرية كاملة لاستخدامها فى الاستراحات غير المجهزة. وبالرغم من خشونة ارتداد يايات هذا النوع من العربات، ومع أن تنجيد المقعد كان مجرد وسادة محشوة قطناً، إلا أننى كنت استمتع بقيادة العربة المخصصة لى، خاصة بعد أن أتقنت استعمال (الكلتش) مع (ناقل الحركة) الثلاثى السرعة. وكان ذلك يشبه الركوب على قاطرة الملاهى التى يقودها الشخص بنفسه مستنداً على عجلة القيادة بدلاً عن الجلوس بجانب السائق معرضاً جسمه للشد والجذب من أثر الصدمات والمنعطفات المفاجئة.

بالرغم من مرور خمسين عاماً الآن، إلا أنه لا زال يتراءى لى منظر ذلك الطريق (كان مجرىً أكثر منه طريقاً) الذى يبدأ من مدينة الأبيض وينعطف جنوباً عكس حركة عقارب الساعة لمسافة ٢٠٠ ميل شاقاً أشجار المسكيت وغيرها من الشجيرات، ومارآ بالدلنج، ثم كادوقلى، إلى تلودى ليلتقى بطريق بديل ويستكمل مسافة ٢٠٠ ميل أخرى، ثم يعود إلى الأبيض ماراً برشاد، وأم روابة، والرهد. وكانت حركة المرور فى هذا الطريق تقتصر على الشاحنات التى تأتى إلى السوق محملة بالمؤن أو بالات القطن ، ولا زلت أذكر ندرة استخدام الطريق من قبل الآخرين خاصة فى تلك الليلة التى شعرت فيها

بمتعة قيادة العربة تحت ضوء القمر لمسافة لا تقل عن خمسين ميلاً دون أن أشعر بحاجة بتاتاً إلى استخدام أنوار السيارة، وكان ذلك مدعاة لتقوية البصر ليلاً بما يكفى تماما لمتابعة الطريق.

غير أنه بالرغم من ذلك لم يكن الطريق يخلو من الخطر أحياناً ، خاصة فى الأجزاء الشمالية من المركز ، وذلك بسبب الأعطال التى كانت تحدث من جراء طبيعة تربة القطن حيث الرمال الناعمة، وأحيانا كثبان الرمل المتحركة فى بعض الأماكن الأخرى. وعندما يحدث ذلك، فسرعان ما يصاب السائق بالعجز، بل فى بعض الأماكن يصبح أمهر السائقين عاجزاً تماماً . المهارة فى هذا السياق تعنى القدرة على الاحتفاظ بالتوازن الصحيح بين سرعة دوران المحرك وسرعة السيارة على الأرض لأجل تفادى دوران العجلات فى فراغ. وكالعادة لا تلبث العربة أن تعتدل فى طريقها وتواصل سيرها مرة أخرى . وتحضرنى الآن، وأنا أحس بالخجل، إحدى المناسبات التى اتخذت فيها الأحداث منحىً آخر خطيراً.

كان لدينا عدد من محالج القطن فى منطقتى كادوقلى و تلودى، وكانت هذه المحالج تتوقف عن العمل بعد لقيط القطن وبيعه إلى المصانع فى نهاية الموسم، حيث يتم بعد ذلك ضغط القطن المحلوج بالمكابس فى بالات زنة ٨٠ رطلا للبالة الواحدة باستخدام الهواء المضغوط، ثم يتم إرساله شمالاً إلى سوق المزاد بالخرطوم. كانت هذه المحالج مملوكة للحكومة وتحت إشراف مهندس ميكانيكى داهية يدعى بيل باس (Bill Bass) الذى كان يأتى إلينا مع بداية الموسم، ويظل متنقلاً باستمرار بين المحالج المختلفة.

ونظراً إلى سنه ووضعه ـ كان فى مقام والدى ـ ودون التطرق إلى مستلزمات عمله ، فقد حصل بيل على سيارة بيك آب من نوع فورد (V-8) تتميز عن سيارتى والسيارات الأخرى بأنها أحدث صنعاً وأكثر راحة ، وكان دائماً يخشى

أن تصاب بضرر بسبب إهمال السائقين، أو أن تضيع منه باستيلاء الآخرين عليها. وفى إحدى السنوات ، وقبل أن يسافر بيل فى إجازته السنوية ، استطاع أن يوصدها فى أحد محالجه وجعل موظفيه يقسمون على أن يكتموا سر المكان الذى أخفى فيه المفتاح. غير أنه فى هذه السنة رأى أنه لربما يكون من الأسلم أن يترك السيارة تحت رعايتى خوفاً من حدوث أى مكروه لها. واستمر الحال على ما يرام لعدة أسابيع إلى أن استدعى الأمر قيامى بمأمورية عاجلة إلى رئاسة المديرية بالأبيض، وقادنى تطلعى إلى المزيد من الترف والراحة فى الطريق إلى أخذ سيارة بيل فى هذه الرحلة. ولدى ابتعادنا عن الطرق المعتادة بالقرب من تلودى، ودخولنا فى أحوال شبه صحراوية فى الشمال، قابلتنا بعض الكثبان الرملية بعد نهاية يوم طويل من السير. وبعد قليل، ونتيجة لدوران عجلات السيارة بسرعة شديدة (خطأ تشغيلى بلغة اليوم) ازدادت حرارة ناقل السرعة ليتدفق منه فجأة سيل من الزيت الحار على أرضية السيارة. ولحسن الحظ مرت بنا شاحنة تجارية قطرتنا إلى الأبيض فى خزى ومذلة، حيث أمكن تركيب ناقل سرعة جديد لعربة الفورد (V-8) لدى ورشة الحكومة هناك ، وحسب علمى لم يبلغ بيل باس بهذه الحقيقة المرة أبداً.

كما ذكرت آنفاً ، كانت الطرق فى منطقة جبال النوبة تصلح للاستخدام أثناء موسم الجفاف فقط، أما فى موسم الأمطار اعتباراً من حوالى شهر أبريل إلى شهر يونيو فتكون مغلقة ليس بموجب قانون حكومى، وإنما لأسباب عملية تتمثل فى عدم وجود جسور، ولذلك وبمجرد هطول الأمطار تمتلئ مجارى المياه وتنقطع جميع طرق المواصلات بالعربات. كان الموظفون البريطانيون أثناء هذه الفترة يحاولون إيجاد وسيلة لمغادرة المنطقة، إما بقضاء الإجازة فى بلادهم، أو بالسفر فى مأموريات خاصة إلى مكان آخر وإذا تعذر ذلك، فغالباً ما يخلدون إلى الاستقرار فى أماكن عملهم. أما بالنسبة لى ، فلم أكن مستحقاً

لإجازة فى سنتى الأولى من الخدمة ، ولذلك قضيت موسم أمطار عام ١٩٤٧ فى جبال النوبة، مما أتاح لى الفرصة كزراعى لمشاهدة ومتابعة نمو المحاصيل ولأكون "فى موقع الحدث" كما كانت تقول لنا السيدة ثاتشر عندما عملت فيما بعد ضمن موظفيها فى ١٠ داوننج ستريت مقر الحكومة البريطانية. كان ذلك بالنسبة لى عملاً بالفطرة، ولكنه كان يعنى التجوال فى المنطقة ركوباً على الدواب وليس على المركبات.

كان السفر بالخيول أو الجمال فى المناطق الشمالية من المركز هو الدعامة الأساسية للعمل فى مطلع سنوات الحكم الثنائى، ولكن بحلول عام ١٩٤٧ بدا يتناقص تدريجياً إلى أن انتهى تماما فيما بعد ذلك بقليل، ولا أذكر فى الواقع أننى قد قابلت أى شخص قام بجولة بالخيول أو الجمال فى أى وقت بعد ذلك. كانت اللوائح الرسمية فى تلك السنوات تسمح بصرف "بدل سايس وعلف" لغاية ثمانية خيول حسب مقتضيات العمل، بالإضافة إلى امكانية اتخاذ تدابير أخرى لأجل الحصول على قروض بدون فوائد لتغطية المشتريات الأولية، ورغم ذلك لم أستطع الخروج أبداً بحملة كاملة من ثمانية خيول، غير أنه مع بداية الأمطار فى شهر أبريل تمكنت بعد مجهود من تجميع ستة أو سبعة خيول، وكان واحداً منها يصلح للركوب. أما الأخرى، ومن بينها بغلتان، فقد كانت للتحميل فقط. جاء يوم السفر. أنا وخادمان وسايسان. فى جولة طويلة تستغرق عدة أسابيع نزور خلالها منطقة خصبة تقع إلى الجنوب من تلودى، وإذا سمحت قوانا نواصل المسيرة حتى تونجا على النيل الأبيض فوق ملكال، هنا أود أن أقدم للقارئ محمد خليل عبده، وهو شاب ملتزم من المديرية الشمالية ربما نصف نوبى ونصف دنقلاوى، وبفضل المقابلة الموفقة التى أجراها للمتقدمين اى. آر. جون (E.R.John)، الذى أصبح نائباً لمدير الزراعة فيما بعد، تم تعيين محمد معى فى وظيفة "سفرجى" اثناء حضورى للخرطوم

لأول مرة، ثم رقى إلى طباخ وظل فى خدمتى طيلة سنوات عملى بالسودان، حيث امتد إخلاصه وتفانيه ليشمل كذلك زوجتى وأولادى. غير أنه فى الحقيقة كان يحن إلى العمل بالمديرية الشمالية، ولم يكن أبداً فى يوم من الأيام يفكر فى العيش جنوب مدينة شندى (فى نظره تعادل واتفورد) مما جعل قبوله للسير معنا فى حملة جبال النوبة أمراً مستغرباً، خاصة وقد حدث ما هو أسوأ من ذلك فى السنوات اللاحقة.

إن السفر لمسافات طويلة له سحره الخاص، ولكن لا أستطيع أن أقول إجمالاً إننى قد استمتعت بهذه التجربة أكثر من محمد، بالرغم من أن حياة المعسكرات الخلوية كانت بالنسبة لى متعة العمر. كنا فى الغالب نعانى من شدة الحرارة والتعب والتقرح الذى ينجم عادة من الركوب على سروج الخيل، وكثيراً ما كنا نتعرض للبلل بمياه الأمطار، ولا زلت أذكر تلك الليلة الممطرة بالذات التى قضيتها فى خيمة يتسرب منها الماء حينما أطاحت البغلة بفراشى المتنقل فى إحدى البحيرات، ولن أنسى كذلك الطفيليات التى كانت تهاجمنا أثناء سيرنا وسط الحشائش الطويلة المبتلة وتتسلل داخل ملابسنا لتلتصق حول خصورنا. ومن الذكريات اللطيفة أيضاً تلك الليلة التى وصلنا فيها إلى قرية بالقرب من بحيرة (أبيض) حيث أكرم وفادتنا شيخ القرية بذبح عجل سمين. ولا زلت أذكر ببعض الدهشة على الأقل فى مناسبة واحدة عندما يتحتم على الدواب سباحة أحد الأنهار الممتلئة (الخيول والبغال تسبح جيداً، وكنا نمسك بذيولها ونوجهها برش وجوهها بالماء من جانب إلى جانب). غير أن تلك الجولة انتهت على كل حال بصورة مفاجئة ، ذلك أننا عندما وصلنا إلى كادوقلى من تلك المنطقة الممطرة فى الجنوب، وجدنا أن الأمطار قد انتهت، وأن فتح الطريق إلى تلودى أصبح وشيكاً مما كان يعنى أننا سنعود بالعربات، ولم يبد أى منا أسفه على ذلك.

الآن، وكفصل إضافي في حكاوي الأسفار، سأروي قصة امتحاني في اللغة العربية. كان الموظفون الجدد يتم تعيينهم لفترة تجريبية إلى أن يحين الوقت لنجاحهم في الامتحان التحريري للغة العربية العامية، وكان يعرف ذلك حسب اللوائح بـ "حاجز الكفاءة"، وبعد اجتياز هذا الحاجز فقط يبدأ رسمياً احتساب الخدمة المعاشية، والنظر في أحقية الموظف للعلاوات الدورية وزيادة الراتب. وكانت أول زيادة في الراتب تستحق عند نهاية عامين من الخدمة، ولكن للأسف، مع اقتراب نهاية عامي الثاني في الخدمة رسبت في الامتحان المذكور. لا يمكن إنكار أنه كانت هناك ظروف مخففة، حيث أنني عندما كنت في كيمبردج لم التحق بدورة عاجلة في اللغة العربية كما كان يفعل الكثيرون، وذلك بسبب تعييني في ذلك الوقت في إحدى الوظائف ضمن خدمة المستعمرات في منطقة أخرى، وعندما وصلت إلى السودان لم أعمل في منطقة يتحدث أهلوها اللغة العربية، الأمر الذي كان سيتيح لي فرصة الاتصال بلغة التخاطب اليومية وربما تلقي دروس خصوصية.

هكذا كان الوضع، والأسوأ من ذلك أن النجاح في امتحان اللغة العربية كان شرطاً مسبقاً للحصول على الإذن بالزواج لأي موظف وافد يرغب في ذلك. كما كانت اللوائح الرسمية تنص على الا يقل عمر الموظف الراغب في الزواج عن سبعة وعشرين عاما، ولا أذكر الآن ما إذا كان ذلك يعتبر إضافة أو بديلاً لشرط تعلم اللغة، وفي كلا الحالتين، ولكوني لم أتجاوز الخامسة والعشرين من العمر، ولم أحصل كذلك على درجة النجاح المطلوبة في اللغة، فقد بدا لي أن فرص إتمام زواجي خلال عام ١٩٤٨، وهو ما كنت أرغب فيه وخططت له تماما، قد تضاءلت كثيراً.

لذلك اقترح على البعض ان أرفع التماساً «عرضحال» إلى الحاكم العام، وكانت كتابة العرضحالات إلى المسئولين حقاً ديموقراطياً يثمنه السودانيون

كثيراً، وبالتالى أصبحت نوعاً من الحرف المحلية، فإن لم تكن تستطع الكتابة بنفسك، فقد كان يوجد فى كل مدينة أو قرية، مهما كان حجمها، كتاباً للعرضحالات يقومون بهذا العمل تحت ظلال الأشجار أمام مبانى المركز أو نقطة البوليس، وكانوا لقاء مبلغ بسيط يستمعون إلى شكواك، ويسطرون لك خطاباً بلغة قانونية متكلفة لتقوم بتقديمه إلى السلطات المختصة. وفى الغالب كان الخطاب يكتب بقلم الرصاص على ورقة مسطرة تشرخ من كراسة مدرسية ، ثم يلصق عليه طابع دمغة من فئة القرش، وحسب علمى كانت هذه هى الرسوم المقررة بموجب قانون سابق، ولكنها مهما كانت، فقد كان يعتقد أنها تضفى على الوثيقة مزيداً من الفعالية والأهمية، وتكفل للراسل الحق فى تلقى الرد عليها، ويفضل أن يكون ذلك بالاستماع الشخصى. كان مفتشو المراكز يتلقون هذه العرضحالات بالجوالات لكثرتها، وكنت شخصياً أخصص وقتا للاطلاع على الكثير منها. إذن لماذا لا أفكر فى رفع عرضحال عن نفسى؟ لقد فعلت ذلك دون اللجوء إلى عرضحلجى ، ولكن لا أذكر أننى قد وضعت عليه طابع الدمغة، مع أن دافنى (Daphne) زوجتى كانت مقتنعة بأننى قد فعلت ذلك. ثم قمت بإرسال عرضحالى إلى سعادة الحاكم العام بالخرطوم، السير/ روبرت هاو (Sir Robert Howe)، الذى كان قد وصل لتوه إلى السودان، والذى قضى فيما بعد ليلة تحت سقفنا أثناء قيامه بجولة رسمية. وظللت فى انتظار النتيجة.

كانت عجيبة العجائب أننى تلقيت رداً إيجابياً يتضمن السماح لى بالزواج، شريطة أن أنجح فى امتحان اللغة العربية فى المحاولة التالية. ودون استشارة قانونية رأيت أن هذا نظام جيد، مما جعلنى أتساءل هل يمكن أن يكون هناك جدل - فى حالة أنى تزوجت - بأنهم سيكونون ملزمين تعاقدياً بمنحى درجة النجاح فى الامتحان. لذلك أسرعت بالعودة إلى المملكة المتحدة فى إجازتى السنوية، وتزوجت دافنى دون تردد.

لقد تذكرت هذه السفسطة بعد عشرين عاماً، وكنت وقتها أقوم بدور مختلف فى بروكسل عندما كنت أشارك فى المفاوضات السابقة واللاحقة لانضمام المملكة المتحدة إلى المجموعة الاقتصادية الأوروبية. كان عندما يحتدم الخلاف بين الأطراف المتفاوضة ربما فى ساعة متأخرة من الليل ويصل إلى طريق مسدود، تقوم اللجنة الاقتصادية بصياغة بعض الكلمات فى الموضوع تقول إن ما اختلف عليه الآن يجب أن يتم التوصل إلى اتفاق بشأنه فى غضون اثنى عشرة شهراً، وبالرغم من أنه يتساوى لدى (أ) و(ب) الاتفاق على ما يجب أن يفعله (ج) ، فقد كانت هذه الصيغة مقبولة دائماً دون أن يحدث ذلك مزيداً من الضجة، مما يؤدى فى النهاية إلى استئناف المفاوضات. هكذا العقلية الرسمية تتسم بالمرونة إلى ما لا نهاية .. ولكن تلك قصة أخرى.

والآن، ماذا عن محاولتى الثانية لامتحان اللغة العربية ؟ لقد جاءت النهاية سعيدة أيضاً ، فلم يكن هناك ما يدعو لإثارة موضوع سريان عقد خدمتى مع الحاكم العام أمام المحاكم. وجلست لورقة الامتحان المرسلة من الخرطوم تحت مراقبة بول دانيل (Paul Daniell)، مفتش مركز يامبيو الذى كان هو نفسه مستعرباً جيداً، وأذكر أثناء نضالى مع الورقة معظم الوقت المحدد أن بول كان فى هدوء يقرأ لنفسه ورقة الأسئلة، ثم يشرئب فوق كتفى صامتاً ليطلع على إجاباتى، وفجأة وبعملية تناضح غريبة أصبحت كل الأشياء الغامضة واضحة أمام عينىّ، وانتهى الأمر على أحسن ما يرام.

عندما عدت ودافنى إلى السودان بعد زواجنا كانت رحلات الطيران المستأجرة قد بدأت لتوها بموجب تعاقد جديد مع شركة إيرويرك (Airwork) المحدودة، وكانت الرحلات تبدأ من بلاك بوش (Blackbushe) بالقرب من إيجم (Egham) على طائرات (الفيكينج) سعة الأربعة والعشرين مقعداً. نزلنا فى الأمسية السابقة للسفر فى فندق (جريت فوسترز Great Fosters)

استعداداً للمغادرة مبكراً فى صباح اليوم التالى. كانت الرحلة إلى وادى حلفا تستغرق حوالى ١٦ ساعة مع توقف لأربع مرات، ففى اليوم الأول توقفت بنا الطائرة للتزود بالوقود فى جنوب فرنسا (عادة فى نيس) ثم توقفنا فى مالطة لليلة واحدة حيث كان فندق (فونيسيا Phoenicia) قد افتتح لتوه. كان اليوم التالى شاقاً بالنسبة لطائرة غير مكيفة الضغط، فقد توقفت للتزود بالوقود فى شمال أفريقيا(عادة بنغازى وأحياناً طبرق) ، ومن هناك لتقطع مسافة طويلة عبر الصحراء الليبية إلى حلفا على الحدود السودانية. غير أن رحلات الفيكينج فى السنوات التالية، والتى كانت مرتين فى الأسبوع ذهاباً وإياباً من المملكة المتحدة ، أصبحت تمتد إلى الخرطوم قبل أن تعود ، وأحياناً تصل إلى جوبا فى أقصى الجنوب. غير أننا فى عام ١٩٤٨ ارتضينا قانعين أن نقضى ليلة فى فندق سكك حديد السودان بوادى حلفا برفقة طاقم طائرة الأيرويرك الذين طاروا بنا من انجلترا، وذلك قبل أن نبدأ فى صباح اليوم التالى رحلة الأربع وعشرين ساعة بالقطار عبر الصحراء النوبية إلى النيل عند أبوحمد، ثم مروراً بعطبرة إلى الخرطوم.

لم تزل تنتظرنا رحلة أطول. إذ كان قد تم نقلى فى ذلك الوقت من جبال النوبة إلى مريدى بالمديرية الاستوائية. وبعد أن قضينا بضعة أيام فى الخرطوم فى جمع المخزونات والقيام ببعض الأعمال الأخرى، بدأنا رحلة أخرى بالقطار استغرقت ليلة واحدة حيث مررنا بسنار على النيل الأزرق، ثم إلى كوستى على النيل الأبيض لنواصل من هناك إلى جوبا على ظهر باخرة "البوستة" التى تسافر كل أسبوعين، وهى باخرة نهرية مجدفة ثلاثية السطح تعمل بحطب الحريق كوقود، وكانت تدفع بجانبيها وأمامها زوارق مزدوجة السطح وأطواف محملة بالبضائع، وتستغرق رحلتها حوالى أسبوعين حسب حالة النيل وتوافر حطب الحريق. وبالرغم من أن المسافة لم تكن تزيد على ٥٠٠ ميل إذا سارت الباخرة

فى خط مستقيم، إلا أنه نظراً لتعرجات الخط الملاحى وتقلبات جزر نبات البردى المتحركة فقد تمتد المسافة إلى ٧٠٠ ميل عبر منطقة السدود، التى تبدو كأن لا نهاية لها، وكانت محاولة التغلب على عقبة المنحنيات المتغيرة تؤدى إلى تأخير سير الباخرة، كما كان تجنب تلك العقبات يؤدى أحياناً إلى تجاوز محطات التزود بالوقود مما يؤدى إلى المزيد من التأخير، بينما كان الحمالون يقومون بنقل أكوام الحطب على رؤوسهم لتزويد الباخرة فى المحطات الأخرى البديلة. غير أنه فى السنوات اللاحقة تمّ استبدال الحطب بزيت الديزل كوقود لبواخر النقل النهرى، كما طرأ بعض التحسن فى ضبط الوقت ولكن كان يندر استكمال الرحلة فى أقل من عشرة أيام.

لقد قمت بهذه الرحلة ثلاث مرات خلال السنوات القليلة التالية، وأخشى أن أنقل شيئاً من ضجر الرحلة إذا ذكرت أنه بصرف النظر عن توقف الباخرة فى أربع أو خمس محطات مثل ملكال وبور، إلا أن الإثارة الحقيقية فى الرحلة بأكملها كانت تكمن فى تلك اللحظات التى تتم فيها ملاقاة الباخرة الأخرى أثناء رحلة عودتها نصف الشهرية من الاتجاه المضاد. كذلك كان يمكن قضاء بعض الوقت فى إطلاق النار على التماسيح التى تخرج للاستدفاء على الشاطئ، ولكن سرعان ما يصبح ذلك مملاً، ولو أن الكثير بالطبع كان يتوقف على المسافرين الآخرين، إن وجدوا. كان فى الباخرة ست أو ثمانى قمرات، وفى صحبة عروستى الشابة لم يكن لدى أى سبب للشكوى، وبصرف النظر عن الأشياء الممتعة الأخرى، فقد أتاحت لنا الرحلة الاستمتاع بشوربة الفول السودانى، واكتشاف مائة طريقة وطريقة لطبخ الأسماك النيلية التى كانت متوافرة فى كل مكان..

كانت الرحلة بالعربات من جوبا إلى مريدى قصيرة نسبياً لا تتجاوز ٢٢٠ ميلاً، وكان الطريق صالحاً فى كل المواسم ولكن ليس فى كل طقس، وتغطيه

تربة صخرية حمراء، ويمكن فى الحالات الاضطرارية قطع هذه المسافة فى يوم واحد، وبالرغم من أنه قد أصبح لدينا مؤخراً عربة فورد حديثة حمولة ثلاثة أرباع طن، إلا أننا كنا نفضل قضاء الليل فى استراحة أمادى على الطريق، وهكذا كان إجمالى الرحلة من المملكة المتحدة حوالى ثلاثة أسابيع مع القليل من الخطر على الحياة وأطراف الجسم. كم يحزننى أن ذلك لم يعد ممكناً اليوم.

تقع منطقة مريدى إلى الشمال من خط الاستواء بأربع درجات، وهى لذلك تقع ضمن الحزام الإفريقى لذبابة التسى تسى ومرض النوم، مما يعنى - من بين أشياء أخرى - عدم إمكانية وجود خيول فى المنطقة. كما كانت الماشية تواجه مخاطر كثيرة بالرغم من أننا من خلال العلاج الوقائى قد تمكنا من الاحتفاظ فى مريدى بقطيع صغير من الأبقار لتوفير مورد غير منتظم لألبان الحليب. أما بالنسبة لسبل المواصلات الأخرى بخلاف العربات، فكانت الدراجة تعتبر من العتاد المفيد لمفتش الزراعة، ولذلك لم يمض وقت طويل حتى حصلت على واحدة.

فى تلك الفترة كانت منطقة مريدى بأسرها، التى كان جزء منها يقع تحت إشرافى المباشر، تعيش فى معمعة إعادة توطين كبرى بقيادة تايجر وايلد (Tiger Wyld) تلك شخصية الأسطورية التى عرفتها المديرية الاستوائية، بل وأكثر من ذلك كانت قبيلة الزاندى التى عاش بينها كمفتش مركز لسنوات طويلة، تعتبره من الصالحين. كانت المشكلة التى تولى معالجتها هذا الرجل تتمثل فى أن جزءاً كبيراً من السكان كان قد آثر الاستقرار فى مساحات صغيرة من الأرض لم تلبث أن استنزفت وأصبحت غير صالحة للزراعة لفترة طويلة، بينما كانت هناك أراض خصبة واسعة غير مستغلة تحتاج إلى من يحفزها على الإنتاج.

كان لب الخطة التى وضعها تايجر لإعادة توطين السكان يتمثل فى شق طرق مستقيمة ضمن نطاق يمتد إلى ثلاثة أميال داخل الغابة تمّ اختياره نظراً لموقعه وقدرته على التكيف لاحتضان أفضل الأراضى، وبعد ذلك تمّ تخصيص قطع زراعية على جوانب هذه الطرق للأسر والأفراد دون إيجار. وكان يطلق على كل من هذه الطرق اسم "خط قباليا" باللهجة المحلية، وهى تبدأ من الشارع الرئيسى المستديم، وتطل من على جانبيه واجهات المزارع الخاصة بالأفراد لمسافة قدرها ١٥٠ ياردة تقريباً على خط قباليا. وكانت هذه الخطوط تقام بعيدة عن بعضها البعض بقدر الإمكان بما يسمح بتنظيف المزرعة من الأشجار وزراعتها لمسافة نصف ميل خلف القباليا، مما أدى إلى توافر أراضٍ كافية لإنتاج المحاصيل من خلال دورة زراعية مناسبة. وكانت مهمة المختصين الزراعيين بعد ذلك هى تشجيع الممارسات الزراعية السليمة وتخصيص مساحات صغيرة لزراعة القطن كمصدر دخل نقدى، مع التركيز أيضاً على الإنتاج الغذائى لأجل الحفاظ على قوة الحافز للتغيير، ومقاومة رغبة الأسر للعودة إلى المواقع السهلة قليلة الإنتاج.

كان يعين لكل خط قباليا مراقب يسمى "التريال" وهو أيضاً يملك أرضاً زراعية وتدفع له إعانة مالية بسيطة، وكان استعراض هيبة الحكومة من بين الأنشطة التى يقوم بها موظفو المركز ومصلحة الزراعة خلال قيامهم بأكبر عدد ممكن من الزيارات إلى المزارعين، ولكن نظراً إلى أنه كان يوجد ما يقرب من مائة مزرعة فى المنطقة التابعة لى، وتنتشر فى مساحة تقرب من مائة ميل مربع، فلم يكن بالإمكان القيام بهذه الزيارات بصورة متكررة. لذلك كانت الدراجة هى وسيلة النقل المثالية لهذا الغرض لأنها تقطع المسافات بسرعة وتمكننى من "الصياح" للمزارعين بالتحية والتشجيع من على البعد دون التوقف عن السير، كما أنها سهلة الحمل عندما تكون هناك عوائق فى الطريق مثل

سقوط إحدى الأشجار، أو وجود ترعة ليس عليها كبرى، الأمر الذى كان يحدث كثيراً .

أذكر مناسبة خاصة استخدمت فيها الدراجة بصورة جيدة، ففى عام ١٩٤٩ كنا نتوقع طفلنا الأول . وبما أن الأطفال الأوروبيين أقل من عمر ثلاثة أشهر لم يكن يسمح لهم بدخول المديرية الاستوائية، فقد اضطرت دافن للبقاء فى بريطانيا، بينما عدت أنا إلى الحياة الانفرادية مؤقتاً فى السودان. وحيث أنه لم تكن لدينا وسائل عصرية للاتصال مع العالم الخارجى، بل ولم يكن لدينا حتى خط للتلغراف مثل ما كان الحال فى تلودى، لذلك لم يزل استخدام الرسائل المحمولة داخل العصا المجوفة رائجاً حيث كانت الخطابات العاجلة ترسل بهذه الطريقة بواسطة أحد العدائيين. وبما أن البريد كان يأتى كل أسبوعين بواسطة باخرة البوستة، ولم يكن متوقعاً وصوله قبل أسبوع آخر ، فقد شعرت أننى ساكون أقل قلقاً وتوتراً إذا خرجت فى جولة تفقدية لأشغل نفسى بالعمل. فى ذلك اليوم بالذات، كان الجو حاراً بعد الظهيرة، وبينما كنت أخلد إلى القيلولة المعتادة بعد الغداء فى استراحة (إبّا)، إذا بى أفاجأ بثعبان يتدلى إلى نصفه فوق رأسى مباشرة من أعلى الغرفة المسقوفة بالقش، وكان يمسك بين فكيه فأراً مرعوباً يحاول ابتلاعه، ولكنه لم يفلح فى ذلك حيث استطاع الفأر أن يفلت ويسقط على الأرض ويولى هارباً، بينما بقى الثعبان جامداً فى مكانه يتميز غيظاً ثم انسحب بعد دقائق عائدا إلى مخبئه فى القش، وتركنى أتأمل هل تكون هذه الحادثة نذير شؤم، وإذا كانت كذلك فالرسالة لم تكن واضحة تماماً.

وفى آخر النهار، توقف سائق لورى كان فى طريقه إلى يامبيو ليذيع أنه سمع خبراً بأن المفتش قد أصبح أباً، ولكنه لم يوضح ما إذا كان المولود ذكراً أم أنثى. كان محمد . طباخى الوفى . ولكونه مسلماً، أكثر اهتماما منى بجنس

المولود متمنياً بالطبع أن يكون ولداً ، ولأنه كان مثلى يتشوق لمعرفة تفاصيل الخبر، فقد قفز فوراً على دراجتى متجهاً بها إلى الجهة التى أتى منها اللورى ليعرف المزيد من الأخبار التى حملها فعلياً تلغراف الغابة.

عاد محمد بالدراجة بعد ساعتين ليؤكد لى أن جون، طفلنا الأول، قد ولد بالسلامة، واستدعى الأمر بعد ذلك سفراً بالطائرة وانتظاراً لعدة أسابيع قبل أن أراه. كان لقاؤنا الأول عندما أقلتنا الطائرة الفيكينج إلى جوبا مصطحباً دافنى زائداً جون محمولاً حسب اللوائح فى "سلة موسى"، وفى هذه المرة لم تستغرق رحلتهم من الوطن سوى ثلاثة أيام . لقد كانت لحظة سعيدة بحق.

بعد ثلاث سنوات تم نقلى إلى الشمال مرة أخرى مترقياً إلى وظيفة باشمفتش الزراعة بالدويم على الضفة الغربية للنيل الأبيض، والتى تبعد مسافة مائة ميل إلى الجنوب من الخرطوم، لأتولى هناك مسئولية الإشراف على عدد كبير من المشاريع الزراعية الممتدة إلى مسافة ستين أو سبعين ميلاً على وادى النيل الأبيض، وتروى من النهر بالطلمبات، ومن ثم أصبحت تسمى "مشاريع الطلمبات" ويتولى الإشراف على عملية الرى مدير سودانى، وهى موزعة على الأفراد بالإيجار. كان القطن أيضاً هو المحصول النقدى الرئيسى، ويزرع فى مساحات واسعة إلى جانب محاصيل غذائية مختلفة، مما يؤمن للمزارعين عيشاً مريحاً بالمقارنة مع فترة ما قبل الرى بالطلمبات حيث كانت تمارس الزراعة على ضفتى النهر وتروى بمياه الفيضان منذ عهد الفراعنة.

كان من ميزات زراعة القطن فى مساحات كبيرة بمستوى مشاريع الطلمبات أنه يمكن رش المحصول بالمبيدات الحشرية، ويتم التعاقد مع شركات متخصصة من خارج السودان للقيام بهذا العمل باستخدام الرش الأرضى أو الجوى ، ويفضل الأخير لتفادى قطع دورات الرى، والأضرار التى قد تنجم من سير عربات الرش فى الحقول المروية.

الآن، وكمدخل آخر للتسلسل الزمنى لأحداث السفر فى السودان، لابد من ذكر تلك الرحلة التى قمت بها من الدويم عبر الجزيرة إلى ود مدنى على النيل الأزرق على متن إحدى طائرات الرش ذات المقعد الواحد عادة، حيث جلست فى المكان المخصص لخزانات المبيدات الكيميائية. كانت صلاحية تلك الطائرات للملاحة الجوية مثار تساؤل عند النظر إليها عن قرب، واذكر اننى وجدت صعوبة فى الإبقاء على بابى مغلقاً، ولكنهم أكدوا لى أن الهبوط الاضطرارى سهل جداً ولن تكون هناك مشكلة إذا سقطت إلى الخارج. كذلك كنا نقضى أغلب الوقت يومياً فى التجول بالسيارة (أصبحت الآن فورد ٨ بايلوت) إلى مسافات بعيدة لزيارة مشاريع الطلمبات، والتحدث إلى المزارعين، ومتابعة نمو المحاصيل. لقد درسنا عندما كنا متدربين زراعيين فى بريطانيا أن أفضل سماد للأرض هو قدم المزارع، وذلك لتأكيد أهمية الإكثار من المشى على الأرض الزراعية بقدر الإمكان . ولكن لم يذكر لنا شىء عن قيادة العربات طلوعاً ونزولاً فى حقول القطن والذرة والسمسم، وكنت أتساءل دائماً هل هى مفيدة للأرض بالمثل.

كانت الدويم هى المحطة الوحيدة التى عشنا فيها كجالية مع وافدين آخرين بلغوا فى مجموعهم حوالى ست أسر، أما المحطات الأخرى فكان يطلق عليها اسم "محطات الرجل الواحد". كان هذا الوضع يعنى بالنسبة إلى دافن وجود صديقة ترافقها فى النزهة على شاطئ النهر فى العصريات وهما يدفعان عربتى طفليهما (كانت ابنتنا لوسى قد ولدت آنذاك) . أما بالنسبة لى فيعنى وجود زميل يشاركنى فى العمل والترفيه ، وكان من بين وسائل الترفيه التى نستمتع بها فى الدويم حوض السباحة الصغير الذى كان يملأ انسيابياً من النيل ، ثم يتم تفريغه بعد أسبوع بإعادة الماء إلى النهر باستخدام مضخة صغيرة متنقلة تدار بالبترول. كانت حرارة الشمس شديدة لدرجة أنه إذا ترك الماء فى

حوض السباحة لأكثر من أسبوع يصبح ساخنا جداً بحيث تصعب السباحة فيه. من ناحية أخرى كانت الشمس عاملاً مهيمناً على حياتنا، ولعل من أحداث تلك السنوات التى لا تنسى تلك الفرصة النادرة التى شاهدنا فيها كسوفاً كلياً للشمس. كانت قرية ود نمر التى تبعد ثلاثين ميلاً شمال الدويم، تقع ضمن منطقة الكسوف الكلى، وأذكر أننا فى صباح ذلك اليوم خرجنا مبكرين بالسيارة فى نزهة جميلة اختتمناها بتناول طعام الإفطار، ولن أنس تلك الدقيقتين أو الثلاث التى تحول فيها الكسوف الجزئى فجأة إلى ظلام دامس.

كان أحب نشاط لى فى وقت الفراغ هو رياضة التجديف على النهر مستخدماً مركباً شراعياً طوله أربعة عشر قدماً كنا قد نفضنا عنه الغبار وتمكنا من إعادته إلى الماء، وهو قد صنع من ألواح الحديد بتصميم كلاسيكى (أعتقد فى عطبرة) لجيل من الموظفين قد سبقنا إلى الدويم. كان عرض النيل الأبيض فى هذا المكان حوالى ثلاثة أميال، ويستمر كذلك لبضعة أشهر فى فصل الشتاء متثاقلاً فى محاولة تراجعه من خزان جبل أولياء الذى يبعد إلى مسافة خمسة وسبعين ميلاً شمالاً ، وقد شيد بغرض تخزين المياه التى يتم إطلاقها ببطء ابتداء من شهر أبريل فصاعداً لمقابلة الحاجة إلى المياه فى المناطق السفلى للنهر. لذلك كانت رياضة التجديف فيه ممتعة ، خاصة إذا كانت الرياح الشمالية مواتية حيث يرتفع معها الموج كما كان يحدث دائما فى عصريات فصل الشتاء. كنا نقوم بهذه النزهة بانتظام عبر النهر إلى الضفة الغربية حيث ينتهى الطريق البرى من الخرطوم لنقابل هناك اى أصدقاء يكونون قد حجزوا فى عبارة (بنطون) الساعة الخامسة إلى الدويم وهى الرحلة الأخيرة فى اليوم، خاصة من يفضل منهم المخاطرة بعبور النهر فى زورق صغير، فقد يكون ذلك أكثر متعة بدلاً من العبور بالبنطون مع العربات المتراصة، والعدد الكبير من الجمال والحمير والماعز والضأن مع رعاتها

قبل أن نغادر الدويم أصبح جون كبيراً بحيث يستطيع الخروج الخمسانيين. معى إلى تلك النزهة النهرية فى بعض المناسبات، ولكن بعد أن يربط جيداً مع القارب أو يكون ملتصقاً بى حتى لا أتركه لوحده فيما لو سقطت من فوق القارب، الأمر الذى لم يحدث أبداً. غير أنه من الأمور العجيبة أننا لم نصادف فى رحلاتنا تلك أية تماسيح مع أنها كانت توجد بكثرة خاصة عند انخفاض مستوى النيل، ترى هل كانت تهاجر فى فصل الشتاء، أم أنها ببساطة كانت تخف مع ضخامة كميات المياه المخزنة.

عندما يبدأ تفريغ خزان جبل أولياء فى أبريل ، يهبط مستوى النهر فى الدويم بصورة واضحة يومياً، ثم يعود إلى عرضه العادى ويتخذ شكل النهر الطبيعى. كان الطريق البرى المتجه شمالاً إلى الخرطوم على ضفة النيل الشرقية (لم يكن على الضفة الغربية طريق سالك) يعبر مساحات واسعة من الرمال تتخللها أحياناً خيران عميقة تنحدر منها السيول أثناء هطول الأمطار فى أشهر الصيف مما يؤدى إلى تعطيل المواصلات البرية لعدة أيام ، لذلك يصبح النهر طريقاً مائياً تعبره مختلف أنواع المراكب والقوارب والبواخر، وكان من بينها باخرة نهرية صغيرة تحمل اسم "ليدى بيكر" (Lady Baker) وتديرها سكك حديد السودان لخدمة موظفى الحكومة، وكانت مزودة بأثاث محدود ومعدات خفيفة لإعداد الطعام بالخدمة الذاتية، ومساحتها تكفى لأسرة صغيرة مثل أسرتى مع خدم المنزل. لذلك كانت الرحلة على ظهر الباخرة ليدى بيكر بالنسبة لنا تشبه العيش فى استراحة متحركة كأننا نقوم بجولة عائمة. وأذكر فى مناسبة واحدة على الأقل فى شهر يونيو، حيث يكون الجو حاراً رطباً فى الدويم بصورة لا تطاق، أننا حجزنا الباخرة ليدى بيكر لتقلنا إلى الخرطوم فى طريقنا لقضاء الإجازة فى الوطن، وكذلك فى مناسبة أخرى أثناء قيامى بزيارة قصيرة إلى الرئاسة بالخرطوم، حيث ترسو ليدى بيكر قبالة غابة

المنشط بجنوب الخرطوم لتستخدمها كمسكن خارج المدينة لبضعة ايام، وعندما أعود بالذاكرة إلى الوراء لأستعرض متعة الأسفار ودفئها من وإلى وداخل السودان خلال عشر سنوات، أجد أن هذه تشكل ذروتها ولو أنها لم تكن تتكرر كثيراً.

ثم جاء موعد رحلتنا الأخيرة فى أوائل عام ١٩٥٥ عندما اقترب موعد استقلال السودان، وحين وصلت تلك البرقية المحتومة معلنة أنه قد تم الحجز لنا للعودة إلى بلادنا على ظهر السفينة (ستراثمور Strathmore) التابعة لشركة (بى آند أو) والتى تعمل على خط أستراليا، وكانت وقتها فى زيارة خاصة إلى بورتسودان على ساحل البحر الأحمر لتحمل مجموعة صغيرة منا نحن الموظفين المتقاعدين.

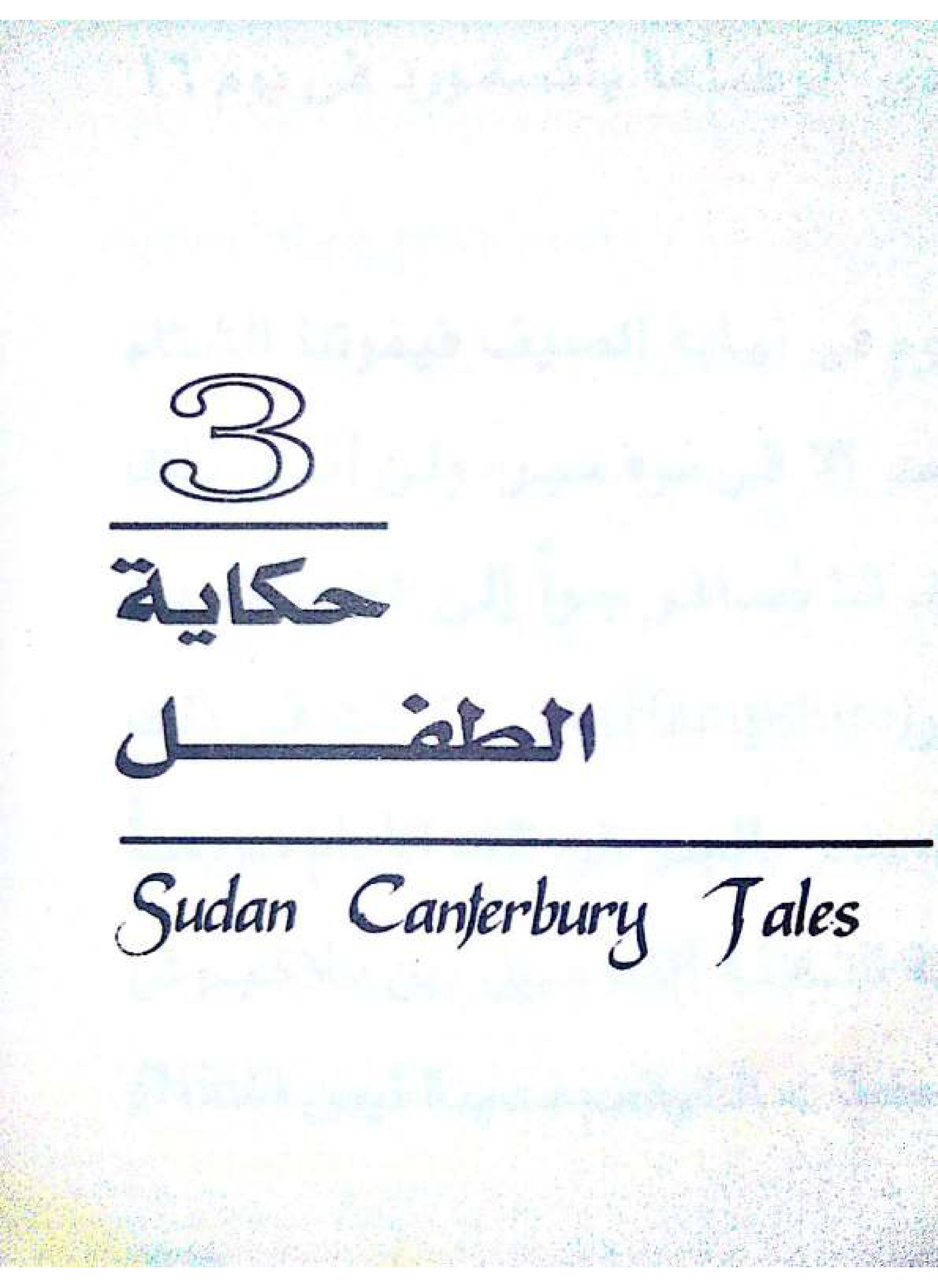
ركبنا القطار من محطة الخرطوم وكان الجو عاصفاً «بالهبوب»، تلك الريح المليئة بالغبار الذى يعمى العيون التى يمكن أن تهب دون سابق إنذار، ولن يستطيع تقدير ما تحمله من أوساخ إلا أولئك الذين جربوها من قبل. ونسبة لمحدودية إمكانات الحمامات بالقطار، ولأننا قد بقينا فى الانتظار لعدد من الساعات الإضافية على جانب الرصيف فى بورتسودان نظراً إلى أن السفينة قد تأخرت، فقد بقينا بقذارتنا ليوم ونصف يوم لحين صعودنا إلى السفينة فى ساعة متأخرة من الليل، لنستمتع هناك بترف الحمامات. وفى صبيحة اليوم التالى ذعر حلاق السفينة بما رأى فى أحواض غسيل الأيادى حيث كانت نساؤنا يصطفن هناك مثل المثلة (ميتزى جانيور) لغسيل ما علق على شعورهن من غبار الخرطوم .. لكن لا شىء أبداً يمكن أن يغسل ما علق فى قلوبنا من حب للسودان وأهل السودان.

كان هذا جزءاً من حياتى كخبير زراعى فى مناطق أفريقيا الحارة، وما رويته هنا هو مجرد ومضة استمرت لمدة تسع سنوات حسوماً، ولو أنى

فيما بعد عندما قمت بتطبيق معادلة (الوقت والثلث) على الفترة التى قضيتها فى مريدى جنوب خط العرض أربعة، وجدت أن مدة خدمتى تصل إلى عشر سنوات، ومع عبور الخط العالمى لتغيير تاريخ اليوم لا أدرى هل أعتبر ذلك إطالة أم تقصيراً لعمرى، ولكن من المؤكد أنه كان يبدو وقتاً طويلا أثناء حدوثه. والآن تبدو لى الأشياء كأنها حادث عارض قصير فى جزء من عمرى قد مضى. من المحزن أن ذلك البلد الذى عرفناه لم يعد بالكاد موجوداً، والعجيب أنه منذ ذلك اليوم من شهر فبراير عام ١٩٥٥ ونحن على ظهر السفينة "ستراثمور" فى رحلة عودتنا النهائية إلى أرض الوطن، قادتنى الأحداث فى دروب أخرى وما عدت أكسب عيشى من العمل كزراعى . لربما لم أكن أبداً زراعياً جيداً.

روبن كاتفورد *(Robin Catford)*

■■■



3

حكاية الطفل

Sudan Canterbury Tales

كان والدى، جاك هيويسون (Jack Hewison) موظفاً بالخدمة المدنية لدى مصلحة الزراعة بالسودان خلال الفترة من أوائل الثلاثينات حتى عام ١٩٥٣، وكان مقر عمله فى الخرطوم، ولكنه كان يسافر كثيراً إلى مختلف أنحاء البلاد. ولى شقيقان، ريتشارد وديفيد، ولدا أثناء الحرب (عام ١٩٤٣و١٩٤٤) فى مدينة نيروبى بكينيا، حيث لم يكن يسمح للزوجات بالعودة إلى إنجلترا فى الإجازات. وعندما اقترب موعد ولادتى كانت الحرب قد انتهت، وتسنى للوالدة والزوجات البريطانيات الأخريات العودة إلى إنجلترا لبضعة أشهر فى الصيف حيث يكون الطقس فى السودان حاراً جداً وعاصفا بالهبوب٢ فى معظم الأيام. وفى عام ١٩٤٦ عادت أمى إلى الوطن مبكرة قبل الوقت المعتاد بقليل لتنتظر هناك موعد ولادتى، حيث تمت ولادتى فى أحد دور الرضاعة بأكسفورد فى يوم ١٦ مارس ١٩٤٦.

كنا فى أغلب السنوات نعود إلى الخرطوم فى نهاية الصيف فيفوتنا الشتاء الإنجليزى، ولكن فى إحدى السنوات لم نعد إلا فى نوفمبر، ولن أنسى ذلك المنظر المثير عندما رأيت الجليد لأول مرة. كنا نسافر جواً إلى الخرطوم من بلاكبوش (Blackbushe) فى هامبشاير(Hampshire) التى كانت فى ذلك الوقت مطاراً عالمياً مزدحماً. ولم يكن السفر بالجو فى تلك الأيام مريحاً وسريعاً كما هو الآن، حيث كانت رحلة الثلاثة ألف ميل بين بلاكبوش والخرطوم تستغرق يومين. كانت أولى محطات التوقف مدينة نيس (Nice)

على الريفيرا الفرنسية، وأذكر أننى رأيت هناك أشجار النخيل وحوضاً للسلاحف النهرية، ومن هناك عبرت بنا الطائرة البحر الأبيض المتوسط إلى مالطا لنقضى الليل فى فندق فينيشيا (Phoenicia) الفاخر بمدينة فاليتا (Valetta).

بدأ اليوم الثانى للرحلة مبكراً جدا، وذلك كما أعتقد من أجل تفادى المطبات الهوائية فوق الصحراء الليبية فى وقت الظهيرة، أو ربما يكون السبب ضمان الهبوط فى الخرطوم أثناء ضوء النهار. لقد أقلعنا فى تمام الرابعة والنصف صباحا، وهبطنا فى العديم بالقرب من طبرق فى ليبيا، وأثناء عبورنا الصحراء كنا نتصبب عرقا ويرتطم بعضنا ببعض من جراء علو وهبوط الطائرة المفاجئ مما اضطرنا لاستعمال أكياس الغى التى أصبحت تسمى الآن تلطيفا " أكياس الفضلات المبطنة".

كانت محطة التوقف التالية هى مدينة وادى حلفا التى تقع على النيل على بعد ٤٥٠ ميلا شمال الخرطوم. وتحكى والدتى قصة أخى الأكبر ريتشارد الذى قال بفخر عندما اقترينا من وادى حلفا: "لم أشعر بالغثيان، أليس كذلك؟" ولكن بعد مضى عشر دقائق عندما نزلنا إلى طبقات الجو السفلى، واشتدت المطبات لم يعد يتبجح بذلك مرة أخرى. ثم بدأنا الجزء الأخير من الرحلة وكان عبارة عن ساعتين من العرق والغثيان ونحن نطير فوق رمال الصحراء إلى أن وصلنا الخرطوم بعد الظهر.

وبالرغم من أننى كنت أسافر كثيرا كما افعل الآن، إلا أننى لا أستطيع أن أتصور ما كانت تلاقيه أمى من جحيم مع أطفال ثلاثة يعانون من شدة الحرارة والغثيان والملل (فرق العمر بين أكبرهم وأصغرهم لا يتجاوز الثلاث سنوات كثيراً)، وكان عليها أن تقوم بتسليتهم وإطعامهم وتنظيفهم وإلباسهم واسترضائهم ورعايتهم طوال الرحلة من أولها إلى آخرها، فى وقت لم تكن فيه

مربيات على الطائرات، وكان من الصعب الحصول على مقاعد إضافية ناهيك عن محدودية الطعام.

عدنا إلى الخرطوم بعد مولدى بأشهر، وكان قد حجز لنا مقعدان على الطائرة نحن الأربعة حيث كان عمر كل منا، أنا وديفيد، أقل من سنتين. وبينما كانت الوالدة تحاول جاهدة أن تجلسنا جميعاً فى ذلك الحيز المحدود، أشفق عليها قبطان الطائرة وعرض عليها أن يأخذنى إلى غرفة القيادة حيث قضيت هناك معظم وقت الرحلة فى صندوق تحت طاولة ملاح الطائرة. ولأننى كنت ولا زلت أعلم خصوصية تلك الغرفة وكيف تكون محروسة بحرص وحذر، فإننى أدرك الآن كم كانت تلك اللفتة كريمة منه.

كنا فى العادة نسافر بطائرة فيكرز فيكينج (Vickers Viking) وهى طائرة معدلة من قاذفة قنابل من نوع ويلينجتون(Wellington) بصورة غير متقنة، وتسع ثلاثين راكبا يجلسون فى صفين كل مقعدين على جانب من الممشى ومقعد واحد على الجانب الآخر، وهى تابعة لشركة إيرويرك(Airwork) التى كانت متخصصة فى تأجير الطائرات للحكومة ونقل الجنود، واذكر كم كنت أشعر بالارتياح عندما عدنا من الخرطوم آخر مرة، وتمنيت ألا أسافر بالطائرة مرة أخرى، وما كنت أعلم أنه سيقدر لى فى المستقبل أن أصبح طياراً لدى الخطوط الجوية البريطانية.

بالرغم من أننا كنا، كما أذكر، نسكن معظم الوقت فى العاصمة الخرطوم، إلا أننى لا زلت أختزن فى ذاكرتى ولو بصورة غير واضحة شكل منزلنا فى مدينة الأبيض التى تبعد مسافة ٢٥٠ ميلا جنوب غرب الخرطوم، حيث عشنا هناك لبعض الوقت، وكان عمرى آنذاك أربعة أو خمسة سنوات، وكنت مولعاً هناك ببعض شجيرات حديقة المنزل التى كانت تطوى أوراقها عند ملامستها باليد.

كما أذكر منزلنا الأخير الذى كان عبارة عن فيلا جميلة فى ضواحى الخرطوم خاصة غرفة الحمام، ولا زلت أتخيل منظر والدى وهو فى الحمام، وكذلك لا أنسى تلك الثلاجة التى تعمل بالغاز، وكانت أرجلها تقف على علب الجاز الصغيرة منعاً لدخول النمل فيها، ولم أكن افهم كيف تستطيع شعلة من اللهب أن تجعل الأشياء باردة! وكان الماء يوضع فيها بعد حفظه فى زجاجات الجن المربعة الفارغة، إلى أن جاء ذلك اليوم الذى رشف فيه ديفيد جرعة كبيرة من الجن عن طريق الخطأ.

كان المنزل محاطاً بفرندة كبيرة، وله سطوح مسورة بجدار كنا ننتقل إليها بأسرتنا فى الليالى التى تشتد فيها الحرارة حيث يكون الجو فى منتهى الصفاء، والنجوم تبدو لامعة متلألئة فى صورة بديعة، مع أصوات صراصير الليل المتواصلة دون انقطاع، وقد اشتكى ديفيد مرة أنه لم يستطع أن ينام لأن النجوم كانت تحدث ضوضاء عالية!

ولا زلت أتخيل الوالد والوالدة وهما يستضيفان أصدقاءهما فى الفرندا، بينما كنا نحن الأولاد نحاول أن ننام فى السطوح وأغنيات جلبرت وسولفان (Gilbert & Sullivan) تنبعث من جهاز الحاكى (الفونوغراف) الذى لم تكن به أداة للتحكم فى الصوت ما عدا بابين موجودين فوق فتحة المايكروفون، وغالبا ما كنا ننتظر طويلا ريثما تصل إبر الاسطوانات من إنجلترا، أما الكبار فكانوا يلعبون البريدج ويحتسون الجن بلونه الوردى.

كانت للمنزل حديقة كبيرة مثلثة الشكل يتوسطها ميدان تكسو جنباته مختلف أنواع الأشجار، وبجانبه ملعب للتنس. وكنا نحن الأولاد نتفرج على آبائنا وأصدقائهم وهم يلعبون التنس وأحيانا نقدم لهم المرطبات. كنت وقتها صغيراً لا أستطيع أن ألعب التنس، ولكنى تعلمت ركوب الدراجة التى كنت أتجول بها فى ملعب التنس بينما كان والدى يتبعنى من الخلف وهو ممسك

بسرح الدراجة. وكانت خلف هذا الملعب مساحة كبيرة مغطاة بالشجيرات، ويوجد بها عدد كبير من الأوكار المثيرة، كما كان هناك قسم للخدامين خلف المنزل بما فى ذلك المطبخ الذى كان يربط فى فنائه الديك الرومى لبضعة أسابيع ريثما يتم تسمينه قبل حلول عيد الكريسماس.

كان الشارع خلف سكن الخدامين يضاء بمصابيح متفرقة، وعند الأصيل يأتى أحد العمال حاملا عصاة طويلة مثبت فى أعلاها كلابة يدير بها مفتاح المصباح. وفى هذا الشارع كانت تتم خدمة مرحاض المنزل حيث يتم فى الصباح الباكر استبدال جردل المرحاض بآخر من خلال باب صغير يوجد خلف المرحاض. وحيث أنه لم تكن هناك أوراق تواليت آنذاك، فكان أحد الخدم يقوم ببساطة بتقطيع ورق الجرائد إلى قصاصات مربعة صغيرة تعلق داخل غرفة المرحاض، وكان يوضع إلى جانب المقعد صندوق ملىء بالرمل مع مجرفة صغيرة ليقوم الشخص بتغطية محتويات الجردل بقليل من الرمل بعد قضاء الحاجة.

كان يتولى رعاية حديقة المنزل الجناينى محمد، وأكثر ما كان يثير استغرابى كطفل صغير قدمه اليسرى التى لم يكن بها سوى ثلاثة أصابع فقط، حيث أنه قد فقد الأخريات إثر حادث بالطورية (المعول). وكنت أقضى لحظات سعيدة فى مساعدته أثناء رى المزروعات بما فى ذلك حفر جداول الماء وفتحها وسدها. ومن الأنشطة الأخرى التى كانت محببة إلى نفسى فى الحديقة عمل الطوب الأخضر بواسطة طاقم قوالب كان أهداه لنا أحد الأصدقاء، حيث كنا نصنع نفس الطوب الذى يستخدم فى بناء بيوت الطين.

كنت أذهب إلى روضة أطفال مسز فليفيل (Flavell)، بينما كان شقيقاى الأكبران يذهبان إلى مدرسة مسز بيتى باونل (Beatty-Pownall). وفيما بعد انتقل شقيقى الأكبر ريتشارد إلى مدرسة اليونيتى الثانوية (Unity High

School)، ولكن فى سنتنا الأخيرة بالخرطوم تخلف فى إنجلترا حيث التحق كطالب داخلى بمدرسة وايت تشيرش هاوس(Whitchurch House) بالقرب من مدينة ريدنج (Reading).

كنا فى معظم الأحيان نقضى فترة ما بعد الظهيرة فى حوض السباحة حيث كان اليوم الدراسى يبدأ وينتهى مبكراً. كان الحوض محاطاً بجدار تربطه أعمدة، وكان من تتوفر لديهم الشجاعة من الكبار يستخدمون هذه الأعمدة للقفز إلى الماء من علٍ، وكنت أعجب بهم كثيراً. ونظراً إلى أننا كنا نقضى وقتا طويلاً حول حوض السباحة فقد تعلمت السباحة فى وقت مبكر جداً لربما قبل أن أتعلم المشى.

لا زالت تعلق بذهنى ذكريات حفلين لعيد ميلادى، وأعتقد أنه فى عيد ميلادى الرابع وجدونى متكئاً على حافة سور السطوح أحاول التقاط بعض العنب من الكرمة التى كانت تنمو فوق الجدار الأسفل، وكان صديقى تومى كارمايكل (Tommy Carmichael)، المعروف دائماً بإثارة المشاكل، يحثنى على التقاط المزيد من العنب، ولا أدرى لمَ كانت أمى منزعجة جداً لذلك.

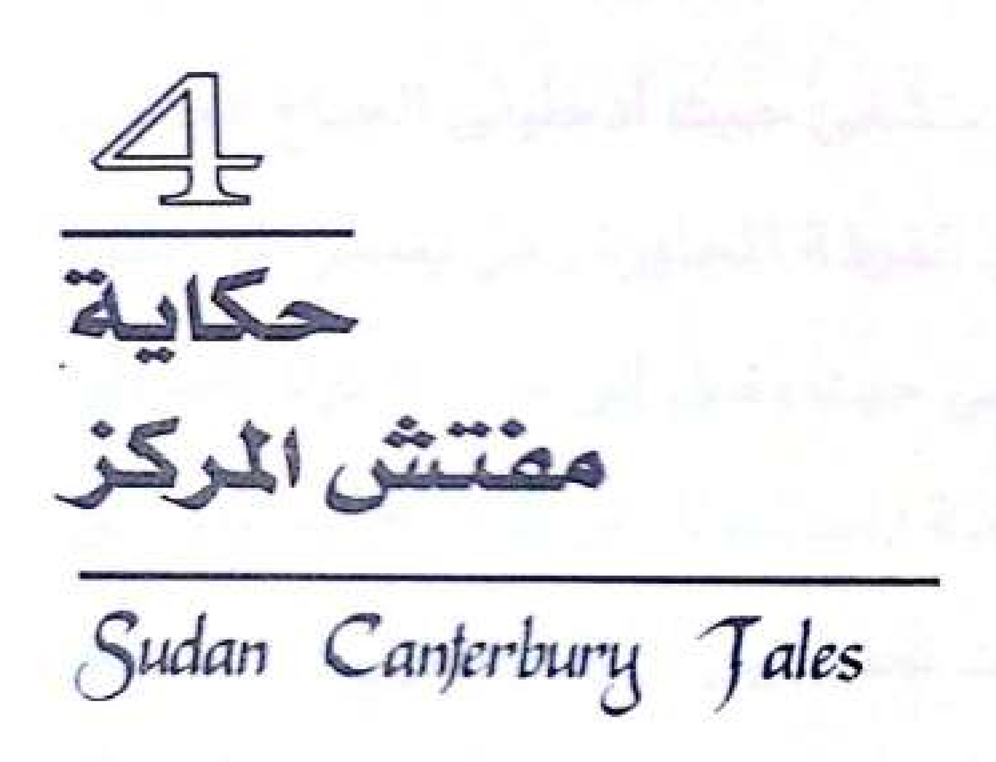
أما عيد الميلاد الآخر فقد استمتعنا فيه بزيارة جبل أولياء التى يوجد بها خزان ضخم، ومع أننى لا أذكر الآن شيئاً عن الخزان، إلا أن ما أثار اهتمامى كثيراً ذلك الكهف الذى كانت تتناثر أمام مدخله كمية كبيرة من العظام، ترى هل كان عريناً لأحد الضباع؟ كنا كأطفال نتحدى بعضنا البعض فى من يغامر بالولوج بضعة أقدام فى ظلمة ذلك الكهف. كما كانت حديقة الحيوانات من الأماكن الأخرى المحببة التى كنا نخرج إليها من وقت لآخر، وأذكر فيها فرس النهر الذى كنا نسميه "موسى" والذى كنا نناوله أرغفة الخبز فيلتهمها بأكملها، وكذلك قطيع الزراف الصغير الذى وجد داخل حظيرته فى يوم من الأيام إصبع بشرى ملقى على الأرض، والأعجب من ذلك أنه لم يبلغ أبداً عن إصبع مفقود!

حدث كسوف كلى للشمس فى عام ١٩٥٢م كما أظن. وأذكر أننا قضينا صباح ذلك اليوم خارج فصول الدراسة، واستخدمنا دخان الشمع لنظلل به قطع الزجاج التى كنا ننظر من خلالها إلى الكسوف، حيث أظلمت الأرض كلية، وتوقفت الطيور عن التغريد، بل وبدأنا نسمع أصوات الصراصير كما يحدث عند الغروب فى كل ليلة.

وأذكر أيضا تمثال الجنرال غردون ممتطياً الجمل، والذى كان منتصباً بالقرب من قصر الحاكم العام، وكان الجنرال قد قتله أنصار المهدى فى القصر عام ١٨٨٥م. وينتصب التمثال الآن فى فناء مدرسة غردون للبنين بمدينة لايت ووتر(Lightwater)، التى كنت قد أخذت إليها والدى فى عام ١٩٨٤م قبل وفاته بعام أوعامين لرؤية التمثال، وكم يحزننى أنه لفرط شيخوخته لم يكن التمثال يعنى بالنسبة له شيئا.

روبن هيوسون (Rob. Hewison)

■ ■ ■


4
حكاية
مفتش المركز
Sudan Canterbury Tales

وصلت إلى بورتسودان فى سبتمبر عام ١٩٣٢، وكالعادة كانت بدايتى غير موفقة، فقد أصبت فى حوض السباحة بالسفينة بالتهاب فى أذنى سبب لى ألماً حاداً. وبينما كان الدكتور إيليز(Ellis) يقودنى إلى المستشفى، التقانا فى الطريق بيتر أكلاند Peter Acland مساعد مفتش المركز الذى جاء لاستقبالى وزميل آخر كموظفين جديدين تحت التجربة. وبعد أن رحب بنا سأل: ماذا بكم؟ فأجابه الدكتور إيليز قائلاً: قد يكون التهاباً فى عظمة الأذن. وما أن سمع أكلاند ذلك حتى صاح قائلا: لم يسلم منه أحد فى هذه البلاد، أليس كذلك؟ وفى صباح اليوم التالى أرسلت إلى الخرطوم، وكلف زميلى الآخر ووب لندساى Wob) (Lindsay بأن يصب زيتاً ساخناً فى أذنى كل أربع ساعات. وأذكر ضمن محاولاته لإثارة اهتمامى - بورك فيه - أن قال لى: انهض قليلاً، وانظر ماذا هناك خارج النافذة؟ أعتقد أن هذا ما يسمونه الكلب الآسيوى Pi dog.

عند وصولنا الخرطوم، نقلت إلى المستشفى حيث أدخلونى الجناح الجنوبى فى غرفة بسرير واحد. وكان يرقد فى الغرفة المجاورة رجل يسمى فورايكرز (Fouracres) يتماثل للشفاء من نوبة حمى حيث وصل إلى مرحلة ترك الفراش والجلوس على الكرسى. كانت الممرضة المسئولة عن الجناح الجنوبى من القادمات الجدد إلى البلاد، ولذلك كانت تخلط بين الأرقام العربية، مما نجم عنه أن اثنتين من مساعدات التمريض هجمتا على (فورايكرز) المسكين لتربطا رأسه بكمادة ساخنة!

لقد استعدت صحتى بسرعة، ولكنى أصبت بالطرش مع بداية استلامى للعمل، والشىء الوحيد الذى أتذكره عن تلك الفترة هو أننى بينما كنت جالساً مع (ووب ليندساى) داخل عربة نستمع إلى محاضرة من كبير الضباط البيطريين حول المميزات الجسدية لأحد الجمال، إذا بالجمل موضوع المحاضرة يقرر فجأة أنه قد جلس بما فيه الكفاية ليتجه فجأة نحو (ليندساى) يريد أن يبرك عليه، ولكن لحسن الحظ استطاع (ليندساى) الفرار بجلده دون أن يلحقه أذى، وقد أصبح فيما بعد هذه الحادثة رئيساً للقضاء!

اتضح لى أننى كنت فائضاً عن العدد المطلوب، ولم يعرفوا ماذا يفعلون بى فأبقونى فى الخرطوم. وأخيراً أرسلونى إلى مكتب نائب مدير الخرطوم لأقف على كيفية سير العمل، وفيما عدا حقيقة أن المرء لا يستطيع أن يرى ما يدور داخل مكتب الحاكم، إلا أن مدير الخرطوم آنذاك كان شخصاً يسمى ستفى آرمسترونج (Stuffy Armstrong)، وكان يطلق عليه لقب (المتجهم"Stuffy") وقد شارك فى الحرب العالمية الأولى فى مرحلة مبكرة ، ونظراً لقدراته التنظيمية فقد تمت ترقيته إلى رتبة "جنرال" قبل نهاية الحرب. وكانت مشكلته تكمن فى أنه يختلف عنا كثيراً نحن الأفراد العاديين للدرجة التى لم نألف معها معايشته. أذكر مرة عندما كان مديراً للخرطوم أن استحدث نظاماً ضوئياً يتعامل به مع الزائرين، فكان الضوء الأخضر يعنى أنه يرحب بالجميع، والأصفر أنه مشغول ولكنه يرحب بقدامى الأصدقاء أو من لديهم عمل عاجل، أما الأحمر فيعنى بالطبع أن "ابتعد". غير أنه لسوء الحظ أن الموظفين لديه لم يستطيعوا استيعاب هذا النظام أبداً ، فكانوا إما لا يدخلون عليه أحداً بالمرة بينما يكون هو مستعداً لاستقبال الزائرين، أو يملئون مكتبه بالزائرين بينما لا يكون هو راغباً فى زيارتهم. كان عندما يريد أن ينتقد أحداً بقسوة يصفه بأن عقله كعقل ضابط الصف، لذلك أخشى بعد مغادرتى الخرطوم فيما بعد أن يكون قد صنفنى فى رتبة وكيل عريف!

لقد أنقذنى برامبل بيه(Bramble Bey) من هذا الفراغ المحيط الذى عايشته ثلاثة أشهر، حيث نقلنى عبر النهر إلى أم درمان ليعلمنى هناك كيف يجب أن يحكم السودان. كان (برامبل بيه) فى السابق يعمل فى البحرية الملكية التى وصل فيها إلى إلى رتبة "رائد"، ولكنه قضى أغلب سنوات حياته العملية بعيداً عن الروتين العادى. وكما حدث للجنرال غردون فقد لمع اسمه عندما كان يعمل فى الصين، ولكن لا أدرى ماذا كان يعمل هناك، لربما كان شيئاً يتعلق بالمخابرات كما علمت. كذلك لا أدرى كيف جاء إلى السودان، ولكنى أعتقد أنه جاء عن طريق الجيش المصرى حيث بدأ خدمته فى السودان بين قبيلة النوير. وعندما عرفته كان يعتبر ملكاً غير متوج لمدينة أم درمان؛ تلك المدينة الوطنية العظيمة المترامية الأطراف التى ترقد عبر النيل الأبيض من جهة الخرطوم. لقد حكم برامبل بيه المدينة بيد من حديد، ولأجل ذلك كان سكانها يحبونه ويقدرونه لأنهم كانوا يعلمون أنه بالرغم من ذلك القناع المتشدد الذى كان يبدو قاسياً أحياناً، إلا أنه وزوجته قد نذرا نفسيهما دون حدود لتحسين أحوال الرعية. كان المستر برامبل يهتم حقيقة بالحرف المحلية، ونجح فعلاً فى تطوير أعمال الفضة والجلود إلى مستوى ما كان يمكن تحقيقه إذا ترك الأمر للجهد المحلى.

كانت المدينة تنقسم إلى أربعة أحياء بالإضافة إلى السوق، وفى تمام السادسة من صباح كل يوم كانت تحتشد أمام منزل برامبل مجموعة من رجال الشرطة بزيهم الأبيض الناصع، وبعض الموظفين السودانيين الذين يمتطون الخيول كالمأمور وضابط الشرطة، بالإضافة إلى عدد من شيوخ الحارات يركبون على الحمير. وعندما تعلن الساعة السادسة تماماً يخرج برامبل ممتطياً صهوة جواده ومرتديا خوذة (ولزلى) التى وُضع عليها شعار المديرية (رأس فيل من الفضة على أرضية حمراء لامعة)، وجاكتة من الجبردين مع

أشرطة الرتبة على الكمين، والحذاء الميدانى والمهماز. كان هذا هو الزى الرسمى المخصص لجولة المدينة، وكان يفترض أن أكون دائما مرتدياً نفس هذا الزى ومنتظراً خروج برامبل مع الآخرين، ولكن فى يوم من الأيام وصلت متأخراً، وبينما كنت أحاول شد لجام الحصان بقوة لأوقفه، بادرنى برامبل قائلاً: "أنت يا خنزير الجحيم، لديك زرار فاتح"، ومنذ تلك اللحظة لم أصل متأخراً.

كنا فى العادة نتفقد حياً واحداً كل صباح، أما السوق فكان مخصصاً له يوم على حده. كان الغرض من هذه الجولات هو التأكد من نظافة المدينة، وعدم وجود قمامة أو بضائع مفروشة على الطرقات، وكذلك التقيد التام بلوائح المبانى. كما كان المواطنون يغتنمون هذه الفرصة لتقديم عرائضهم إلى المسئولين، وكان يتم البت فيها فى نفس اللحظة، أو يوجه مقدم العريضة للحضور إلى المركز فيما بعد. كان الله فى عون شيخ الحى الذى يكون حيه غير منظم، أو التاجر الذى يعرض بضاعته على قارعة الطريق حيث يتعرضان إلى بهدلة شديدة. أما تفتيش السوق فكان له يوم خاص كما ذكرت، وكان الهدف الرئيسى من ذلك هو القبض على الجزارين المخالفين، فقد كانت الأوامر تقضى بأن يقوم كل جزار بوضع اللحم على التربيزة (الطاولة) وتغطيته بفوطة بيضاء حتى لا يكون مكشوفاً للتلوث بالذباب. لم يكن الجزارون بالطبع يفعلون ذلك، وبالطبع كان برامبل مصراً أن يفعلوا ذلك، فكان أحياناً أثناء جولتنا فى إحدى ضواحى المدينة يعلن فجأة "إننا سنذهب إلى السوق الآن"، فتسرع بنا الخيول إلى هناك لندخل السوق من اتجاه غير متوقع، وكان دائما ما يقع فى قبضتنا بعض الجزارين المخالفين.

أثناء جولتنا بالقرب من السوق فى أحد الأيام، مررنا بمجموعة من النسوة اللائى بمجرد مشاهدتهن لنا أطلقن زغاريد متواصلة، وتكرر ذلك لثلاثة

أسابيع متتالية؛ وفى المرة الرابعة أوقف برامبل الحصان ونادى: "يا عوض الكريم"، فاسرع إليه الباشاويش عوض الكريم بزيه الرسمى الكامل، وسيفه يحدث صوتا على خاصرة الفرس، فقال برامبل: "الق القبض على هؤلاء النسوة وخذهن إلى المركز". بدا لى كموظف جديد فى الخدمة أن هذا التصرف جائر وليس فيه مراعاة لمشاعر الآخرين. وبعد الإفطار، على أى حال، كنت فى مكتب برامبل عندما أحضرت النسوة أمامه، فسألهن لماذا أحدثن تلك الضجة؟ فجاءت الإجابة: " يا سعادة البيه، انت عارف عادات البلد، نحن زغرتنا عشان نرحب بيك ونوريك نحن مبسوطين من حكمكم العادل الكريم"، فقال لهن: " إذا لم تقلن الحقيقة، سأرمى بكن فى السجن إلى أن تعترفن". تلت ذلك ضحكات مرتبكة، ثم قالت إحداهن: "فى الحقيقة سعادتك الجزارين أعطوا كل واحدة مننا خمسة قروش، وقالوا لينا أول ما نشوفكم جايين نزغرت عشان هم يعرفو من بدرى ويغطو اللحم بالفوط قبل وصولكم". لربما يحط الذباب على اللحم، ولكن ليس على (برامبل) أبداً!

كانت ترسل لى بعض المعاملات لإنجازها، ولكن فى معظم الوقت كنت أجلس فى مكتب برامبل لأعرف كيف يجب أن تكون إدارة البلاد، وبالنسبة لى لم يكن ذلك عدلاً، ذلك أنه لا أحد يستطيع أن يؤدى أداء برامبل بيه، الذى كان بالتأكيد نوعاً من التربية بالنسبة لنا. كان يخيل إلىّ أن لغته العربية، رغم طلاقته فيها، محدودة وكثيرة الأخطاء، ولكن لم يفقده ذلك كبرياءه عند التحدث مع الآخرين، وكانت لديه ثلاث عبارات مفضلة يستعملها دائما؛ "دا ممنوع"، "مش ممكن"، و"إنت محبوس هسع". أما إذا استدعى الأمر الاستمرار فى المحادثة، فينادى هاشم مترجمه الذى تلقى تدريباً جيداً ويقول له: "كلمه يا هاشم كلمه" (أياً كان ما يريد أن يقال)، فيتولى هاشم المهمة بسيل من الكلمات العربية، فيقول برامبل: " تمام، فهمت الآن إذهب بسلام".

أذكر مرة أنه حدث هلع من انتشار مرض الجدرى فى أمدرمان، وكان الناس يتهربون من التطعيم، وفى نفس الوقت كان تايلوره(Taylor) مساعد مفتش المركز يتولى إجراء تحقيق قضائى حول تورط عدد من أعيان البلد فى فضيحة أخلاقية، لذلك اكتظ فناء المركز بالمتفرجين، فما كان من برامبل إلا ان امر فجأة بإغلاق أبواب المركز، ثم نودى على ممرضين من المستشفى ومعهما مصل وإبر التطعيم، وأعلن أنه لن يسمح لأى شخص بالخروج ما لم يثبت انه قد تم تطعيمه. إذا جاء هذا التصرف من أى شخص آخر، لربما كان يؤدى إلى حدوث شغب، ولكن طالما أن الأمر قد صدر من (برامبل)، فقد استقبله جمهور الحاضرين بضحك يشوبه نوع من الكآبة ومدوا أذرعهم جميعاً للفحص والتطعيم، وكانت ردة الفعل الجماعية: "لقد انتصر البيه مرة أخرى، ياله من رجل!"

أثناء وجودى فى أمدرمان، أحيلت إلىّ أول قضية ميدانية، وكانت أول تجربة لى. وبما أن لغتى العربية كانت لا تزال ضعيفة، فقد سمح بأن يكون معى شرطى له بعض الإلمام باللغة الإنجليزية. بعد الاستماع إلى عدد من الشهود بكل ما كان فى إفاداتهم من لف ودوران، حكمت ببراءة المتهم المدعى عليه بسرقة سجادة. لربما كان لغيرى رأى مخالف، أما بالنسبة لى فعلى الأقل أصبح لدى شك معقول بأن الرجل غير مذنب، ولذلك وبكل جرأة قلت له: "إنت مش مذنب" فقال: "ما بتكلم انجليزى". هنا التفتُ إلى الشرطى قائلاً: "أخبره أنه غير مذنب" فنقل له ما قلته بالضبط. ثم قال الرجل شيئاً جعل الشرطى يبتسم ابتسامة عريضة، فسألته ماذا قال؟ فأجاب الشرطى: "يقول لك هل معنى ذلك أن احتفظ بالسجادة؟"

أسفت لوداع أم درمان بعد أن قضيت فيها ثلاثة أشهر، ولكننى سررت بنقلى إلى وظيفة أخرى مستديمة فى المديريات. بعدها لم أقابل برامبل إلا

مرة واحدة فقط، عندما جئت إلى الخرطوم بعد اثنى عشر شهراً لأداء الامتحان الأعلى فى اللغة العربية والقانون، حيث تقابلنا فى واجهة النهر فسألنى: "ماذا تفعل هنا يا بالفور؟" أجبت: "لقد جئت لأداء امتحان اللغة العربية، سيدى". فقال: "امتحان اللغة العربية؟ أنت تحتاج إلى كلمتين فقط لتحكم هذا البلد". توقعت أن أسمع منه العبارتين إياهما: "دا ممنوع"، و"مش ممكن"، ولكن لم يقل هذه ولا تلك وإنما قال: " الشدة مع العدل". وبعد ذلك لم نلتق مرة أخرى، غير أن ذكراه لا زالت حاضرة فى ذهنى، وأعتقد أنها ستظل حاضرة أيضاً فيما يروى من أساطير عن أم درمان.

نقلت من أم درمان إلى سنجة، وأذكر أننى قضيت أغلب إقامتى فى جولات بالجمال، وأحياناً بالخيل أو البغال. والعجيب أننى بعد أن غادرت سنجة لم أركب الجمل إلا مرتين فقط ولمسافة قصيرة، مما يدل على سرعة انتشار الماكينة ذات الاشتعال الداخلى. فى تلك الأيام كان مفتش المركز لا يزال مشغولاً بتحصيل الإيرادات خاصة من العرب الرحل المتخلفين عن السداد، أو الذين عليهم متأخرا، أوالذين كانوا يأملون من خلال تحركهم المستمر أن يهربوا من الدفع. وأذكر أننى قمت بأكثر من جولة إلى جبل (دالى) فى سهول غرب سنجة للحاق بالفرقان أثناء تحركهم إلى الجنوب. ولن أنسى على وجه الخصوص تلك الآفات التى كان يتعرض لها المرء فى الطريق، وكان أولها وأهمها ذبابة (السيروت) ، وهى حشرة فى حجم النحلة لها خرطوم طويل كالإبرة، وحدث ذات مرة أن اخترق هذا الخرطوم مشمع الكرسى السفرى الذى كنت جالساً عليه، ثم الرداء الكاكى الذى كنت أرتديه ليصل إلى إمدادات الدم الوافرة داخل جسمى. أما الآفة الأخرى فقد كانت العقرب. كنت أجلس فى خيمتى بجبل دالى، وكان المطر ينهمر على الخيمة بينما كانت العقارب تتراكض إلى أعلى السقف بحثاً عن مكان جاف، ويؤسفنى أن أقول إننى

جلست إلى الطاولة ممسكاً بمطواة جيب، وأمامى حوض من الصفيح لأجل العقارب تتحرف إليه، فاقتلها وأرمى بأجسادها إلى الخارج، ولكن بالرغم عن ذلك كنا نجد دائماً أعداداً كبيرة منها فى أعلى السقف عندما ننزل الخيمة فى الصباح، ولا زلت أختزن فى ذاكرتى الواهنة عقرباً ضخمة سوداء لها مخالب مثل مخالب سرطان البحر الصغير. وبالرغم من كل ذلك أكملت سنوات خدمتى فى السودان دون أن أصاب بلدغة عقرب.

كانت هناك إحدى قبائل العرب الرحل تسمى كنانة سراجية، وكانت بطون من هذه القبيلة تسكن فى المنطقة المجاورة للقضارف بصفة شبه مستديمة، ولم تدفع الضرائب لمدة أربع سنوات تقريباً. وكان تريفرز بلاكلى (Travers Black-ley)، مفتش مركز سنجة مصمماً على تحصيلها منهم أو معرفة مبرراتهم لعدم الدفع. لذلك اتفق مع رصيفه فى القضارف للقيام بعمل مشترك حيال هذه القبيلة، وأخذنى معه لأغراض تعليمية. أرسلنا جمالنا مع فرقة من الشرطة لتسبقنا إلى هناك، ثم لحقنا بهم باللورى بعد يوم أو يومين حيث عسكرنا ليلة فى الطريق، وقبل طلوع الفجر رحلنا على ظهور الجمال برفقة الشرطة وبعض زعماء القبائل، ودليل الطريق. وبعد أن قطعنا مسافة قصيرة على المجرى الجاف لنهر الدندر، إذا بالدليل ينعطف بجمله فجاة إلى قمة ضفة النهر فى صعود شبه عمودى، ثم تبعه (تريفرز)، ولحقت أنا بـ (تريفرز) طوعاً أو كرهاً. وفى لحظة وجدتنى فجاة أميل إلى الأمام على السرج إلى أقصى حد ممكن، وكان الجمل يهدر، وأنا ادعو أن يظل حزام السرج مربوطاً ومتماسكاً، إذ كانت خلفى هوة بعمق أربعين قدماً تقريباً. كان تريفرز أمامى مباشرة وكنا على وشك ملامسة ذيل جمله، فأخذ يصرخ قائلاً: " هذا أخطر شيء فعلته فى حياتى". وحيث أنه كان من الرماة فى الحرب العالمية الأولى، ثم ساعد والده فيما بعد للدفاع عن منزلهم ضد هجوم مسلح من (الشين فين Sinn Fein) فأخذت أدعو

له أن يظل حزام سرجه متماسكاً أيضاً. وبعد قليل انتهى كل شىء بسلام، ووصلنا القمة دون أن نصاب بأى أذى.

لا أذكر ما حدث بعد ذلك فيما عدا أننا نزلنا فى المخيم المتنقل، وتمكنا بمساعدة شيوخ القبيلة أن نمسك بعدد من رؤوس البهائم التى تخص الأشخاص المتهمين بعدم دفع الضرائب لعدة سنوات، ثم واصلنا السير إلى دار المحكمة فى مكان يسمى (طنيضبة) حيث التقينا هناك بالميجور إيفانز(Major Evans) مفتش مركز القضارف، وقضينا بقية اليوم نقابل رجلاً تلو الآخر فى جلسات طويلة مضنية أمكن خلالها لشيوخ القبيلة تحديد الأشخاص الذين لم يدفعوا الضريبة، وتم توقيع غرامة قدرها خمسة جنيهات مصرية على المتخلفين عن دفع الضريبة والمتأخرات السابقة، بالإضافة إلى عدد كاف من البهائم التى أرسلت إلى سوق ود مدنى تحت حراسة الشرطة لتباع هناك لتغطية إجمالى المبلغ المطلوب.

كان هناك عمل آخر نقوم به مع تحصيل الضرائب، وهو مراجعة تقديرات لجان العشور. كانت العشور تعادل اسميا عشر المحصول الزراعى، وبما أنها ضريبة منصوص عليها فى القرآن، فقد كان المزارعون على استعداد لدفعها وهم كارهون. وكان بمجرد أن يوشك المحصول على الحصاد، يتم إرسال لجان من الأعيان إلى كافة الأراضى المزروعة بعد أن يؤدوا القسم على القرآن بأن تكون تقديراتهم للمحاصيل عادلة ومنصفة. ثم يتم إدراج تقديراتهم فى كشوفات الضريبة مع توضيح مساحة الأراضى المزروعة كل على حدة، وتقدير إنتاجية الفدان الواحد. بعد ذلك يقوم موظفو المركز بمراجعة تلك الكشوفات بأسرع ما يمكن والاستماع إلى الشكاوى المتعلقة بتقديرات المحصول، وكانوا يقومون بهذا العمل وهم على ظهور الجمال، وذلك باتباع الخطوات التالية:

كانت تخصص قطعة أرض لتزرع بالقرب من المركز، وهى تكون عموما مستطيلة الشكل، على أن تكون مساحتها فدان بقدر الإمكان. عندما ينضج

المحصول كان عليك أن تركب الجمل ليخب بك إلى نهاية طول المستطيل وتحسب عدد الخطوات التى مشاها الجمل من البداية إلى النهاية، ثم تكرر ذلك لتقيس العرض ايضاً مع تدوين عدد الخطوات فى كل مسار حتى لا تتساها، ثم تلقى نظرة على المحصول لملاحظة مدى قرب سيقان النبات من بعضها البعض، وحجم القناديل. بعد ذلك يحصد المحصول، ثم يدق ويغربل، ويتم إبلاغك بعدد الأرادب التى أنتجتها هذه الأرض.

وهكذا تخرج إلى الجولة وأنت مسلح بهذه الموجهات التى تعينك على مراجعة تقديرات عشور الأراضى الزراعية التابعة لك بعد أن تنصب معسكرك على ضفة النهر لتغادر بالجمال مع طلوع الفجر يرافقك أهالى المنطقة المعنية. لن تستطيع مراجعة كل مساحة مزروعة على حدة، ولكن يمكن من خلال المرور بالمنطقة أن تتم المراجعة بصورة تقديرية، خاصة إذا اشتكى شخص من التقديرات التى وضعت له. يرافقك فى الجولة أربعة رجال يحمل كل منهم عموداً طويلاً عليه راية ، وعند الوصول إلى أرض مزروعة، يتوزعون على الزوايا الأربعة، وبالطبع لن تكون الأرض مستطيلة دائماً، ولكنك تحاول أن تجعلها مستطيلة بقدر الإمكان. ثم تركب الجمل ليسير بك بين الرايتين بطول القطعة ، ثم مرة أخرى بين الرايتين الأخريين بعرض القطعة. بعد ذلك تقوم حسب الموجهات الموجودة لديك بحساب المساحة المحصورة بين الرايات الأربعة، ثم تركب الجمل مرة أخرى داخل الأرض المزروعة لتقدير إنتاجية الفدان. وأثناء ذلك مسموح لجملك حسب التقاليد المرعية التهام ما يشاء من قناديل الذرة اثناء تحركه، ولكن لم يكن من اللائق أن تسمح له بالتوقف فى منتصف الأرض المزروعة. لذلك يمكنك بالنسبة للمساحات الكبيرة أن تقسمها الى مستطيلين، او حتى إلى مستطيل ومثلث. إن محاولة إيجاد القاعدة والارتفاع وأنت جالس على ظهر جمل تحت أشعة الشمس المحرقة ليست عملاً

سهلاً. وأحياناً وأنت تقترب من معرفة النتيجة، إذا بالجمل فجأة يلتقط فجأة رائحة عشب حلو المذاق. أما حقيقة كون أن هذا العشب يقع فى الجانب الآخر من أجمة شوكية فلا يعنى ذلك شيئاً بالنسبة للجمل، ولكن بالنسبة لك قد يعنى الكثير، لأنك قد تجد نفسك واقعاً على الأرض وسط هذا الشوك! وبعد الفراغ من وضع التقديرات الخاصة بقطعة الأرض المعنية، تقوم بمقارنتها بالمساحة والإنتاجية الموضحة فى كشوفات الضريبة التى يحملها معه شيخ القبيلة، ومن المدهش أن مجموعتى الأرقام فى الغالب تتطابقان تقريباً! وأخيراً ينتهى اليوم، فقد كنت تعمل دون توقف منذ الخامسة صباحاً، والآن هاهى الساعة قد أعلنت الرابعة والنصف مساء، والشمس تميل إلى الغروب، وبينما أنت فى طريق العودة إلى المنزل منهكاً، تلمح ضوءاً يشع على ضفة النهر، فتدرك أن الخدامين قد أضاءوا الرتينة (المصباح) البتروماكس. وبينما أنت تفكر مسروراً فى أنك ستأخذ حماماً، ثم تتناول شيئاً من الويسكى والصودا مع طعام العشاء، إذا برجل مسن يخرج فجأة من بين الأشجار ملوحاً لك بورقة ويقول: "أنا مظلوم، لقد وضعوا لى تقديرات عالية"، وأنت تعلم أنك حسب الجدول، مطالب بحزم أمتعتك، والتحرك إلى مجموعة قرى أخرى قبل فجر اليوم التالى. غير أنك تسأل الرجل: "أين أرضك ؟" فيقول: امممم، مشيراً بذقنه إلى اتجاه معين. (كان السودانيون هم الشعب الوحيد حسب علمى الذين يستطيعون الإشارة بذقونهم). وبما أنه لا فائدة من استفسار الرجل عما إذا كانت أرضه قريبة أم بعيدة، فإنه لامناص من توجيه الجمل، وأنت فى غاية الضجر والسأم ليتهادى بك خلف الرجل شاقاً طريقه وسط عتمة الليل البهيم.

إنها فى النهاية تسمى (خدمة).

فى أشهرى الأخيرة بسنجة أصبحت غير قادر على الحركة بسبب إصابتى بمرض (عرق النساء)، وآلام فى أسفل الظهر، ولذلك قضيت بعض الوقت

نزيلاً فى مستشفى الخرطوم قبل أن انقل إلى ود مدنى، وقد تم فى تلك الفترة دمج مديريتى الفونج والنيل الأزرق، وظلت ود مدنى عاصمة للمديرية. وافق مدير المديرية، كلايف يونج(Clive Young) على سفرى إلى الوطن فى إجازة مرضية، حيث أخضعت فى لندن لعلاج مكثف استغرق خمسة أشهر، عدت بعدها وأنا أبدو معافى ظاهرياً، إذ عاودنى الألم مرة أخرى بعد مباراة فى (الاسكواش). وعندما اشتد الألم واستبد بى اليأس، قال لى السفرجى الذى يعمل لدى أن باستطاعته علاجى، وبالفعل استطاع خلال ثلاثة أسابيع أن يشفينى من المرض تماماً بواسطة شعلة من النار كان يضعها على مكان الألم ويقلب فوقها علبة مربة زجاجية (برطمان) ليحدث فراغاً يمتص الجزء المصاب من جسمى داخل البرطمان. كان ذلك نوعا بدائياً من الحجامة الجافة ولكنها كانت علاجاً ناجعاً لما كنت أعانيه من آلام.

وفى ود مدنى، علاوة على الرحلات التى كنت أقوم بها إلى المناطق المجاورة، فقد كانت المدينة أيضاً تحت مسئوليتى المباشرة، وكان سكانها آنذاك حوالى ٤٠.٠٠٠ نسمة مما جعل حجم عملى كبيراً. وبالرغم من أن فترة عملى مع (برامبل) قد أفادتنى كثيراً، غير أننى يمكن أن أصف ود مدنى آنذاك بأنها كانت مدينة (لاهية)، فقد كان أكبر تجار المدينة الذى يفترض أن يكون من أعمدة المجتمع متهماً بالخلاعة. كما أذكر قضيتى اغتصاب أطفال ولكن لم تثبت التهمة فى أى منهما. وكذلك قضية غريبة أخرى اتهم فيها ربع سكان المدينة امرأة بغواية وإفساد بناتهم، ولكن لم يتوافر اى دليل مادى لإدانة المرأة. غير أننى اكتشفت مؤخراً أن المرأة لها زوج استطاعت أن تأتى به ليكون ضامناً لها بحسن السير والسلوك، ولكننى أخبرتها بأنها امرأة مزعجة، وأنها إن لم تقلع عن أساليبها الدنيئة فستجد نفسها طافية فى مياه النيل الأزرق مما يسبب مشاكل كثيرة. يبدو أن ذلك كان له أثره إذ أننى لم اسمع عنها شيئاً بعد

ذلك. كان كل ذلك نوعاً من التربية الجادة بالنسبة لشاب مثلى نشأ نشأة سليمة.

فى إحدى زياراتى خارج المدينة دخلت فى ورطة بسيطة، فقد عدت من الإجازة لأجد مفتش المركز قد غادر فى إجازته أيضاً، وأن مساعد المفتش الذى كان مسئولاً عن المنطقة الريفية هو الآخر فى إجازة، وهكذا أصبحت أتولى إدارة المركز منفرداً. غير أن مساعد المفتش قبل مغادرته، أخبرنى بأن أحد شيوخ الخط فى منطقة المناقل قد توفى، وأنه سيتم تعيين خلف له بعد عودة مفتش المركز من الإجازة. كذلك كان يتعين علىّ إبلاغ رجال قبيلة العركيين الذين كانوا يطالبون بأن يكون لهم "خط" لوحدهم بأنه لم تتم الموافقة لهم بذلك. وقررت بقليل من الرهبة والتردد، ولكن مع التصميم أيضاً على إطاعة الأوامر، أن أقوم بزيارة إلى المناقل. بعد وصولى إلى هناك، جاء عمدة العركيين لمقابلتى وخلفه جمهور من أنصاره يهتفون مطالبين بخط منفصل لقبيلتهم، وأخبرت العمدة، كلما سنحت فرصة للهدوء من الهتاف فى الخارج، أن مفتش المركز قد قرر أنه ليس بالإمكان أن يكون لقبيلته خط، وأننى جئت من أجل التأكد من فهم هذا القرار والعمل بموجبه، وإذا كان يعتبر هذا القرار غير عادل، فالفرصة دائما متاحة للاستئناف أمام مدير المديرية، أو إلى من هو أعلى منه إذا رأى ذلك مناسباً.

بعد ساعتين من الجدل العقيم أعلنتُ رفع الاجتماع، وغادرت المكان إلى منزل الشيخ عبد الباقى، ملك المناقل غير المتوج، لأتناول معه طعام الغداء فى غياب الاستراحة الحكومية التى كانت تحت الترميم. ولسوء الحظ كان المنزل يبعد قليلاً عن نقطة الشرطة. وبالرغم من أن العمدة قد ذهب ساخطاً، إلا أنه قد ترك أفراد القبيلة وراءه، مما جعل عبد الباقى يأتى مسرعاً ليقول لى أننا سنقتل جميعا. لذلك كان يجب علىّ أن أخرج لهم لأقول: "لا تكونوا أغبياء"،

ولأشرح لهم أننى أحمل أوامر من رئيسى المباشر، ولن أغير هذه الأوامر لمجرد هتافهم، ولكن يمكنهم رفع الأمر إلى مدير المديرية، فإذا رأى أن قضيتهم عادلة فلا شك أنه سوف يصدر تعليماته إلى المسئولين بالمركز لإجراء اللازم وفقاً لذلك. وعندما هدأوا قليلاً، طلبت منهم أن يعودوا إلى منازلهم ويفكروا فى الأمر. فى ذلك الأثناء كان قد تم إبلاغ الشرطة الذين وصلوا من الرئاسة، ولذلك عاد المتظاهرون إلى بيوتهم بهدوء. بعد تفرقهم مباشرة أرسلت اثنين من رجال الشرطة لإحضار العمدة الذى قمت بتوبيخه بكل قسوة وصراحة على طريقة "العم الهولندى".

جلس الرجل العجوز أمامى والدموع تنحدر على خديه، بينما كنت ألقى عليه محاضرة فى حسن السلوك ولم أندهش لانزعاجه. كنت أبدو أمامه فى تلك اللحظات كما لو أن عمرى خمسة عشر عاماً، علاوة على أننى مسيحى. عندما شعرت أن الأحوال قد هدأت، عدت إلى ود مدنى، وفى الطريق قابلت فرقة من شرطة السوارى تتكون من ثلاثين رجلاً فى طريقهم إلى المناقل، ويبدو أن تقريراً مبالغاً فيه قد وصل إلى الرئاسة، وعلى كل حال اقتنع العركيون فيما بعد بما قلته لهم واستأنفوا لدى مدير المديرية الذى رأى أن الحق بجانبهم، وأرسلت أنا لتلمس رغبات الرأى العام، حيث قمت بزيارة سبع وعشرين قرية خلال يوم واحد، وشربت ثلاثة فناجين من القهوة، وثلاثة أكواب من الشاى فى كل قرية. كان الجميع فى غاية الود، واعتذروا لى عما بدر منهم، وكانوا جميعاً يطالبون بأن يكون لهم "خط" مستقل. أما العمدة فلا أذكر أننى قابلته فى تلك الجولة، وأخشى أن يكون قد توفى وهو ساخط علىّ. المهم أن العركيين قد حصلوا على مشيخة الخط بينما بقيت أنا فى المستشفى لبضعة أيام، وعندما أخبرت الممرضة بما فعلت، انفجرت ضاحكة وقالت لربما يكون قد حدث لى تسمم من الكافيين!

ذهبت مبكراً إلى الصلاة فى كنيسة ود مدنى، وعندما خرجت وجدت فى انتظارى أمباشى من الشرطة يبدو عليه الانزعاج، فأخبرنى أن أحد الخفراء قد هجر فرقته بسبب مشاكل عائلية، وهو يقف الآن على سطح أحد المبانى ممسكاً بسلاحه النارى المحشو بالذخيرة الحية، ويهدد بأنه سيطلق النار على زوجته أولاً، ثم ضابط الشرطة الذى حالت مشغولياته دون النظر فى مشكلته. عندها قلت لنفسى: "حسناً، على الأقل لم أكن أنا المدان". نجحنا فى إقناع الرجل بالنزول، بعد أن كلفنا ذلك بعض المجهود، حيث قال له الضابط المرافق لى فى النهاية: "إنك تعطل مساعد المفتش عن تناول إفطاره"، ونجحت هذه الحيلة وإذا بالرجل يستجيب ويأتى نازلاً كالحمل الوديع.

كنت مرة ذاهباً لتناول طعام العشاء مع مدير المديرية، وعندما نزلت إلى البرندة بهندامى النظيف المرتب وجدت امرأتين بدينتين فى انتظارى، وفجأة جلستا على الأرض وأمسكت كل منهما بإحدى قدمىّ قبل أن أتمكن من اتخاذ أى إجراء وقائى، وهكذا أصبحت مقيداً لا أستطيع مبارحة البرندة بينما كانت الدقائق تمر بسرعة. ناديت على السفرجى ولكن دون فائدة، فقد اكتفى بمجرد الوقوف مردداً كلمة "اتفضلوا". لذلك قلت لهما يائسا منتحلاً صوتا مشابهاً لصوت (براميل) أنهما إذا لم تقفا فوراً فسأضطر إلى إرسالهما للسجن لألف سنة، وعندما نهضتا أخبرتهما بأن تحضرا إلى المركز فى الساعة التاسعة صباحاً، ووعدتهما بأن أنظر فى قضيتهما قبل أى عمل آخر، وبذلك تمكنت بصعوبة من اللحاق بموعد العشاء.

إتضح فيما بعد أن الشرطة أثناء التفتيش عن بعض البضائع المسروقة، قد عثروا على شئ يشبه (قضيب الرجل) فصدموا بذلك، وقاموا فوراً بإلقاء القبض على صاحب المنزل وهو ابن إحدى المرأتين وابن أخت الأخرى. وحيث أننى لم أجد فى القانون الجنائى أو اللوائح ما يمنع حيازة الشخص فى منزله

لشيء يشبه قضيب الرجل، فقد أمرت بإطلاق سراح المتهم، وقام بيز بيه (Pease Bey) قمندان الشرطة بالاستيلاء على المعروض والاحتفاظ به في ما كان يسميه "متحف الشرطة"، ولم أره بعد ذلك أبداً.

كان هيربرت بيز Herbert Pease قمنداناً ممتازاً يحظى بحب واحترام رجاله وكل أصدقائه خارج قوات الشرطة، وكان قد أتى إلى السودان عبر الجيش المصري، وفي الطريق استطاع أن ينمي نوعاً فريداً وغير عادي من اللغة العربية يخصه هو لوحده ولخدمة أغراض العمل فقط، ولكنه لم يكن يصمد طويلاً في مواجهة الأمور المستعصية. في أثناء السنوات المبكرة الصعبة للحرب العالمية الثانية، كان يتم إمدادنا وغرب السودان بملخص أسبوعي للأحداث المحلية، وشعرنا جميعاً بالامتنان عندما قرأنا أن قمندان شرطة مديرية النيل الأزرق قد فتح الباب للمتطوعين الذين يرغبون في مساندة جبهة الحدود السودانية الحبشية الضعيفة. فاستجاب للنداء جميع رجال الشرطة، وتم اختيار عدد محدود من شباب الشرطة خفيفي الحركة، وأرسلوا جنوبا للالتحاق بفرقة اختراق الأدغال التي كانت تقوم بعملياتها على الحدود بقيادة مفتش مركز محلي تم تعيينه لهذا الغرض. ثم سمعت مؤخراً أنهم بعد أن قضوا شهرين أو ثلاثة في الخدمة الممتازة قالوا جميعاً إنهم يريدون العودة إلى بلادهم، فقال لهم القائد: "... ولكنكم قد تطوعتم للخدمة حتى انتهاء حالة الطوارئ"، فأجابوا: "ليس كذلك". فقال القائد: "نعم كذلك، لقد أخبركم بيز بيه بذلك، وطلب من الذين يريدون التطوع منكم أن يخطوا إلى الأمام، وكنتم أنتم من تقدمتم إلى الأمام". فقالوا: "هل هذا ما كان يتحدث عنه؟ كنا نستمع إليه ولكن لم نفهم منه كلمة واحدة، ثم قال لنا: ثلاث خطوات للأمام مارش، ففهمنا هذه وأطعنا الأوامر".

كان (بيز بيه) فخوراً بفرقته الموسيقية التابعة للشرطة، ولم يحدث أن سافرت للإجازة دون أن أحمل معي طلبات لشراء آلات أو دفاتر موسيقية من

بوسى آند هوكس (Boosey & Hawkes). كانت الفرقة فى العادة تخرج عند الخامسة صباحاً من يوم الكريسماس وتطوف بالمدينة وهى تعزف مقطوعة (انهضوا أيها المسيحيون: حيوا الصباح السعيد) (Christians awake: Salute the happy morn.) أمام كل بيت من بيوت البريطانيين، ومع أن أعضاء الفرقة كانوا جميعاً مسلمين، اسمياً على الأقل، إلا أن ذلك لم يكن يمنعهم من عزف هذه المقطوعة، ولربما شجعهم على ذلك حقيقة أن الساكن كان عليه أن ينهض بسرعة ليقدم للفرقة هدية سخية.

بعد ود مدنى نقلت لأعمل معلماً بكلية غردون، وذلك لأن الترقيات كانت متوقفة وأرادوا أن يستعيروا أحد الإداريين لمدة عامين للمساعدة فى حل المشكلة، أما لماذا تم اختيارى أنا بالذات فلا أعلم. غير أن فاركهارسون لانج (Farquharson Lang) ، وهو أحد زملاء الدراسة القدامى، ذكر لى أنه هو الذى طلبنى، ولكنى أشك فى ذلك، وأعتقد أن الأمر كانت وراءه ثمة مؤامرة خبيثة من جانب الأطباء الذين كانوا يشرفون على علاجى والذين لم يرضهم أن ألعب ستة أشواط من البولو أسبوعياً، ناهيك عن الاسكواش والتنس، مستمداً هذه القوة من (برطمانات) المربة! وهكذا ذهبت إلى كلية غردون، واستمتعت بالعمل بها رغم أننى كنت أجد صعوبة فى أن أكون دائما سابقاً لتلاميذى فى الحصة التالية. كان من حسن حظى أن قامت لجنة (دى لا وار للتربية والتعليم فى أفريقيا War Commission on African Education De L a بتسجيل زيارة للكلية حيث تقرر بعدها توسيع النظام التربوى بأكمله، وتوفير تربويين أكفاء للقيام بهذه المهمة، ولذلك عدت إلى حقل الإدارة بعد قضاء سنة واحدة فقط فى الكلية، حيث تم نقلى إلى مركز نيالا بمديرية دارفور.

استغرقت الرحلة بين الأبيض والفاشر، عاصمة مديرية دارفور، أربعة أيام، وكان السفر بلوارى الأجرة. وبعد مسافة قصيرة من مدينة النهود تبدأ الرحلة

فى (القوز) وهو عبارة عن سلسلة من الكثبان الرملية تمتد على طول الطريق إلى الفاشر، حيث تنغرس عجلات اللورى بعمق فى الطريق الرملى وتتسلق ببطء إلى أعلى هذه الكثبان، وعندما يقترب اللورى من القمة يعجز عن الحركة فينزل الصبية ليضعوا صاجات حديدية على المجرى أمام العجلات الخلفية لمساعدة اللورى على الوصول إلى قمة الكثبان الرملية لينزل إلى الجانب الآخر بسرعة افضل بكثير، ولكن ليواجه المزيد من الرمال، وهكذا تتكرر العملية، ويستمر الحال كذلك إلى مسافة ٤٠٠ ميل. فى فصل الصيف يكون هذا السهل الرملى مغطىً مدى البصر وفى كل الاتجاهات بنبات (الحسكنيت)، وهو نبات أخضر يانع يحمل ثماراً سامة جداً، وله شوك حاد كالإبر يلتصق بالملابس ويتجه تدريجياً من نقطة الملامسة إلى أعلى الملابس. خلال الأمطار الأخيرة عندما نضجت هذه الثمار أخذت تتطاير إلى أن وصلت إلى مقعد اللورى الأمامى من خلال الزجاج الحاجب للريح الذى كان يترك مفتوحاً تفادياً للموت بأثر الحرارة والاختناق. ويقال إن عروساً وصلت لتوها إلى البلاد، عندما شاهدت هذا النبات أخذت تصرخ مبتهجة قائلة: "ياله من عشب أخضر جميل" وجلست عليه!! فى آخر أيام الرحلة يتوقف بك اللورى فى بلدة أم كدادة، وهى قرية بنيت على الرمال، تحيط بها سلسلة من الصخور السوداء. وتقضى الليل هنا فى استراحة شيدت بطريقة (ظهر التور) المعروفة، وهو عبارة عن سقف من العشب يتدلى إلى أسفل فوق البرندة ليجعل المكان مظلماً وكئيباً، وفى نهاية جزئه الأعلى المثلث الزوايا يوجد هناك حجر يدل على حدوث كارثة مكتوب عليه أنه مطلوب منك أن تترحم على روح شاب مسكين يدعى ميدلتون (Middleton) انتحر قبل سنوات فى هذا المكان. وبالرغم من أن بعض الناس يحبون أم كدادة، إلا أننى كنت أشعر دائماً أنه فيما لو تقرر إبقائى فى أم كدادة لكنت قد حذوت حذو ميدلتون المسكين. فى اليوم

على أى حال، يواصل اللورى سيره عبر ممر صخرى، وعند الخروج من الممر تلوح لك عبر السهل إلى الأسفل قبة مسجد على دينار وهى تلمع فى ضوء ما بعد الظهيرة، فتدرك أنك قد شارفت الوصول إلى نزلك.

كان ضم دارفور فكرة خطرت على البال مؤخراً فقد ظلت مستقلة عن بقية السودان حتى عام ١٩١٦ عندما بدأ سلطان الفور يدخل فى مغازلات مع تركيا. لذلك تقرر تجريد حملة عسكرية إلى دارفور، حيث دارت تلك المعركة التى قتل فيها السلطان على دينار، وتم ضم المديرية إلى بقية أجزاء السودان. وعليه كان الأشخاص الذين تم اختيارهم لإدارتها يفخرون دائماً بان دارفور تختلف عن غيرها، وقد نشأت هذه الفكرة لدى شخصيات غريبة الأطوار تولت المسئولية لمدة سنوات. وكان من بين هؤلاء الكولونيل سافيل (Colonel Savile) الذى يحكى عنه أنه عندما كان عائداً إلى بلاده فى إجازته السنوية دخل فى نقاش مع أحد الأشخاص على ظهر السفينة التى كانت تقلهما عبر البحر الأبيض المتوسط، وبعد نصف ساعة من الأنس البرئ انكشف المستور عندما قال بالحرف: "بحق جوبيتر لا بد أن تكون أخى، وبحق جوبيتر كان هو كذلك!"

ثم خلف سافيل الثلاثى دوبيس (Dupuis) مدير المديرية، وأودس (Audas) المفتش البيطرى، وطبيب لا أذكر اسمه. ويبدو أن هؤلاء الثلاثة قد استحدثوا لائحة سلوكية مقتبسة من لوائح ونظم المدارس والداخليات، فمثلا كان ممنوعاً ارتداء قميص أزرق ما لم يكن الشخص قد أقام فى المديرية لمدة ثلاث سنوات، وكان يجب على كل شخص أن يلعب البولو، وعلى القادمين الجدد أن يتسلقوا العمود بعد عشاء الكريسماس. كانت هذه طريقتهم دون أن يؤذوا بها أحداً، ولا شك أنهم بذلك كانوا يقصدون رفع روحهم المعنوية. غير أن ذلك أصبح موضوع تساؤل بالنسبة لمفتش المركز الجديد الذى لم يكن يؤمن بتلك التقاليد، وكان قد وصل إلى تلك المنطقة النائية فى نفس الوقت الذى وصلت فيه. أما

مدير المديرية، فيل إنجلسون (Phil Ingleson)، فقد كان على استعداد لمسايرة الأفكار الحديثة، وأدرك أنه من خلال تحسين سبل المواصلات، وتزايد الإقبال على التعليم، لن يكون بالإمكان الاحتفاظ بالنمط القبلى القديم باتباع الطريقة الأبوية العطوفة التى كان ينتهجها الوافدون.

كانت الإبل لا تزال هـى القوة المحركة فى منطقة مركز شمال دارفور، ولكن فى المناطق الأخرى ظل الحصان هو المهيمن، خاصة فى المنطقة الجنوبية من المديرية التى كانت حاضرتها مدينة نيالا، والتى كان البقارة يشكلون فيها غالبية السكان، وهم عرب رحل يحملون أمتعتهم على ظهور الثيران التى تركب عليها النساء، بمرافقة الرجال الذين يمتطون صهوات الجياد ويحمل أغلبهم (الشلكاية) التى هى عبارة عن رمح بشفرة عريضة فى نهايته. كان من المحبط لشخص مثلى لا علاقة له بالخيل أن يشاهد كيف يقوم هؤلاء الرجال بوضع قعر الرمح على الأرض والارتكاز على القصبة للقفز بها على سرج الحصان بكل سهولة ويسر، وكم تحسرت كثيراً أننى لم أستطع أن أكون فارساً مثلهم، فأنا أولاً جسمى طويل وساقاى قصيرتان مما يجعل مركز توازنى مرتفعاً جداً، ولكن بالرغم من ذلك حاولت أن أكيف نفسى بالاستمتاع بلعبة البولو حيث كنا فى نيالا نلعب نوعاً غريباً من البولو فقد كان الفريقان يتكونان من كل الأشخاص ابتداء من مفتش المركز وانتهاء بضباط الصف فى فرقة العرب الغربية. وبما أننا كنا فى بلد مسلم، فقد كانت كل الخيول المشاركة من الفحول، ولذلك كنا عندما تهدأ المباراة فى لحظة من اللحظات ونحن ننهمك فى اللعب ونحاول أن ندفع بالكرة إلى داخل الملعب، نلاحظ أن الخيول قد تصاب بنوع من الجنون خاص بها فيرتفع صهيلها وهى تقف على أرجلها الخلفية وتضرب بعضها البعض بأرجلها الأمامية، وكان أفضل الفرسان هو من يستطيع أن يأخذ الكرة بعيداً بعد ذلك.

كان مفتش مركز نيالا فى ذلك الوقت هو بلبل نايتنجيل (Bulbul Nightin-gale)، ومع أنه كان صغيراً فى حجمه، إلا أنه لم يكن يعرف الخوف بتاتاً. وعندما وصل إلى المركز وجد أن هناك مجموعة من الأسود تشكل مصدر إزعاج للعرب وقطعانهم من الماشية، فاستطاع خلال عام أو عامين التعامل معها بطريقة مختصرة جداً، واعتقد أن مجموع ما اصطاده منها قد بلغ ثلاثة وتسعين. كانت طريقته هى الانتظار حتى يقتل الأسد فريسته، وفى صباح اليوم التالى يأمر مجموعة من العرب الخيالة المسلحين بشلكاياتهم بمحاصرة مكان الفريسة، ثم يختار هو موقعاً يكون فى مدى إطلاق النار من بندقيته، ويجلس على مقعد قابل للطى واضعاً بندقيته على ركبتيه، ثم يطلق صافرته. هنا يهجم العرب بخيولهم فتنهض الأسود التى تكون نائمة بالقرب من فريستها، وتحاول الابتعاد عن المكان تفادياً للمواجهة، وبمجرد أن تكون مكشوفة لديه، يقوم بلبل بإطلاق النار عليها فلا تكون أمامها فرصة غير محاولة الهروب بعيداً، أو التوجه نحوه مباشرة وهى تهدر بوحشية، ولكن دون جدوى إذ سرعان ما تخر صريعة.

وأذكر مرة أنه كان يعسكر فى مكان يبعد عن الطريق يسمى (شيلك)، وعند منتصف الليل استيقظ على صوت عراك خارج المعسكر، فنهض ونصب مقعده وجلس عليه وبندقيته جاهزة فى انتظار ما يحدث، وفجأة لاحت له دهمة وسط الظلام متجهة نحوه مباشرة، فما كان منه إلا أن أطلق النار نحوها، وفيما بعد رأيت صورة فوتوغرافية لها، فقد كانت عبارة عن ثور جاموس ضخم راقداً على الأرض وأنفه على بعد ياردتين فقط من سرير بلبل، واتضح أنه كان قد دخل فى عراك مع بعض الأسود، وليته كان اكثر حكمة وبقى معهم إذ أن فرصته مع بلبل كانت معدومة تماماً.

كان بلبل يمتلك عربة (حنطور) مزودة ببيايات عالية يجرها جوادان، أحدهما أنثى أصيلة تربط بين المحورين ويقودها فى الأمام حصان ذو مزاج

متقلب. وكان بلبل يصر أن أركب معه بعد الانتهاء من لعب البولو او عند العودة من العمل رغم أنى كنت بصراحة أخشى الركوب معه. وأذكر مرة أننا بينما كنا عائدين إلى المنزل أن قال لى: "عجيب هذا الفرس المقدم، رأس البهاش، إنه لا يطيق جرس الدراجة المربوط على العربة، أنظر الآن"، ثم قرع الجرس وإذا بالعربة تندفع بقوة بين شجرتين على الطريق أمسكتا بمحورى العربة فانقطع حبلا الجر، وانتهى بنا الأمر، أنا وبلبل، بالانكباب بوجهينا على الأرض أمام مجموعة من السجناء كانت تتفرج مذهولة بما حدث.

لقد حرصت على تأكيد أن بلبل كان لا يعرف الخوف، لأن ذلك فى إحدى المرات قد قاد إلى عدم كفاءتى. كان هناك سباقان للخيل يقامان فى دارفور أحدهما فى الفاشر والآخر فى نيالا. وكان بعضها يخصص للعرب فقط، بينما كان البعض الآخر مفتوحاً للجميع عرباً وأوروبيين على السواء. وعلمت أنه كان يتعين علىّ أن ألعب دوراً فى هذه السباقات. وبالرغم من عدم رغبتى فى المشاركة، إلا اننى وافقت استجابة لنداء الواجب وإرضاء (للحاكم)، وكنت البريطانى الوحيد المشاركة فى السباق. حصلت على سرج حصان من النوع الجيد الذى يمكن الجلوس عليه بأمان، وبينما كنت أستعد للركوب عليه، كان بلبل يراقب ذلك، فصاح بى قائلاً: "عزيزى: إنك لن تستطيع أن تسابق بهذا السرج، دعنا نستبدله لك بآخر". وقبل أن انتبه، وجدتنى جاثماً على قطعة رقيقة من الجلد موصولة بركابين وركبتاى تقتربان من ذقنى، فالقيت نظرة على زملائى المشاركين معى فى السباق، واستودعت روحى عند رب العالمين، فقد بدوا لى كأنهم مجموعة من الوحوش الشرسة الملتحية بصورة لم أشاهدها من قبل، ولم يكونوا يركبون على سروج السباق الخفيفة، وإنما ابتدعوا أشياء غريبة الشكل تغطى ظهر الحصان من مقدمته إلى مؤخرته، وكان كل منهم يركب فرسه بإدخال إصبع واحد من كل قدم فى كل من جانبى الركاب. لم يكن

الهدف من سباق الخيل عند العرب هو فوز الحصان الأفضل، وإنما كان المتسابق يبذل كل ما فى وسعه لكى لا يفوز الحصان الأفضل. وبما أن حصانى كان هو الوحيد الذى يتغذى على الذرة، فقد أصبحت بذلك هدفاً واضحاً للمتسابقين. وعندما أشار العلم معلناً بداية السباق، إذا بالفرسان يندفعون نحوى من الجانبين إلى أن أسقطوا قدماى من الركابين، ولكنى نجوت من ذلك بطريقة أو أخرى، وانطلقت بحصانى خلفهم، ولكنهم كانوا جميعاً يخرجون عن السيطرة كالعادة ويجنحون عند المنعطف قبل الدخول فى الخط المستقيم. وهنا تذكرت حكاوى فريد آرشر (Fred Archer) التى كان يرويها لى عندما كان يقف واضعاً قدمه اليسرى على السياج، وحاولت أن أعمل بها ولكنى لم أوفق. وفجأة عند الانعطاف إلى الطريق المستقيم اندفع نحوى أحد أولئك الشرسين والغبار يتطاير من لحيته فرمانى على السياج، ولم أعد أذكر ما حدث بعد ذلك، غير أنى أتصور أن الجمهور لا بد أن يكون قد تصايح بعبارة "النصرانى وقع". لقد عانيت فقط من ارتجاج فى الرأس، وأثناء الأسبوع الذى لزمت فيه الفراش تمكنت من قراءة ملحمة فورسايت (Forsyte) بأكملها ابتداء من قصة (الرجل صاحب الأملاك) إلى قصة (فوق النهر). وفى العام التالى شاركت فى نفس السباق وبنفس الحصان ولكن على سرجى الخاص. ورغم أننى فى هذه المرة قد كسبت السباق، إلا أننى ما كنت أريد ذلك ولكن عيون (الحاكم) كانت مسلطة علىّ.

كان العمل اليومى بالمركز يسير كالعادة، وكان أروع ما فى ذلك تلك الجولات التى كنا نقوم بها بالخيول والبغال إلى بحر العرب الذى كان العرب يأتون إليه فى فصل الشتاء بحثاً عن المرعى أسفل النهر، وهناك كانوا يلتقون بالدينكا القادمين من الجنوب بماشيتهم. وأثناء فترة عملى هناك كانت علاقات العرب والدينكا طيبة عموماً، وكانت أهم قبيلتين للبقارة هما الرزيقات بقيادة ناظرها

المميز إبراهيم موسى بمساندة أخيه محمود الذى كان الدينكا يطلقون عليه لقب (محمود الصالح) والأخرى قبيلة الهبانية بقيادة ذلك الرجل العجوز المغضوب عليه ذى اللحية البيضاء الذى كان يسمى الغالى تاج الدين، والذى كان دائماً على خلاف مع قومه لحدة طبعه وميله إلى قبول الرشوة، ولكنه بالرغم من ذلك كان على وجه العموم دافئ القلب ومخلصاً للحكومة، كما كان معجباً ببليل نايتنجيل الذى كان مساعداً لمفتش مركز البقارة قبل أن يتولى مسئولية إدارة المركز. وأعتقد أنه لم يكن راضياً بأن أحل مكانه لأنه كان يرى أننى صغير على المنصب، ومن ناحية أخرى، كان موقف إبراهيم موسى تجاهى هو بمثابة العم ولم يغير هذه النظرة أبداً، وكانت دائما له ملاحظات لاذعة عن الغالى تاج الدين كأن يقول لى: "هو لا يريدك أن تفعل كذا وكذا"، وعندما يحدث ذلك يقول لى: " هاى! الولد داك الليسمو بيلى فور".

وبعد عدة سنوات فيما بعد أصبح إبراهيم موسى عضواً فى الجمعية التشريعية بالخرطوم عندما كنت أعمل هناك بمكتب الحكومات المحلية. وأعتقد أنه كان يشعر بنوع من العزلة فى تلك المدينة الكبيرة، وكان يسره أن يرى وجهاً مألوفاً لديه، فقد كنت أجده جالساً على كرسى مستغرقاً فى نوم عميق بجانب طاولتى بالمكتب، واضعاً إحدى قدميه على الأخرى، وخالعاً عمامته، ورانياً بلحيته إلى السقف. كم كان ذلك المنظر مهيباً! كانت آخر مرة قابلته فيها فى لندن كيلينك حيث وجدته جالساً متربعاً على السرير، وعندما اطللت عليه من الباب صاح قائلاً: "هاى! الولد داك الليبسمو بيلى فور". يا لطيبة قلبه، فقد توفى بعد ذلك بشهر أو شهرين بعد عودته إلى السودان. كان إبراهيم موسى هو من أطلق أفضل تعليق عند مغادرة البريطانيين للسودان، فقد قال: "ركبونا فى لورى لا نور ولا بورى".

تسارعت الحرب فجأة بخسارات فادحة فكانت أولاً دنكيرك، فسقوط فرنسا، ثم دخول إيطاليا فى الحرب. وأثناء هذه الحرب الزائفة سمح لمدير

المديرية ومفتش مركز الفاشر بالسفر للإجازة السنوية بالوطن. وفى ذلك الوقت وهما فى مكان ما بعيداً عن مدينة الراس فى طريق العودة، أصبحت الفاشر تعانى من نقص فى عدد المسئولين، ولذلك أرسل فى طلبى لسد هذه الثغرة. ونظراً لوجود الإيطاليين فى العوينات شمالاً، والفرنسيين المترددين فى الغرب، فقد طلب منى أيضاً العمل على تأسيس وتدريب حرس محلى.

وقبل أن أغادر نيالا صدر النداء للتجنيد، واستجابت له أربع فئات من الشعب أولها التجار الإغريق وهم مجموعة من رجال ذوى شدة وصلابة، وثانيها التجار السوريين واللبنانيين وهم مجموعة ضعيفة، وفى الواقع لم يبق منهم فى النهاية سوى اثنان فقط بعد أن علموا ما هو مطلوب منهم، وثالثها مجموعة الأفندية أو الكتبة والمحاسبين العاملين بالحكومة، وهم سودانيون وكانوا جميعهم ممتازين ومتحمسين، وأخيراً قلة من التجار السودانيين وبعض الطبقات الدنيا فى السوق: كانت الأولى جيدة، بينما كانت الأخرى لا بأس بها إذا بقيت واعية.

تم تسليحنا ببنادق من نوع لى انفيلد ٣٠٣ (Lee Enfield) ، ولحسن الحظ كانت بدون سناكى، وسبق أن تم اعتماد مبلغ لى للمساعدة فى تزويد المتطوعين بالزى العسكرى الذى كان يتكون من قميص كاكى، وسروال قصير(ردا) ، وقلنسوة (كاب). وكنا جميعاً نضع على أكتافنا شرائط «شوكولاتية» اللون عليها الأحرف(S.A.F) باللون الأصفر، ولهذا السبب لم يكن مستغرباً أن يطلق علينا (عساكر الشوكولاتة). بالمناسبة فقد صدرت براءة من الحاكم العام بمنحى رتبة "بمباشى مؤقت"، وأصبح إعجابى ينمو ويزداد بفرقة المتطوعين بالفاشر (أو فرقة مشاة بالفور) التى لا زالت ذكرى الكثيرين من أفرادها محفورة فى ذهنى. كان هناك العم حجازى، باشكاتب المركز، ورغم تقدمه فى العمر كان أنيقا فى التدريبات العسكرية ومليئاً بحيوية المقاتلين.

وعندما جئت إلى الفاشر لأول مرة كان العم حجازى يفتخر بأنه أب لثلاثة عشر طفلاً كلهم أحياء. وفى ذات يوم من الأيام أطلّ علىّ العم حجازى بوجهه المشرق من باب خلف طاولتى يؤدى إلى غرفة حفظ الملفات وقال لى: "سيدى، يسرنى إبلاغك أن عائلة حجازى لم تعد رقماً مشئوماً" !

وكان هناك أيضاً آدم مرجان المعروف بآدم "تُمتُم" لأنه كان يتأتىء فى الكلام، ومع أنه كان أيضاً رجلا مسناً صغير الحجم ونحيفاً، إلا أنه كان متحمساً دائماً ولا يلقى بالاً لتلك التلميحات بأنه لربما يكون قد أصبح عاجزاً بسبب الشيخوخة. وأذكر عندما جاء تمرين الرماية أطلق آدم تسعاً وأربعين طلقة دون إصابة الهدف ولو لمرة واحدة، بل سقط بعضها على مسافة ٢٥ ياردة من فوهة بندقيته، بينما اختفت الأخرى فى اتجاه الإسكندرية! أما الرصاصة الخمسين فقد اخترقت التختة مباشرة فصرخ قائلاً: "هذه الرصاصة قد انطلقت وأنا غير جاهز". وقلت محدثاً نفسى: "إذا كان مدى إطلاق النار مثل ذلك، فربما يشكل آدم خطراً لعدونا المحتمل".

كان أغلب الكتبة والمحاسبين من النوع الذى يكره الروتين ويصلح الكثيرون منهم للجندية، خاصة المحاسب عبد الله ذى اللحية الخفيفة. أما الإغريق فكانوا أشداء كما ذكرت، وعلى استعداد للاستمتاع بلعبة الجندية ابتداءً من جريجورى ماموكس السمين (Gregory Mamakos) إلى بانيوتى النحيل (Pan-yoti) الذى شارك فى الحرب العالمية الأولى، وكان يحمل خطاباً من ضابطه البريطانى يؤكد ذلك. أما اللبنانيان فقد كان أحدهما – لا أدرى كيف أصفه – غير أن أقول إنه كان نوعا ما أنثويا فى تصرفاته، وسوف أذكر عنه المزيد فيما بعد.

عندما ساءت الأمور إلى الحد الأقصى شرعنا فى العمل وكنا نتدرب بحماس شديد، ولا زالت تتراءى أمامى صورة جون هيج (John Haig) مساعد

مفتش المركز وهو يقود فرقته المكونة من عشرين فرداً من شرطة المديرية يحمل كل منهم سلاحه مركباً عليه السنك، وينحدر بهم إلى أسفل (القوز) ذلك التحدر الرملى المؤدى إلى المطار، وكان يجلس خلفهم أمباشيان من فرقة العرب الغربية يضع كل منهما بندقيته (الفيكرز) بين ركبتيه، ويقف إلى جانبهما قائد الفرقة القائد بيل رانكين(Bill Rankin) ، ومدير المديرية فيل إنجلسون(Phil Ingleson) . كان جون هيج يسير بكل فخر واعتزاز، ويحق له أن يفعل ذلك، فقد كاد جنوده السبعة وعشرون يقفون سداً بين بقية أفريقيا وطغيان قيصر العصر الحصين المتمرس بعيداً فى العوينات شمالاً، بينما كان الفرنسيون إلى الغرب «يضعون رجلاً على المركب والأخرى على الطوف» بعدم ارتياح واضح. كان الهدف من تلك التمارين أن نظهر فى ظرف معين خاصة عندما يستدعى الموقف الزحف السريع إلى أسفل التلال حتى نتمكن من عمل التغطية النارية اللازمة. وكنت أعلم ما يدور بالضبط فى ذهن جون هيج، وسره أن يعلم أن بيل رانكين وفيل إنجلسون يدركان ما هو مطلوب منهما، وكان يريد أن يتأكد ما إذا كان الأمباشيان يعلمان ايضا ما يفعلان. كنت أعلم أن جون كان يفكر فى ذلك، وإذا سارت الأمور على ما يرام كان المطلوب منى أن أقوم بتكرار التمرين مع فرقة المتطوعين الذين كانوا يسيرون خلفى على قمة القوز. كانت النتيجة بالطبع أننا نجونا جميعاً، ولم يصب أى منا بضرر أو أذى.

مع استمرار الحرب تحسنت الأحوال، فقد تم أولاً وقف زحف الطليان وصدهم، ثم انضم الفرنسيون فى أفريقيا الوسطى إلى جانبنا، وأصبح من الصعب بعد ذلك المحافظة على تلك الروح الحماسية. ثم اجبرنا الألمان على التراجع إلى الصحراء الغربية وتمّ لهم غزو اليونان. وجاء فى تقارير، لربما تكون غير مؤكدة، أن المظليين الألمان قد انزلوا فى زى قساوسة وراهبات، ولذلك ومن أجل التنويع فى الإجراءات قمت ذات صباح بتقسيم المتطوعين إلى

قسمين أمرت أحدهما، بعد أن تتكر أفراده، بمحاولة التسلل إلى ميدان المسجد حيث كان القسم الآخر يقوم باحتلاله ليمنع دخول أى قادم إليه. ووقفت أنا فى منتصف الميدان لمشاهدة ما يجرى من أحداث، حيث تم تدريجياً التعرف على كل المتسللين وحجزهم. كان جريجورى ماكوس متتكراً فى زى تاجر سودانى ويغطى وجهه بمنديل كبير كأنما يعانى من ألم فى الأسنان، بينما كان صديقى الملتحى عبد الله متتكرا فى زى العرب الرحل، ولكن فات عليه أن بندقيته المتدلية من كتفه سوف تكون بارزة على ظهره. كان منظره مخيفاً بحق لدرجة أن امرأة فى الشارع أخذت تصرخ: "الحرامى .. الحرامى" مما تسبب فى إلقاء القبض عليه. وفى الواقع ألقى القبض عليهم جميعاً ماعدا سامى (دلالة) الذى لم يظهر فى مسرح الأحداث بتاتا. وعندما فكرت فى الانصراف والعودة إلى المنزل لتناول طعام الإفطار، إذا بى أشاهد امرأة يبدو أنها من بائعات الهوى، وترتدى ثوباً من الحرير الفاخر وتغطى وجهها بالكامل، وتتبادل أطراف الحديث مع أثنين من الخفراء، ثم أخذت فجأة تترنح إلى داخل الميدان، وما لبثت أن أخرجت من داخل ثيابها بندقية ٢٠٣٠٠، وبدأت فى تحريك الزناد وإطلاق النار. من يكون هذا غير سامى دلالة الذى استطاع أن يهزمنا جميعاً!

بعد ذلك بفترة قصيرة تم نقلى إلى مدينة الجنينة الحدودية ليتمكن (المعتمد) من أخذ إجازته التى كان ينتظرها طويلاً. لقد كان يطلق عليه لقب (المعتمد) وليس مفتش المركز، لأن السلطان المحلى كان قد أبرم معاهدة مع حكومة السودان فى السنوات الماضية تحت ضغط الفرنسيين وظل مستقلاً اسمياً.

كانت توجد بالجنينة زرافة مستأنسة نالت إعجاب السواح طوال سنوات ما قبل الحرب، ولو أننى لم أكن أعرف شيئاً عن تاريخها. وكانت أول مرة أراها

فيها عندما أطل رأس من خلال النافذة أثناء تناولى طعام الإفطار، ويتدلى منه لسان أسود طويل يلتهم قطعة من الخبز المحمص (كنت أسكن فى الاستراحة التى لم يكن بها شبكا واقياً من البعوض). ثم رأيتها مرة أخرى بعد يومين بالقرب من مكاتب المركز وهى تتجول بهدوء فى الطريق ولكن يبرز من فخذها نصل رمح. قلت لنفسى: "يا إلهى، ماذا أفعل الآن؟"، فإذا أطلقت عليها النار فسوف يذكرنى الجميع بأننى (الرجل الذى قتل زرافة الجنينة)، وإذا تركتها تموت فسوف أكون عرضة لوصفى بالخذى والعار لأننى لم أفعل شيئاً لإنقاذ الحيوان من معاناته. ومن ناحية أخرى كنت أعلم أن رفسة الزرافة تقصم ظهر الأسد، لذلك لم أتحمس لاقتلاع الرمح والزرافة لا زالت تتمتع بكامل قدراتها. وعليه ناقشت الأمر مع الدكتور عتبانى المفتش الطبى وقلت له: "أعلم انك لن تستطيع تخديرها دون مساعدة سلم متنقل، ولا اعتقد انه لديك شىء يمكنك ان تطعمها به فيجعلها تنام لفترة طويلة ريثما يتم استخراج الرمح، فأجابنى موافقا. وبكل مشاعر الحزن بدأت عملى اليومى بإرسال برقية إلى المفتش البيطرى بالفاشر استفسر ما إذا كان بإمكانه اقتراح أى شيئ. وقبل أن أتلقى الرد جاءنى جاءنى دكتور عتبانى فى المكتب وقال لى: "كله تمام، لقد أخرجت الحربة." فقلت له وأنا اشعر بالارتياح: "كيف أمكنك ذلك؟" فقال: " أمرت أحد المساجين فقام بإخراجها" هكذا بكل بساطة.

بالرغم من معوقات الحرب، إلا أنه كان لا بد من إدارة شئون البلد بصورة عادية. ولم تمض فترة طويلة حتى قام الحاكم العام السير/ هيوبرت هدلستون (Sir Hubert Huddleston) بزيارة إلى المديرية، وكان الرجل أحد المتنفذين فى إعادة فتح دارفور عام ١٩١٦، ويتمتع بحب واحترام جميع المحيطين به. ونظراً لخبراتى السابقة عن المنطقة، فقد طلب منى العودة إلى نيالا للمساعدة فى الإعداد للاستقبال الرسمى هناك. ولعل أهم شىء لا زال

عالقاً بذاكرتى عن فعاليات ذلك الاستقبال هو دخولنا إلى (ابو جابرة) حاضرة قبيلة الرزيقات آنذاك دخول الأبطال الفاتحين، فقد جعلنا الناظر/ إبراهيم موسى نشعر بالفخر والاعتزاز حيث اصطف فرسان البقارة على الطريق الترابى المؤدى إلى القرية وهم يمتطون صهوات جيادهم، وكان كل منهم مسلحاً بشلكاية طولها عشرة أقدام. وحتى نتمكن من استقبال الحاكم العام قبل وصوله إلى هذا الممر البشرى، فقد وقفنا، مدير المديرية، ومفتشا المركزين، وشخصى، بزينا الرسمى مع حرس الشرف بقيادة أحد أشقاء الناظر الذى كان يرتدى درعاً صليبيا مزروداً، ويتسلح بالشلكاية أيضاً. وبعد أن مرت من أمامنا السيارة المكشوفة التى كانت تقل الحاكم العام، سرنا خلفها بخيولنا فى خبب رائع جميل، وكنت أنا فى مؤخرة الموكب، فألقيت بنظرة بلهاء عجلى إلى الخلف، فإذا بى أجد الحرس فى أعقابى مباشرة، وكانت أقرب شلكاية لا تبعد عن عظمة كتفى سوى بضعة أقدام، فقلت لنفسى: "ماذا لو كبا حصانى أو توقف فجأة، لكنت إذن هالكاً لا محالة". بعد ذلك ركزت نظرى إلى الأمام وقد تملكنى شعور ذلك الرجل فى قصة "البحار العجوز" الذى لم يجرؤ على الالتفات برأسه خوفاً من أن يطأه العفريت من الخلف!

أعلن فى وقت ما عن وجود مجاعة، رغم أننى لم الاحظ اى مؤشر يدل على ذلك، فلم يظهر على الناس اى نوع من الضمور، ولم يرد ما يفيد بوجود نقص فى المريسة (نوع من الخمر المحلية) ولم يزل المتطوعون من عناصر السوق يأتون إلى العرض العسكرى وهم سكارى، ولكن بالرغم من ذلك أبلغنا بوجود مجاعة فعلية. لذلك قامت الحكومة بتوفير كميات من الذرة لبيعها بالتموين إلى المحتاجين من سكان الفاشر بواقع رطلين فى اليوم للشخص الواحد. وفى أول يوم للتوزيع كادت أن تحدث مجزرة ، لذلك طلب منى فى اليوم الثانى أن أتولى هذه المسئولية، فكان العمل يبدأ فى السادسة صباحاً

ويستمر حتى الظهر ومعنى ذلك أنه لم تكن هناك فسحة للفطور، وهكذا كانت الخدمة بالنسبة لنا هى "كلمة السر". كانت أى محاولة لإقناع ٤٠٠ امرأة سودانية للانتظام فى صف من أجل استلام تموينهن، مع مراقبة عدم عودتهن للوقوف فى آخر الصف من جديد، تحتاج إلى بذل مجهود كبير، ولكن بالرغم من ذلك كنا ننجز عملنا يومياً دون أن نفقد أعصابنا، بل والأعجب من ذلك دون أن تمزقنى النسوة المسترجلات الحانقات!

تم نقلى فى فبراير ١٩٤٢ إلى راجا . أحد الأماكن النائية فى البلاد . التى كانت فى السابق مقراً لرئاسة مركز غرب مديرية بحر الغزال، وبعد دمج المديرية مع الاستوائية أغلقت مكاتب المركز ونقلت إلى مدينة واو، ولكن أعيد فتحها مرة أخرى وأصبحت أنا المسئول عن المنطقة التى قيل إنها تماثل انجلترا فى مساحتها باستثناء مقاطعة يوركشير(لن يصدق أهالى يوركشير أن انجلترا يمكن أن تكون بدون يوركشير)، ولكن كان تعداد سكانها يبلغ ٦٠.٠٠٠ نسمة فقط، وهم بقايا قبائل قديمة كانت كثيفة العدد فى يوم ما، ولكنها أوشكت على الفناء من جراء السلب والنهب اللذين كان يمارسهما التجار الشماليون فى القرن التاسع عشر، وهى قبائل زنجية تعيش فى الغابة ويعتمد أفرادها على الزراعة والصيد وجمع عسل النحل، ولم يعرفوا تربية الحيوانات بسبب انتشار ذبابة التسى تسى فى الغابة. غير أنى بالرغم من ذلك استطعت الاحتفاظ ببعض الخيول فى راجا بالذات بعد أن تم تقليص الغابة، ولكن كنت استخدمها فى جولاتى أثناء موسم الجفاف فقط، حيث يتنقل ذباب التسى تسى ذهاباً وإياباً مع الأمطار. ولنفس هذا السبب كنت عندما أحتاج إلى شىء من اللحوم، استجلب بعض الأبقار من منطقة البقارة فى موسم الجفاف لتلبية حاجة المجتمع المحلى فى راجا أثناء فصل الأمطار، والذى لحسن الحظ لم يكن عدد أفراده كبيراً، فقد كان يتكون من ثلاثة تجار أغاريق، ورجال الشرطة، وموظف

حكومى، ومحاسب، وأمين مخزن، ومساعد طبى، وثلاثة ممرضين عموميين بالإضافة إلى شخصى والخدامين. كما كانت توجد عبر النهر بعثة تبشير من الكاثوليك الرومان تتكون من اثنين من القساوسة وواعظ دينى. كانت هناك أوامر حكومية مشددة بعدم السماح لأى شخص آخر بالسكن فى حدود ميلين من المركز، وذلك منعاً لنمو أى نوع من السكن العشوائى الذى لربما يعج بطبقات المنبتين قبلياً التى كانت تحيط بأى مركز حكومى فى أفريقيا متى ما وجدت فرصة لذلك. قد تعتبر مثل هذه الأوامر متعسفة، ولربما لا يطيقها الناس فى الوقت الحاضر، ولكنها أدت إلى وقاية المجتمع من الفساد، ومهما قال الناس عنها، فقد كانت عملاً جيداً، ويكفى أنه لم يكن فى راجا من ينام داخل صناديق الكرتون على قارعة الطريق.

كان الجزء المأهول بالسكان فى منطقة المركز يشمل طريقاً يمتد إلى مسافة ٣٥٠ ميلاً داخل الغابة، ويعيش السكان على جانبيه فى قرى صغيرة متناثرة، أو بالنسبة لقبيلة الباندى، فى مجموعة من الأكواخ المنتشرة على مساحة ميل أو نحو ذلك. وكان قد تم فى السابق ترحيل السكان إلى جانبى الطريق كإجراء وقائى ضد مرض النوم، وأصبح من مصلحة كل شخص الآن الإقامة هناك لسهولة المواصلات، مع أن ذلك لم يمنع أعداداً كبيرة من السكان من اللجوء إلى داخل الغابة فور الفراغ من حصاد محصول الذرة، وذلك لأجل الصيد وجمع العسل، وكان يحدث ذلك فى الغالب كلما احتجنا إلى مساعدة لترميم بعض الطرق. كان الطريق يمتد إلى مسافة ٨٠ ميلاً تقريباً إلى الغرب من راجا وينتهى فى قرية أطلق عليها البريطانيون اسم "نهاية العالم"، حيث يمكنك أن تقف هناك مثلما فعل الشاعر كيتس (Keats) "على أطراف أصابع قدميك فوق تل صغير" لتشاهد بحراً متلاطماً من رؤوس الأشجار، مع أنك تعلم فى ذات الوقت أنك سوف تستغرق أحد عشر يوماً لتصل إلى أول منطقة

مأهولة بالسكان فى الاستوائية الفرنسية. كانت الاجتماعات تعقد مع رجال الإدارة الفرنسيين فى أرض فضاء تقع فى منتصف المسافة بين الجانبين، ولكنها كانت قد توقفت حينئذ. ومع أنه قد جرت محاولة قبل عام أو عامين من وصولى لاستئنافها مرة أخرى، إلا أنها قد باءت بالفشل، فقد اطلعت على مذكرة فى الملفات تقول إنه "يعتقد أن الأشخاص الذين أرسلوا إلى هناك قد أكلتهم السباع".

كذلك كان هناك شارع يمتد إلى الشمال من راجا ليصل إلى منطقة أويل المجاورة موطن قبائل الدينكا النيلية التى يتميز أفرادها بطول القامة. ويصل هذا الطريق إلى نهاية حدود المركز بالقرب من بحيرة أكانا(Acana) الجميلة التى هى أحد منعطفات بحر العرب. وكان مفتش مركز أويل يحتفظ بقارب له فى تلك البحيرة، وكنا نلتقى هناك من وقت لآخر لإنهاء أية معاملات رسمية قد تطرأ بين الجانبين. وأثناء عملنا كانت زوجته تخرج بالقارب لصيد السمك فى البحيرة التى تعج بنوع من الأسماك النيلية الضخمة لذيذة المذاق، مع نوع آخر مقاتل شرس لا يؤكل.

أذكر فى إحدى المرات بينما كنا نجلس فى ظل الأشجار، ونقوم بإجراء التحريات فى جريمة قتل كان المتهم فيها أحد رعايا مركزنا، إذا برجل يقبل علينا مسرعاً من ضفة البحيرة ليقول لنا: "تعالوا بسرعة! الست تصارع شيئاً كبيراً وغير قادرة عليه". لذلك أوقفنا التحقيق فوراً ونزلنا جميعاً إلى الشاطئ، فوجدنا هناك سيسلى ستبس (Cicely Stubbs) تجلس فى مؤخرة القارب وتتشبث بقضيب معدنى محنى فى شكل U، بينما كان الرجل الذى يتولى التجديف يقوم بعمله فى همة ونشاط ويحاول توجيه القارب إلى اتجاه معين، ولكنى أقسم أن القارب كان يسير فى الاتجاه المضاد. لذلك ما كان من جيم ستبس(Jim Stubbs) إلا أن قفز إلى أحد الزوارق الراسية على الشاطئ،

ليلحق به رجل آخر تولى مهمة التجديف ليسعفا القارب الآخر. وعندما بلغنا منتصف المسافة إذا بى اكتشف أن الرجل الذى يقوم بالتجديف هو نفسه المتهم بارتكاب جريمة القتل!

على أية حال، أياً كان ذلك الشىء الذى كان موجوداً فى نهاية الصنارة، فإنه لم يعد له أثر هناك، ولذلك عدنا لمواصلة التحقيق فى الجريمة. وبعد عامين أو ثلاثة، وعندما أصبحت مسئولاً عن مدينة واو بالإضافة إلى مركز راجا، قابلت المتهم فى سجن المديرية يقضى فترة العقوبة بعد أن اتخذت العدالة مجراها، وقد بدا لى أنه كان مقتنعاً بالعقوبة تماما، ولكنه عبر عن اعتقاده بأن الحكم عليه بعشر سنوات ثقيل عليه لأنه كما قال: " لم يكن خطأى أن تفقد الست سمكتها".

كان الجزء الرئيسى من شبكة الطرق فى راجا يقع فى اتجاه الجنوب الشرقى ليقطع مسافة ٢١٠ ميلاً حتى يصل مدينة واو التى كانت بها رئاسة المديرية، ثم أعيد ضمها إلى مركز راجا بعد عام من استلامى المسئولية. كما كان هناك طريق آخر طوله حوالى خمسون أو ستون ميلاً يتجه من واو شمالاً إلى حدود مركز يامبيو. غير أن طريق راجا - واو كان يسبب لنا صداعا مستديماً، ذلك أنه كان يمتد عبر مستجمع لمياه الأمطار مما يعنى وجود خمسة أنهار رئيسية يجب أن يعبرها الطريق. ولكن لحسن الحظ قبل فترة قصيرة من اندلاع الحرب العالمية الثانية، تولى أحد الأشخاص إجراء بعض الاتصالات فأثير سؤال فى المجلس حول هذا الطريق، وأحدث ذلك ضجة كبرى، وكانت النتيجة أن قامت مصلحة الأشغال العامة ببناء خمسة جسور دائمة مع الالتزام بصيانتها. وأثناء فترة رئاستى للمركز كانت مصلحة الأشغال العامة تتولى الإشراف على صيانة هذه الجسور، أما الطرق الفرعية فكانت تقع ضمن اختصاصى. لقد أدرك أهالى القرى الواقعة على امتداد الطريق أنه لكى

يستمر تصدير منتوجاتهم واستيراد احتياجاتهم من الملبوسات وغيرها، فلا بد أن يظل الطريق مفتوحا على الأقل أثناء فصل الجفاف، ولذلك كانوا على استعداد لتوفير عمال بالأجر اليومى للقيام بأعمال الترميمات الخفيفة وإزالة الحشائش عن الطريق، وكانوا يستغلون ما يحصلون عليه من أجر فى سداد ضرائبهم وشراء احتياجاتهم، ولكن بمجرد أن يجمعوا ما يكفى سداد قيمة هذه الاحتياجات، كانوا يدخلون الغابة ولا يظهرون مرة أخرى إلى أن يحل موسم الزراعة التالى. عندما يشتد هطول الأمطار كنا نبقى محتجزين فى راجا لما يقرب من ثلاثة أشهر، ومع أنه كان بالإمكان استخدام الطريق باحتراس، إلا أن ذلك كان عملاً محفوفاً بالمخاطر قد يعرض المرء للوحل فى الطين لساعات طويلة، علاوة على هطول الأمطار ولسعات ذبابة التسى تسى. وحدث ذات مرة أن حاولت الذهاب من واو إلى راجا بينما كان موسم الأمطار على أشده، فقطعت مسافة الطريق وقدرها ٢١٠ ميلاً فى ثمانية أيام. وفى مرة أخرى بينما كان اللورى يشق طريقه وسط الحشائش التى كان طولها يتجاوز رأس اللورى، ولم يكن مدى الرؤية يتعدى ثلاث ياردات، إذا بعدد من المخلوقات الصغيرة تظهر فجأة تحت عجلات العربة وهى تقفز من مكان إلى آخر فى كل الاتجاهات. "قف"، قلت للسائق، "إنك بهذه الطريقة تقتل المواطنين"، ولكن اتضح فى نهاية الأمر أنها مجموعة من القرود استطاعت أن تنجو من الهلاك بسلام.

كان علىّ أن استلم المركز من ديفيد إيفانز (David Evans) الذى أشعر دائما أنه كان أحد ضحايا القدر إن لم أقل حكومة السودان. لقد كان هو رجل الاستمرارية فى المركز من خلال عمله كمساعد لخمسة مفتشين توالوا سريعاً على المركز، وكان مغرماً بالمكان، وبالرغم مما كان يشعر به من إحساس بالإحباط والتثبيط تجاه أى شخص يعتقد أنه من الأغبياء، إلا أنه قد أنجز

الكثير من أجل هذا المكان الذى أحبه. لقد حول مدينة واو من وكر قذر للطفيليات إلى مدينة صغيرة جيدة التخطيط والبناء، ووفر لسكانها أعمالاً مناسبة داخل حدود مدينتهم. كما قام بتصميم وتشييد العديد من الاستراحات على طول الطريق من واو إلى راجا. وكان ذلك الصرح الضخم الذى صممه وتم بناؤه بالطوب على شاطئ نهر السوباط بمساعدة الإرسالية المحلية مصدر فخره وسروره، ثم اتجه بعد ذلك إلى راجا ليجدد شبابها، ولتصبح رئاسة للمركز من جديد.

عندما وصلت وجدت ديفيد مشغولاً بإعادة تنظيم مبانى المركز، وتخطيط نوع جديد من السجن الريفى يتكون من أكواخ متينة البناء ومحاطة بالأسلاك الشائكة. وبعد أن تبادلنا التحية، وتجاذبنا بعض أطراف الحديث قلت له: "أريد الآن إنزال أمتعتى القليلة". وسألته عن مكان سكنى، فقال: "أوه! لقد قمت لتوى بهدمه، وستسكن فى مبانٍ من القش إلى أن أتفرغ لبناء مسكن جديد لك". ولمعرفتى بصديقى ديفيد إيفانز، لم أبد أى نوع من الاعتراض أو الاحتجاج، وعلى كل حال لم يكن يهمنى كثيراً أين أسكن طالما أننا لم نزل فى فصل الجفاف.

بعد ذلك خرجنا معاً فى جولة حول مدينة راجا العظيمة؛ أربعة متاجر وجزارة جميعها تحت سقف واحد من القش، وكان أصحاب تلك المتاجر ثلاثة أغاريق، وسودانى شمالى، ثم مكاتب الشرطة، والمستشفى، والمساكن الخاصة بالمساعد الطبى وموظفى الحكومة، تليها مكاتب المركز، ومبنى السجن الذى كان تحت التشييد، وكان ذلك كل ما هنالك. أما على الشاطئ الآخر لنهر راجا الذى يستحيل عبوره خلال فصل الأمطار إلا بواسطة عبارة، فكانت توجد مبانى إرسالية الكاثوليك الرومان. وأخيراً وصلنا إلى المكان الذى سيكون فى النهاية مسكناً لى، وهو عبارة عن (ظهر تور) كانت تشغله مكاتب المركز حتى ذلك الوقت.

دخلنا الغرفة الأولى التى كان لا يزال يوجد بها طاولة مكتب عليها حاملان للمكاتبات الواردة والصادرة، وبجانبها كرسى. وبعد برهة قال ديفيد: "توجد رائحة غريبة هنا. وقبل أن أحاول منعه تناول عوداً طويلاً من القنا وربط فى رأسه سكيناً شق بها قماش السقف من أعلى إلى أسفل، فسقط النصفان على الأرض ليخرج من بينهما طنان من براز الوطاويط، وأربعة فئران ميتة، وبومة على قيد الحياة حطت أولاً على طبق الرسائل الصادرة ورمقتنى بنظرة باردة، ثم اختفت فى فضاء العالم الخارجى. ومما يجدر ذكره هنا أن ديفيد قد استفاد من هيكل هذا المبنى فصمم وشيد عليه منزلاً أبدع فيه بصورة لا مثيل لها من حيث مكافحة مصدرى الإزعاج المتمثلين فى الوطاويط والباعوض. لقد سكنت فى هذا المنزل فى راحة تامة طوال فترة السنوات الثلاث التالية.

لقد فضلت، أثناء انشغال ديفيد فى أعمال إعادة التشييد، أن أخرج فى جولة بمفردى، خاصة وأن تلك الأيام كانت هى أيام "السياسة الجنوبية"، وكان من الأهمية معرفة إلى أى مدى يمكن أن يكون التسلل إلى منطقة العرب البقارة مشروطاً بجفاف آبار النهر، أو بفصل الجفاف الذى يتجه إلى الشمال الغربى من بحيرة أكانا. لم يسبق لموظف بريطانى أن قام بزيارة تلك المنطقة، ولذلك رأيت أن أقوم بعمل خرائط تخطيطية أثناء الجولة، فأرسلت خيولى لتسبقنى إلى البحيرة، وطلبت من بعض أفراد قبيلة (فيروجى) مقابلتى هناك حيث وصلت إليهم فيما بعد باللورى. ولحسن الحظ كان جيم ستبس(Jim Stubbs) فى زيارة إلى المنطقة أيضاً، فأخذنى إلى قمة أحد التلال المجاورة حيث أمكننا من هناك أن نشاهد مجرى الخور، ودخلت بعد ذلك فى التعقيدات الخاصة برسم الخرائط (الوقت والبوصلة).

استغرق السير إلى أعالى الخور أربعة أيام، وكان للفيروجى طريقتهم الخاصة فى حمل المتاع، إذ كانوا يأخذون الفرع الأوسط من أشجار الرافيا التى لا أعرف

الاسم الذى يطلق عليها فى علم النبات، فيستخرجون منه عموداً يتراوح طوله بين ١٢ - ١٥ قدماً، ثم يربطون الجزء الأثقل من الحمل إلى الطرف الغليظ من العمود، والجزء الأخف إلى الطرف الآخر الرقيق على بعد بضعة أقدام لحفظ التوازن، ثم يضعون العمود بثقليه على أكتافهم مع جعل الجانب الأخف فى الأمام ليكون كالعربة أمام الحمار، وكانوا يستطيعون السير بهذا الحمل لعدة أميال. أما أنا فكنت أمتطى حصاناً لكوننا فى منطقة التسى تسى. وبما أننى كنت أحاول رسم بعض الخرائط، فكان يتعين علىّ أن أتوقف كثيراً لأخذ قراءات البوصلة. وكان هذا عملاً شاقاً بسبب نحل العيون (معروف لدى البقارة باسم "أم بَزيوز") وهى كلمة يوحى لفظها بمعناها. والبزيوز نحل أسود صغير لا يلسع ولكنه يتجمع حول العينين بحثاً عن الرطوبة. وعلمت أنه يمكن أن يستخرج منه عسلاً حلو المذاق، غير أنى كنت أتضايق منه لدرجة الجنون.

توقفنا فى الليلة الأولى عند إحدى آبار المياه التى كان ينزل بها فريق من البقارة فوجدنا الأمن مستتباً. وكانت هذه البئر هى أقصى حد فى الجنوب لا يسمح للبقارة بتجاوزه عند سقيهم لحيواناتهم. وبينما كنت أسير عبر الخيمة إلى سريرى، إذا بى أسمع زئير ثلاثة أسود على الأقل يأتى من المكان الذى كنت أستطيع أن أرى فيه ناموسيتى تلمع فى ضوء الغسق، فتملكتنى رغبة عارمة أن ألتفت إلى الخلف وأطلق النار، ولكننى أحسست أن نظرات البقارة والحمالين تتجه نحو ظهرى، لذلك كان يتوجب علىّ، من أجل الحكم البريطانى ومجده، أن أواصل السير إلى السرير وأخلد إلى النوم. وأعتقد أن الأمور قد سارت بسلام بعد ذلك، مع أننى لا زلت أذكر ذلك الرجل المسن فى نيالا الذى كان يأتى إلينا دائماً بشكواه المطولة التى لا يقبلها العقل، فقد اعتاد أن يحضر إلى المكتب يقوده صبى صغير، وذلك لأن وجهه بالكامل من جفنيه إلى شفته العليا، كان قد التهمه أحد الضباع أثناء النوم.

بعد عودتى من تلك الجولة بفترة قصيرة سار العمل فى راجا على أحسن ما يرام، ولذلك أصبح فى إمكاننا - ديفيد إيفانز وأنا - أن نبدأ جولة طويلة أخرى إلى واو بعد اكتمال جولتنا السابقة غرباً إلى "نهاية العالم"، وبعد أن تفقدنا القبائل والمحاكم الأهلية بالمنطقة. كنا لا نزال نسكن فى مبانى القش، وكانت توجد بمسكن ديفيد فرندة مفتوحة من جانب واحد كنا نتناول فيها طعامنا. ولحسن الحظ كان هذا النوع من المساكن متين البناء خاصة وقد بدأ هطول الأمطار مبكراً. خرجنا فى عربة بوكس ولورى حتى نتمكن من التغلب على طبيعة طريق راجا القاسية، ووصلنا إلى استراحة (سوبو) عند غسق اليوم الأول للرحلة وسط عاصفة رعدية عنيفة. وبعد أن أخذت حماماً استبدلت ملابسى بملابس بيضاء مع الكمر لتناول طعام العشاء، وسرت إلى الفرندة حيث وجدت ديفيد قد سبقنى إلى هناك، فجلست قبالته إلى الطاولة، فقال لى: "هل يمكن أن تتحرك قليلاً حتى أستطيع مشاهدة المناظر؟" لا شك أنه كان فى ذلك الحين فى حالة غير طبيعية، ولكن من يلومه على ذلك، فقد ظل يعمل فى ذلك الجو غير الصحى دون أن يأخذ أى إجازة، كما فرض عليه أن يرافق مفتش مركز كان يحتضر وفى حالة هذيان من واو إلى راجا عن طريق البر، ثم عمل تحت رئاسة ثلاثة مفتشين آخرين لم يمكثوا إلا فترات قصيرة، والآن أصبح مفروضاً عليه أن يسلم منطقته الغربية المحبوبة لديه إلى قادم جديد نسبياً. لقد تزوج الرجل فيما بعد، الشىء الذى أنقذ الكثيرين منا الذين اتخذوا نفس هذه الخطوة، من ذلك الوضع الشاذ.

عندما وصلنا إلى واو وجدنا مدير المديرية فى زيارة إلى المدينة، وهو رجل واسع المعرفة وكلاسيكى متمكن، وكان أثر ذلك ينعكس على مكاتباته الرسمية حيث كان ينثر فيها بعض المقتبسات اليونانية واللاتينية. لقد أخذنى معه فى جولة حول مدينة واو سيراً على الأقدام، وذلك لمشاهدة التحسينات التى أدخلها

عليها ديفيد إيفانز. وأثناء الجولة كان يطنب على القادمين الجدد من الشبان البريطانيين الذين التحقوا بخدمة الحكومة خلال الخمس او الست سنوات الماضية. ورغم انه قد أثنى عليهم كثيراً، إلا انه استدرك قائلاً إنهم لن يكونوا مثل أسلافهم، مع أن بعضهم يحمل درجات جامعية فى الهندسة، وذكر من هؤلاء شاباً ممتازاً قال إنه يؤدى عملاً رائعاً فى المديرية بجوبا ولكنه لا يعرف كلمة لاتينية واحدة، بل ولا حتى عبارة (ما معناه) مما يجعل حياته صعبة. اما بالنسبة لى فلم أعرف معنى هذه الكلمة إلا بعد أن عدت إلى منزل مضيفى وبحثت فى قاموسه اللاتينى علنى أعثر على معناها. وتبين لى أن الشاب المذكور كان يريد فعلاً استغفال سعادة المدير، غير أنه انتابنى شعور مخيف ممزوج بالسرور، ذلك أننى كنت أنتمى إلى جيل ينظر إلى مدير المديرية كأنه خليفة للحاكم العام، ولكن بمرور السنين وجدت أن ذلك ربما كان نوعاً من الرياضة يمارسه الكثيرون من أولئك الشبان الجدد من وقت لآخر.

بعد زيارة قصيرة إلى الناحية الجنوبية من مدينة واو، عدنا أدراجنا عن طريق راجا فوجدت أن منزلى لم يكتمل بعد، وأن الأمطار لا زالت تنهمر بغزارة وبدون هوادة. وأذكر فى إحدى الليالى، أننا بعد تناول طعام العشاء، جلسنا أنا وديفيد حول الطاولة داخل فرندة مضاءة برتينة البتروماكس، وكانت الأمطار فى الخارج تنهمر بشدة، وفجأة ظهرت من وسط الظلام فى الطرف المضيئ من الفرندة ستة عناكب كثيفة الشعر لم أشاهد مثيلاً لها من قبل، وكانت تختلف فى أحجامها حيث كان أكبرها فى حجم الطبق الصغير، ومحيط أصغرها حوالى بوصة أو نحو ذلك، ثم وقفت جميعها فى صف داخل الفرندة تنظر إلينا. كان ديفيد فى ذلك الوقت مستغرقاً فى تفكير عميق كما يحدث غالباً بعد تناوله وجبة العشاء، ولم ينطق بكلمة لمدة عشر دقائق. نظرت إليه، ثم إلى العناكب وبعد ذلك رحت أنصت إلى صوت زخات المطر. وفى هذا

الأثناء تذكرت أن أقرب جار لنا يبعد ٢٠٠ ميل عن مدينة واو، وشعرت وقتها كأنني أحد شخصيات سومرست موم. وبعد يوم أو يومين غادر ديفيد إلى الخرطوم، ثم إلى فلسطين ليقضي أجازته هناك ولينال قسطاً من الراحة والاستجمام. لقد كان كريما وصبوراً معي، ولذلك عندما كان اللوري الذي يقله يتوارى بين الأشجار تملكني شعور بالوحشة لم أشعر بمثله من قبل أو من بعد.

كما ذكرت آنفاً كان هناك عدد كبير من القبائل، وأكثرها كان بقايا مبعثرة لمجتمعات كانت قوية في الماضي قبل ظهور تجارة الرقيق، غير أنها جميعاً كانت تتكلم لغات مختلفة تماماً، ولذلك كان من المستحيل اتباع "السياسة الجنوبية" التي تقضي بضرورة "تعلم لغة المنطقة"، وكان الاتصال بين الناس يتم بلغة عربية تسمى "عربي الجنوب" تشبه اللغة الدارجة. بالإضافة إلى ذلك كانت العديد من اللغات المحلية نغمية، أي أن المعنى يتوقف على صوت الكلمة عند النطق بها. وكان لا بد أن يحدث لي نوع من التشويش من جراء ذلك مثل الذي حدث لأحد القساوسة في غرب أفريقيا عندما ترجم الترتيلة (مقدس، مقدس، مقدس) إلى اللهجة المحلية، وبعد أن ظل رعاياه يترنمون بها لبضعة أشهر، جاءه أحدهم متسائلاً: "لماذا نغني مقدس، تمساح، شعر المرأة ؟".

كان تفويض السلطات لبعض المحاكم الأهلية أمراً عادياً، وكان يوجد عدد من المحاكم الأهلية تتولى تطبيق العدالة والقانون المحلي وفقاً للعادات والأعراف السائدة، ولم يكن ذلك سهلاً مع ذلك التنوع البشري، ولكن كانت المحاكم بقدر الإمكان تغطي تلك المسائل التي يكون فيها الناس من خلفية قبلية واحدة.

تذكرني محكمة "الكورو" بذلك الوقت الذي فقدت فيه أعصابي وتجاوزت فيه حدود القانون، وفي الحقيقة فقدت أعصابي بصورة بشعة. كانت "الشط" قبيلة منقسمة، يسكن نصفها في المنطقة الغربية، والنصف الآخر في شمال

منطقة اويل تحت زعامة رجل يدعى "اوتيوك جوك" وكان يلقب باسم "تشاك تشاك". وكان بين طرفى القبيلة حركة دائبة جيئة وذهاباً، مما نجم عنه وجود عدد كبير من القضايا التى لم تتم تسويتها، وكان معظمها حول دفع المهر وما شابه ذلك. وذات مرة تقدم الزعيم تشاك تشاك بشكوى إلى جيم ستبس ذكر فيها أن جماعته يشكون من عدم توفر العدالة لدى محكمة الكورو، ولذلك اتفقنا ان يأتى إلينا فى موعد معين بقائمة توضح القضايا المعلقة، وسوف اكون أنا هناك للتأكد من سير العدالة.

كان الزعيم تشاك تشاك بديناً جداً ولونه أسود جداً، ويخلو وجهه تماماً من اى تعبير، وطوال إجراءات المحاكمة التى بدأت فى السابعة والنصف صباحاً واستمرت دون توقف حتى الرابعة والنصف مساء، كان هو جالساً لم ينطق بكلمة واحدة، أو يسجل اى موافقة أو اعتراض، بل ولم يتحرك حتى عندما شوهد ثعبان أخضر يتدلى من شجرة سقف دار المحكمة على رأسى مباشرة. لم يكن من عادات القبائل النيلية أن يشارك الزعيم فى نظر القضايا، وإنما كان يتولى هذه المهمة مندوب الزعيم. غير أن المتحدث بلسان الزعيم تشاك تشاك كان رجلاً مهذاراً وكذوباً، وينبئ وجهه عن اكذوبة كبيرة. واصلنا النظر فى القضايا الواحدة تلو الأخرى، وكان النطق بالحكم يتم بعد التداول. وأخيراً عند الرابعة والنصف مساء كانت هناك فترة صمت فسألت: "هل انتهت كل القضايا؟"، قالوا: "نعم". فتنهدت بارتياح، وجمعت أوراقى وسرت إلى الاستراحة فى أعلى التل على امل ان اجد فيها حماماً وشيئاً يؤكل، لا سيما وانني لم أتناول شيء منذ وجبة الفطار. وفى منتصف المسافة إلى التل لاحظت أن الزعيم تشاك تشاك كان يتبعنى، فتوقفت عن السير لأعرف ماذا يريد، خاصة وأنه كان من حقه ان يتحدث معى مباشرة بعيدا عن دار المحكمة، فقال لى: "نحن لسنا راضين عن القضية التى دفعت فيها البندقية كمهر ولم تسترد

البندقية بعد الطلاق". قلت له: "ولكننا قد قمنا بتسوية هذه القضية ولدى مذكرة بها". فقال: "لا، ليست تلك القضية، هذه قضية أخرى". فقلت: "وأنت لم تذكر ذلك عندما سألت أنا هل انتهت كل القضايا؟" قال: "لا". وهنا أخشى أن أكون قد فقدت السيطرة على نفسى إذ صرخت فيه باللغة الإنجليزية قائلا: "إذن أنت أكبر غبى أسود". ولأول مرة بدأت قسمات وجهه تتحرك لتتفرج عن ابتسامة عريضة، ثم قال: نعم "Yais" هكذا نطقها باللغة الإنجليزية. قمنا بعد ذلك بتسوية القضية بطريقة ما، لا أذكر التفاصيل الآن، ولكن عندما أرسلت إلى جيم ستبس تقريراً عن تفاصيل القضية أضفت ملاحظة هنأت فيها زعماء القبائل لديه على إلمامهم بمصطلحات اللغة الإنجليزية.

أثناء إقامتى فى المنطقة الغربية حاولت تطوير تفويض السلطات، وذلك باستحداث محكمتين جماعيتين، إحداهما ابتدائية والأخرى للاستئناف تعقدان جلساتهما أربعة مرات فى العام، ويحضرها جميع زعماء القبائل فى المنطقة الذين كانوا أداة قيمة لنشر سياسة الدولة ومناقشتها، وأصبحوا فيما بعد يمثلون الأساس الذى تقوم عليه مجالس الحكم المحلى.

وأذكر بالذات إحدى هذه القضايا. كان الزواج المسيحى يسبب بعض المشاكل للإدارة، وذلك لأن الطلاق محرم وفقا لمذهب الكاثوليك الرومان، ومن جهة أخرى إذا انهار الزواج دون إنجاب أطفال، فكان ذلك يسبب مشكلة كبيرة للزوجين لأنهما عندما يتوفيان لن يكون هناك من يقوم بتوقيرهما كأسلاف له، ولذلك كانوا يحثون بشدة على إعادة الزواج. لقد التفّت الحكومة على هذه الناحية بإيجاد حل وسط ربما يكون غيرقانونى، فعندما كانت تعرض قضية طلاق على المحكمة، ويتضح أن الزوجين قد تزوجا وفقاً للديانة المسيحية، تقوم المحكمة بإحالة القضية إلى مفتش المركز، الذى يقوم بدوره بالاتصال بأقرب قسيس ويمنحه مهلة شهر للتوفيق بين الطرفين، وإذا لم تسفر جهود القسيس

عن أى صلح، فعندئذ يسمح بالسير فى إجراءات الطلاق المدنى، وبترك للزوجين كيفية التصرف حسب ما يمليه ضميرهما. ونظراً لنقص الموظفين أثناء فترة الحرب، ولتزايد ضغط العمل، فلم أتمكن من مراجعة أعمال المحكمة بصفة متواصلة كما كان يجب. غير أنى فى إحدى المرات وجدت أن إحدى المحاكم قد أخذت الأمور بيديها كما اتضح لى من القيد التالى: "شكت هذه المرأة من أن زوجها رجل مهم (important) وكان تعنى بالطبع (impotent) أى عاجزاً جنسياً. فأرسل زوجها إلى الفحص الطبى بواو حيث اتضح أن (قضيبه) ميت. قامت المحكمة بإحالة الموضوع إلى إرسالية الكاثوليك الرومان ببسرى التى ردت بأنها سوف ترفع الأمر إلى البابا. المحكمة فى انتظار تقرير البابا.

كانت هناك دورة سنوية محددة فى حياة الناس بالمنطقة الغربية، إذ انه اعتباراً من شهر مارس، إذا كان الرجال مشغولين بعمل آخر، فإنهم يامرون النساء للقيام بتنظيف مساحات كبيرة من الأراضى استعداداً للزراعة. ثم يبدا هطول الأمطار فى ابريل، فيقوم الرجال بزراعة الذرة بأنفسهم أو يتركون ذلك للنساء. أما إذا بدأت الأمطار مبكراً، فيتعين على الجميع العمل معاً بهمة واجتهاد لإزالة الحشائش الضارة، ومطاردة الطيور وحيوانات الغابة خشية أن تتلف الزراعة. وفى اكتوبر يبدأ حصاد الذرة، ومع بداية ديسمبر يكون قد تم جمع المحصول، وعندئذ لا يكاد يكون فى القرية رجل، أو امراة، أو طفل إلا ويكون ثملاً، ومن يلومهم على ذلك؟! أما فى أثناء بقية فصل الجفاف، وحتى بداية هطول الأمطار من جديد، فيذهب معظم الرجال إلى الغابة للصيد أو جمع العسل وشمع النحل.

لقد أمضيت أكثر من ثلاث سنوات فى المنطقة الغربية، ولا يزال هناك شيئان عالقين بذاكرتى بوضوح، هما السحر وحمى الملاريا. كان السكان المحليون، مثل كل المجموعات البدائية التى تعيش فى الغابة، يؤمنون بالسحر، ولربما كان لذلك

علاقة بالأشجار. كان الواحد منهم يمكن أن يعرض نفسه للموت لمجرد اعتقاده بأن عدواً له قد وضع له سحراً. وكانت القضايا المتعلقة بأعمال السحر تعرض على المحاكم، وهناك طقوس معروفة لإزالة السحر يقوم بها في العادة من اتهم بعمل السحر، وكل من يرفض القيام بالعمل المطلوب يواجه عقوبة السجن، وكانت هذه من العادات المحلية المسموح بها، ذلك أن المتهم يكون أكثر أماناً داخل السجن مما لو كان خارج السجن. وحدث قبل عام أو عامين من وصولى أن قام رجل بإلقاء امرأة فى بئر لاعتقاده بأنها ساحرة، وبالرغم من صرخاتها التى كانت تسمع فى القرية طوال يومين، إلا انه لم يتحرك أحد لإنقاذها، وقد أدى ذلك فى النهاية إلى فصل زعيم القبيلة من الخدمة.

كنت مرة اجلس للنظر فى قضية ببلاد (كبالا ناكا) وكان الشاكى رجلاً له بطن ضخمة منتفخة، بينما كانت زوجته هى المتهمة التى حكم عليها بأن تبصق بالماء على الزوج لتؤكد بذلك انها لم تعد تحقد عليه أو تعاديه، وانه إذا حدث له اى مكروه بعد ذلك فهو من الإله. وبعد أن انتهت المحاكمة انتابنى شعور باننى لم افهم ما جرى فى المحكمة، ولكن بعد أن قمت بتوجيه بعض الأسئلة إلى المحكمة وجدت أننى محق فى شعورى. لقد بصقت المرأة على زوجها بالماء فجعلته حاملاً، واعترفت بأنها مذنبة، وقالت إنها لم تكن تتوقع أن سحرها سوف يأتى بهذه النتيجة المخالفة للعادة. ثم سألت أعضاء المحكمة إذا كانوا يصدقون تلك الحكاية فأجابوا: " نعم طبعاً، لقد اعترفت المرأة نفسها بأنها قد سحرت الزوج، وما عليك إلا أن تنظر إلى الرجل لترى صدق ما قالت". أعتقد أن الرجل المسكين كان مصاباً بمرض الاستسقاء، ولكن نظراً إلى أنه قد رفض بإصرار الذهاب إلى المستشفى فلم يتسنى لى التأكد من حقيقة المرض.

ان السحر دائما أداة للأعمال الشريرة فقط، فقد كانت هناك قبيلة تسمى "الباندا"، أو على وجه الدقة كانت فرعاً من أمة الباندا التى كان يسكن

أغلبها فى الكونغو. وكان من الخصائص البارزة لهؤلاء الناس أن كل الرجال يكرهون النساء وكل النساء يشمئزن من الرجال. وفى مرة أثرت هذه الملاحظة مع أحد علماء الفسيولوجيا فقال لى: " لا بد أن تكون الاستثارة البيولوجية لديهم قوية جداً بحيث أنها تمكنهم من الاستمرار فى البقاء". ومهما كان الأمر فمما لا شك فيه أن الرجال كانوا يعاملون النساء ببغض وكراهية، وللرد على ذلك، اخترعت النساء سحراً سرياً يسمى (يليدا Yileda) وكان أثره نافذاً بدرجة كبيرة، ويكفى أن تستدعى الزوجة هذا الـ (يليدا) ليجعل زوجها يقف فى مكانه كالميت، ويمنعه من استعمال أى شكل من أشكال القوة ضدها. ربما يرغب أنصار المساواة بين الجنسين متابعة هذا الأمر، غير أن شعائر هذه الطبقة كانت من القذاذة بدرجة لا توصف، كما رواها لى الأب بالكنيسة الكاثوليكية، وأخشى أن فكرة "الهمجى النبيل The Noble Savage" كانت مجرد اختلاق فى مخيلة "روسو". لم أسمع فى حياتى دقات طبول الباندا، ولكنى كنت أتطلع إلى معرفة شئ عنهم. وكنت لقد أحببت الباندا كثيراً، فقد كان رجالها يميلون إلى المرح والعمل بروح الفريق. ومع أن نساءهم كن يملن إلى الفسوق والفجور، إلا أن الرجال كانوا يعرفون كيف يتعاملون معهن، ولا زلت أذكر اسمى اثنين من زعمائهم هما "مبالى" و "مبو".

أما بالنسبة إلى الملاريا فقد كانت شيئاً مختلفاً جداً، حيث كان ينتشر فى المنطقة الغربية نوع خبيث من الملاريا أعتقد انه كان يسمى "الملاريا الثلاثية المميتة". لقد كانت مميتة بالتاكيد لأنها ترفع حرارة الشخص المصاب إلى درجة عالية جداً قد تصل إلى ١٠٥، وغالباً ما كانت تؤدى إلى فقدان الوعى. أما فيما يتعلق بى فقد كان يمتد تأثيرها إلى تقيؤ متواصل، ويستمر حتى لا يبقى فى المعدة ما يمكن تقيؤه. إنها كانت عملية مؤلمة بحق.

كنت أصاب بهذا المرض الكريه مرة كل ثلاثة أشهر تقريباً، وكانت نوبة المرض تستمر يومين أو ثلاثة فقط، يستطيع المرء أن ينهض بعدها مرة أخرى لمواصلة عمله. وكان تناول حبوب "الكينين" للوقاية أمراً مشكوكاً فيه، ذلك أنه إذا نفذت الحبوب أو نسيت تناولها بانتظام، فقد تعرض نفسك إلى خطر الإصابة بحمى (البول الأسود) المميتة. غير أنه مع نهاية فترة عملي في الجنوب بدأت تظهر حبوب أخرى أكثر فعالية، فقد ظهرت أولاً حبوب (بلاسماكوين plasmaquin) ثم (أتابرين atabrin) بالرغم من أنه قد سرت إشاعة بأن الأخيرة قد تؤدى إلى الجنون مؤقتاً ولكن كنت فى النهاية أتناولها بانتظام، وبالرغم من أنها كانت تحيل لون جسمى إلى الصفار إلا أنها كانت تبقى الحمى تحت السيطرة.

لا زلت أذكر احتفالنا بعيد الكريسماس بعد انضمام المنطقة إلى واو. كان دونالد كلارك (Donald Clarke) مفتشاً للمركز حينذاك، ورأى أن يسجل لى زيارة فى راجا بمناسبة الكريسماس، ولضيق الوقت قرر أن يأتى فى عربة بوكس ليقضى معى ليلة واحدة فقط ثم يواصل طريقه. وبما أنه قصد أن يسافر خفيفاً، فقد أمر بأن يحضر معه طباخه وديك رومى، غير أن الطباخ رفض التحرك دون صبيه المساعد، وعندما سئل لماذا، أجاب قائلاً: "كما تعلمون أن هناك أزمة لحوم فى راجا". وأعتقد أنه كان يقصد بذلك أن المساعد يمكنه أن يخرج ليصطاد ما يمكن اصطياده، غير أن الملاحظة كان لها وقعاً مخيفاً أيضاً عندما يتذكر المرء أن أفراد الباندا وآخرون كانوا معروفين فى السابق بميلهم إلى أكل لحوم البشر. وفى ليلة الكريسماس أصيب دونالد بألم حاد فى أسفل الظهر، بينما عاودتنى أنا نوبة شديدة من الحمى. وفى صباح يوم الكريسماس جاء دونالد إلى غرفتى وظهره محنى إلى النصف (كان طوله ٦ أقدام و٢ بوصات) فوجدنى أحاول التقيؤ فى جردل دون جدوى. ولكن

بالرغم من كل ذلك استطعنا أن نحتفظ بروح الكريسماس بترديد أغنية، ليريحكم الرب أيها السادة المرحون، لا تدعوا شيئاً يثبط هممكم، وذلك بإيقاع زوجي. كان على دونالد أن يغادر في اليوم التالي، وبقيت أنا طريح الفراش متوهماً أنني الجنرال غردون في انتظار وصول "حملة الإنقاذ" لتأتي إليّ بطريق راجا. أما الديك الرومي فيعلم ربنا ماذا حدث له (وكذلك الصبي مساعد الطباخ).

في مناسبة أخرى كنت واثنان من المساعدين نشارك في جلسة استماع عقدت بالاستراحة على بعد أربعين ميلاً للنظر في قضية تتعلق بجريمة قتل، ولم يكن هناك أدنى شك من الناحية الفنية في ثبوت الجريمة بالرغم من توافر الظروف المخففة، وقررنا إصدار الحكم بالإعدام مع التوصية بالاسترحام. وفي هذه المرحلة بدأت أشعر برجفة، وأصبحت الغرفة تدور من حولي، ولكنني احتفظت بقدر من الوعي يكفي للنطق بحكم الإعدام، وبأنه من حق المتهم استئناف الحكم، وبعد ذلك انهرت على الطاولة السفرية في شبه إغماءة، فهرع إليّ حارسي المرافق وحملني وأرقدني على ظهر لوري ليعود بنا جميعاً إلى واو. وأثناء ذلك لاحظت أن الرجل الذي كان يجلس بجانبي والذي كان يهش الذباب عن وجهي بغصن شجرة مورق هو نفس الرجل الذي حكمت عليه لتوي بالإعدام! طبعاً لم يعدم، و إنما خفف الحكم إلى المؤبد، وكنت أقوم برعايته في سجن واو.

في سبتمبر ١٩٤٥ أخطرنا فجأة بأن نأخذ إجازة إلى الوطن بعد غياب دام خمس سنوات. كانت الرحلة طويلة بالنسبة لي؛ ثمانمائة ميل باللوري إلى رئاسة المديرية بجوبا، وبضعة أيام بالباخرة إلى كوستي، ثم بالقطار إلى الخرطوم، ومنها بالقطار أيضاً إلى وادي حلفا، ثم بالباخرة إلى أسوان، ثم بالقطار إلى القاهرة، وبالقطار أيضاً إلى الإسكندرية، وأخيراً إلى الوطن عن طريق البحر بالسفن المحمية بقوات عسكرية. وعندما وصلت إلى أرض الوطن

امسك بى الأطباء، وأمروا لى بإجازة مرضية لمدة شهر بسبب ما أصابنى من ضعف من جراء الملاريا. ومع أننى لم أكن أشعر بهذا الضعف، ولم أكن راضياً بذلك، إلا أنه كان لا بد من الامتثال للأوامر. وفى نهاية المطاف بدأت رحلة العودة إلى السودان قبل ثلاثة أيام من حلول أعياد الكريسماس. وبينما كنا نتناول عشاء الكريسماس، جاء كبير المضيفين الاسكتلندى بوجهه العابس إلى غرفة الطعام وقال لنا: "يجب أن تناموا الليلة بملابسكم فهناك غواصة ألمانية فى الخارج" ولم نسمع أكثر من ذلك.

كانت المنطقة الغربية كما هى عندما وصلت إليها، ولكنى أصبت سريعاً بنوبة أخرى من الحمى وأنا فى طريق راجا. وفى غضون ذلك أعلن عن انتهاء الحرب مع ألمانيا، وحيث أن حجار البطارية خاصتى قد نفذت، فقد نقل لى الخبر المستر/ لاجوتاريس التاجر الإغريقى. لم يكن هناك الكثير الذى يمكن أن نفعله فى راجا بهذه المناسبة، ولكننا بالرغم ذلك ذبحنا ثوراً، واستطعنا أن نجمع كمية كبيرة من البيرة، وأقمنا لقاء رياضياً شمل الجرى، والقفز، والرماية بالسهم والرمح. قمت أولاً بقيادة موكب النصر حول المركز وقد اشترك فيه جميع أفراد الشرطة (حوالى ٢٨ فرداً) وكنت أتقدم الموكب على صهوة جواد بعد أن جمعنا كل الأعلام التى حصلنا عليها، وطلبت من الجنود أن يرفعوا سواعدهم عالية وينشدوا بكل ما لديهم، وقد فعلوا ذلك. وعندما دلفنا إلى ميدان العرض، تبين لى أنهم كانوا يرددون أغنية بعربى الجنوب، فأرهفت السمع لألتقط ما يقولون، فإذا بكلمات الأغنية عبارة عن نداءات لإحدى فتيات الباندا دون تحديد لكى تلاحظ الدليل على رجولة المغنى المميزة. أعتقد أن هناك طرقاً أسوأ من هذه للاحتفال بنهاية الحرب العالمية.

فى وقت ما من ذلك الصيف، علمت بأن أحداً قد أوصى بنقلى إلى الشمال نظراً لكثرة إصابتى بالحمى. كان هذا الخبر محزناً لى لأننى كنت مستمتعاً

بالحياة، وقد أحببت المكان والناس، وما كان يهمنى أن أكون وحيداً لفترات طويلة. غير أن الاعتقاد الذى كان سائداً فى ذلك الوقت أن العمل فى الجنوب يدفع بالمرء إلى أن يكون غريب الأطوار وشاذاً فى تصرفاته (باستثناء بارونات الجنوب شديدى المراس مثل جيم ستبس، وحتى هؤلاء كانوا معرضين كذلك). ومن المؤكد أن هذا الاعتقاد كان يسنده قدر كبير من الواقع، والأمثلة على ذلك كثيرة منها تلك الحالة، التى سجلت فى مكان آخر، لرجل كان من عادته أن يصيح بهذه العبارة: "هاى تيدلى هاى تى" (Hi tidly hi ti) وكان يتوقع أن يرد عليه الحاضرون سواء كانوا عساكر فى طابور العرض، أو أشخاصاً فى المحكمة القروية، أو حتى موظفين فى الخدمة بقولهم: "بوم بوم" (Pom pom). وكان هناك أيضاً ذلك الرجل الذى كان يصر أن يحضر له إفطاره فى تمام الساعة التاسعة والنصف مساء "لتوفير الزمن فى الصباح"، أو ذلك الرجل الذى تنبأ بأن نهاية العالم ستكون فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً فى يوم معين، وقبل الوقت المحدد بخمس دقائق أخذ كرسيه إلى خارج المكتب وجلس هناك حتى يتمكن من مشاهدة هذا الحدث الفريد. وعند الساعة الثانية عشرة بالضبط حدث أن انهار خلفه سقف المكتب! وكان داخل المبنى فى ذلك الوقت الرجل الذى أصبح مديراً للمديرية فيما بعد، والذى وجد مختبئاً باطمئنان تحت طاولته بالمكتب يدخن غليونه. لا أدرى إلى أى مدى استطعت من جانبى أن أستسلم لهذا الخطر المهنى، غير أن التصرف الشاذ الذى لا زلت أعيه حتى الآن هو أننى بعد ما حكمت على أحد الأشخاص بالسجن لمدة ١٨ شهراً، قمت نيابة عنه بكتابة عريضة استئناف ضد الحكم لأنه لم يكن هناك من يقوم بهذه المهمة بكفاءة. وكاد الاستئناف أن ينجح حيث جاء الرد من سلطة الاستئناف ليقرأ كما يلى: "تأكيد التحقيق القضائى والحكم، بالرغم من عريضة الاستئناف البارعة التى من الواضح أنه قد كتبها شخص له إلمام بالقانون".

وهكذا عدت إلى الشمال مرة أخرى فى شهر سبتمبر ١٩٤٥.. إلى مدينة القضارف بمديرية كسلا بشرق السودان، ووجدت أنه قد حدثت تغييرات كثيرة فى المواقف أثناء غيابى فى تلك الأدغال النائية. كانت الحرب بأهدافها المعلنة فى الحرية والتحرير، كما نصّ عليها ميثاق الأطلنطى، قد أيقظت فى أذهان المثقفين والمفكرين السودانيين شعوراً بالرغبة فى نيل الاستقلال، مما كان يعنى بالطبع الرغبة فى التخلص من الحكم البريطانى. أما كيفية تحقيق ذلك فقد كانت تصطدم بالغول الطائفى، أى الصراع بين المعتدلين الذين كانوا يوالون السير السيد/ على الميرغنى، والمهدويين الموالين للسيد/ عبد الرحمن المهدى.

لست فى حاجة إلى أن أتطرق إلى هذا الموضوع بأكثر من ذلك، فقد عالجته من قبل أقلام أكفأ من قلمى بكثير، ولكننى أكتفى بالقول إنه كانت هناك دائماً مشاعر مكبوتة، بل وأحياناً عنيفة، كان يمكن أن تنفجر فى أى لحظة فتخلق مشكلة لمفتش مركز يكفيه ما كان عليه من ضغوط أخرى كثيرة.

كان مركز القضارف يقع على نفس خط العرض لمدينة الخرطوم، ويمتد إلى الحدود الأثيوبية. وفى أقصى الشمال تقع أبو دليق، وهى مدينة ريفية صغيرة ومركز لرئاسة قبيلة البطاحين المشهورين ببراعتهم فى سرقة الإبل، حيث كان هناك مثل يقول: (إذا سلمت على البطحانى فاحسب أصابع يديك). وإلى الجنوب من أبو دليق تمتد البطانة، وهى عبارة عن سهل واسع منبسط تغطيه المراعى فى موسم الأمطار، ثم يصبح جافاً مقفراً فى فصل الجفاف، وتتبعثر هنا وهناك تلال تتكون من صخور عارية، ولكنها قليلة ومتباعدة. لقد وصف سلف لى "العمل فى البطانة" كمن يقف متجهاً إلى الشمال، ثم يلتف حول نفسه ٣٦٠ درجة كاملة إلى أن يتجه إلى الشمال مرة أخرى، وأثناء هذه العملية لا يرى شيئاً بالمرة". يمكنك تغطية مساحات شاسعة فى البطانة فى جولة يوم واحد.

كانت الصورة تختلف تماماً فى جنوب القضارف حيث تتحول المنطقة من سهل منبسط إلى سافنا ذات شجيرات شوكية، ثم إلى أشجار أكبر حجماً كلما

اقتربت من الحدود الأثيوبية، ولم يكن سكان هذه المنطقة عرباً رحلاً، وإنما كانوا خليطاً من السود المسلمين الذين ترجع أصولهم إلى غرب السودان، وهم من بقايا جيش أحمد فضيل الذين تخلفوا فى المنطقة فى نهاية المهدية، وكانوا يعملون بالزراعة ويسكنون فى قرى مستقرة. كانت هذه المنطقة تسمى "دار بكر" ويحكمها الناظر/ عبد الله بكر الذى كان فى وقت ما ضابطاً بقوة دفاع السودان، وكان معظم العمد والمشايخ الفرعيين من أقرباء الناظر، ويبدو أن السكان المحليين كانوا يريدونها على هذا النحو لما يكنونه من ولاء لـ (العائلة).

وكما كان للشكرية مشاكلهم مع البطاحين، فقد كان لدار بكر أيضاً مشاكلهم مع مجموعة صغيرة مستقلة تسمى "الخط الجنوبى" تحت قيادة زعيمهم العجوز الشيخ/ موسى وابنه البدين يعقوب، وكان العداء مستحكماً بين الشكرية ودار بكر، وكانوا يستغلون البطاحين والخط الجنوبى فى تأجيج النيران بينهما مما كان يسبب للحكام متاعب لا حد لها.

قبل ظهورى على مسرح الأحداث بوقت قليل، تم إنشاء مجلس ريفى، وكان ذلك يمثل خطوة متقدمة، وكان المجلس عند وصولى يعمل بصورة جيدة ويترأسه مفتش المركز، ومساعد المفتش كضابط تنفيذى، ولكن بذرة الخلاف كانت تطل برأسها، ولم يكن المستقبل يبشر بتقليص هيبة الحكومة، ذلك أنه لم تكن هناك فرصة حقيقية للوفاق بين العرب والسود، إذ كان كل جانب يتوجس من الجانب الآخر، وكان كل منهما يعتقد أن الآخر يحصل على أكثر من نصيبه العادل، وبالطبع كان يكمن فى أعمق أعماق قلب كل عربى أن الرجل الأسود ما هو إلا عبد من العبيد. أما فيما يخصنى شخصياً، فقد وجدت من الصعب إحداث تغيير سريع من نظام فى غالبه يُعد حكم مباشر - إلى التصويت كتعديل التعديل - وبلغتى العربية الدارجة.

ربما يكون من الأنسب هنا أن نتوقف قليلاً لنلقى نظرة على ما كان عليه الوضع بصورة عامة:

١. كان هناك التنافس الراسخ بين العرب والسود مع بعض الآثار الجانبية من قبل البطاحين وأقليات الخط الجنوبى.

٢. كان المكوّن السياسى الدينى يعنى أن المنطقة الواقعة شمال المركز تميل إلى مناصرة حزب الأشقاء (أو المراغنة)، بينما كان جنوب المنطقة يؤيد حزب الأمة (أو المهدى).

٣. تم تدريجياً استبدال الحكم القبلى بحكومة محلية منتخبة، وكان لذلك نتائج غير مباشرة حيث ان بعض الأطراف غير الموالية لأى جهة قد طالبت بإنشاء مجلس بلدى لمدينة القضارف مما أدى إلى سخط عائلة أبوسن (رغم أن التبعية الحقيقية كانت تعنى حصولهم على الأغلبية فى أى انتخابات تجرى.)

٤. تم إعلان القضارف منطقة للتنمية، ولم تلبث أن أصبحت المصدر الرئيسى للذرة فى السودان، ونتج عن ذلك تدفق المال إلى المدينة، وبالطبع أينما يكون المال تكون المشاكل.

٥. كان إنتاج الذرة يعتمد بدرجة كبيرة على ما كان يسمى بزراعة "الحريق" التى تتكون من تحديد مساحات ضخمة متماثلة من الحشائش الكثيفة، وتتم حمايتها من النيران عن طريق تقطيع خطوط للنار ليتم إشعالها مع بداية هطول الأمطار، وبهذه الطريقة كانت تتوافر مساحات واسعة من الأراضى البكر الخالية من الأعشاب التى تنتج محصولاً وفيراً بالحد الأدنى من العمال.

٦. بما أن الجميع كانوا يحاولون التنافس فى هذا العمل المربح، فقد كان هناك طلباً متزايداً على العمالة. كما انه بالنظر إلى ارتفاع الأجور، فقد نزحت إلى المنطقة أعداد كبيرة من السود أغلبهم من قبيلة "المساليت" القادمين من غرب الجنينة بغرب السودان من أجل العمل فى "الماريق". وكانت الفترة بين نهاية موسم الحصاد وإعداد الأرض للعام التالى تمتد إلى بضعة أشهر يكون

فيها المساليت دون عمل، ولم يكن باستطاعتهم العودة إلى بلادهم لبعد المسافة، ولذلك كانوا يجنحون إلى أعمال اللصوصية وقطع الطرق.

٧. كان لا بد من إيجاد شبكة واسعة من الأسواق من أجل بيع المحصول وكان ذلك بمثابة "أكل عيش" بالنسبة للمساليت الذين كانوا يكمنون للمزارع أثناء عودته من السوق وجيوبه ملأى بالمال. لذلك أصبح من الضرورى إنشاء وصيانة طرق كافية بحيث يستطيع المزارع السفر إلى أهله بصحبة زملائه وليس وحيداً على ظهر حمار.

٨. ساهمت الحكومة المركزية فى العمل باستخدام آليات مصلحة الزراعة لتجهيز حفير ضخم على مساحة حوالى عشرين ميلا جنوب القضارف، وذلك لتخزين المياه طوال العام. وكان فى أيامى لا يزال فى مرحلة التجربة ويشرف عليه اثنان أو ثلاثة من مفتشى الزراعة المقيمين الذين كانوا يتصلون بالعالم الخارجى عن طريق محطة السكة الحديد بود الحورى، التى أقيمت فيها ورش لصيانة الآلات والمعدات. لقد نمت هذه المحطة بسرعة وأصبحت مدينة صغيرة، ولم تلبث أن تحولت بعد فترة وجيزة إلى بؤرة للشر والفساد.

٩. بما أن زراعة "الحريق" تتطلب توفير كميات كبيرة من المياه، فقد تم وضع برنامج للمحافظة على المياه، وحفر آبار عميقة فى بعض المواقع المختارة.

١٠. يجب الا يغيب عن الذاكرة انه قبل عام أو عامين كانت قد اندلعت حرب على الحدود الأثيوبية، واستطاع العديد من المواطنين الملتزمين بالقانون فى ذلك الوقت الحصول على واحدة أو اثنتين من البنادق الإيطالية التى استخدمت فى أيام الحرب، وبدأوا يستعملونها عندما يذهبون لسرقة الصيد فى حظيرة الدندر، أو فى أعالى نهر سيتيت، وبالطبع كانوا يستعملونها كذلك فى بعض الجرائم البشعة، ولو انه كانت هناك كتيبة من قوة دفاع السودان تسمى فرقة العرب الشرقية مستعدة لمعالجة الأمور التى تخرج عن اليد.

يمكننى ان استمر فى السرد على هذا المنوال، ولكننى أكتفى بهذا القدر عسى ان اكون قد اوردت ما فيه الكفاية لتاكيد القول المأثور القديم: "لا تتوافر لحظة هدوء فى القضارف".

وصلت إلى القضارف فى سبتمبر ١٩٤٥، وبقيت فيها حتى فبراير ١٩٤٦ اعمل تحت رئاسة سلفى المستر/ سى. إيه لى C.A Lea الذى كان يلقب بـ (الشيخ لى) لا أدرى لماذا، ولكنه كان دائماً يذكرنى بتلك السلحفاة الطيبة التى تختزن فى أعماقها قدراً كبيراً من القسوة. كان (شيخ لى) صغير الحجم نحيلاً، ويستخدم نظارة سميكة تشع من خلفها عينان زرقاوان متوقدتان. لقد كان دائماً كريماً معى ويقدم لى كل مساعدة، رغم أن "رعاياه" كانوا ينظرون إليه بهيبة واحترام شديدين.

مكثت فى القضارف أكثر من خمس سنوات، ولكن لم أكن مثل برامبل أو الشيخ (لى). وبعد مضى بضعة سنوات كان بيل مونتيث Bill Monteith الرجل الثانى فى المركز آنذاك، يتبادل أطراف الحديث مع عمدة الحواتة، ذلك الشاب الذى ترك وظيفته كصحفى ليتولى هذا المنصب فى الإدارة الأهلية. كان للعمدة إلمام جيد باللغة الإنحليزية، وحتى نحافظ على لغته من الصدأ. كنا فى الغالب نتحادث معه بالإنجليزية. وفى هذه المناسبة كان يناقش معنا القانون الخاص بالكيفية التى تدار بها الأمور فقال: "إن ما تحتاجه هذه المنطقة هو مفتش مركز جاد وفضولى (curious) (اعتقد انه كان يقصد(inquisitive) أى محباً للبحث والاطلاع) ولكن المستر بالفور مثير للشفقة."

لقد منحنى ذلك المكان شيئاً واحداً، وهو ذلك اللقب الذى أطلق علىّ لأول مرة فى حياتى. كنت فى إجازة، وكان نائبى الثانى ماندى ميتشل إنز (Mandy Mitchell Innes) قد أصدر تعليماته لقائد فرقة العرب الشرقية لإزالة العجور الذى كان قد زرعه القائد فى الفناء الأمامى لمنزله، وذلك بناء على نفس الأسس

السليمة التى بنى عليها إصدار أوامره لإمراة عجوز كانت تسكن أسفل الشارع بإزالة العجور الذى كانت قد زرعته هى أيضاً فى الحوش الأمامى لمنزلها، ذلك أنه بموجب قانون الصحة العامة لعام ١٩١٨ فإن "ما يصلح لطهى مرقة الوزة يصلح أيضاً لطهى مرقة ذكر الوزة". ورغم أن قائد الحامية كان عسكرياً شرساً، إلا أنه كغيره من الضباط البريطانيين كان يلتزم بالقانون، ولذلك قام بإزالة العجور رغم أنه لم يكن مقتنعاً بذلك. أما ماندى الذى كان بارعاً فى المناورة فقد سعى ونجح فى الترقى والنقل إلى موقع آخر، ولكن طوال الفترة المتبقية من إقامتى ظللت أتحمل العبء الذى تركه لى، وأصبحت معروفاً لدى القاصى والدانى بلقب "المدنى اللئيم" The bloody civil.

فى الواقع، استمرت علاقتى بالجيش طيبة طوال فترة إقامتى. وذات مرة قمت بزيارة نفس القائد فى يوم الجمعة الذى كان عطلة رسمية لأناقش معه موضوعاً مشتركاً بيننا. وتكرم الرجل ودعانى للغداء فقبلت الدعوة، ثم تناولنا بعض المشروبات وشرعنا فى استكمال قصصنا. وفى الساعة الرابعة والنصف قلت له يجب أن أغادر، وعندما تحركت العربة قلت له: "شكراً على الغداء"، فقال: " أوه يا الهى! نحن لم نتغدى؟!".

كما ذكرت آنفا لم تكن هناك لحظة تمر فى القضارف دون عمل، ولا زلت اذكر يوما بعينه فى شهر رمضان، حيث يهجع كل الناس، أننى ذهبت إلى مكتبى مبكراً لأحاول تكملة بعض الأعمال قبل مجيئ الموظفين فى الساعة التاسعة صباحاً، ولم أجد هناك غير الصبية المراسلات ولا أحد غيرهم. وما كدت أجلس وأتناول الملف الأول حتى سمعت صرخات عالية: "حرامى! حرامى!" ثم رأيت المراسلات يتراكضون فى كل اتجاه. وعندما وصلت باب المكتب، مرّ من أمامى مسرعاً الشرطى قصاص الأثر متعقبا الحرامى، وعلى بعد خمس خطوات منه تقريباً كان يركض خلفه احد الأعراب الذى كانت تبدو عليه سمات الإجرام

ويمسك بيده اليمنى سكيناً طولها قدم، وكان واضحاً أنه مصر على إلحاق الأذى بالشرطى قصاص الأثر. ونسبة لخلو المكان من الناس، فقد صرخت فيهما بأعلى صوت ليتوقفا، ثم بدأت فى مطاردتهما. ركضنا حول مبنى مجلس المنطقة، وداخل غرفة الحرس، ولحسن الحظ كان لهذه الغرفة باب يفتح على الشارع، فدلفنا من خلاله قبل أن يتمكن العريف الذى كان يعانى من غيبوبة رمضان من الصراخ قائلاً: "ما هذا الذى يحدث؟". جرى الشرطى إلى ميدان السجن، يتبعه الأعرابى وأنا من الخلف. نادى الخفير بالحرس فاعتقد العريف المسئول عن الحرس أن شخصاً مهماً قادم إلى السجن، فأمر أفراد الحرس بأن يصطفوا لأداء التحية، وفى هذا الأثناء أدركت الأعرابى فى نفس الوقت الذى كان قد سمر فيه فخذ الشرطى على جدار السجن بالسكين، فقمت بفصل الرجلين عن بعضهما، بينما تجمع حولنا جمهور غاضب من الشرطة والحراس وبعض المارة، وكانوا جميعا يصرون على قتل الرجل دون محاكمة. كان علىّ أن أقوم بتهدئتهم قبل الاعتناء بالشرطى المصاب الذى كان يمسك بفخذه وهى تنزف دماً فى كل الاتجاهات. أخذته إلى اللورى الوحيد الذى كان متوفراً، ولكن وجدت (الاستارتر) متعطلاً فصرخت: "أين المنفلة؟" فأجاب أحدهم: "أوه، لقد أخذها السائق معه إلى منزله، و هو فى رمضان لا يأتى إلى العمل إلا فى الساعة العاشرة" فقلت: "إذن توقفوا الآن عن محاولة قتل المتهم، وادفعوا بهذا اللورى إلى المستشفى". وهكذا قاموا بدفع اللورى، وتوليت أنا الإمساك بعجلة القيادة، بينما كان الشرطى لا يزال ينزف، ولحسن الحظ كنا نتجه إلى أسفل التل فأوصلناه إلى المستشفى فى الوقت المناسب. غير أننى فى طريق العودة إلى المكتب، اضطررت للسير مشياً على الأقدام إلى أعلى التل تحت أشعة الشمس المحرقة.

وما أن ارتميت على الكرسى مرهقاً حتى رن جرس التلفون، وكان المتكلم على الجانب الآخر هو كاتب المحكمة الأهلية بخشم القربة الذى قال لى:

"تعرف مدرسة البنين التى جعلتنا نقوم ببنائها هنا ؟ حسناً، لقدم استغل المقاول حطباً أخضر نخر فيه السوس، وهاهو المبنى قد انهار الآن". فقلت: "وماذا عن أولاد المدرسة؟" فقال متحسراً: "لم يكونوا فى المدرسة فى ذلك الوقت". وعدته بالحضور لمعاينة المدرسة عندما يتوفر لى الوقت، ثم تناولت ملفاً آخر ولكن قاطعتنى أيضاً أصوات فى الخارج، فنظرت من النافذة لأجد فناء المركز بزواياه الأربع ممتلئاً بالجمال المحملة، ومعها أصحابها من الهدندوة الشرسين برؤوسهم كثيفة الشعر (التى تشبه حاملة التبن). وسبق أن صدرت لى الأوامر قبل فترة لإرسال دورية من الشرطة لمكافحة تهريب السمسم من السودان إلى أثيوبيا وكانت هذه هى النتيجة. كان الأمباشى قائد الوردية، كما هو مفهوم، مسروراً مع نفسه ولكنى كنت أريد له أكثر من ذلك. بلغ عدد الجمال المحجوزة ١٥٠، وبما أنه لم يقر أحد من الهدندوة بمعرفته للغة العربية، فقد فشلنا فى التفاهم معهم من خلال الكلام كوسيط للاتصال بين الجانبين.

كان هذا النوع من الأشياء يحدث دائماً بعد نقل الرجل الثانى وقبل وصول البديل. وأثناء إقامتى بالمنطقة التى امتدت إلى خمس سنوات عمل بالمنطقة خمسة مساعدى مفتش مركز واثنين من السودانيين، وكانوا جميعهم ممتازين، ولكن إقامتهم بالقضارف كانت قصيرة مثل "وردية الليل التى تنتهى قبل نهاية الليل وطلوع الفجر".

سبق أن ذكرت مدرسة للبنين. كنت فى غاية المشغولية عندما أخطرنى مدير المديرية بأنه قد تم اعتماد مبالغ لبناء ثلاث مدارس للبنات ومدرستين للبنين ضمن برنامج مصلحة المعارف، ولكن نسبة إلى أن الأشغال العامة قد شيدت هذه المدارس بمستوى عال وكلفة عالية، فلم يكف المبلغ المعتمد إلا لبناء مدرسة بنات واحدة فى مدينة القضارف، ثم قال لى: " ولكنك يا(اليوت)

تستطيع أن تبنى هذه المدارس بتكلفة أقل بكثير إذا أوليت الأمر مزيداً من اهتمامك الشخصى"، وأضاف قائلاً: "ساعطيك مبلغ ٢٠٠٠ جنيه سودانى لكل واحدة من المدارس الثلاث، وما عليك إلا أن تبدأ العمل فوراً". لم يسبق لى فى حياتى أن قمت بتشييد أى مبنى، ولكنى تمكنت من بناء مدرسة للبنين فى (ديم بكر) وهى ضاحية تقع مباشرة بعد الخور الواسع الذى يفصل بينها وبقية مدينة القضارف. ثم حاولت بناء الأخرى فى خشم القربة وأشرفت على بنائها من بعد، ولكنها انهارت وتم ترميمها فيما بعد. أما المشكلة الحقيقية فكانت تكمن فى كيفية بناء مدرستى البنات اللتين كان موقعهما فى تربة طينية تتحول إلى شقوق كبيرة فى فصل الجفاف مما يؤدى إلى تدمير أساسات المبانى. لذلك أصبت بنوع من اليأس والإحباط، ولكنى أعتقد، كما جاء فى حكايات ألف ليلة وليلة، أننى ربما أكون قد لامست مصباحاً أو خاتماً سحرياً، إذ ظهر فجأة رجل لا أدرى من أين أتى، ولا أستطيع حتى أن أتذكر اسمه الآن، غير أنه من المؤكد كان طويل القامة ونحيفاً، ولونه أصفر، وله لحية قصيرة سوداء، وبدا لى تماماً كأنه قد خرج من جوف زجاجة! لقد قام هذا الرجل ببناء مدرستى البنات بأن وضع أولاً طوفاً خرسانياً مسلحاً، ثم استخدم ألواحاً خشبية مغطاة بالقطران (لاأدرى من أين حصل عليها؟) وذلك حتى لا تتشقق الجدران، ثم سقف المبانى بالقش بطريقة جيدة، وقام بتشييد سكن المعلمات داخل المبنى الرئيسى. وبالرغم من أننى قد سمحت له باستخدام عدد غير محدد من المساجين (المضامين)، إلا أنه كان دائماً يتجاوز قيمة العطاء لأنه كان يشترى لهم الثيران ويوفر لهم المريسة (مشروب مسكر) حتى يقبلوا على العمل بسرور. وبصرف النظر عن أن هذا التصرف كان يعتبر خرقاً صريحاً للوائح السجون، فما كنت أدرى أيضاً كيف أستطيع إقناع مصلحة المراجعة بهذا التجاوز فى المصروفات.

كان يمكن فى الواقع استغلال مصلحة المراجعة بكل سهولة، فقد حدث لمفتش مركز فى الجنوب، أراد أن ينقل رئاسة المركز إلى مكان آخر قبل أيام اللوارى، أن تسلم برقية من مكتب المراجعة تقول: "وضحوا لماذا استخدمتم ٢٠ رجلاً لنقل خزينة من كاجو كاجى إلى ييى؟" فأبرقهم قائلاً: "لأن ٢٩ رجلا كانوا غير كافين." ولم يسمع بعد ذلك شيئاً عن هذا الموضوع. وفى مناسبة أخرى طلب مفتش المراجعة من زوجتى (مستقبلا) وكانت جديدة على البلد، إبراز صور أوامر الصرف التى قامت بتوقيعها، فأجابت برقة: "أوه، تلك الأوراق؛ إننا نستخدمها فى لف قشرة السنمكة للنساء اللائى يتوقعن مولوداً جديداً". وبالرغم من أننا فى النهاية قد تجاوزنا المبالغ المعتمدة لنا، إلا أننا قد أكملنا بناء المدارس بأقل من تقديرات مصلحة الأشغال ولم نتعرض إلى أية مساءلة من أية جهة. وفيما عدا مدرسة خشم القربة، فقد ظلت الأخريات على أحسن حال. أما المقاول فقد اختفى نهائياً، حتى أنى لا أذكر أننى قد ودعته. ترى هل يكون قد عاد إلى جوف زجاجته؟!

كذلك قمت بإجراء التسويات اللازمة للأراضى، وتمت مصادرة بعض منها ولم يتبق غير دفع التعويضات لمن كانوا يستغلونها لأغراض الرعى أو جمع إنتاج الغابات. لم يكن من سياسة الحكومة صرف مبالغ نقدية للأفراد خوفا من تبديدها فور استلامها، وبدلاً عن ذلك كانت الحكومة تقدم بعض الخدمات التى يستفيد منها المجتمع ككل. وفى حالة مماثلة طالب السكان المحليون بأن تحفر لهم بئر للمياه، وأزعجنى أن المسئولين فى مصلحة توفير المياه بالخرطوم لم يتجاوبوا وبدءوا يضعون بعض العراقيل، فلم يكونوا مثلاً يسمحون بالحفر بعد عمق معين، أو الاستمرار فى الحفر إذا كان ماء البئر قد تجاوز مستوى(ppm) ولم تكن لدى أى فكرة عما يعنيه هذا المصطلح، ولذلك قمت باستشارة أهالى البلدة.

قال لى الأهالى: "لدينا بئر فى قرية (بان) ماؤها مالح ولكنه صحى جداً، ويكفى أن أعمار الناس فى هذه القرية تتجاوز الثمانين". وكان واضحاً بالفعل أن الناس يأتون من أقاصى البلاد وأدناها ليشربوا من مياه بئر (بان) مثلما حدث فى باث (Bath) وشيلتنهام (Cheltenham) . لذلك عبأت زجاجة من ماء البئر وأرسلتها للتحليل فى الخرطوم. وقد ورد فى تقرير التحليل على ما أذكر أن "هذه البئر مليئة بمادة النترات ولا شك أن المياه قد تسربت إليها عبر مدافن موتى قديمة، أما محتوياتها الأخرى فهى مياه أكّالة لا يجوز استخدامها فى غلايات الماكينات البخارية. وبالرغم من ذلك، وإذا لم تخنِ الذاكرة، فقد حصلنا على البئر.

كان يأتى إلينا فى القضارف زائرون من مختلف الأنواع، وأذكر منهم ذلك الثلاثى الممتاز: يوفاروف (Uvarov) وبوبوف (Popov) وستاور (Stour) الذين جاءوا إلينا بصحبة أخصائى الحشرات الحكومى. كان يوفاروف يتمتع بسمعة عالمية طيبة فى مجال مكافحة الجراد بكل أنواعه، وكان أخصائيو الحشرات عندما يذكر اسمه تنتابهم رهبة وينخفض صوتهم احتراماً وتقديراً له.

لم تتعرض منطقة القضارف فى ذلك الوقت إلى إى غزو من الجراد، ولكن بعض المحاصيل قد أصيبت بأضرار بليغة من نوع من الجنادب يسمى (Aeolopus Cantantops) ، واتضح أن جميع أساليب مكافحة الحشرات لم تجد شيئاً مع هذه الآفة الضارة، ولذلك لم يكن فى وسعنا غير المعاناة فى صمت، والانتظار ريثما نسمع ما يقوله هذا الخبير العالمى. وأخطرت بأن أتوقع حضور أعضاء الفريق لتناول طعام الغداء فى يوم معين، ولكنهم تأخروا عن الموعد بحوالى ٧٢ ساعة. كان يوفارف فى غاية الدهشة لرؤية هذا النوع من الجنادب فقلت له: "إنه غزو كبير. لقد التهم كل حبة من المحصول بشكل لم أر له مثيلاً من قبل" ثم أضفت قائلاً: " إن القضارف ظلت دائماً تشتهر بالغرائب،

لذلك نريد منك يا سيدى أن تخبرنا ماذا نستطيع أن نفعل للتخلص من جميع هذه الجنادب؟" فقال: " أوه ، لا شيء! كم كنت مسروراً أن أجد مناصراً لرأيى من قبل هذه الجهة العلمية المرموقة.

ثم كانت هناك أيضاً مفتشة الدايات (القابلات) التى كانت صديقة لى، ولكنها كانت تعانى من الطرش وتنسى دائماً أن تضع سماعة الأذن. وأذكر فى إحدى زياراتها التفتيشية أننى كنت أواجه بعض المشاكل الداخلية، حيث أن الطيب، الذى كان يعمل لدى سفرجياً وسبق أن عالجنى من عرق النساء، قد أخذ إجازة دون إذن، وبعد أن تغيب من العمل لما يربو عن عام، إذا به يظهر فجأة طالباً إعادته إلى العمل. لم أكن أريد أن أفعل ذلك، ولكن بالنظر إلى ما أسداه لى من دين سابق فقد قبلت إعادته إلى العمل على مضض. غير أننى سرعان ما اكتشفت أنها كانت غلطة إذ وجدت أنه قد أخذ يدمن على السكر، وأصبح من الصعب التنبؤ بتصرفاته. وفى ذلك المساء الذى كنت أتوقع فيه حضور المفتشة لتناول طعام العشاء معى لم يحضر الطيب إلى عمله، فسألت الطباخ هل بإمكانه القيام بالطبخ وخدمة السفرة معاً حيث أن السفرجى رقم (٢) كان مصاباً بالحمى. ومثل جميع الخدم السودانيين فى وقت الأزمات لم يتردد أبداً، وإنما وافق فوراً على القيام بالعملين معاً. وبعد قليل قدم لنا الشوربة، وأثناء ذلك همس فى أذنى قائلاً: "الطيب موجود فى الخارج ويحمل سكيناً، وأقسم أنه سيقتلنى إذا قمت بتقديم الطعام"، فقلت له سأخرج له بعد دقيقة. ثم اتجهت إلى المفتشة وقلت لها: "عفواً، لقد استل السفرجى سكينا يريد أن يقتل بها الطباخ". فأجابت: " اليس كذلك، إننا فى أمدرمان نفضل أن نحصل عليهم جميعاً بسرعة" فقلت لها صارخاً: " لا، إن السفرجى يريد أن يقتل الطباخ". فقالت: " تمام، إذا كنت تفضلها بهذه الطريقة، أما نحن فنفضلها بالطريقة الأخرى". هنا استسلمت وذهبت إلى خارج المنزل حيث أمكننى تجريد السفرجى

من سلاحه، ودفعت به بعيداً (لم يكن متمالكاً لقواه)، ثم طلبت من الطباخ تقديم الطبق التالى. وبعد برهة اتصلت بالشرطة وطلبت منهم إبعاد السفرجى عن المكان، ثم عدت لأجد المفتشة قد فرغت لتوها من الشوربة، وواصلنا بقية الوجبة حسب ما كان مخططاً لها. اكتشفت صدفة فيما بعد أن الشرطة قد ارتكبت خطأ بمحاولة إلقاء القبض على طباخ مساعد مفتش المركز الذى كان رجلاً متديناً، وكان فى تلك اللحظة يؤدى صلاة الجماعة. أما الطيب المسكين، فقد تمت تسوية حقوقه فى اليوم التالى، وبالنظر إلى خدمات الحجامة التى خصنى بها، فقد أعطيته مكافأة مجزية. وفى نهاية المطاف أليس "مستر بالفور مثيراً للشفقة.

كما يحدث فى معظم الأماكن الأخرى كنا من وقت لآخر نتلقى زيارات تفقدية من الحاكم العام، وكنت أكره مثل هذه الزيارات لأننى أخشى الحكام، وبصفة خاصة كنت أخاف جداً ممن يسمون بـ "الحاكم العام". وأذكر مرة أننى اعتقدت بأن الحاكم العام، الذى كان جديداً على البلاد، يجب أن يشاهد الحياة البرية، ولذلك أخذته فى زيارة إلى أعالى نهر الرهد على الحدود الأثيوبية. استمرت الرحلة على ما يرام إلى أن توقفنا فى اليوم الأخير فى قرية تسمى (شاشينا) لتناول طعام الغداء. ولدى وصولنا وجدنا العمدة قد حشد لنا جميع المشايخ والأعيان الذين وقفوا فى صف واحد، وبدأ سعادة الحاكم يسلم عليهم. نظرت إلى آخر الصف، ويا لهول ما رأيت! كان يقف هناك أسوأ مقدم للعرائض بالمنطقة واكتسب بسبب ذلك سمعة سيئة. كان الرجل متقدما فى العمر، وسبق قبل خمسة عشر عاماً أن قام حصان جامح يملكه العمدة بقتل معزة لهذا الرجل. وبإصرار من محكمة الناظر عوضه العمدة بمعزة أخرى، ولكنها ماتت بعد أيام. وقال مقدم العرائض أن العمدة قد خدعه بأن أعطاه معزة مريضة، ولكن العمدة رد بأن المعزة قد قتلها النمر لأن

الرجل أهمل فى العناية بها. وهكذا أصبح من المستحيل معرفة حقيقة الأمر، وصار الرجل العجوز يأتى إلينا بانتظام كل ثلاثة أشهر ليقص علينا دراما الحصان والمعزة المسكينة التى اغتيلت فى ريعان شبابها. وأصبحت القضية بأكملها أكثر صعوبة على الفهم بسبب أن الرجل العجوز لم تكن له أسنان. وكان أحد المفتشين السابقين قد حاول إسكاته بإعطائه معزتين، ولكنه لم يرض بذلك محتجاً بأن المعزة الأنثى المعافاة تلد سخلين فى العام، ولذلك فقد ارتفعت مطالبته بمرور الزمن إلى ما يزيد عن ثلاثين معزة. هذا هو الرجل الذى كان يقف فى نهاية الصف، واحترت مم أخاف أكثر: من أن يقوم الرجل بسرد قصته الطويلة، أم من قيامى بمحاولة شرح الموضوع بأكمله لسعادة الحاكم العام .. غير أنى بطريقة أو أخرى أفلحت فى إبعاده دون أن يلحظ الحاكم العام ذلك. يا لذلك العجوز المسكين، لقد ظل بعد عام أو عامين من مغادرتى يتردد على المركز من حين لآخر. وعلمت بالصدفة فيما بعد أن العمدة الذى كان معنياً بالقضية قد توفى قبل وصولى إلى المنطقة، وكان العمدة الحالى هو شقيق الناظر الذى سبق أن حكمت عليه بثمانية عشر شهراً سجناً، ولا زلت أتساءل ما إذا كان هو الشخص الذى قام عن قصد بوضع العجوز فى آخر الصف.

كان العمل اليومى فيما بين هذه الرحلات القصيرة، بكل ما فيه من شد وجذب، يسير بصورة عادية. فكان يتم تحصيل الضرائب والرسوم، وإعداد الميزانيات، وزيارة المحاكم الأهلية فى جميع أنحاء المنطقة ومراجعة دفاترها، وكان أعضاء المجلس الريفى يجتمعون ويتشاجرون ثم يتخذون قرارات محرجة، وكان رجال الشرطة والسجون يؤدون عملهم بكفاءة قدر الإمكان. أما الأمن العام فقد انخفض مستواه بعد الحرب ولم يتحسن، خاصة بعد تدفق العمال من الغرب. لقد أخبرنى أحد قمندانات الشرطة أن نسبة الجريمة فى

القضارف اعلى مما هى عليه فى بورما. لقد حاول أسلافى من المسئولين تصحيح هذا الوضع، ولكن بالرغم من ذلك لم يزل هناك الكثير من الأسلحة غير المرخصة، وحتى بدون هذه الأسلحة فقد كان تدفق المال على المنطقة سبباً آخر فى حفز المجرمين، مما أدى إلى ازدياد حوادث العنف.

بغض النظر عن ذلك الشخص الذى سدد طعنة للشرطى قصاص الأثر، فلا زلت أذكر ثلاث حالات محددة ظلت اثنتان منها دون حل، أولاهما تتعلق برجل اتهم بقتل عشيق زوجته فى قرية تبعد ستة أو سبعة أميال من القضارف، وقد ثبت لنا من ضابط السجن واثنين من السجانين أنه كان فى حراسة مأمونة بسجن القضارف، ولم يتوفر لدينا أى دليل على وجود رشوة أو فساد. غير أنه لكون المتهم من المساجين (المضامين)، فربما استطاع أن يتسلل إلى خارج السجن بعد أخذ التمام دون أن يلاحظه أحد، وثبت بما لا يدعو مجالاً للشك انه قد شوهد وهو يطارد ضحيته إلى الغابة المحيطة بالقرية التى وجدت فيها جثة القتيل فى صباح اليوم التالى. غير أنه لسوء الحظ، أن نفس الشخص الذى شهد بذلك ذكر أيضاً أنه قد شاهد معه رجلاً آخر، ولكن هذا الشخص الآخر قد اختفى تاركاً وراءه قطعة ملابس ملطخة بالدماء. وعليه لم يحكم قاضى المديرية على المتهم بالإعدام على أساس أنه لم يتبين للمحكمة أى الرجلين قد سدد للقتيل الضربة القاتلة.

نجم عن ذلك حوادث شغب وإخلال بالأمن ومشاجرات بين النساء من أهل المتوفى. وفى صباح أحد الأيام عندما كنت أنظر من خلال النافذة إلى المكان الذى كان قد تجمع فيه من قبل أولئك الهدندوة بجمالهم، إذا بى أرى حوالى خمسة وستين امرأة من المعتدى عليهن، فأرسلتهن إلى المحكمة الأهلية لتنظر فى قضيتهن، ولكن بعد أن اخبرتهن أولاً بما سيحدث لهن وقريتهن إن لم يتحلين بحسن السلوك فى المستقبل. وبالرغم من أننى لم أكن شخصيا أصدق

أى كلمة مما قلت، إلا أن ذلك كان له أثره، ولم نعد نواجه مزيداً من المشاكل فى هذا الخصوص.

أما القضية الثانية فقد كانت تتوقف على ما إذا كان فى مقدور شخص الرجوع إلى مسافة ١٠٠ ياردة إلى المكان الذى كان يجلس فيه الرجلان اللذان كان يحتسى معهما الخمر، ويقول لهما بعفوية: "هل انتهى الشراب؟"، ثم يخر صريعا من أثر طعنة بالسكين فى البطين الأيمن من القلب. وجاء التقرير بأنه يستطيع أن يفعل ذلك مما دحض البينة ضد الرجلين اللذين كانت تصرفاتهما اللاحقة تدعو إلى الكثير من الشك.

وتتلخص القضية الثالثة فى أن تسعة وأربعين من رجال الفلاتة قد اتهموا بقتل أحد أبناء المساليت كانوا قد قبضوا عليه متلبساً بسرقة أغنام من قريتهم ليلاً، وحاول التخلص منهم بأن ضرب أحد الفلاتة على رأسه، ثم لاذ بالفرار. تلت ذلك صيحات المطاردين، وقام أول من استطاع اللحاق باللص بتسديد ضربة له فى مؤخرة رأسه، ولكنها بالتأكيد لم تكن قاتلة. وإذا كانوا قد توقفوا عند هذا الحد وأمنوا حياة اللص، فإن تصرفهم كان سيعتبر فى حدود حقوقهم المشروعة، ولكن بدلاً عن ذلك أصبحت كل دفعة منهم تنهال بالضرب على اللص الذى كان راقداً على الأرض يتلوى من الألم إلى أن توفى نتيجة لذلك. واتضح أن الدفعة الأخيرة المكونة من اثنى عشر رجلاً، كانت فى الواقع تنهال بالضرب على جثة هامدة. وحيث انه لم يرد نص فى القانون الجنائى يمنع ضرب الجثث، فقد أصدرت الحكم ببراءة هؤلاء. أما الآخرون فقد شكلت لهم محكمة كبرى برئاستى وعضوين مساعدين حيث حكم عليهم بالسجن لمدد طويلة مع التوصية بالنظر فى استرحامهم، وبالفعل صدر الحكم بالسجن لمدة سنة لكل واحد منهم. أما بالنسبة لى شخصياً، فنظراً لما اشتهر به المساليت من ميل نحو العنف والسرقة، فكنت أتمنى أن تمنح ميدالية لكل واحد من المتهمين.

مع مرور الزمن أصبحت السياسة هى الشغل الشاغل، فكانت هناك المظاهرات والهتافات والصراخ، ثم جاءت أولاً انتخابات الحكومات المحلية، وبعدها انتخابات الجمعية التشريعية المختلف عليها. كان أغلب الناخبين أميين، ولكننا تغلبنا على ذلك بأن خصصنا صندوقاً لكل مرشح. وكنا نوضح للناخب أى صندوق يخص أياً من المرشحين، ثم ندير ظهورنا أثناء قيامه بوضع بطاقة الاقتراع، وسارت العملية مع المراقبة الدقيقة بصورة جيدة. أما انتخابات الحكومة المحلية فكانت قد أقيمت ولا تزال بقايا نظام التموين سارية، وكان الناخبون يأتون بأعداد كبيرة، وغالباً ما كانوا يقفون فى صفوف طويلة أمام مراكز الاقتراع. وتروى فى ذلك قصة الرجل العجوز الذى لم يستطع أن يستوعب ما كان يفترض عليه القيام به. وأخيراً بعد أن يئس ضابط الانتخابات من إفهامه، طرح مبدأ سرية الاقتراع جانباً، وسأل الرجل مباشرة: "لمن تريد أن تصوت؟". فأجاب الرجل: "لنفسى، وزوجتى ووالدتى". فسأله الضابط: "ماذا تعنى بنفسك وزوجتك ووالدتك؟ هؤلاء ليسوا مرشحين، ولذلك لا تستطيع أن تصوت لهم". فأجاب الرجل: "لا أعرف شيئاً عن ذلك، ولكنى وقفت فى الصف لبعض الوقت، والآن أريد من كل شىء أتت به الحكومة أن تعطونى ثلاثة؛ واحد لشخصى، وواحد لزوجتى، وواحد لوالدتى".

كان التصويت للجمعية التشريعية أكثر جدية، فقد اقتصر على كلية انتخابية أغلبها من الأعيان المحليين. وكانت العواطف ملتهبة، ذلك أن حزب الأشقاء كان يعارض الانتخابات بشدة. قمنا باتخاذ التدابير اللازمة لإجراء عملية الاقتراع بمكاتب السوق الكائنة فى وسط ميدان فسيح بحيث نستطيع مراقبة ما يحدث. فى ذلك اليوم خرجت مبكراً فرأيت العامة يتجمهرون فى طرف السوق، ولذلك استدعيت قوة من الشرطة بقيادة الباقر أفندى كبير الضباط الذى تمكن من السيطرة على الوضع بصورة جيدة دون أن تحدث أية

مشاكل. وفور انتهاء التصويت، تحركت جموع الغوغاء التى كانت تتجمهر فى أطراف السوق إلى محطة السكة الحديد لمقابلة القطار القادم من الخرطوم، وكانت هذه حيلة عامة حيث كان يقف الناس على رصيف المحطة يهتفون لأى شخص مؤيد لهم يكون مسافراً. وأذكر فى تلك المرة أننا كنا نتوقع عودة بيل مونتيث من إجازته على هذا القطار، وكنت أخشى أن يأتى أولئك الغوغاء بأفعال معادية ضده، خاصة وأنهم كانوا محبطين من فشل الانتخابات. غير أن عثمان مناع، مساعد المفتش السودانى، طمأننى قائلاً: " لا تنزعج، أبو عين باردة زرقاء له تأثير رهيب على أشرس المتظاهرين".

علمت من بيل فيما بعد أنه عندما نزل من القطار وجد نفسه وسط المتظاهرين الذين كانوا يصرخون بهتافات معادية، فتوقف أقرب الواقفين منه عن الهتاف، وسلم عليه بحرارة شاداً على يده ومتمنياً أن يكون قد قضى إجازة ممتعة، ثم قال له: "سنزورك فى المكتب للونسة، ولكن كما ترى الآن نحن مشغولون". ثم ساروا جميعاً على الرصيف وهم يهتفون: " تسقط الجمعية التشريعية، يسقط الإنجليز، يسقط اى شىء يمكن بلعه"، وغير ذلك من الهتافات المماثلة. كم تمنيت أن تكون عينى زرقاء باردة!

لم تكن السياسة هى وحدها التى كانت تشوش على مفتش المركز المجتهد الذى يريد إنجاز أعماله، وإنما كان الدين أيضاً يلعب دوره. لقد سمحت الحكومة المركزية الرشيدة لإرساليتين أمريكيتين بفتح مدرسة للجالية المسيحية بالقضارف، ولسوء الحظ كان مستوى التعليم فى هذه المدرسة جيداً جداً بحيث أن بعض الآباء المسلمين بدءوا يلحقون أبناءهم بها أيضاً. وقد علمت بذلك لأول مرة عندما جاءنى وفد يتكون من بعض خلفاء الطرق الصوفية المختلفة يحتجون بأن هناك محاولة لتنصير أبناء المسلمين. غير أن موقف الإرساليتين كان مفهوماً جداً حيث أوضحوا أن رسالتهم هى التبشير

والوعظ بالدين المسيحى، وأنهم يقومون بذلك داخل مدرستهم، ولا يهمهم مَن من الناس يحضر إليهم.

كان ذلك يشكل الأساس لنوع من الشجار غير المحبب، ولكن تمت تسوية الموضوع بالإيعاز للإرساليتين بعدم قبول أطفال المسلمين بعد ذلك.

غير أن الخلفاء عادوا للظهور مرة أخرى بأعداد كبيرة عندما وصل إلى المدينة أحد الوهابيين قادماً من السعودية، ووقف فى المسجد بعد صلاة الجمعة يعظ المصلين بقوله إن الله روح، ومن يريد أن يعبد الله فليعبد روح الله، ولكن ليس بواسطة الطرق والرايات والطبول والمدائح، ولذلك طالب الخلفاء بدمه. غير أن الوهابى كان رجلاً معتدلاً، فشرحت له أنه مهما كان اعتقاده (أنا شخصياً كنت أتفق مع كل كلمة قالها) فإنه إذا تكرر منه ذلك فقد يدان بتهديد أمن وسلام المواطنين، ولهذا السبب فقط قد اضطر لحبسه فى السجن. وبما أن الرجل لم يكن متشدداً، فقد وافق على أن يلتزم بالصمت طيلة فترة إقامته بالقضارف، وقد أنجز وعده بالفعل.

شعرت إزاء هاتين الحالتين أننى مثل (جاليو) ولكن كان عذرى الوحيد أننى خلافاً لسلفى الرومانى لم أستطع أخذ (سوثينز Sosthenes) رئيس المعبد اليهودى لجلده فى ساحة المحكمة. كنت أرغب بشدة أن أفعل ذلك لبعض أولئك الخلفاء.

أما آخر انفجار لذلك الهوس الدينى، فقد حدث قبل مغادرتى للقضارف مباشرة عندما تقرر نقلى إلى الخرطوم فى أول يناير عام ١٩٥١ . كان الاحتفال بمولد النبى لعام ١٩٥٠ قد أقيم قبل عيد الكريسماس بفترة قصيرة، وكان من عادة أنصار المهدى أن ينصبوا خيمتهم فى ديم بكر، وليس مع الطوائف الأخرى فى المنطقة الرئيسية بالقضارف التى كانت، نظراً لهيمنة عائلة أبو سن عليها، تسود فيها الطريقة الختمية. ويبدو أن هذا التدبير قد تم إرساؤه قبل حوالى

عشر سنوات عقب أحد النزاعات الطائفية بين الجانبين. وتقرر آنذاك ـ ولم أعلم بذلك إلا مؤخراً ـ أن هذا الإجراء مؤقت، وأنه يجب إعادة النظر فيه بعد خمس سنوات. لذلك رأى الأنصار أنه قد أصبح من المناسب إثارة الموضوع، وطالبوا قبل عشرة أيام من موعد الاحتفال بالمولد بالسماح لهم بنصب خيمتهم فى القضارف. كان ذلك بمثابة صب الزيت على النيران، فقد أدى إلى ظهور خلفاء الختمية مرة أخرى معلنين معارضتهم بضراوة. وبما أن الأوامر كانت قد صدرت أصلاً من مدير المديرية، فقد لجأت إلى رئاسة المديرية للتشاور، ولكن للأسف جاءت التعليمات متناقضة حيث كان مدير المديرية فى جولة تفقدية، وأفاد نائبه بأن يسمح للأنصار بالانضمام للاحتفال بالمولد مع الآخرين. وبعد يومين اتصل بى مدير المديرية هاتفياً ليقول لى إنه ما كان يحق لنا أن نفعل ذلك. وهكذا التهبت المشاعر ووصلت إلى درجة عالية من الغليان، وكانت كل الدلائل تشير إلى إمكانية حدوث أعمال شغب قبيحة. أنقذنى من ذلك المأزق عثمان مناع، مساعد مفتش المركز السودانى، الذى استطاع من منطلق كونه مسلماً أن يتفاهم مع الأطراف المعنية ويصل معهم إلى حل وسط يسمح بموجبه للأنصار بنصب خيمتهم فى القضارف، ولكن فى منطقة أخرى غير تلك التى توجد فيها خيام الطوائف الأخرى. رفض مدير المديرية فى بادئ الأمر الموافقة على ذلك، ولكنى تمكنت فى النهاية من إقناعه بالموافقة على الحكم الذى توصل إليه الرجل الذى كان موجوداً فى موقع الحدث.

لا أذكر كم يوماً كانت تستمر احتفالات المولد، ولكنها كانت تمتد لعدة ليال، وكنت فى تلك الليالى أستلقى على سريرى استمع إلى ذلك الصراخ والضجيج، آملاً ألا يتحول إلى أنغام شريرة. وهكذا كان عثمان مناع محقاً، ولم تحدث أية مشاكل، ولكن إذا حدثت فلا شك أننى كنت ساكون فى موقف حرج للغاية وبدون عذر يشفع لى.

كان كل ذلك نوعا من التوتر والإجهاد المتواصلين، وعندما انتهى أصبت بالمرض، وقضيت أيام الكريسماس بمستشفى كسلا، ثم نقلتنى "السلطة الآمرة" إلى الخرطوم دون أن تدعنى أعود إلى القضارف مرة أخرى، ولكن مشاكل القضارف ظلت تلازمنى فى المستقبل.

وقبل ذلك بقليل جاءنى "آباء المدينة" يشكون من وجود منزل للدعارة مزدهر قبالة البوابة الأمامية لمدرسة البنات الجديدة، وطلبوا منى أن أفعل شيئاً حياله، فأخبرتهم انه يجب عليهم فتح بلاغ لدى الشرطة ضد صاحب المنزل لأنه يدير عملاً مخالفاً للقانون، ولكنهم رفضوا ذلك بتاتاً، وأشك أن السبب فى ذلك هو أنهم كانوا جميعاً من زبائن المكان ويزورونه من وقت لآخر. لم أستطع إلقاء القبض على صاحب المنزل تحت طائلة "قانون المشردين"، لأنه قد غطى نفسه بفتح كشك فى السوق برخصة تجارية. غير أنى أرسلت فى طلبه وأخبرته بصراحة أنه من الغباء أن يكون فى الجانب المضاد للرأى العام، وأوضحت له أنه إذا انتقل إلى موقع أخر فى ضواحى المدينة فلن أتدخل فى شئونه. وبالرغم من أنه كان رجلاً حقيراً، إلا أنه تفهم وجهة نظرى، ووفقا لذلك ارتحل من ذلك المنزل إلى موقع آخر. لم أسمع عنه شيئا بعد ذلك إلى أن جاء يوم كنت فى طريقى إلى الخرطوم، وعندما خرجت من القطار لأستمتع بهواء الليل العليل على رصيف محطة ود مدنى، كان هناك عدد كبير من الناس، وفجأة ظهر من بين الزحام ذلك الشخص المقزز للنفس، فأمسك بى بكلتى يديه وقال لى بأعلى صوته: "أوه، مستر بالفور، ماذا نفعل بدونك فى القضارف؟".

تم نقلى إلى مكتب الحكومة المحلية بالخرطوم الذى أنشىء حديثاً من أجل تلبية الرغبة الجديدة فى استبدال ، أو ربما لتكملة الإدارات الأهلية بالمجالس الريفية والبلدية الحديثة التى كان يتم انتخابها من قبل الشعب بقدر الإمكان.

وجدت الخرطوم كما هى عليه فى العادة، ولكن حدث نوع من الاسترخاء فى الحياة الاجتماعية التى كانت كلها ضجرا، فأصبح الصبية يركبون الدراجات ويهتفون: "يسقط الإنجليز"، ثم يختفون بسرعة، وكان هناك عدد من الوجهاء يلبسون جاكيتات (الشاركسكين) ومعظمهم من المحامين أو الأطباء، الذين رغم عدم كراهيتهم لك، تشعر أنهم مستاءون من وقوفك فى طريقهم، ويسرهم أن يشهدوا نهاية وجودك فى بلادهم.

غير أن الكثير من معالم المدينة لا زالت كما هى، ومن بينها مراحيض الجرادل. فى عام ١٩٠٨ أعلن والدى فى تقريره السنوى، بوصفه مدير صحة الخرطوم، بداية العمل بنظام (الجردل المزدوج)، وتوقع أن يستمر العمل به لمدة عشر سنوات، "وبعد ذلك يتم التحول إلى نظام صحى أكثر تطوراً". إننى أتساءل ماذا كان سيقول والدى إذا علم أن النظام الذى أدخله سوف يستمر يعمل بصورة مرضية لمدة ستة وأربعين عاما إلى أن غادر ابنه الأصغر البلاد. لم يحدث أبداً أن شاهدت تلك العربات التى تجرها الجمال وهى تتحرك فى الطرقات بهدوء عند الغروب، ولكن كانت تتملكنى دائماً "الرغبة فى البكاء" كما وصفها قدماء الرومان.

كانت هناك جمعية تشريعية تجلس فى الخرطوم، بينما كنا نحن مشغولين بإنشاء مجالس الحكومة المحلية فى جميع أنحاء البلاد. كان كل مجلس ملزماً بإعداد ميزانيته، وأوكل تصميم استمارات الميزانية إلى فيليب بوسون (Philip Pawson) ، وقد عكست تلك الاستمارات براعة فنية عالية، ومن المؤكد أن أى شخص يحصل الآن على أصل "استمارة بوسون" سيكون بإمكانه تسويقها فى (صالة تيت لبيع الآثار القديمة) ويحصل منها على مبلغ وفير من المال. كانت هذه الاستمارة - لسوء الحظ - تتكون من ست أو سبع صفحات مليئة بالحواشى مثل: (أنظر صفحة ٢ عمود ٥) وما شابه ذلك. أقول "لسوء الحظ"

لأنى كنت مكلفاً بكتابة التعليمات المصاحبة للاستمارات التى يجب أن تفهم بسهولة من قبل كاتب فى (اسكيل كيه Scale K). كانت الطريقة الوحيدة التى أستطيع بها فهم تلك الاستمارات هى نزع الدبوس عنها، ثم نشر الصفحات بالترتيب الصحيح على طاولة المكتب، وبهذه الطريقة يمكن للعين أن تنتقل بسرعة من الحاشية إلى الصفحة والعمود المتصلين بالموضوع، ولذلك ضمنت تعليماتى هذه النصيحة الغالية. وفيما بعد خرجت فى جولة لتفقد سير العمل فى هذه الاستمارات، وقابلت فى (التونج) مفتش المركز الذى قال لى: "المشكلة مع الخرطوم أنكم جميعاً تكتبون هذه الخطابات السخيفة التافهة". فقلت له: "يؤسفنى ذلك، لكن هل يمكنك إعطائى مثالاً أو مثالين لتساعدنا فى إصلاح طرائقنا؟" فقال: "حسناً، أنظر إلى تعليمات الميزانية هذه، إنها تبدأ بعبارة (خذ طاولة كبيرة)" فسألته: "وما الخطأ فى ذلك؟" فأجاب قائلاً: " حسناً، ليس لدينا طاولة كبيرة"؛ فما كان منى إلا أن أحنى رأسى تواضعاً، وامتنعت حتى عن الإشارة إلى أن "البونقو" الذين ربما يكونون أمهر النجارين فى السودان يسكنون على بعد مسافة قصيرة أسفل الطريق!

فى إحدى تلك الجولات، استطعت مرة أخرى أن أقطع ذلك الطريق (٢١٠ميلا) لزيارة مدينة راجا منتجعى القديم المفضل، ولا زالت هذه الزيارة ترتبط فى ذهنى بإحدى الذكريات المهمة. ففى طريق العودة من راجا توقفت لبعض الوقت فى بلاد "الباندا"، وتجاذبت أطراف الحديث مع صديقى القديم (مبالى) الزعيم الفرعى الذى توسل إلىّ والدموع تنهمر على خديه أن "أخبرهم فى الخرطوم أننا لا نريد الاستقلال". إننى نادراً ما شعرت بأننى حزين أو عاجز تماماً مثل ما كنت أشعر فى تلك اللحظة.

عندما ذهبت إلى الخرطوم سكنت فى البداية بمنازل العزابة، وكنت أتجول فى المدينة بالدراجة. غير أن أحد أصدقائى الأعزاء، جاك سيمر (Jake

Seamer). كان يشكو من العزلة لأنه كان يتعين على زوجته أن تبقى فى المملكة المتحدة لأسباب قاهرة. لذلك أقنعنى بالسكن معه فى الخرطوم بحرى حيث كان يعمل مفتشاً للمركز، وخصص لى منزل الضيافة الذى كان مجهزاً بكل شىء بما فى ذلك الحمام الذى يقع عبر الممر المؤدى إلى باب منزله الأمامى.

كانت تلك الفترة تعج بنشاط سياسى كثيف، حيث كانت مصر تخطط لاستلام السودان، كما كانت هناك العديد من الجهات الأخرى التى تصطاد فى الماء العكر. كان لى صديق آخر يدعى جوك دنكان (Jock Duncan) ويعمل فى جهاز المخابرات بالخرطوم، وكنت دائماً أتصور أنه كلما فكر المصريون، أو الأخوان المسلمون، أو الشيوعيون، فى إرسال عميل محرض إلى الجنوب، فلا بد أن يأخذوه جانباً ويقولوا له: "خذ حذرك من الرجل دنكان! لقد غطى رصيف محطة الخرطوم برجاله ذوى الجلاليب البيضاء، فإذا كنت عاقلاً فيجب عليك أن تنزل من القطار فى محطة الخرطوم بحرى، وتذهب مباشرة إلى معدية شمبات، ومنها إلى زحام أم درمان حيث لن يفلح البريطانيون المرفهون فى العثور عليك."

غير أن ذلك كله لم يكن مجدياً، فقد كان (جاك) يقوم برصدهم مباشرة بمجرد أن تطأ أقدامهم أرض الخرطوم بحرى. وتبعاً لذلك، كان بين جاك وجوك اتصال وتنسيق وثيقان. كان الأمر يبدو كبرنامج الأطفال المعروف (جوك وجاك والسحرة) ولكن فى الواقع كان يمكن أن يكون أى شىء آخر إلا لعبة للأطفال؛ كان الهاتف يرن فى وقت الغداء، فيرد عليه جاك قائلاً: " هلو، أوه، إنه أنت يا جوك .. نعم.. جيد .. هل بالإمكان أن تربط الخيول إلى الغد؟ فاكر، نعم قد .. نعم هذا جيد، مع السلامة، سوف نلتقى" . وبعد ذلك يعود جاك إلى حلو الكراميلا ليبدو كأنه مستر بنش (Punch) بعد مقابلته الشهيرة مع الجلاد !

بعد أن عملت لمدة خمسة عشر شهراً بالخرطوم، علمت فجأة أنه قد تقرر نقلى إلى المديرية الشمالية نائباً لمدير المديرية، وكان ذلك بمثابة الترقية إلى رتبة قائد فى البحرية، ويجب أن أعترف أنها كانت بالنسبة لى مفاجأة سارة غير متوقعة. استلمت العمل فى فبراير ١٩٥١، ثم عدت إلى الخرطوم بعد فترة قصيرة لأتزوج، وبعد ذلك بقيت فى المديرية الشمالية حتى نهاية خدمتى فى نوفمبر ١٩٥٤.

كان عمل نائب مدير المديرية مشابها لعمل مساعد مفتش المركز، ولكن بمستوى أعلى. أضف إلى ذلك أن المديرية الشمالية كانت مكاناً هادئاً ولم يكن هناك ما يزعج كثيراً. كانت سكك حديد السودان تشكل فى عطبرة نوعا من "حكومة داخل حكومة" تحت قيادة مديرها العام. حدثت اضطرابات عمالية قبل بضعة سنوات أوشكت أن تنتهى بحوادث شغب، وتوفى فيها مع الأسف أحد الأشخاص، ولكن فى الوقت الذى وصلت فيه عاد كل شىء إلى هدوئه.

كان سكان المديرية يعتمدون فى معيشتهم على الزراعة التى تروى من النيل بواسطة السواقى أو مشاريع الطلمبات الأكثر تطوراً. وكان يمكن تحقيق أرباح طائلة من زراعة القطن أثناء الحرب الكورية، واستطاع المزارع الماكر أن يطور طريقة بارعة يستجلب بها المال من الحكومة، فما عليك أولاً إلا أن تتقدم بطلب للحصول على سلفية لإقامة مشروع زراعى، ثم تتأخر فى سداد دفعيات الفوائد، ولذلك تتقدم بطلب للحصول على سلفية أخرى لعمل امتداد لمشروعك، وتستخدم هذا المبلغ لتسوية الفوائد المتبقية عليك. ولسبب أو آخر كان أساطنة مصلحة المالية فى الخرطوم، والمشهورون بأنهم قابضون مثل المحارة التى يضرب بها المثل عندما يتعلق الأمر بالموافقة على صرف المال، ودائماً ما كانوا يقعون فريسة لهذه الحيل.

كانت تلك الفترة تتسم بالتوتر السياسى، والاستقلال يلوح فى الأفق، وكان من يتقدمون بطلبات الحصول على المشاريع الزراعية هم من الرجال الذين لهم وزنهم. ربما أكون قد أسأت إلى موظفى مصلحة المالية، ولكن رغبة منهم فى قضاء بقية أيامهم دون إزعاج، فقد أصبحوا يتساهلون فى التصديقات المالية.

فى ربيع عام ١٩٥٤ بلغ مدير المديرية سن التقاعد الاختيارى فقرر أن يذهب. كان الرجل كريماً، واعتقد أن دافعه فى ذلك أنه رأى أن يتيح لى الفرصة لأبلغ مرادى. لقد ذهب على أى حال، وقررت حكومة السودان ترفيعى إلى الوظيفة، ولعل سبب ذلك فى الأساس أن النهاية كانت تقترب، ولم يكن هناك ما يستدعى نقل شخص من مكان آخر.

أعتقد أنه قد سرنى أن أكون مديراً للمديرية، ولكن لا أدرى إن كانت هى سعادة كاملة، خاصة أننى كنت أخاف دائما من مديرى المديريات. غير أن الأمر كله قد استغرق سبعة أشهر قضيت جزءاً منها فى إجازة. قبل أن نغادر البلاد قمت وزوجتى برحلة من مروى إلى دنقلا بباخرة المديرية، ومن هناك باللورى عبر منطقة بطن الحجر إلى وادى حلفا. كانت الرحلة فى الظاهر لأجل الوداع، ولكن فى حقيقة الأمر كانت هى فرصتى الوحيدة لعمل شىء طالما تمنيت دائماً القيام به. قضينا ليلة فى الاستراحة بإحدى القرى الصغيرة التى تربض بين الصحراء والنيل بين دنقلا ووادى حلفا، وهناك قابلنا رجلاً مسناً كان يعمل فراشاً فى باخرة كتشنر عند إعادة غزو دنقلا فى عام ١٨٩٦، وبالنسبة له دارت العجلة دورة كاملة.

وفجأة انتهى كل شىء. كان هناك حزم الأمتعة التى نرغب فى حملها معنا إلى أرض الوطن، وحرق الوثائق السرية التى إذا انتقلت إلى السياسيين ربما تسببت فى تسويد وجه الإدارة السابقة، ثم وداع الجميع فى محطة عطبرة، فالرحلة إلى الخرطوم للاجتماع الأخير بالجالية، ومن ثم أقلنا القطار إلى

بورتسودان بصحبة أربعة من مديرى المديريات الآخرين، وعدد من مفتشى المراكز.

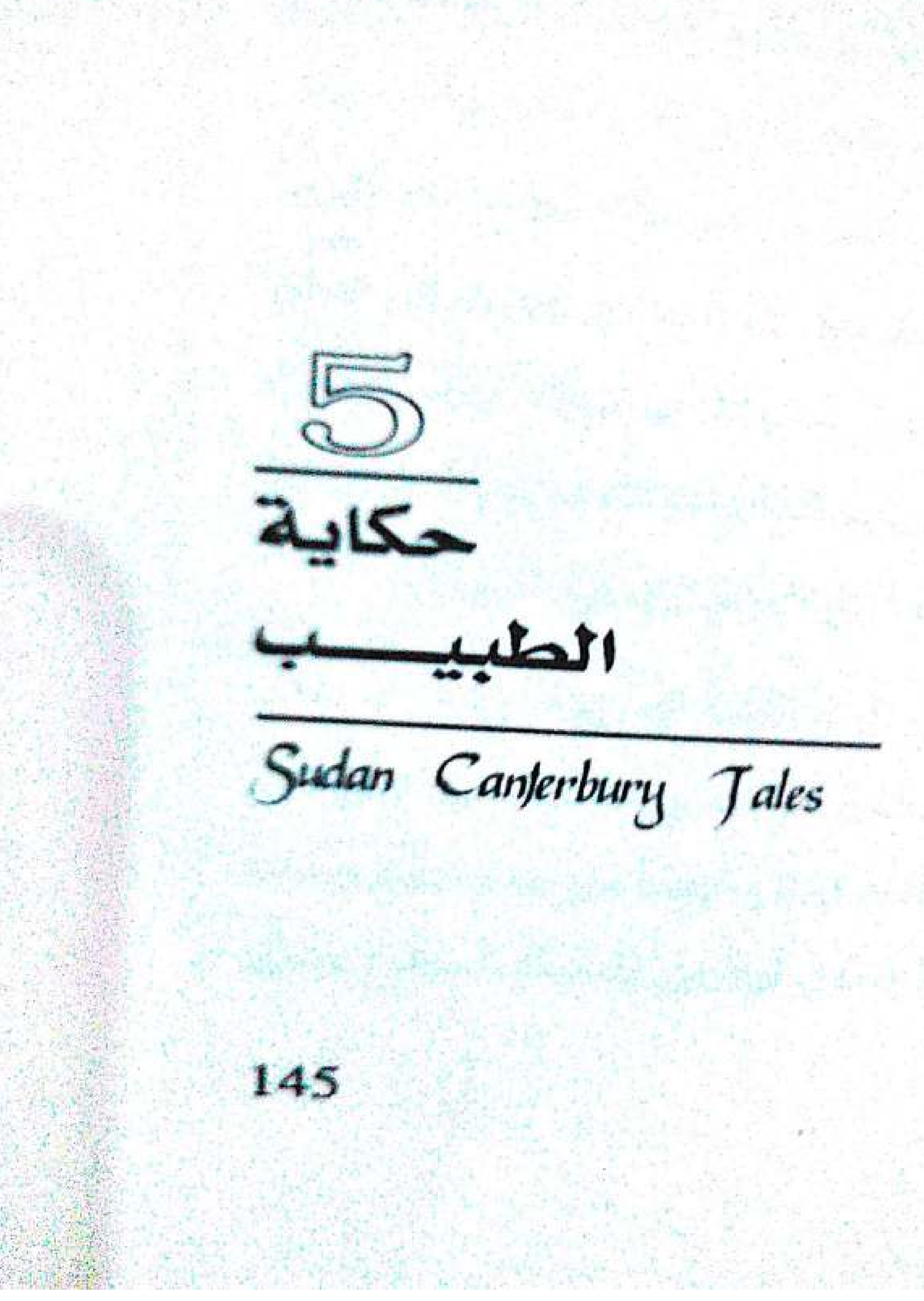
أذكر أن إبحار السفينة قد تأخر، فخرجت مع زوجتى إلى ظهر السفينة لأنى كما قلت كنت أود أن ألقى نظرة أخيرة على المكان. كانت صفحة الماء تتسع بين السفينة ورصيف الميناء، وهو نفس الرصيف الذى استقبلنى فيه بيتر أكلاند قبل اثنين وعشرين عاما، ونطق فيه بمصيرى. وعادت بى الذاكرة إلى أبعد من ذلك عندما كنت، كطفل صغير، أنظر من مدخل قطار يتحرك ببطء عبر الصحراء إلى السفينة التى كانت ستقلنا إلى الوطن. كان ذلك فى عام ١٩١٢.

اتسعت الشقة بيننا واليابسة، وبدأنا نتجه إلى ثغر الميناء. كان الجو بارداً، ولم يكن هناك أحد غيرنا على ظهر السفينة، ولذلك عدنا إلى الداخل. وسألت نفسى: ماذا كان يفعل زملائى مديرو المديريات الآخرون؟. هكذا كانت النهاية لفصل عظيم من التاريخ الإمبريالى. لم يطل تساؤلى كثيراً، فعندما مررت بنافذة غرفة المدخنين، سمعت أصواتاً: "واحد شيريا .. لا واحد قلب .. لا اثنين قلب".

وهكذا تعبر الحضارات .. والمجد لبريطانيا.

اليوت بالفور (Elliot Balfour)

■■■



5

حكاية الطبيـــب

لك أن تتصور شعور طبيب شاب يجد نفسه بعد عام واحد فقط من تخرجه فى كلية الطب مسئولاً عن مستشفى كامل! كانت هذه هى تجربتى المرعبة عندما بدأت مستقبلى المهنى لدى مصلحة الخدمات الطبية السودانية.

فى أكتوبر ١٩٤٢، بعد وصولى إلى السودان لأعمل فى وظيفة مفتش طبى، ارسلت إلى مدينة (أبو عشر) لأحل مكان الدكتور/ روبرت ستيفنسون (Robert Stevenson) إلى حين عودته من الإجازة. كان ذلك بعد أن قضيت أسبوعين فقط فى ود مدنى ريثما يتم تحديد وجهتى الجديدة. وجدت نفسى ليس الرئيس الإدارى بالمستشفى فحسب، وإنما كبير الجراحين وأخصائى الباطنية أيضاً. أنا الذى لم تتجاوز خبرتى السابقة فى عالم الجراحة وظيفة طبيب مقيم فى أحد المستشفيات الإنجليزية، بل وأصغر عضو فى فريق الجراحة كان مسموحاً له فقط بإجراء العمليات البسيطة تحت إشراف الآخرين. وأعتقد أن مجمل خبراتى فى ذلك الوقت لم تتعد إجراء عمليتين لاستئصال الزائدة الدودية، وبعض عمليات رتق الفتاق وتوسيع الأوردة.

أضف إلى هذا الارتباك أننى لم أكن أتكلم اللغة العربية، وكان اتصالى بالآخرين ينحصر فى شخص واحد فقط هو مدير المستشفى السودانى الجنسية، وربما الأسوأ من ذلك أننى كنت أعانى أيضاً من عدم النوم بسبب لسعات الذبابة الرملية التى كانت تقلق منامى ليلاً فى (نملية) السطوح بمنزل

طبيب المستشفى، ولذلك لم يكن مستغرباً أن أنظر إلى المستقبل القريب بعذر يصل إلى درجة الذعر والرعب. كان خوفى فى محله، إذ اننى لم ألبث أن أخضعت للاختبار بعد بضعة أيام من وصولى حيث واجهتنى أول حالة خطيرة. لقد سقط أحد الصبية على قضيب السكة حديد بينما كان يلعب مع أقرانه. ونقل إلى المستشفى وهو يتلوى من الألم، مع وجود بقع من الدم فى البول. وتبين من موقع الجرح أن مصدر النزيف هو الكلية اليسرى، وأنه مع استمرار النزيف أصبح واضحاً أن أمله الوحيد هو فى إجراء عملية جراحية. ولذلك، وبمساعدة بعض المراجع الطبية التى كنت قد أحضرتها معى من الوطن مثل "علم التشريح لجراى" (Gray's Anatomy) و"العمليات الجراحية" لمؤلفيه رونالد وتيرنر The Operations of Surgery by Ronald & Turner وكان الأخير فى الواقع يقبع دائماً تحت ضوء المصباح (الرتينة البتروماكس) فى إحدى زوايا غرفة العمليات. قمت بحرص وبطء شديدين بإزالة الكلية الممزقة، ثم ربطت الشرايين لإيقاف النزيف، ولكن للأسف الشديد جاء ذلك متأخراً، فقد نزف الصبى كمية كبيرة من الدم، ولم يكن بالمستشفى بنك للدم، وكان والداه من البساطة بمكان بحيث أنهما لم يكونا يفهمان أو يرغبان التبرع بالدم، ولذلك توفى الصبى بهدوء، وقد أزعجنى ذلك كثيرا.

تلت ذلك بعد فترة قصيرة حالة التحدى الثانية، ولكن جاءت نهايتها سعيدة. كان مفتش المبانى البريطانى يأتى إلى أبو عشر كل أسبوع لصرف المرتبات للعمال بالمكتب المحلى، وقد أثار سخطه منظر حمار كان يربط إلى عامود خارج الباب الأمامى للمكتب مباشرة، وهو المكان الذى كرر كثيراً أنه ممنوع. وعندما رأى صاحب الحمار يسير على بعد مسافة منه بجانب الترعة (قناة الرى)، التقط حجراً وقذف به فى اتجاه الرجل ليسترعى انتباهه، ولكن يا للهول؛ فقد أصاب الحجر مؤخرة رأس الرجل فسقط على الأرض مثل ثور ضرب بفأس

الجزار. نقل الرجل إلى المستشفى فاقد الوعى متأثراً بجرح عميق فى فروة الرأس. ومن خلال الجرح، بعد تنظيفه من الدماء، تبين بوضوح أن بعض عظام الجمجمة قد دُفعت إلى الداخل، فضغطت على الدماغ مما استدعى اتخاذ إجراء سريع لم يسبق لى القيام به من قبل. غير أنه بمساعدة كتاب (رونالد و تيرنر) لم يكن الأمر يبدو صعباً. قمت بعمل ثقوب بجانب اللوحة العظمية المضغوطة وفصلتها عن الجمجمة، ثم قطعت بين الثقوب مستخدماً منشار (جيجلى Gigli) السلكى، وتم رفع اللوحة العظمية، وبذلك أمكن إزالة الضغط من على الدماغ، وإصلاح التلف الذى أصيب به العظم الغشائى، وبعد ذلك أعيدت اللوحة العظمية إلى مكانها، وتمت خياطة فروة الرأس.

لقد قمت بهذا العمل دون أى عائق، وأصبح كل شىء يسير نحو التحسن بأكثر مما كنت أؤمل، حيث استعاد المريض وعيه، وتم نقله إلى الجناح. غير أن ذلك لم يكن بأى حال نهاية لفترة القلق التى كان يعيشها مفتش المبانى الغبى، ذلك أن الأيام التالية كانت تعتبر حرجة ليس للمريض فحسب، وإنما بالنسبة له أيضاً، فهل ستؤدى الإصابة إلى الالتهاب السحائى؟ ونحن لم تكن لدينا فى تلك الأيام مضادات حيوية، وإذا حدث ذلك فمن المؤكد أنه كان سيؤدى إلى الوفاة، مما يوقع صاحبنا فى تهمة القتل غير العمد بكل ما يترتب عليها من العواقب المتوقعة، ولذلك كان يهرع إلى منزلى فى كل مساء بعد انتهائه من العمل لأطلعه على آخر التطورات، وليستهلك العديد من جرعات الويسكى وهو يذرع الفرندة جيئة وذهابا مستمسكاً بأى بصيص من الأمل أستطيع إعطاءه له. ولحسن حظه كانت التوقعات تتحسن ويقل انزعاجه يوماً بعد يوم. وأخيراً شفى المريض تماماً، وانتهى الموضوع بتسوية سخية.

كانت تلك الأسابيع الأولى مليئة بالقلق، وكنت أشعر خلالها بعدم الكفاءة والعجز مما أصابنى بإحباط شديد. وبدأت أتساءل: ترى هل أخطأت فى قبولى

للعمل بهذه البلاد الغريبة النائية؟ ولكن عندما اعترفت بعجزى للدكتور فرانسيس كولز (Francis Coles) أخصائى الباطنية، ذلك الرجل الحكيم، استطعت أن أتمالك نفسى من جديد، وقررت البقاء فى السودان إلى نهاية المدة.

كانت محطتى التالية هى مدينة الأبيض التى كان يوجد بها آنذاك الدكتور برنج فارمر(Pring Farmer) مفتش طبى المديرية، وفى هذه البيئة الاجتماعية المؤاتية استطعت أن أسترد توازنى، وأطرد عنى الاكتئاب، وبدأت الاستمتاع بالحياة من جديد، والتعود على ما كنت أعتبره مسئوليات جسيمة وأصبحت نظرتى إلى الأمور أكثر واقعية. وطالما أنه لم يكن هناك غيرى ممن يتعامل مع هذه الحالات الطبية والجراحية الخطيرة، مع كل ما ينقصنى من خبرة، فقد أصبح لا مفر لى من التعامل معها. وإذا استطعت أن أفعل كل ما فى وسعى، فإننى ببساطة ما كنت أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك. كان يجب علىّ أن أكون مثل أهل البلد بأن أعزو النتائج مهما كانت إلى الله! وكان ذلك بالتأكيد يسبب لى نوعاً من الارتياح، خاصة وأنه لم يكن هناك من أقارب المرضى وأصدقائهم من ينتقدك فى شىء مهما كانت نتائج العمل الذى قمت به، وهناك الكثير الذى يمكن أن يقال فيما يتعلق بهذا الإيمان العميق بالقضاء والقدر.

لقد مكثت بالأبيض بضعة أشهر قبل أن أنقل إلى الفاشر التى أصبحت فيها شخصاً مختلفاً، فقد تعلمت المزيد من اللغة العربية بحيث أصبحت قادراً على مخاطبة المرضى، وازدادت ثقتى بنفسى. وأنا أقطع "طريق الفاشر" المشهور الذى يبلغ طوله ٢٧٠ ميلاً، والذى هو عبارة عن كابوس من الأخاديد والكثبان الرملية، كنت أشعر بالسعادة، وتغمرنى توقعات متلهفة للعيش فى هذه المديرية التى كان يعتقد الكثيرون أنها أكثر مديريات السودان جاذبية.

••

تقع مدينة الفاشر، عاصمة دارفور، فى وسط المديرية، وفى عام ١٩٤٢ كان يبلغ تعداد سكانها ٢٤٠٠٠ نسمة، وهى تحيط ببحيرة (فولة) تحتل منخفضا طبيعياً محاطاً بأرض مرتفعة، وكانت قرى الأهالى تقع على أحد جانبى الفولة، وعلى الجانب الآخر يقع قصر السلطان على دينار آخر سلاطين دارفور الذى أصبح سكناً لمدير المديرية، وبالقرب منه كانت توجد مساكن المسئولين البريطانيين، ومكاتب الحكومة والمستشفى.

كانت الفاشر أثناء الحرب محطة هامة للعبور الجوى على خط الطيران عبر افريقيا إلى مواقع الجيوش فى شمال أفريقيا، والذى كان يبدأ من (تاكورادى) فى ساحل الذهب ماراً بفورت لامى والخرطوم إلى القاهرة، وكانت تستخدمه جميع أنواع الطائرات المحملة بالمؤن والإمدادات لقوات الحلفاء. وكان يتولى خدمة هذه الطائرات موظفون يتبعون للقوات الجوية الأمريكية والقوات الملكية البريطانية، ويتمركزون فى معسكرين منفصلين على خط الطيران. كان جزء من عملى هو الإشراف على الرعاية الصحية لهاتين المجموعتين، مع أن الأمريكان قد استجلبوا فيما بعد طبيبهم الخاص.

كان كبار المسئولين فى مستشفى الفاشر هم الدكتورجون إليوت (John Elliot) مفتش طبى المديرية، وشخصى، والمفتش الطبى، والدكتور زكى مصطفى، مدير المستشفى. كانت سياسة مصلحة الخدمات الطبية السودانية واضحة ومعقولة، فهى تتمثل فى توفير الإسعافات الطبية والجراحية البسيطة لأكبر عدد من السكان يمكن الوصول إليهم، وكان يعتقد بحق أن هذه السياسة سوف تحقق فوائد لأهل السودان اكثر مما تحققه الخدمات الطبية المتطورة ذات المهارات المتخصصة. وبالاختصار، فإن القليل من حبوب (الكينين) فى المكان والزمان المناسبين يمكن أن يؤدى إلى إنقاذ حياة عدد من الناس أكبر بكثير مما

يمكن أن يوفره العلاج المتخصص والعمليات الجراحية فى المستشفيات باهظة التكاليف. وبناء على ذلك كان الأساس الذى تقوم عليه الخدمات الطبية فى السودان هو إنشاء شبكة الشفخانات الريفية فى المناطق الماهولة باكبر عدد من السكان، وتزويدها بمساعدين طبيين سودانيين تم تدريبهم على أساليب العلاج البسيطة، وكيفية استعمال العقاقير الأساسية، وإجراء الغيارات، بمدرسة المساعدين الطبيين بأم درمان تحت إشراف أمثالى من المفتشين الطبيين.

كانت هذه الشفخانات تبنى بالطين وتسقف بالقش، وتتكون من غرفة انتظار للمرضى الخارجيين وتحتوى على بعض المقاعد الخشبية، وغرفة للعلاج، وأخرى لتخزين الأدوية، ومخزن، ويلحق بها فى العادة جناح صغير به أربعة إلى ستة أسرّة. وكان المستشفى الرئيسى بالمديرية هو الذى يتولى خدمة وإمداد ومراقبة الشفخانات، ويقوم المفتش الطبى بزيارتها ثلاث أو أربع مرات سنوياً. أما الشفخانات التى كانت لا تبعد كثيرا عن المستشفى، فكانت ترسل الحالات المستعصية إلى المستشفى حيث تتوفر وسائل العلاج اللازمة، ولكن الكثير منها كانت توجد فى مناطق نائية ويصعب عليها القيام بذلك، خاصة أثناء فصل الأمطار. ولذلك أصبح العديد من المساعدين الطبيين ماهرين فى الجراحة، وكانوا يواجهون بعض الحالات الصعبة بأنفسهم، ومرة أخرى نقول إن تلك الحالات كانت من نوع: " إذا أنا لم أقم بذلك فلا يوجد غيرى من يستطيع، وعليه فلأتوكل.

كان المستشفى مزدحماً بالعمل، والعيادة الخارجية وأجنحة المرضى مزدحمة دائماً، وتستقبل شتى ألوان الأمراض بأنواعها المختلفة التى تشمل الالتهاب الرئوى، والدسنتاريا، واليرقان، وأمراض الكبد الأخرى، والأمراض التناسلية.

كانت تجرى فى المستشفى العديد من العمليات الجراحية المتعلقة بالجروح والكسور الناجمة من الصدمات ، ولذلك كان يتعين أن يكون واحد منا موجوداً فى غرفة العمليات بصفة مستديمة لمواجهة الإصابات الناجمة عن الحوادث وهجمات الحيوانات المتوحشة، والصدامات القبلية، أو المشاجرات المنزلية التى كانت ترد إلى المستشفى بكثرة. كما كانت تجرى العديد من عمليات الولادة بسبب انتشار ممارسات الختان الفرعونى الضارة.

كانت جميع البنات قبل سن البلوغ يخضعن للختان الفرعونى، حيث تقوم الداية (القابلة المحلية) بقطع البظر والشفرين، ويتم ذلك دون استخدام أى نوع من التخدير، ثم تربط الساقان معا، وتوضع (قشة) فى فتحة الإحليل وتظل هناك إلى أن يلتئم ما حولها من جرح، وتكون النتيجة النهائية عبارة عن عصب يحتوى على أنسجة صلبة متندبة مع ثقب صغير يسمح بمرور البول، وتدفق الدم الطمثى.

وعند الزواج لن يكون هناك بالطبع أى سبيل للاتصال الجنسى، إذ لا بد من فتح القناة المهبلية حتى تكتمل العلاقة الزوجية على الوجه الأكمل. وكانت الداية المحلية (القابلة) هى التى تتولى القيام بهذا العمل دون استخدام أى مخدر أيضاً، مع أنه قد أصبح معلوما لدينا بعد حين أنه باستطاعتنا أن نقوم بهذا العمل بصورة أفضل وبواسطة التخدير، ولذلك أصبحت طلبات (فتح) القناة المهبلية لعذارى القبائل ترد إلينا بكثرة.

من ناحية أخرى كانت الولادة تشكل هاجساً مخيفاً بسبب تندب الأنسجة المحيطة بالقناة المهبلية التى لا مجال لتمديدها بالقدر الكافى الذى يسمح لرأس المولود بالخروج، ولذلك كان لا بد من شقها لتوسيعها فى كل حالة ولادة.

إن استمرار هذه الممارسة البشعة لآلاف السنين أمر لافت للنظر، رغم أن حكومة السودان قد حاولت منعها ولكنها لم تفلح فى ذلك، ولعلها فى مجتمع

يهيمن عليه الرجال تستمد قيمتها من الحقيقة التى لا يختلف عليها اثنان بأن الفتاة ستكون بالتأكيد عذراء عند الزواج بها، وأن حرمانها من المتعة الجنسية سوف يشجعها على أن تبقى مخلصة لزوجها، ولربما تزداد استثارة الرجل طالما أن المهبل يخاط بعد كل ولادة. غير أنه مهما كان السبب فهى ممارسة بربرية إلى أقصى حد، والبلاد التى تنتشر فيها هذه العادة تعتبر بلاداً غير متحضرة.

لازالت تعلق فى ذاكرتى بعض حالات الجراحة الدرامية. أذكر مثلاً ذلك الشاب الرزيقى الذى جرحت ذراعه اليسرى أثناء صيد الأسود مع أفراد قبيلته، وبعد الحادث ببضعة أشهر جاء إلى المستشفى بذراع قصيرة لا فائدة منها حيث التأم الجرح على عظمين تداخلا فى بعضهما بأربع بوصات. كان الشاب مشهوراً بشجاعته الفائقة، خاصة وأنه من العار لدى القبيلة أن تبدى أى نوع من الخوف فى أى وقت من الأوقات. وكان صيد الأسد يتم بأن تقوم مجموعة من أبناء القبيلة بإحاطة الأسد المطارد تدريجياً وكل منهم يحمل رمحه ويكون فى حالة استعداد كامل. وفى النهاية، عندما يحاول الأسد الهروب من هذه الدائرة، لا يجوز لأى من أفراد المجموعة أن يحجم أو يجفل، ويتوقع من الشخص الذى يكون واقفاً فى الطريق الذى سينفذ منه الأسد أن يوجه له طعنة برمحه عند اقترابه منه. ولكن صاحبنا أخطأ الهدف، فرفع ذراعه ليحمى بها وجهه، فعضها الأسد قبل أن يتمكن زميله المجاور من تخليصه منه. قمت مع مدير المستشفى بأخذ الرزيقى إلى غرفة العمليات، ونجحنا فى شد العضلات، وإنعاش أطراف العظام مع إعادة تنظيمها، ثم وضعنا الذراع فى الجبس لتلتئم على الوضع الجديد، ورغم أن النتيجة النهائية لم تكن على الوجه المطلوب إلا انه قد طرا على الذراع تحسن مفيد.

كانت هناك أيضاً حالة الشاب السودانى من القوات الجوية الملكية الذى كان راكباً على ظهر شاحنة بجوار صهريج كبير للمياه، عندما اصطدمت

الشاحنة بجزع شجرة فانقلبت عليه بكامل حمولتها، وأحضر إلى المستشفى بكسر فى الحوض، وتمزق فى المثانة، وكانت حالته خطرة. وحسب مراجع الجراحة التى لجأت إليها بسرعة، فإن جميع الأشخاص الذين يتعرضون إلى مثل هذه الإصابة الشديدة يموتون بأثر الصدمة قبل محاولة إجراء أى عملية جراحية لهم، ولذلك لا بد من إحاطتهم بعناية مركزة للسيطرة على آثار الصدمة. غير أنه لدهشتنا الكبرى لم يكن مريضنا يعانى بالمرة من أية حالة صدمة سريرية، مما ساعد على نقله إلى غرفة العمليات مباشرة، حيث أجريت له عملية جراحية استغرقت وقتاً طويلاً، ولكنه تحملها بجلد وثبات عظيمين دون أن يبدو عليه أى نوع من الضيق أو الألم، وكتب له فى النهاية الشفاء التام.

سرعان ما يدرك المرء أن السودانيين هم أصلب عوداً من الأوربيين، ولهم القدرة على تحمل المعاناة الناجمة عن الإصابات المرعبة دون أن يصابوا بأى صدمة. وفى هذا الصدد أذكر على سبيل المثال ذلك السودانى الذى جاء إلى المستشفى فى ود مدنى، وكان فى الواقع يحمل ذراعه اليسرى التى ضغطت عليها إحدى البكارات فى محلج القطن، فأدى ذلك إلى التواء فى مفصل الكتف، ولحسن الحظ أنه فى مثل هذه الحالات يقل النزيف لأن الأوعية الدموية تنكمش وتغلق بسرعة. لم أستطع استرداد الذراع إلى مكانها (رغم أنه فى المملكة المتحدة اليوم يمكن ويتم إجراء هذا النوع من العمليات) ولكنى استخدمت جزءاً من جلد الطرف المصاب لتغطية الفجوة التى نجمت عن الجرح.

لم يكن السودانيون يبدون هذا النوع من الثبات والجلد فى مواجهة الإصابات البالغة فحسب، ولكنهم أيضاً لا يشكون أبداً مهما كان الألم شديداً وممضاً، ذلك أن الشكوى فى نظرهم تعتبر عاراً كبيراً. كان من الممكن أن

بسبب ذلك بعض المتاعب خاصة إذا أجريت العملية الجراحية تحت تأثير التخدير الموضعى، لأن الخدر الموضعى يتناقص تدريجياً، لذلك لأجل ضمان أن تستمر الأنسجة فى حالة عدم إحساس بحيث لا يشعر المريض بأى ألم أثناء إجراء العملية التى تستغرق وقتاً طويلاً، فقد جرت العادة أن يُسأل المريض بين كل وقت وآخر ما إذا كان يشعر بألم. وكنت فى كثير من الحالات التى تكون فيها الإجابة بـ "لا"، استمر فى التقطيع، لأفاجأ بعد قليل أن المريض قد أغمى عليه. لم أشاهد مثل هذا الجلد فى أى عنصر بشرى آخر، ولا يملك المرء إلا أن يعجب به، ولكن فى مثل هذه الظروف فإنه قطعاً يعتبر نوعاً من القياء!

لم يكن فى السودان أخصائيو تخدير فى ذلك الوقت، وكان إذا اقتضت الحالة إجراء عملية جراحية، فعلى الجراح أن يتولى بنفسه مسئولية التخدير، وكان ذلك فى الغالب يسبب نوعاً من القلق. أما بالنسبة إلى العمليات الجراحية الصغيرة، فكان يكفى حقن المخدر الموضعى فى الجزء المصاب فقط، ولكن فيما يتعلق بالعمليات الكبرى تحت حلمتى الثديين فكان لا بد من التخدير النخاعى. وبالنسبة للعمود الفقرى فكانت توجد أمبولات بمحلول مخدر أخف قليلاً من سائل النخاع الدماغى، وعندما تحقن بين فقرات القناة النخاعية، يشترط أن يكون المريض جالساً، فإن الفقرات ترتفع تدريجياً من خلال السائل النخاعى الأكثر كثافة فتؤدى ارتفاعها إلى تخدير الجذور العصبية فى كل مستوى. وعندما يتم بالحساب والتوقيت المتأنى التأكد من أنها قد وصلت إلى المستوى المناسب، يُرقد المريض فيتوقف ارتفاع مستوى التخدير، وهكذا يمكن بدء العملية الجراحية فى المريض الذى يكون واعياً ولكنه فاقد الإحساس بالألم. غير أن المشكلة كانت تكمن دائماً فى التوقيت، فإذا لم يترك المريض جالساً لفترة كافية، فقد يكون مستوى التخدير منخفضاً جداً، كما أنه إذا ترك جالساً لفترة أطول، فقد يتعرض إلى خطر وصول المخدر إلى المراكز

الحيوية فى الجسم مما قد يؤدى إلى وفاته، خاصة وأنه لم يكن هناك أوكسجين لمواجهة حالات الانهيار، بل ولم تكن لدينا كذلك إمكانيات نقل الدم لمواجهة حالات النزيف الحاد، ولذلك كانت العمليات الجراحية تعتبر عملاً خطيراً.

غير أنه بالرغم من كل هذه المخاطر، كنت غالباً ما أكون فى غرفة العمليات، وكانت تأتينى الكثير من الحالات المثيرة للاهتمام والتحدى، ولكن كانت هناك أيضاً لحظة درامية مرعبة لن أنساها أبداً. كان علىّ فى إحدى الليالى أن أجرى عملية جراحية طارئة لاستئصال الزائدة الدودية فى مركز للتجهيز تابع للقوات الجوية الملكية البريطانية، وكنا فى العادة نتجنب إجراء العمليات الجراحية أثناء الليل نظراً لعدم وجود الإنارة الكافية. غير أنه بالنسبة لهذه الحالة لم يكن هناك خياراً آخر. كانت هناك ثلاث رتاين بتروماكس تضيىء غرفة العمليات التى كان يفترض أن تكون محمية من الحشرات عندما بدأت العمل. فتحت بطن المريض، وعزلت الزائدة الدودية الملتهبة، ولكن عندما شرعت فى التقاطها بالملقاط، إذا بصوت طنين عال ينبعث فى الغرفة معلنا وصول أحد خنافس الروث الذى أخذ يدندن ببطء وبصوت مرتفع حول المكان ويرتطم بالمصابيح، ثم يرتفع إلى أعلى بعد إقلاع متعثر ليواصل طيرانه المرعب. وقبل أن نتمكن من التخلص منه حدث ما هو أسوأ من ذلك، فقد هبط الخنفس بعنف فى وسط البطن المفتوحة، ومضى يشق طريقه داخل الأنسجة، ولكن لحسن الحظ نزل على ثنية البريتون الحشوى (بين المعدة والأعضاء المجاورة) التى تغطى الإمعاء كاللحاف، وهى ليست من الأنسجة الحيوية بل يمكن الاستغناء عنها. وبسرعة البرق أمسكت بالملقاط الجزء المصاب من ثنية البريتون الحشوى كاملاً بما فى ذلك الخنفس، وقمت بربط الجزء وقطعه بعناية، ورميت به فى جردل المخلفات. إن التفكير فى المكان الذى حطت فيه تلك الحشرة، وفى ما يمكن أن تكون قد حملته معها من

بكتيريا مؤذية، قد منعنى من النوم لعدة ليال لاحقة. كم كنت أتمنى أن أكون سريعاً بما فيه الكفاية حتى أتمكن من إزالة جميع آثار عدوان تلك الحشرة ولكن على أية حال انتهى الأمر بسلام، وبدأ جندى سلاح الجو الملكى يسترد عافيته باطراد.

لا زالت هناك تكملة لهذه الحكاية. كان ذلك الشاب هو المريض البريطانى الوحيد بالمستشفى، واقترح زملائى العازبون أن أحاول إقناع مدير الخدمات الطبية بالخرطوم، أو ربما سلاح الجو الملكى للموافقة على إرسال ممرضة بريطانية لتتولى الاعتناء به. كان يوجد بمستشفى الفاشر فى ذلك الوقت ثلاث من النساء الأوربيات وهن: زوجة مدير المديرية، وزوجة مفتش طبى المديرية، وزوجة مفتش المركز، ولذلك كانت فكرة وجود ممرضة عازبة، وربما صالحة للزواج، تعتبر إضافة لمجتمعنا ومدعاة للبهجة والسرور، ولكن يا للحسرة فقد رفض طلبى.

كان يوجد خلف المستشفى مجمع صغير يحتوى على شجرة وتُكُل (كوخ محلى يبنى من القش)، وكان يسكن فى هذا التُكُل، وظل يسكن فيه لسنوات طويلة، أحد المختلين عقليا واسمه الطاهر. يبدو أن الطاهر فى زمانه قد قتل عدداً من الأبرياء، ولكن بالنظر إلى كونه فاقداً لعقله، فلم يحكم عليه بالإعدام، وبدلاً عن ذلك حكم عليه بالحجز الانفرادى مدى الحياة.

وعملاً بالمبدأ العام القاضى بعدم إنفاق أموال الحكومة على الخدمات التخصصية طالما أن هناك قيمة أكبر تعود على المجتمع من تنمية وتطوير سلسلة الشفخانات، فلم تكن بالسودان فى ذلك الوقت مستشفيات أو مصحات للأمراض العقلية، وكانت تحل مثل هذه المشاكل محلياً. ولذلك كان هذا المكان الخاص هو الحل لمشكلة الطاهر، وظل يعيش فيه وكاحله قد أوثق بسلسل حديدى منذ إدانته قبل عدة سنوات مضت.

كان الطاهر لا يزال عدوانياً فقد يندفع فجأة وبعنف نحو أى شخص يقترب منه، ولكنه بالرغم من ذلك كان شخصاً يتسم بعادات مرتبة ولو أنها تبدو شاذة وغريبة. كان يكنس بدقة وعناية ذلك الجزء من المجمع الذى يستطيع الوصول إليه فى حدود طول السلسل الحديدى، ويحفر فى كل يوم جزءاً صغيرا فى محيط دائرته ليستخدمه كمرحاض، ويقوم فى كل مساء بدفن تلك الحفرة ليحفر أخرى على بعد قدم أو قدمين منها حول محيط دائرته. وكان جسمه عاريا دائماً، ويفضل أن يظل كذلك، ولكن كان يلف خصره عدة مرات بحبل أسود مصنوع من شعره شخصياً، حيث كان بين الفينة والأخرى يقوم بنتف جميع الشعر الذى ينبت على راسه وعانته، ثم يفتله ليصنع منه ذلك الحبل الذى لا بد أن يكون طوله - عندما كنت هناك - قد بلغ إثنى عشر قدماً.

وبالرغم من ما كان يتهددنى من خطر عندما كنت اقترب من الطاهر كثيراً، فقد كنت أشفق عليه، ودون تفكير أمرت بتطويل سلسله الحديدى، ولكن كان أثر ذلك مروعاً، فبدلاً أن يكون مسروراً بهذه الزيادة فى حرية حركته، إذا به ينتفض غاضباً، وأخذ يقذف بأى شيئ تصل إليه يداه نحو كل من يقترب منه، وأعتقد أن ما أثار سخطه هو زيادة المساحة التى ظل يقوم بتنظيفها، ولم يهدأ له بال إلا بعد أن تم تقصير السلسل وإعادته إلى طوله الأصلى.

••

الأوبئـة

كان الخروج فى جولة يريح النفس من زحمة العمل فى المستشفى، وحيث أن مفتش طبى المديرية لم يكن يهتم كثيراً بهذه الجولات التفقدية، فكنت أخرج كل اربعة أو خمسة أسابيع فى زيارة إلى الشفخانات لأجل التعامل مع انتشار احد الأمراض المعدية.

وفى أثناء إقامتى فى دارفور أسهمت فى السيطرة على نوعين من الأوبئة. كان أولهما انتشار الحمى الراجعة بين قبيلة المساليت الذين كانوا يسكنون فى أقصى الحدود الغربية مع أفريقيا الاستوائية الفرنسية، وكان ثانيهما هو انتشار الالتهاب السحائى فى تلال الميدوب فى الشمال.

كانت قبيلة المساليت فى عام ١٩٤٣ شبه مستقلة ذاتياً، وبخلاف المناطق الأخرى فى السودان كان لناظر هذه القبيلة قوة شرطة خاصة تحت إدارته شخصياً. ولذلك عندما كنت أذهب إلى منطقته لمواجهة انتشار مرض ما يكون قد تسبب فى عدد من الوفيات، لم تكن ترافقنى أى فرقة من قوات شرطة السودان، وكان الناظر ينتدب ابنه لرعاية الحملة على رأس مجموعة من شرطته الخاصة. كان الابن شاباً فارع الطول ومتعجرفاً، وكان واضحاً أنه قد تعود على إصدار الأوامر أكثر من إطاعتها، ولذلك كنت أستغرب كيف سيكون تعاملنا معاً. غير أنه لم يكن هناك داعياً للقلق، فقد حدث شىء أدى بسرعة إلى توطيد العلاقة بيننا، ذلك أن الشاب قد أصيب بنوبة حادة من مرض السيلان.

قبل ظهور مجموعة عقاقير (السلفوناميد) كأول مضاد حيوى، كانت معالجة هذه الحالات تتم بواسطة إرواء القضيب بمحلول مطهر، وهى عملية كريهة ومؤلمة إلى أبعد حد، علاوة على أن نتائجها غير مؤكدة، وربما كان صاحبنا يتوقع أن أصف له ذلك العلاج. وتصادف فى ذلك الوقت أن كنت احتفظ فى حقيبتى بمجموعة من أول دفعة وصلت إلى السودان من العقار الجديد، ولذلك استطعت أن أعالجه من المرض خلال بضعة أيام دون أن يشعر بأى نوع من الانزعاج أو القلق، وبالنسبة له كان هذا العلاج نوعا من السحر، وبالطبع كنت أنا الساحر الذى استحق كل فروض الاحترام والتقدير كأى شخصية هامة مرموقة.

تسبب الحمى الراجعة بواسطة فصيلة من الجراثيم اللولبية، وهى عبارة عن كائن خيطى دقيق لولبى الشكل يظهر فى الدم عند اشتداد الحمى التى تنتشر فى الغالب أثناء أشهر الشتاء عندما يميل الناس إلى ارتداء عدد كبير من الملابس، وهى المكان المفضل لتوالد القمل الناقل للمكروب. وفى العادة تكون نسبة الوفاة من هذا المرض أدنى من ٦% ، ولكن فى الحالات الوبائية يمكن أن ترتفع النسبة إلى ما يقارب ٥٠%. ويقال أن هذا الوباء قد انتشر فى دارفور عام ١٩٢٦ ، وأدى إلى وفاة أكثر من ١٠٠٠٠٠ شخص، ولذلك فهو مرض خطير مخيف.

كانت مجموعتى تتكون من شخصى، ومساعد طبى، وتمرجيين (ممرضين) وطباخ، وسفرجى. سافرنا باللورى تجاه الحدود الغربية إلى ما بعد مدينة الجنينة حيث انضمت إلينا مجموعة الناظر التى كانت تنتظرنا هناك، وتضم عشرين فردا من شرطته المحلية بقيادة ابنه، مع العدد الكافى من الخيول لنا جميعا، وقامت المجموعتان معاً بتفقد المنطقة الموبوءة فى جولة على ظهور الخيل استغرقت عشرة أيام.

كان الوباء الحالى، حسب علمنا، قد انتقل عبر الحدود من أفريقيا الاستوائية الفرنسية التى كانت نسبة الوفيات فيها مرتفعة جداً. وقد سبق أن أرسلت فرقة من الشرطة بقيادة رقيب أول من مدينة (أبشى) فى محاولة للسيطرة على الوباء، وكانت طريقتهم هى إشعال النار فى قطاطى (أكواخ) المصابين للقضاء على القمل، مما يجعل الدخان عالقا فى سماء القرى المنكوبة لفترة طويلة.

كان أملنا أن يكون فى مقدورنا مواجهة الوضع باستخدام طريقة أقل قسوة من إشعال النيران، ولذلك كانت خطتنا التى قمنا بتنفيذها تتلخص فيما يلى: عندما نصل إلى قرية موبوءة، يدعو قائدنا إلى اجتماع عام يعقد أمام مسكن

شيخ القرية، وكان يقف فى وسط الساحة بشخصيته المهابة يحيط به أهالى القرية، ويظهر تحت جلبابه الفضفاض حذاء عسكرى من الجلد، ويتدلى سيفه بجانبه، ويزين صدره حزام حفظ الرصاص المخلوف. وكان، بصفته ممثلاً للناظر، يعامل بكل احترام وتطاع أوامره فوراً . كانت تعليماته تقضى أولاً بإنزال جميع جدران القش الجانبية لكل قطية على الأرض لتتعرض إلى أشعة الشمس، وبذلك يتم طرد أى كمية من القمل تكون مختبئة بغرض إبادتها بحرارة الشمس. بعد ذلك يوضع على النار فى جانبين من القرية، عدد من القدور النحاسية كبيرة الحجم تملأ بالماء الذى لا يلبث بعد قليل أن يصل إلى درجة الغليان، ثم يتجمع الرجال حول أحد الأشخاص، وكذلك النساء حول شخص آخر، ويبدأ الجميع فى خلع ملابسهم وإلقائها فى تلك القدور لتمكث فى الماء لمدة عشر دقائق، ثم يتم إخراجها ونشرها على الحبال إلى أن تجف. فى غضون ذلك يقوم أصحاب الملابس بغسل بعضهم البعض مستعملين الصابون الطبى الذى توفره لهم مصلحة الخدمات الطبية، وتستمر هذه العملية طوال اليوم إلى أن يتم إزالة القمل من كل رجل وامرأة وطفل.

أثناء استمرار هذه العملية، أقوم أنا بالبحث عن الحالات، وفحص عينات الدم، وصرف جرعة واحدة من عقار (نوفارسينوبيلون Novarsenobillon NAB) لكل مصاب بالمرض، وهى فى العادة تكفى لشفاء المريض. ولن أنسى أول مرة رأيت فيها تحت المجهر تلك الجراثيم اللولبية التى تسبب الحمى الراجعة، وهى تتلوى وتتقلب بين كرويات الدم الحمراء، كما لن أنسى عبارات الشكر والعرفان التى عبر عنها أفراد القبيلة البسطاء لوصول هذا العلاج الفعال إليهم، وكم كان سرورنا عظيما بأن الطريقة المرهقة التى اتبعناها من أجل السيطرة على المرض قد أثمرت وبرهنت على نجاحها، وتم القضاء على الوباء بالسرعة المطلوبة.

فى العام التالى أصبحت مشكلة القمل الناقل للوباء محلولة بدرجة كبيرة، وذلك بفضل ظهور مادة الـ (دى دى تى DDT)، وهى مبيد حشرى يقضى على القمل إلى حد بعيد، وتكفى نفثة واحدة منه فى كمى ملابس أى شخص لإبادة القمل فى ثوان معدودة، ويمكن به معالجة قرية كاملة خلال ساعة واحدة. ياله من تقدم مذهل فى عالم المبيدات الحشرية.

كانت جولتى الثانية التى لا تنسى فى دارفور تختلف كثيراً، وكانت فى هذه المرة بسبب انتشار الالتهاب السحائى أو مرض (أبو فرّار) كما يسمونه فى السودان، الذى يضرب الإنسان كالصاعقة، ولا يختار إلا صغار السن والأصحاء من الناس، ويؤدى إلى وفاة ٨٠% من ضحاياه. لقد أشارت التقارير إلى أن هذا المرض قد انتشر فى تلال الميدوب، وهى منطقة قاحلة تقع فى شمال المديرية على أطراف الصحراء الكبرى. لذلك تحركت برفقة بيتر لمسدينLumsden Peter مساعد مفتش المركز، وفريق طبى لمواجهة الموقف، و القيام بعمل اللازم بسرعة.

كان وباء السحائى يظهر سنوياً فى منطقة أو أخرى بالسودان، وقد عرف الميكروب الذى يسبب هذا المرض قبل أكثر من خمسين سنة، ولكن الكثير من أحوال المرض لم تكن قد اتضحت بعد، فقد يوجد الميكروب فى حلقوم شخص يتمتع بصحة جيدة تماماً، غير أنه فى بعض الحالات قد تزداد حدته عندما يخترق الأنسجة الدقيقة، ويغزو مجرى الدم الذى يحمله إلى بقية أعضاء الجسم المستهدفة مثل الدماغ والنخاع الشوكى، ولا توجد أى طريقة فعالة أخرى لوقف انتشاره سوى منع الازدحام، ولكن فى بعض الحالات الفردية يصبح العلاج الطبى فعالاً. فى الفترة ١٩٣٢ - ١٩٤١ سجلت فى السودان (٨٠٢.٣٠) حالة سحائى، وبلغت نسبة الوفاة فيها ٥.٧٨%. أما فى الفترة من ١٩٤٢ - ١٩٥٢ فقد بلغ مجموع الحالات ٦٢٣.٨٨، غير أن نسبة الوفاة قد انخفضت إلى ٦١,١٣% فقط.

سافرت مجموعتنا باللوارى إلى (المالحة) حيث كان فى استقبالنا هناك ملك قبيلة الميدوب الذى دعانا إلى وليمة قبلية كبرى يتوسطها خروف بكامل ملحقاته المحببة شاملة مقل العيون، ثم وفر لنا العدد الكافى من الإبل للركوب والتحميل لتقلنا جميعاً بكامل معداتنا.

تقع قرية (المالحة) بجانب أحد المعالم الجيولوجية النادرة، وهو عبارة عن حفرة ضخمة مستديرة الشكل يبلغ طول قطرها ميلاً وعمقها حوالى ١٥٠ قدماً أو أكثر، ويبدو أنها كانت فوهة بركانية. وما يجعلها تبدو غير عادية أنها ليست فوق قمة جبل أو حتى تل، وإنما هى عبارة عن أرض منبسطة تمتد إلى عدة أميال. ويمكنك أن تعدو فيها بالجمل بهدوء دون أن يقع نظرك على شىء ذى بال، ثم تجد نفسك فجأة إزاء حافة جرف يطل على حفرة هائلة تتوسطها بحيرة صغيرة مالحة، تغذيها ينابيع تسيل من أطرافها شبه الصخرية. وتحيط بالبحيرة آلاف الإبل من شتى الأشكال والأحجام، مما يعنى بوضوح أن هذا المكان هو مركز قبيلة الميدوب الرئيسى لتوالد الإبل. سرنا أنا وبيتر لسدين فى الممر الصخرى المؤدى إلى أسفل الفوهة وشاهدنا من هناك ذلك المنظر الساحر الذى كان يحيط بنا. وتسنى لنا أيضا رؤية منظر آخر نادراً ما نراه، الا وهو (تسافد الإبل). يقوم ذكر الإبل بمطاردة الأنثى مصدراً هديراً ينبعث من بلعومه، وأثناء ذلك تظهر وتختفى من فمه بالونة وردية اللون فى حجم رأس الإنسان. وعندما تبطئ الناقة بسبب الإنهاك، يتناول بفكيه أحد ساقيها الخلفيتين ملقيا بها على الأرض ليركب عليها وهو لا يزال يهدر، ويستمر هذا المنظر إلى أن يشبع الطرفان رغبتهما. وتأكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن قضيب الجمل يتجه إلى الأمام وليس إلى الخلف كما يبدو للعيان.

على بعد مسافة قصيرة من (المالحة) عبرنا ذلك المعلم الشهير، أو على الأصح سيئ السمعة المسمى "درب الأربعين"، وهو طريق يتميز بانه تتناثر فيه

عظام الجمال ، وأحياناً العظام البشرية، ويمتد من الفاشر إلى الصحراء الكبرى. وكان هذا الطريق، فى وقت سابق ممعن فى القدم، يستخدم فى نقل العبيد من الجنوب إلى أسواق الرقيق فى مصر. عندما يشاهد المرء ذلك المنظر الرهيب، لا يملك إلا أن يمعن النظر فى ما كان يكتنف تلك الرحلات من معاناة مرعبة ووحشية مشينة.

كنا نتحرك من قرية إلى قرية ونحن نعالج الحالات الموجودة بذلك العقار الجديد (إم آند بى ٦٩٣). كانت الجرعة العادية من ذلك الدواء حبتين ثلاث مرات يومياً تؤخذ بواسطة الفم لمدة سبعة أيام أو أكثر، ولكن بما أنه كانت تتوفر لدينا كمية محدودة، وحتى نحتفظ بها بقدر الإمكان، فقد اتبعنا طريقة مبسطة اكتشف فعاليتها الدكتور براينت (Bryant) من مصلحة الخدمات الطبية أثناء انتشار المرض فى الجنوب. كنا نقوم بسحق حبتين فى خمسة مليمترات من الماء المعقم ونحقنها فى جلد بطن المريض مرة واحدة يومياً لمدة اربعة أيام، ورغم أنها كانت مؤلمة، إلا أنها أثبتت فعاليتها، وبذلك استهلكنا فقط ربع العدد المطلوب لكل حالة من تلك الحبوب النفيسة.

أثناء تجوالنا من قرية إلى قرية، ونحن نعالج المرضى بتلك الحقن، انتشرت الأخبار بأن هذا العلاج منقذ للحياة، وأخذ المرضى يتوافدون علينا من كل حدب وصوب. وكنا نعامل كالملوك فى كل قرية نصل إليها، وتوفر لنا جميع احتياجاتنا، بل إنه فى بعض القرى كانت تذبح لنا الذبائح، وتقام على شرفنا الولائم.

فى أربعينات القرن الماضى وصلت إلى السوق العديد من العقاقير الجديدة المثيرة التى كان لها تأثير فعال فى علاج أمراض المناطق الحارة، فأصبحت الأمراض مثل العليق، والسيلان، والحمى الراجعة، والملاريا، وغيرها من الأمراض الأخرى، يمكن علاجها بسرعة وفعالية، ولا شك أن شعبية الحكومة

قد ازدادت وقويت، نتيجة لقيام مصلحة الخدمات الطبية بإدخال هذه التحسينات العظيمة فى حياة الشعب السودانى، وكانت بالنسبة لى تجربة مفيدة أن أكون جزأ من أسباب هذه الشعبية.

بعد أن قضيت سنة فى الفاشر حان وقت جلوسى لامتحان اللغة العربية، ومرة أخرى سافرت بذلك الطريق الشهير إلى الأبيض، ومن هناك بالقطار إلى الخرطوم. لحسن الحظ لم تواجهنى صعوبة فى اجتياز الامتحان، وقد ساعدنى على ذلك أننى كنت أقضى معظم الوقت فى الجولات الميدانية دون رفقة من أتحدث إليه بالإنجليزية، علاوة على توفر الزمن الكافى لدراسة اللغة.

لقد استطعت مواصلة هذا الغياب عن مكان عملى بالسفر لمدة أسبوعين إلى مصيف أركويت البهيج بمنطقة البحر الأحمر لأنوب هناك عن طبيب آخر، كما قضيت بضعة أيام بود مدنى فى طريق العودة حيث أقمت هناك مع ديفيد لويس ((David Lewis خبير علم الحشرات الطبية الذى أدين له بالكثير، وذلك بسبب اهتمامى بالحشرات التى كانت فى الواقع جزءاً من تخصصى الدراسى بجامعة كيمبردج، ولكن ديفيد اثار فى نفسى حماساً خاصاً تجاه هذا المجال الذى أصبح فيما بعد إحدى هواياتى الرئيسية. ومنذ ذلك الوقت أصبحت أقضى معظم وقت الفراغ أينما كنت فى جمع وتعريف الحشرات، وقد أدى ذلك فى النهاية إلى نشر ورقتى العلمية الأولى من السودان بعنوان "فصيلة البعوض ذى الجناحين فى مديرية دارفور بالسودان الإنجليزى المصرى مع ملاحظات حول الجغرافيا والعلاقات الحيوانية الجغرافية بالمنطقة" Anglo Egyptian Sudan The Culicidae Diptera of Darfur Province, with Observations on the Geography & Zoogeographical Relations of the Region والتى نشرت ضمن إصدارات الجمعية الملكية للحشرات فى عام ١٩٤٨.

منحت أول إجازة فى نهاية عام ١٩٤٤، وبما أنه لم يكن بالإمكان الذهاب إلى المملكة المتحدة، فقد سافرت إلى لبنان لتنتهى رحلتى إلى هناك بنتائج خطيرة، حيث التقيت بمن أصبحت زوجتى فى المستقبل، وكانت قد جاءت فى إجازة من المستشفى الذى كانت تعمل فيه بمنطقة القنال. بعد فترة التعارف القصيرة، واستمرار المكاتبات فيما بيننا لفترة طويلة، أعلنا خطوبتنا.

ونظراً إلى انه لم يكن يتوفر لدى المال الكافى لقضاء بقية استحقاقى من الإجازة، فقد عدت إلى السودان مبكراً، وقضيت ثلاثة أسابيع أتجول فى الجزء الرئيسى من جبل مرة، حيث خيمت لمدة أسبوع فى قمة الجبل أجمع الحشرات من تلك البيئة الفريدة على ارتفاع ١٠٠٠٠ قدم التى تتميز ببرودة طقسها وسهول السافنا الحارة المحيطة بها. كانت الكثير من الحشرات جديدة على المنطقة الأثيوبية، وتنتسب إلى حشرات منطقة البحر الأبيض المتوسط، وكنت أطمع فى العثور على نوع من البعوض يكون جديداً على العلم، ولكنى قنعت فى النهاية بالعثور على نوع يعتبر جديداً على المنطقة الأثيوبية، وكان فى السابق معروفاً بوجوده فى منطقة جبل سيناء، وقد سررت بذلك كثيراً.

بعد قضاء عامين ونصف فى دارفور مليئة بالبهجة والإثارة، نقلت إلى مديرية بحر الغزال فى الجنوب، وكنت وقتها مستحقا لإجازة أخرى، فسافرت فيها إلى قبرص، وهناك تم استكمال زواجى من مارى رانكين (Mary Rankin) فى مدينة ترودوس على جبل أوليمبس، ورافقتنى بعد ذلك إلى موقع عملى الجديد فى مدينة رمبيك.

••

رمبيك

كان كل شئ فى رمبيك جديداً ومثيراً من الناحية الطبية، فقد كانت أنواع المرض تختلف تماما عن تلك المعروفة فى مناطق العرب الرحل بالشمال

الغربى، ولعل السبب فى ذلك كان يعود إلى كثرة الأمطار والرطوبة من ناحية وإلى اختلاف التركيبة الجينية من ناحية أخرى. لقد لاحظت مراراً وتكراراً من خلال ممارستى لعملى بين قبائل السودان المختلفة أن هناك العديد من أشكال القابلية للأمراض حتى بالنسبة للكائنات المعدية المعتادة.

كان الدينكا معرضين دائماً للإصابة بمرض العليق اللولبى "Yaws" وهو مرض جلدى لم يكن معروفاً فى الشمال، ويسبب طفحاً جلديا ليناً، مع تقرحات فى سائر الجسم ذات رائحة كريهة، مما يؤدى إلى الكثير من المعاناة والألم. غير أن المرضى - لحسن الحظ - كانوا يستجيبون بسرعة درامية إلى حقن من محلول زرنيخى يسمى نوفرسينوبيلون (Novarsenobillon) أو ما كان يعرف فى جميع أنحاء البلاد بحقن (٦٠٦) التى كانت تعتبر "قنبلة سحرية" قام بتطويرها إيهرليش (Ehrlich) فى ألمانيا، وكانت بالفعل سحرية بحق وحقيقة، وليس من المبالغ فيه أن التقدير الذى لقيته مصلحة الخدمات الطبية، بل والحكومة إنما كان يعود إلى نجاحها فى معالجة مرض العليق. كان السكان يصطفون لأخذ هذه الحقن وهم مطمئنون إلى أن تقرحاتهم المؤلمة سوف تزول خلال بضعة أيام. كان عملا سحريا بحق، ومرة أخرى كان موظفو الحكومة هم السحرة!

كان الدينكا يعانون أيضاً من مرض فقر الدم الذى تسببه ديدان (الانسيلوستوما)، تلك الكائنات الصغيرة التى تعيش بالآلاف ملتصقة على جدران بطانة الأمعاء الدقيقة للمريض، وتمتص دمه بصورة مستمرة، وهى تقوم بتمرير بيضها من خلال تجويفة الأمعاء لتتسلل وتخرج من هناك مع البراز. وبمجرد خروجه من جسم الإنسان يفقس البيض، وتتسلق اليرقات إلى أقرب ساق عشبية، ثم إلى الغشاء المائى الذى يتكون من قطرات المطر أو الندى، وتمكث هناك فى انتظار أحد المارة لتنفذ إلى جلد ساقيه، ومن ثم إلى

مجرى الدم، فتشق طريقاً متعرجاً إلى أن تلتصق على جدار المصران حيث تقضى بقية عمرها فى امتصاص دم الإنسان وإنتاج بيضها. غير أن أفراد بعض القبائل، خاصة الزاندى، يمكن أن يكونوا حاملين لكميات ضخمة من هذه الديدان دون أن يبدو عليهم أى نوع من التعب، ولكن لم يكن الحال كذلك مع الدينكا الذين كانوا سرعان ما يصابون بفقر الدم مما يؤدى إلى موت أعداد كبيرة منهم. وكان مما يساعد على انتشار طفيليات هذه الديدان التبرز العشوائى فى العراء، بالإضافة إلى التربة الرملية الطينية، والأقدام والسيقان العارية، وهى حالات تكاد أن تكون موجودة فى جميع أنحاء المناطق الحارة. غير أن العلاج الطبى - لحسن الحظ - أصبح سريعا وفعالاً فى تخليص ضحايا المرض من هذه الديدان، وكان كل الذين يأتون إلى الشفخانات يتم إنقاذهم من المعاناة التى يسببها اعتلال الصحة.

كانت "الدودة الغينية" سبباً آخر لإثارة الفضول الطبى المتعب، وهى إحدى المخلوقات التى يتراوح سمكها بين ١ . ٥ مليمترات، ولكن يتراوح طولها بين نصف متر إلى متر ونصف. وهى تلتوى وتلتف فى الأنسجة الجلدية وتكون مؤخرتها التى تحتوى على الرحم تحت الجلد مباشرة، وعندما يتساقط الماء على الجلد يبرز الرحم إلى الخارج، ويفرغ عشرات الألوف من اليرقات التى تدخل بدورها إلى جسم مضيف ثانوى - برغوث الماء، وهناك تنمو وتتطور. وإذا حدث أن ابتلع الإنسان هذه البراغيث مع ماء الشرب، فإنه سرعان ما يهضمها، فتتحرر هذه الطفيليات وتشق طريقها إلى داخل أنسجة المضيف الجديد، وتعيش وتنمو فى الأنسجة المتصلة بالبدن والساقين. وعندما تبلغ سن النضج، يصبح طولها غير عادى، فتتجه إلى الساقين والقدمين، وتكمن تحت الجلد فى انتظار الأحوال الرطبة المناسبة لتتمكن من التخلص من يرقاتها. وبما أن سكان المناطق الحارة يحصلون فى العادة على مياه الشرب من الآبار والأنهار، فإن

سيقانهم وأقدامهم تتعرض إلى البلل بالماء، وبالتالى يتم فيها تفريغ يرقان الدودة الغينية. غير أن مرض الدودة الغينية فى الهند، مثلاً، ينتشر بين بائعى الماء الذين يحملونه فى القرب على ظهورهم، ولذلك تظهر الدودة الغينية فى تلك البلاد داخل جلد الظهر، مما يعتبر نوعاً من التأقلم المدهش على ظروف الحياة غير قابل للشرح والتفسير.

أما فيما يتعلق بالطريقة التى كان يتبعها الأهالى فى التعامل مع هذه الدودة، فهى مثيرة للاهتمام، ذلك انهم يقومون بمسك الجزء البارز من الدودة، وبكل حرص وعناية يتم سحب بوصة او بوصتين من جسم الدودة، ويلف هذا الجزء حول عود صغير، ولا بد من التركيز على عبارة "بحرص وعناية" ذلك انه إذا تم سحب الجزء بشدة فقد تتقطع الدودة، الأمر الذى يجب تفاديه بأى ثمن لأنه يؤدى إلى التهاب حاد ومؤلم. ويتم تدوير العود يومياً لسحب المزيد من البوصات من جسم الدودة إلى أن يبلغ طول الجزء المسحوب من انسجة الجلد متراً أو اكثر. وهكذا أصبحت رؤية الكبار، وهم يحملون تلك العيدان الصغيرة التى تلتف حولها هذه الدودة الملتصقة بسيقانهم، منظراً شائعاً ومألوفا.

فى أربعينيات القرن الماضى لم يكتشف العلم طريقة اكثر فعالية من تلك التى كان يستخدمها الأهالى فى معالجة المشكلة عندما تحدث الإصابة، مع أنه قد جرت بعض المحاولات للسيطرة على المرض عن طريق تصميم رؤوس للآبار تمنع إعادة الماء إلى داخل البئر بعد سحبه منها.

كنت أشعر أنه لا بد من أن تكون هناك طريقة أفضل، ولذلك شرعت فى البحث والاستقصاء، وكان اول شيئ يجب القيام به هو معرفة عدد الآبار الموبوءة ببراغيث الماء، فقمت بفحص عينات من كل بئر فى رمبيك وغيرها من القرى التى كانت تقع فى طريق جولاتى، ووجدت أن البراغيث تكاد ان تكون موجودة فى كل الحالات التى تم فحصها. كان منع البراغيث من الإصابة

بالمرض، أو مناشدة الأهالى لترشيح مياه الآبار قبل شربها لا يبدو حلاً للمشكلة. لقد رأيت أن الحل ربما يكمن فى إيجاد طريقة لعزل البراغيث، ولذلك اقترح ديفيد لويس (David Lewis) خبير الحشرات الذى ناقشت معه المشكلة، أن استخدام(الجامبوسيا gambusia) لهذا الغرض، وهى أسماك صغيرة الحجم من نوع (الشبوط)، قد يكون محاولة ناجحة، خاصة وأن هذا النوع من الأسماك قد استخدم بنجاح فى القضاء على يرقات البعوض عندما أطلق فى بعض برك المياه فى الشمال، ولم يساوره الشك فى أنها سوف تلتهم بالمثل جميع براغيث الماء إذا قدرت على العيش فى الآبار، ولكن لم يكن بالإمكان معرفة ذلك.

بناء على ذلك، وبمساعدة ديفيد، قمت بإطلاق هذه الأسماك الصغيرة فى عدد من الآبار. غير أنه لسوء الحظ أن هذا العمل لم يكتمل، حيث تم نقلى من رمبيك قبل أن أتمكن من جمع البيانات الكافية، ولكن وضح لى أن أسماك الجامبوسيا استطاعت العيش فى الآبار، ونجحت فى تخفيض أعداد البراغيث. لا أدرى ما إذا كان أى شخص آخر قد تحمس لمتابعة هذه التجربة، وما إذا كان قد خرج منها بأى نتائج.

لم تكن الأمراض الوبائية المنتشرة فى الشمال، كالسحائى والحمى الراجعة، معروفة لدى الدينكا، ولكن مرض الجدرى، بنوعيه الأصغر والأكبر، كان منتشراً ويتسبب فى العديد من الوفيات. لذلك كنا نقوم بتطعيم الأهالى ضد هذا المرض على نطاق واسع، ونجحنا فى احتواء انتشاره، وأرسلنا بعض الحالات إلى مستشفى رمبيك.

كانت نقطتا الضعف فى التركيبة الجسمانية للدينكا، كما فى العديد من القبائل الأفريقية الأخرى، هما الرئتان والكبد، ولذلك كان ينتشر بينهم الالتهاب الرئوى الذى كان يؤدى إلى الوفاة فى أغلب الحالات، مع أنه قد تم

إنقاذ الكثيرين بفضل (السلفوناميد) وحبوب (إم آند بى ٦٩٢) التى تم توفيرها مؤخراً كما ذكرت آنفاً.

لقد دهشت لعدد حالات اليرقان التى كانت ترد إلى المستشفى والشفخانات. وتملكنى شعور بأننى أتعامل مع مرض ويل(Weil's Disease) وهو مرض نادر تسببه جرثومة لولبية تحملها الجرذان والفئران، وتنتقل عدواه عن طريق المياه الملوثة بهذه الجراثيم. وبما أنه لم يسبق تشخيص هذا المرض فى هذا الجزء من أفريقيا، فيمكنك أن تتخيل مدى ما تملكنى من إثارة عندما ظهر لى على أرضية المجهر الداكنة، فى معظم الحالات التى قمت بفحصها، ما حسبته حركات لولبية للكائن المسبب للمرض.

هكذا اقتنعت بأننى قد حققت اكتشافاً عظيماً، وأن الشهرة قد باتت فى قبضة يدى، فواصلت العمل بهمة ونشاط. كان أول شىء يتوجب علىّ عمله هو متابعة الكائنات الناقلة للمرض، وهى بالتأكيد القوارض المحلية. لذلك أعلنت أننى سوف أدفع "تعريفة" (نصف قرش وكان يعادل نصف بنس) عن كل جرذ أو فار يتم إحضاره لى فى المنزل. ولم تمض فترة طويلة حتى أصبح لدي عدد كبير منها، مما اضطرنى لسحب عرضى بسرعة، ولكن ليس قبل أن تجتاحنى الفئران التى هربت من الشراك التى صنعها أولاد المدرسة من أغصان الشجر اللينة للإمساك بها وتسليمها لى.

لقد سعدت كثيراً عندما قمت بفحص بول هذه الحيوانات الصغيرة وتبين لى وجود كائنات حية مماثلة، وبدا لى أن ذلك يؤكد اكتشافى، غير أننى عندما واصلت فحص دم المرضى غير المصابين باليرقان بالمستشفى بغرض المقارنة وإجراء الاختبارات الضابطة، بدأ يساورنى الشك عندما وجدت كائنات نخاعية، ولم افهم كيف يكون ذلك، واحتاج الأمر إلى شهور قبل اكتشاف الحقيقة، وذلك أثناء مرورى بالخرطوم فى طريقى للإجازة، حيث قمت بعرض

نتائج أبحاثى على أخصائى علم الأمراض الحكومى، الدكتور روبرت كيرك (Robert Kirk) الذى ألقى نظرة على جراثيمى اللولبية، وأعلن فوراً أنها جراثيم كاذبة. ويبدو أنها كانت خيوطا دقيقة قد قذفت بها جسيمات فى السائل فأنتجت ما يسمى بالحركة البراونية (Brownian Movement) التى تشبه كثيراً الجراثيم الحقيقية من حيث مظهرها وحركتها، مع أنها . بالطبع . لم تكن كائنات حية بتاتاً، ويبدو أن ذلك هو الشىء الذى كان يتراءى لى تحت المجهر.

فقدت أعصابى، ولم أصدق ذلك فى بادئ الأمر، فقد أضعت شهوراً عديدة أطارد السراب، ولكنى تعلمت من ذلك درساً لن أنساه: كم من الأفكار المسبقة تحاصر المرء أحياناً، وكم يصعب عليه أن يتجنب تفسير ما يتوصل إليه من نتائج جديدة بالطريقة التى تلائم فرضياته، خاصة إذا قضى شهوراً عديدة فى تطويرها، وكم هو ضرورى فى أى بحث أن تتساءل عن كل شيئ، وأن يظل ذهنك مفتوحاً دائماً.

كان مفتش المركز فى رمبيك هو تيد نايتنجيل (Ted Nightingale) الذى جاء إلينا مع زوجته من كينيا، فأصبحا الجيران الوحيدين لنا من الإنجليز، وكانا يديران رئاسة المركز بكفاءة عالية. لم يكتفيا فقط بإدارة مزرعة الألبان (رغم أن البقرة الواحدة لم تكن تحلب أكثر من رطل يوميا!)، وإنما قام تيد أيضاً بتنظيف مساحة فى الغابة لتكون ملعباً للبولو، واستطعنا بالحصانين خاصتى، اللذين قطعا كل الطريق من دارفور، أن نجمع من البلدة العدد الكافى من الخيول والفرسان لممارسة اللعبة.

لقد عرف عن تيد اهتمامه بجمع أشبال بعض الحيوانات بغرض المتعة، وكان يستبدل كل حيوان صغير يُحضر إليه بعجل ضخم، ووجدتنى أقوم بمهام الطبيب البيطرى الفخرى الذى يقدم النصح والإرشاد حول سلوك هذه

الحيوانات مثل جراء وحيد القرن الأبيض، والتيتل، والزراف، وعجول الجاموس وغيرها. وبما أن بعضاً من هذه الحيوانات لم يكن قد فطم بعد، فكان من الصعب معرفة كيفية تغذيتها، وكان مرض الدسنتاريا - للأسف - هو الكارثة التى قضت على العديد من هذه الحيوانات الرضيعة، بالرغم من حبوب (السلفوناميد) التى كنا ندفع بها فى حلاقيمها. كان جرو وحيد القرن الأبيض الذى يصل إلى أوروبا حيّاً، يمكن أن يباع هناك ببضعة آلاف من الجنيهات، وقبل خمسين سنة كان ذلك يعتبر مبلغاً كبيراً، لذلك لا غرابة اننا كنا لا ندخر جهداً لنقدم لها كل ما نراه مناسبا. واذكر أننى كتبت إلى حديقة الحيوانات بلندن راجياً تزويدى بمكونات حليب انثى وحيد القرن، والزراف، والفيل؛ غير أن الرد الذى تلقيته بعد عدة أشهر لم يساعد كثيراً، ولذلك فقدنا الكثير من تلك الجراء الجميلة. كما أذكر أيضا عندما التفت مرة إلى مارى لأحدثها عن عجل الجاموس الذى كنت أقوم بالكشف عليه، إذا بى أجد نفسى فجاة منكفئاً على وجهى بعد أن نطحنى "المريض"!

●●

واو

قمت ومارى فى أبريل ١٩٤٦ بأول إجازة لنا بعد زواجنا. كانت مارى حاملاً، ولذلك عندما عدت إلى السودان تركتها فى إنجلترا للوضوع. وبعد أن أمضيت أسابيع قلائل فى رمبيك، أُرسلت إلى واو لتغطية إجازة الدكتور دى. بى. جيليف (D.B. Jelliffe) المفتش الطبى هناك.

كانت واو أكبر بكثير من رمبيك، ويبلغ عدد سكانها ٧٠٠٠ نسمة، وبها مستشفى أكثر تطوراً ويتميز بوجود الكهرباء. كان مجتمع المدينة يضم عدداً من الأوروبيين، وبخلاف موظفى المديرية البريطانيين بقيادة ريتشارد أوين (Richard Owen) مدير المديرية، كانت هناك أيضاً مجموعة من الراهبات

والرهبان المنتمين إلى آباء فيرونا (Verona Fathers)، وهى إرسالية كاثوليكية رومانية بقيادة الأب جورجتى (Georgetti) الذى كان رجلاً مهيباً يتميز بعين طوافة، ويدمن التقاط الصور الفوتوغرافية لفتيات الزاندى والدينكا اللاتى فى سن الزواج بحالتهن الطبيعية!

لم يكن العمل الطبى يختلف كثيراً عنه فى رمبيك، ولكن وجود الكهرباء قد ساعد كثيراً، وأتاح لنا استخدام الأشعة السينية. وكان مما يدعو إلى السرور أن يكون هناك أوروبيون يأتون إلى العلاج، إلى جانب بعض المسائل المحلية المثيرة للاهتمام. كانت المستنقعات المحيطة بالمدينة تتطلب وقتاً وجهدا كبيرين لتقليل أعداد بعوض (الأنوفلين) لوقاية الناقل للملاريا الذى كانت أعداده تتزايد عند الغروب لتصل إلى عشرات الألوف، وكانت الطريقة التى نستخدمها لمكافحته هى أن تنشر على سطح الماء سحباً من الغبار الذى يحتوى على ذرات من (أخضر باريس Paris Green) وهو مستحضر زرنيخى. وبما أن البعوضة تتغذى على طبقة الماء السطحية، فإن أقل كمية من هذا السم تكفى لقتلها، وكلما كان بالإمكان تغطية مساحة كبيرة من المياه الراكدة، كلما أصبحت السيطرة على البعوض بصورة أفضل. غير أن ذلك كان يتطلب جيشاً جراراً من (صبية البعوض)، وعدداً كبيرا من موظفى الصحة العامة لمراقبتهم، علاوة على متابعة مستمرة من المفتش الطبى.

انتشر فى هذه المنطقة أيضاً نوع غريب من العمى وصل إلى درجة الوباء فى بعض القرى الواقعة على ضفاف الأنهار، وهو(عمى نهرالجور Onchocerciasis) ينتقل هذا المرض عن طريق العدوى بواسطة دودة خيطية يتراوح طولها من ٢٠ - ٤٠ سم، وهى ترقد ملتفة تحت الجلد، وتحاط بتفاعل ليفى مزمن تتكوّن منه عقد صغيرة تتباين فى أحجامها من حجم حبة البازلاء إلى حجم بيضة الحمام. وتتواجد هذه العقد فى أى مكان على سطح الجسم، ولكن تكثر بصفة خاصة

على النتوءات العظمية حول الركبتين، والمرفقين، وفروة الرأس، ويكشف تشريح هذه العقد عن وجود دودة ذكر وأخرى أنثى تلتف كل منهما بجانب الأخرى وتوجد عشرات الألوف من أجنتها الدقيقة بين الأنسجة فى شكل خيطيات، وهى مرحلة ما قبل اليرقات، ويبلغ طول كل منها حوالى ٣٠٠ مايكرون. تنتقل هذه العقد الخيطية إلى مجرى الدم، ثم تغزو جميع أنسجة الجسم، وهى تسبب آلاماً شديدة خاصة فى المراحل المبكرة، ولكن ما يجعل المرض رهيباً هو أثر العدوى على العينين الذى يتمثل فى التهاب حاد يؤدى إلى العمى فى أغلب الحالات.

لقد أصاب (عمى نهر الجور) حتى الأطفال الصغار، فبمجرد انتقال العدوى إليهم، فإنه لا يبقى إلا القليل الذى يمكن عمله، مع أن إزالة العقد بعملية جراحية، خاصة تلك القريبة من العينين، قد يؤجل أو ربما يقى بعض ضحايا المرض من الإصابة بالعمى. وفى السنوات الأخيرة تم تطوير أنواع مختلفة من الأدوية الكيميائية (chemotherapeutic agents) مستمدة من الكحل والزرنيخ، وقد نجحت فى استئصال المرض، ولكنها لم تكن متوافرة لدينا فى واو.

ينتشر هذا المرض بواسطة لسعات "بعوض الجاموس" (Simulium damno-sum)، وهى عبارة عن ذبابة صغيرة محدودبة الظهر تتغذى أساساً على دم ذوات الثدى، وتعيش يرقاتها ملتصقة على الصخور والأعشاب فى الأنهار سريعة التيار. كان هذا النوع من البعوض ينتشر بأعداد كبيرة فى الأماكن المواتية، ومعروف بلسعته المؤلمة التى أصبحت مصدر خطر وإزعاج للأهالى الذين يسكنون بجانب الأنهار. لقد قام ديفيد لويس بإجراء دراسة مكثفة لمجموعة من هذه الحشرات وأصبح فيها مرجعاً عالمياً، وكان هو وزوجته (ليسلى) غالباً ما يقومان بجولات فى المستنقعات حيث كنا نلتقى بهم كثيراً.

بدأت السيطرة على المرض فى عام ١٩٤٦ ، وكان يتم ذلك فى الغالب بترحيل القرى الواقعة بجانب الأنهار فى المناطق المصابة، ولكن خلال سنوات

فعلية أدى ظهور المبيدات الحشرية (دى. دى. تى. والجماكسين) إلى إمكانية حقيقية لاستئصال اليرقات من الأنهار، ونجحت السيطرة على المرض فى العديد من البلدان.

كانت الجولات التفقدية - كما هى دائماً - فرصة طيبة للاستراحة من عناء العمل فى المستشفى، رغم وعورة وخطورة بعض الطرق، وكان أصعبها ذلك الطريق المؤدى إلى راجا التى كانت توجد بها أقصى شفخانة فى شمال مديرية بحر الغزال. لقد سبق أن زرت هذه الشفخانة مرة واحدة فقط، وأثناء تلك الزيارة حصل حدث عارض بصورة درامية. توقف اللورى الذى كان يقلنى واثنين من الخدم، والمساعد الطبى الذى كان منقولاً إلى راجا، والسائق، تحت شجرة (تبلدى) ضخمة فى أطراف إحدى القرى. واقترب منا زعيم القرية بعد أن لاحظ - دون شك - الزى الخاص بمصلحة الخدمات الطبية، وطلب منا الذهاب معه للكشف على أحد أقربائه الذى ظل يعانى من ألم باطنى حاد طوال الأربع والعشرين ساعة السابقة، والذى وصل الآن إلى مرحلة الخطورة. أدخلنى الرجل فى قطية مظلمة يرقد فيها شاب فى حوالى الرابعة والعشرين من العمر، وكان واضحاً أنه يعانى من ألم شديد. وأسفر الكشف عليه عن وجود كتلة طرية مشدودة فى الأُربية (أصل الفخذ) اليمنى توجعه عند لمسها، مما يعنى بالتشخيص أنها فتاق أُربى مختنق بسبب احتجاز عقدة من الأحشاء فى القناة الأُربية أدى إلى انسداد معوى كامل. وبصرف النظر عما يسببه ذلك من ألم شديد، فإن مثل هذه الحالات تؤدى إلى الوفاة ما لم تجد العلاج اللازم، ذلك أنه إذا بقيت المعدة مختنقة هكذا، فسوف ينقطع مجرى الدم، وتصاب المعدة بالقرقرينا، ثم تتمزق فى النهاية لتصب محتوياتها فى التجويف الصفاقى مما يؤدى بسرعة إلى التهاب الصفاق المميت. كانت هذه الحالة بنتائجها المميتة مألوفة لدى الأهالى، وكانوا يعالجونها بطريقة درامية من

خلال غرز رمح ملتهب فى الورم، وبذلك يتم تصريف محتويات المعدة فى الخارج على امل تفادى التهاب الصفاق. لا بد أن يكون بعض المرضى على الأقل قد تم إنقاذهم من الموت بهذا العلاج البطولى، ولكنى أظن أن عددهم كان قليلاً جداً.

لم يكن هناك مجال لأخذ هذا الشاب إلى المستشفى فى واو، ولا حتى إلى الشفخانة فى راجا لأنه لم يكن فى مقدوره تحمل مشقة الرحلة. لذلك كان علىّ أن أفعل ما أستطيع بالأدوات القليلة التى كنت أحملها فى حقيبتى الطبية المكونة من مشرط، وملقطى أنسجة، وملقطى شرايين، وحقنة، ومخدر موضعى. حملنا المريض من القطية المظلمة وارقدناه برفق على عنقريب (سرير محلى منسوج بالحبال) بجانب اللورى تحت شجرة التبلدى. وبمساعدة الخادمين، اللذين كانا يهشان على الذباب بعيداً عن المريض، والمساعد الطبى بدأت أقطع ببطء من خلال الأنسجة إلى أن تم تخليص المعدة لتهبط فى التجويف المعوى محدثة صوت قرقرة عالية. وكانت المعجزة أنها لم تصب بالقرقرينا، ولذلك كان منظرها الخارجى جيداً، وقد تأكدت من ذلك بالفعل. وفى رحلة العودة، بعد عدة أيام، قمنا بزيارة القرية، ولحسن الحظ وجدنا المريض يتماثل للشفاء على نحو مرض، وكان الجرح بحالة صحية نظيفة.

عادت مارى إلى السودان بطفلتنا الجديدة (جين) وقد قمت باستقبالهما فى شامبى، ويبدو أن جين كانت أول طفلة بيضاء تزور واو، مما أحدث ضجة فى المدينة.

لم نلبث على اى حال ان عدنا إلى رمبيك، وبعد ذلك بفترة قصيرة تم نقلى إلى مدينة (ليرانجو).

••

ليرا نجو

سافرنا نحن الثلاثة. جين محمولة فى (سلة موسى) مصنوعة محلياً. وجميعنا فى عش دافئ مريح وسط العفش والأثاث على ظهر إحدى الشاحنتين اللتين خصصتا لنقلنا لنبدأ بذلك رحلة الثلاثمائة وخمسين ميلا إلى ليرانجو، وتركنا الشاحنة الأخرى لتقل جوادينا الاثنين، والتى كان يتعين عليها أن تسافر ليلا تفادياً لذبابة التسى التسى المرعبة.

لم يمض وقت طويل حتى وصلنا بلاد الزاندى، وبدا لنا كأننا قد دخلنا عالماً جديداً، حيث كان كل شىء يبدو مختلفاً. كان الزاندى بقاماتهم القصيرة، وأجسامهم الممتلئة، ولونهم الكاكاوى يمثلون مفارقة درامية مقارنة مع الدينكا ذوى القامات الطويلة، واللون الأسود الذين تركناهم وراءنا. كان رجالهم بعكس الدينكا يرتدون سراويل قصيرة فضفاضة مصنوعة من لحاء الأشجار اللين، بينما كانت نساؤهم يرتدين تنورة تتدلى من الأمام، تقابلها فى الخلف حزمة من أوراق شجر السنط تتدلى من سير جلدى يلتف حول الخصر.

كانت المنطقة تغطيها الأدغال، لذلك كان الزاندى يقومون بحرق مساحات شاسعة من الأراضى فى كل عام من أجل إعداد التربة للزراعة التى كانت تغطيها حشائش طويلة كثيفة، تتناثر بينها هنا وهناك أشجار السنط مع بعض الشجيرات الأخرى. أما الأماكن الأخرى التى كانت تترك دون حريق، فكانت تنمو فيها مختلف أنواع الأشجار التى يحمل معظمها زهوراً فى غاية الجمال.

كان الزاندى يعانون من بعض العلل الصحية العادية التى كانت تنتشر بين المجتمعات البدائية فى أواسط أفريقيا. مثل الأمراض الطفيلية، والجروح، وعسر الولادة وغيرها. غير أن المشكلتين الرئيستين اللتين كانتا تشغلان السلطات الطبية آنذاك هما مرض النوم والجذام. وكان العمل الأساسى هو عزل الضحايا منذ البداية حتى يمكن السيطرة على هذين المرضين. ولهذا

السبب فقد تم وضع المركز الصحى فى ليرانجو على بعد مسافة طويلة من المناطق المأهولة بالسكان، وعلى بعد ١٦ ميلاً من مدينة يامبيو التى كانت توجد بها رئاسة المديرية، ومكاتب ومساكن الموظفين البريطانيين الذين كان عددهم يقرب من الخمسة عشر.

قام بتأسيس وتشييد معظم أجزاء مستوطنة المرضى الدكتور/ اليكساندر كروكشانك (Alexander Cruickshank) فى العام ١٩٢٩ م، وكانت هذه المستوطنة هى الفريدة من نوعها فى السودان، وفى وقت من الأوقات كانت تضم أكثر من ٢٠٠٠ مجذوم بعائلاتهم، وتعتبر أكبر مستعمرة للمجذومين فى العالم، حيث كانت تشمل إلى جانب قطاطى المجذومين الطرق والمزارع، ومستشفى عمومى من طابق واحد مسقوف بالقش ويضم ٦٠ سريراً، ثم مبانى السجن، ودار المحكمة، ومبانى الشرطة، وميدان العرض العسكرى، وأخيراً وليس آخراً منزل المفتش الطبى، وهو منزل غير عادى يتكون من طابقين بسقف كثيف من القش، وكان هو المبنى الوحيد فى جنوب السودان المشيد من طابقين. لقد أورد د. كروكشانك فى مؤلفه (النيران المضرمة The Kindling Fires) وصفاً ساحراً للكيفية التى تم بها تشييد هذا المبنى الفريد بالمواد المحلية، وبواسطة عمال غير مدربين، وشرح كيف كان يقوم بنفسه بحرق الطوب، وقطع الأخشاب من الغابة. وقد تم كل ذلك فى حدود الميزانية المسموح بها من قبل رئاسة المديرية، والتى لم تتجاوز مبلغاً وقدره ٥٠٠ جنيه. لقد كان حقاً عملاً بطولياً.

كذلك أنشأ د. كروكشانك حديقة جميلة أمام هذا المنزل محاطة بسور عشبى، وبها عدد كبير من الأشجار المزهرة، بالإضافة إلى ميدان للتنس. ولأجل أن يستكمل صورة حياة الأدغال، فقد أنشأ طريقاً يقود إلى المستشفى تظلله من الجانبين أشجار المانجو، وأقام سداً على أقرب الأنهار ليكون حوضاً

للسياحة. وكان كل ذلك تتوفر له الصيانة اللازمة عبر السنين من قبل المفتشين الطبيين الذين تعاقبوا على المنطقة واسعدهم الحظ بالإقامة فى هذا النعيم مع ما يكفى من العمال المساجين الذين كان يتم توفيرهم من أولئك المتهربين من حملات تفتيش مرض النوم، مما أدى إلى أن يحتفظ المكان بنظام مكتمل ممتاز.

ظلت هذه المستعمرة تحتفظ بنفس الاستقلالية التى بدأت بها، فكانت لها قوة شرطة بزيها العسكرى تتولى حفظ الأمن والنظام، وكنت من وقت لآخر أقوم بتفقد طابور القوة فى ميدان العرض ممتطيا حصانى الأبيض (بومبس Bombus) طالعا ونازلاً بين الصفوف. وكان زعماء القبائل ونوابهم يأتون إلى دار المحكمة لسماع القضايا التى تنشأ بين السكان خاصة وأن الزاندى معروفون بميلهم إلى الخصومة والمشاكسة. ومثلما كان يحدث فى أيام كروكشانك، فقد كنا نقوم بتصميم وتشييد وترميم مبانينا الخاصة على الوجه المطلوب، حيث كنا نقطع الأخشاب ونتولى حرق الطوب بأنفسنا.

كانت لدينا أيضاً مزرعة للألبان حيث سبق أن استورد أحد الأطباء المغامرين من الكونغو عدداً من الأبقار القصيرة المقاومة لمرض (نقانا)، وكان إنتاجها من الحليب قليلاً يتراوح بين نصف رطل إلى رطل واحد يومياً، غير أننا نجحنا فى أن نستخلص منه كمية لا بأس بها من الزبدة تكفى لإمداد جزء منها إلى أحد الموظفين البريطانيين فى يامبيو الذى كان يتلقاها شاكراً ومقدراً. كذلك جربنا تربية الخنازير التى كانت وقت وصولنا هزيلة ومريضة بسبب الدود والطفيليات الأخرى ولكنى تمكنت من القضاء على أغلبها.

كنت بوصفى المفتش الطبى المسئول أتصدر كل ذلك، وأعيش حياة مليئة بالحركة والإثارة. كان يتم توزيع الأعمال المختلفة على المساجين يومياً، وكنت أصرف التعليمات فيما يتعلق بصيانة المساكن، أو تشييد المبانى الجديدة، أو

تسقيفها بالقش. ثم يلى ذلك القيام بجولة حول المستوطنة، وبعد ذلك إجراء بعض العمليات. لم تكن لدينا كهرباء، وبطبيعة الحال لم تكن تتوافر لدينا أشعة (إكس)، ولكن بالرغم من ذلك يجب ملاحظة كم من الأعمال قد تم إنجازها دون الحاجة إلى مثل هذه الكماليات، وكم كان يمكن للمرء أن يتعلم عن طريق استخدام يديه وعينيه فقط.

كان مرض الجذام حتى عام ١٩٤٠ يعالج بواسطة حقن زيت نبات (الشلموجرا chalmoogra) الذى كان يزرع فى ليرانجو ويستخرج منه هذا الزيت، غير أنه بعد وصولى تغيرت الأوضاع، حيث تم تطوير تركيبات كيمائية جديدة، وأصبح علاج المرض يتم بواسطة حبوب (دابسون Dapsone) التى تؤخذ بالفم، مما أدى إلى نتائج أفضل من ما مضى بكثير، حيث يعتبر المريض غير قابل للعدوى خلال فترة مناسبة، وبذلك أوشكنا على تغيير سياسة عزل المريض طوال العمر، ولاحقا أصبحت الحالات تعالج باطمئنان فى العيادة الخارجية بالمستشفى.

لا يعنى ذلك القول أن المستعمرة كانت غير محببة، كلا لم تكن كذلك. وبالرغم من أن المصابين بالجذام قد فقدوا حريتهم، إلا أنه كان يتم إمدادهم بالطعام والشراب والعلاج، وكانوا يمتلكون القطاطى التى يسكنون فيها، وأصبحت لهم قراهم الخاصة، كما أنهم تخلصوا من ذل المهانة والاحتقار الذى كانوا يتلقونه من جيرانهم، بل وأهم من ذلك كله أنه ما كانت ترد منهم أية شكاوى، ولكن حدث أن تم إلقاء القبض على بعض الأفراد الذين ضبطوا وهم يحاولون تزييف ما لحق ببشرتهم من بقع الجذام لكى يتسنى لهم الالتحاق بالمستوطنة.

عندما تم اكتشاف أولى حالات مرض النوم فى بلاد الزاندى خلال العشرينات من القرن الماضى، قرعت أجراس الخطر. وقبل ذلك بفترة قصيرة

شهر فى الكونغو وباء فتاك أدى إلى وفاة أكثر من نصف مليون شخص، ثم أعقب ذلك انتشار المرض على شواطئ بحيرة فكتوريا ما أدى إلى وفاة ثلثى عدد السكان. غير أنه فى السودان أمكن السيطرة على المرض بنجاح، وذلك من خلال التعرف على الحالات لدى مراكز تفتيش مرض النوم، وعزلها فى كل من مستوطنتى ليوبو (١٠٠ ميل شمالاً) وليرانجو، ومنع اتصال الإنسان بالذبابة عن طريق إعادة قطع الأشجار لدى معابر الأنهار، ونقاط الدخول الأخرى.

فى عام ١٩٤٧ كانت لا تزال الزيارات التفقدية لكل قرية تجرى سنوياً، وكان يعنى ذلك أن أقوم بجولة تفتيشية تستغرق عدة أيام فى كل شهر، مما أتاح لى فرصة طيبة للاستراحة من العمل الروتينى رغم أنها كانت عملاً لا يخلو من مشقة، خاصة عندما يكون الطقس حارا على غير المعتاد. كان يتم إرسال الحالات الإيجابية مع بعض أفراد عائلة المصابين إما إلى ليوبو أو ليرانجو من أجل تلقى العلاج، وأصبح مفهوماً لدى الزاندى أن الحالات التى يتم علاجها مبكراً هى التى يمكن شفاؤها. ولذلك كان عزل المرضى يتم بقليل من المقاومة.

كنا أثناء الحملات التفقدية نبحث أيضاً عن أية إصابات بمرض الجذام، وكان يتم إرسال الحالات التى تعتبر معدية إلى العلاج. كان انتشار هذا المرض الكئيب يتزايد بين الزاندى، ووجد ما لايقل عن ٤٣٦ حالة من خلال حملات التفتيش التى غطت ٤١٠.٩ شخصاً، أى بمعدل ٣٤٦ إصابة فى كل ألف.(١)

كان يوجد فى ليرانجو مهبط للطائرات عبارة عن شريط من الأرض أزيلت عنه الأشجار، وتمت تسويته بقدر الإمكان دون استخدام أى نوع من الآليات. وعند وصولنا كان المهبط مغطى بالكامل بالحشائش الطويلة والشجيرات الصغيرة، ولم التفت إليه إلى أن جاء اليوم الذى تسلمت فيه برقية من

---

(1)Observations on Leprosy among the Azande of Southern Sudan (East African Medical Journal, 1951, 28, P. 503)

الخرطوم تقول إنه قد تقرر أن تصلكم طائرة " لفحص مهبط ليرانجو. وإن الطائرة ستكون من طراز (دى هافيلاند "دوف" De Havilland Dove) وإن سرعتها ١٢٠ ميلاً فى الساعة، ووزنها كذا، وخلوص مراوحها كذا، والمسافة المطلوبة لهبوطها كذا، وانتهت البرقية بالعبارة التالية " نفاد إذا كان المهبط آمناً وبحالة مرضية".

لقد وضعنى ذلك فى موقف محرج، ولكننى عملت كل ما أستطيع عمله. قمت أولاً بقياس طول المهبط فوجدته مناسباً، ولكن كانت الأرض تبدو لى وعرة وكثيرة المطبات. أما تلك الأرقام الأخرى، فلم تكن لدى أدنى فكرة عن ماذا تعنى، غير أنه ما كان يجوز لنا إفشال تلك الزيارة المثيرة. وحيث أننى قد علمت أن طائرة قد سبق أن هبطت فى هذا المكان، فقد بذلت كل جهد ممكن لإعداد الموقع وذلك باستخدام جميع المساجين الذين أمكن الاستغناء عنهم فى اقتلاع الأشجار وإزالة الحشائش بواسطة (البانجات)، وتسوية كثبيات النمل والأماكن الأخرى غير المسطحة. ثم قمت باختبار سطح المهبط من خلال قيادة شاحنة المستشفى عليه ذهاباً وإياباً فبدا لى أنه لا بأس به. لذلك أبرقت الخرطوم: "المهبط صالح وجاهز للتفتيش". وعندما وصل الرد موضحاً تاريخ وموعد الوصول، بدأت تنتابنى بعض الهواجس التى سرعان ما تحولت إلى كوابيس.

من أكون أنا حتى أتخذ قراراً بصلاحية مهبط للطائرات؟ صحيح أنه قد تم خفق الأرض بالشاحنة عدة مرات، ولكن ماذا عن طائرة تطير بسرعة ١٢٠ ميلاً فى الساعة؟ وماذا يحدث إذا قام النمل الأبيض بإلقاء المزيد من أكوام التراب خلال الليل؟ إن هذا النمل يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك، خاصة وأننى تذكرت بمزيد من الخوف ما حدث فى إحدى الاستراحات بدارفور عندما التهم النمل مشمع الحمام فى ليلة واحدة ليحل محله فى الصباح كوم من

التراب لا يقل ارتفاعه عن قدمين. لذلك ظل يطن فى مسامعى سيناريو ضجيج الطائرة وارتطامها بالمهبط ترحيبا بها، يقابل ذلك صورة أخرى لكتلة من اللهب تغطى حديد الطائرة الملتوى بفعل الحرارة والمبعثر فى وسط المدرج.

فى الليلة التى سبقت الموعد المقرر لوصول الطائرة، أمرت بأن توضع ملاءات من المستشفى فى زوايا المهبط الأربع، وعلى طول حدوده، مع الاستعداد لإشعال النار ليتصاعد منها الدخان لأجل معرفة اتجاه الريح، ثم قمت بإجراء تفتيش أخير للتأكد من تسوية عدد من كثيبات النمل، وهكذا بدا لى أن كل شىء يسير على أحسن ما يرام.

وفى صباح اليوم التالى علمت أن الوقت المحدد لوصول الطائرة هو العاشرة صباحاً، فحاولت أن أشغل نفسى بالعمل حتى أستطيع السيطرة على ما كان ينتابنى من قلق وخوف، ووجدتنى عند الساعة التاسعة والنصف داخل استراحتنا الصغيرة أقوم بإعطاء حقنة (ترترات الأنتيمون) لمساعد مفتش المركز، فريدى ماركلاند (Freddie Markland) كجزء من علاجه ضد مرض البلهارسيا، وكان يتعين علىّ إعطاء تلك الحقنة ببطء خلال عشر دقائق وبيد ثابتة، ولكن بمجرد إدخال الإبرة فى الوريد، ومع بداية تحريك مكبس الحقنة، إذا بى أسمع أزيز الطائرة فوق رأسى، مما أدى إلى ارتفاع سرعة نبضى، وأصاب يدى برجفة عنيفة. لا أدرى كيف تمكنت من إكمال الحقنة، ولكن بمجرد الانتهاء منها قفزت وفريدى إلى الشاحنة لنندفع بسرعة فى الطريق المؤدى إلى المهبط.

يا للرعب والفزع! كان أول شىء رأيناه أمامنا كتلاً من الدخان تتصاعد إلى السماء، وبدا لى أن كل مخاوفى قد تحققت، ولكن عند آخر منحنى للطريق إذا بنا نرى طائرة (الدوف) بلونها الفضى الجميل تجثم فى هدوء عند نهاية المدرج، ويحيط بها جمهور غفير من أبناء الزاندى الذين تمكنت الشرطة من

صدهم إلى الخلف. وعلى مسافة قصيرة من هناك كان يتصاعد الدخان من النار التى أمرت بإشعالها لمعرفة اتجاه الريح. تلى ذلك حفل عشاء فاخر بمنزلنا على شرف الطيار والمسئولين الذين رافقوه من الخرطوم. وبعد العشاء دعينا إلى جولة بالطائرة لمشاهدة المستوطنة من الجو. استجبت ومارى لهذا العرض، وأخذنا معنا جين التى كانت قد بلغت العامين من العمر، بالإضافة إلى فريدى وكريستين ماكلاند، وكنوع من المعاملة الخاصة أخذنا معنا أيضاً خادمينا محمد وبخيت، وركبنا جميعا على ظهر طائرة الدوف ذات الثمانية مقاعد.

أثناء تزايد سرعة الطائرة على المدرج، كنا نعلو ونهبط، ثم نرتطم بشدة على العجلة الأمامية لدرجة أننى اعتقدت أن محمل الطائرة سوف يتحطم، وتراءى لنا أن الطيار إذا وصل سرعة الإقلاع، فإن الطائرة سوف تتحطم لا محالة. كنت الأسوأ حالاً وأنا أجلس على مقعد مساعد الطيار، وأشاهد الأشجار فى نهاية المدرج تقترب أكثر وأكثر، ولكنى كنت متأكداً أن عظام أصابع الآخرين قد ابيضت تماما، فيما عدا محمد وبخيت اللذين لربما كانا يظنان أن الأمر لا يعدو أن يكون شيئاً عادياً . لم نلبث على كل حال أن تجاوزنا الأشجار وأصبحنا بعد قليل نحلق فى الجو.

كان الهبوط رهيباً أيضاً، ولكن لم يكن بدرجة كبيرة من السوء. وبعد مضى بضعة أيام تسلمت التقرير: " مهبط ليرانجو يصلح فقط للهبوط الاضطرارى"، وبعد ذلك لم تأت إلينا أية طائرات أخرى.

عندما وصلت إلى ليرانجو كان مشروع تنمية الزاندى فى مراحله الأولى، وكان يجرى بالتدريج إعادة توطين السكان فى قرى على خطوط مستقيمة داخل الغابة كل زعيم فرعى يليه زعيم فرعى، مع تخصيص قطعة أرض بمساحة كافية لكل أسرة لزراعة محاصيلهم الغذائية، إلى جانب محصول

القطن الذى كان يتم جنيه وحلجه بواسطة الحكومة فى المحلج الذى أنشئ حديثاً فى مدينة (انزارا)، وفى نفس الوقت تم التخطيط لإقامة دكاكين متنقلة لتساعد السكان على إنفاق ثروتهم الجديدة.

كان تخطيط القرى ونظافة طرق الدراجات قد جعل الإشراف سهلاً، فكان المفتش الزراعى ومساعدوه يتولون رعاية نمو القطن، ويقدمون المساعدات اللازمة فى كل ما يتعلق بالمحاصيل الغذائية، بينما اغتنمت المصلحة الطبية هذه الفرصة لاتخاذ ما يلزم من تدابير صحية. كنا نأمل أننا فيما لو استطعنا فصل إنسان الزاندى عن مخرجاته البرازية، فقد نتمكن من خفض نسبة الإصابة بمرض دودة (الأنسيلوستوما) وحالات الضعف الأخرى. لذلك طلبنا من سكان كل منزل حفر مرحاض، وكنا نقوم بزيارات تفتيشية لأجل التأكد من إطاعة هذه الأوامر. وبالفعل قام كل مجمع سكنى بحفر مرحاضه الخاص، ولكن إقناع أفراد الأسرة باستعماله كان شأناً آخر. ذلك أن الخروج فى الغابة كان بالنسبة لهم أسهل من ذلك بكثير، بل ويبدو أن البعض ما كانوا يعرفون لماذا المرحاض أصلاً! ولا أنسى قصة زعيم القرية الذى أثناء تجواله داخل قريته للتأكد من أن كل شىء يسير على ما يرام قبل الزيارة التفتيشية المرتقبة التى كان سيقوم بها مفتش المركز، إذا به يلاحظ بفزع وجود بعض الغائط فى أسفل حفرة أحد المراحيض، فما كان منه إلا أن أمر صاحب السكن بالنزول إلى الحفرة فوراً لإزالة ذلك (الشىء) المثير للقرف والاشمئزاز قبل وصول تلك الشخصية المهمة!

كان يوجه قدر كبير من الاستثمار والاهتمام إلى الزاندى فى ذلك الوقت. من بين ذلك إجراء مسح لعادات الأكل والوضع الغذائى لدى القبيلة تحت إشراف المسز/ جيرى كلويك (Gerry Culwick) التى قضت عدة أشهر فى التنقل من قرية إلى أخرى مع مساعديها العديدين الذين بذلوا جهداً عظيماً

فى تسجيل الأطعمة التى يتناولها القرويون. وقد رأيت من جانبى انه لربما يساعد أيضاً أن أقوم فى نفس الوقت بالبحث عن اى دليل يشير إلى وجود أمراض ناتجة عن سوء التغذية لدى السكان.(١)

كما كنت أهتم أيضاً بحشرة البعوض، ولذلك قمت عبر تلك الشهور بوضع قائمة بأنواع البعوض الموجودة فى المنطقة، وكنت أجلس بعد الغروب تاركا إحدى ساقى عارية، وبمساعدة البطارية الكاشفة أقوم بقبض البعوضة البالغة أثناء نزولها إلى جسمى ومحاولتها امتصاص دمى. وقد لاحظت أن معظم أنواع البعوض يمكن أن تهبط على جسمى وتشرع فى التهام وجبتها دون أن تخلف أى أثر. ولكن كان هناك نوع من بعوض الحمى الصفراء، التى علمت مؤخراً أنها تتوالد فى رؤوس أشجار الأنناس، قد سبب لى الكثير من المشاكل، وأصابتنى منها حساسية شديدة، ذلك أننى كنت أشعر بها عندما تدفع بخرطومها داخل جسمى ولن تمر بضع دقائق إلا وتظهر ندبة تهيج المكان الذى حطت فيه. استمر ذلك الوضع عدة أشهر، ثم توقف على نحو مفاجئ، فقد اختفت الحساسية فجأة كما بدأت فجأة، وهى ملاحظة مثيرة حول تقلبات الحساسية عند الإنسان.

كانت إحدى متع الحياة فى السودان هى توافر الخدم الذين يقومون بتوفير كافة الاحتياجات والطلبات الشخصية بكفاءة فائقة، وبذلك يستطيع المرء أن يمارس حياته دون الانشغال بالأعمال اليومية المعتادة. ويكفى أن أقول أنه قد تبين لى عند مراجعة دفتر حساباتى القديم أننا فى يناير ١٩٥٠ قد استخدمنا فى ليرانجو ما لا يقل عن عشرة خدامين داخل وخارج المنزل، ولم تكن كلفتهم عالية، إذ أن مرتباتهم الشهرية تراوحت بين ٢٥.٥ جنيها للطباخ و ٢٥ قرشاً لصبى المطبخ! وكان مرتبى الشهرى آنذاك ٩٨ جنيهاً.

---

(1) "A Survey of Signs of Nutritional Ill-Health among the Azande of the Southern Sudan" (Transactions R.Soc. Trop Med. Hyg. 1950, 43, P. 477)

بعد أن قضينا أربع سنوات ونصف فى ليرانجو استمتعنا بها تماماً، منحت بعثة دراسية لمدة ستة أشهر لنيل درجة طبية أعلى وهى عضوية الكلية الطبية الملكية، فغادرنا البلاد جميعنا ونحن نشعر بالسعادة لأننا سنقضى فترة استجمام طويلة بالمملكة المتحدة. كم شعرت بالارتياح عندما نجحت فى ذلك الامتحان (نسبة النجاح فيه لا تتجاوز ١٠٪ فقط). بعد ذلك علمت أنه قد تم نقلى إلى ود مدنى فى وظيفة أخصائى ثانى باطنية، وكان تطلعى إلى العمل السريرى بعيداً عن الانخراط فى المهام الإدارية يملؤنى بالكثير من التوقعات البهيجة السارة.

••

ود مدنى

لم أصب بخيبة أمل، فقد كان مستشفى ود مدنى ثانى أكبر مستشفى فى البلاد، ويستقبل سنوياً أكثر من ٢٠,٠٠٠ مريض فى عيادته الخارجية، ويحتوى على حوالى ٦٠ سريراً. كان نطاق الأمراض واسعاً، وكانت الصورة المتشددة التى يحاول الكثيرون أن يضعوا بها أنفسهم تجعل لكل يوم سحره الخاص بالنسبة لطبيب متحمس تواق للعمل.

كانت توجد لدينا مختلف حالات الدفتيريا، والتايفويد، والزهرى بجميع أشكاله، والسيلان بكافة تعقيداته، وهذا قليل من كثير. وأذكر حالة من المرض الأخير بلغت من شدتها مرحلة أصابتنى بالرعب عندما تطورت إلى حبس بول، مع تجويف فى وعاء الخصيتين والشرج تسيل من خلاله بصورة مستمرة قطرات من البول الفاسد المؤذى. لقد انطبع فى ذهنى النمط المتغير لهذا المرض بين المجموعات العرقية، وهو موضوع لا يرد له ذكر فى كليات الطب. كان الزاندى، كما ذكرت آنفاً، يحملون الأمراض المتعلقة بـ (المكورات البنية gonococcal) دون أن يبدو عليهم أى نوع من الضيق؛ حتى أنه كان من النادر

الإصابة بالتهابات الملتحمة المتعلقة بالمكورات البنية (gonococcal conjunctivitis) والعمى، بينما يختلف الوضع هنا بين العرب حيث تظهر تعقيدات المرض بصورة متكررة.

كان هناك أيضا عدد كبير من حالات الإصابة بمرض الدرن. وبما أن عصر العلاج الكيماوى بالاستروبتومايسين والأيسونيازيد لم يكن قد أتى بعد، لذلك كان النظام غير الفعال المتبع فى العلاج هو الراحة التامة والطعام الجيد. كانت معظم حالات المرض رئوية، ولذلك كنت أقضى وقتا طويلاً فى فش الرئتين بضخ كمية من الهواء فى الصدر كنوع من الاسترواح، أو بعصر العصب الحجابى.

لازالت تطوف بذاكرتى إحدى الحالات الدرامية للالتهاب التأمورى الدرنى (tuberculous pericarditis) الذى يصيب غلاف القلب. كنت أقوم مرة كل أسبوع بتقديم يد المساعدة فى عيادة الدكتور موسى، وهو طبيب عمومى يعمل فى مدينة ود مدنى. وبينما كنت هناك فى عصر يوم من الأيام، جيئ بأحد العرب فى حوالى الخامسة والأربعين من العمر، وكان فى حالة انهيار ويعانى من ضيق فى التنفس، ولون وجهه أزرق لامع، مع وجود انتفاخ فى أوردة العنق جعلها تبدو كالحبال الرقيقة فوق زاوية الحنك، مما كان يعنى بوضوح وجود انسداد بالقرب من القلب يمنع الأوردة من تصريف الدم. وبعد الفحص تأكد تشخيصى للحالة على أنها (pressure pericardial effusion) أى وجود سائل فى كيس غلاف القلب ضاغط على القلب أدى إلى وقف جريان الدم فى الأوردة. وهو أحد تعقيدات مرض الدرن المعروفة التى يندر حدوثها. كان العلاج السريع لهذه الحالة بسيطاً جداً، وقمت بإجراء اللازم دون ضجيج، إذ أننى وسط دهشة أقرباء المريض الذين كانوا يحيطون بنا تناولت أكبر إبرة كانت موجودة بحقيبتى، وقمت بغرسها مباشرة فى صدر المريض. تنهد

المتفرجون من حولى إذ بدا لهم كأننى قد غرست الإبرة فى قلب المريض، وكانت النتيجة درامية حيث تفجرت كمية من الدم الأسود عبر الغرفة، وبعدها استرخت أوردة المريض، واستعاد وجهه لونه الاعتيادى، وأخذ فى الحال يتنفس بارتياح.

غير أن نهاية هذه القصة لم تكن مرضية، فقد طلبنا من المريض معاودة المستشفى لأن هذه الحالة تتكرر فى الغالب، ولا بد من تصريف الدم باستمرار أثناء علاج المرض، ولكن مع الأسف الشديد لم يعد المريض إلى المستشفى، وسمعنا فيما بعد أنه قد توفى بعد بضعة أسابيع بعد أن عاودته تلك الحالة المؤلمة التى رأيته عليها. كم كان ذلك محزنا خاصة وأنه لم يكن هناك ما يستدعى ذلك.

كانت الملاريا معنا على الدوام، وكانت تؤدى إلى نوع من الدراما النادرة فى أوساط الأسر الأوروبية التى لم يكن أفرادها يهتمون بأخذ حبوب الوقاية بانتظام. كنا فى الجنوب نستعمل حبوب (الميباكرين) وهى مركب مغطى باللون الأصفر، مما كان يجعل لون بشرتنا أصفر كقدم البطة، ولكن استبدلت هذه الحبوب الآن بعلاجات أخرى أقل كراهية، خاصة وأن العلاج أصبح فى حالة تغير مستمر، ولذلك كنت أحاول دائماً إعطاء الأدوية الجديدة كلما وردت إلينا.[1]

كان داء السعر من أسوأ الحالات التى كنا نعالجها، رغم أن عبارة "نعالجها" قد لا تكون صحيحة، ذلك أن هذا المرض لم يكن قابلا للعلاج. وكم كان مؤلماً أن تشاهد نظرة الخوف والفزع على وجه الضحية، وتلك التشنجات المرعبة التى تصيبه فى الحلق والمرىء عندما يرى كوبا من الماء. الحمد لله لم يكن

---

(1)(A Survey of Signs of Nutritional Health-III among the Azandi of the Southern Sudan Transactions R Soc. Trop. Med. Hyg. 195, 43, P. 477)

هذا المرض منتشراً بكثرة، ولكنى قد رأيت ما لا يقل عن اثنى عشرة حالة، منها اثنتان وجدتنى منهمكا فيهما لدرجة أننى خشيت أن أصاب بالعدوى من لعاب المريض، أو أن أحتاج إلى (علاج باستير) أى عشر حقن من اللقاح المخفف تؤخذ فى جدار البطن. (أن تقوم الممرضة بإدخال الإبرة تحت الجلد بالطريقة السليمة لم يكن فى حد ذاته عملاً مريحاً، ولكن حدث فى حالتين ان أدخلت الإبرة فى العضل، وكان ذلك مؤلماً بحق حتى ولو أدى إلى الضحك). كانت إحدى هاتين الحالتين لطفلة صغيرة تبلغ من العمر حوالى أربع سنوات أحضرها والدها إلى العيادة الخارجية بالمستشفى وهى تشكو من "التهاب الحلق". عندما قمت بفحص اللوز، فوجئت بتلك النظرة المرعبة فى عينيها، فسألت والدها إن كان قد عضها كلب فأجاب: " نعم، فى أعلى الراس قبل شهر." ثم تأكد لى التشخيص المخيف بكوب من الماء.كانت ترد إلى السوق فى ذلك الوقت كميات من العقاقير الجديدة، وكنت فى العادة أحاول تجربة اى دواء لم يجرب من قبل، ولكن لم يكن ذلك مجدياً، إذ كان كل من يصاب بهذا المرض يتوفى دائماً، ولكنا على الأقل كنا نحاول تسكين ذلك الألم الممض وما يصاحبه من رعب وتشنج بإعطاء الهيروين الذى يؤدى أحياناً إلى الغيبوبة.

كان جزء هام من عملى هو رعاية الأسر البريطانية المقيمة بالمنطقة، ولم أكن فى الواقع طبيبهم العمومى فحسب، وإنما كنت مستشارهم ايضاً. اما فى الحالات الصعبة فلم يكن هناك من الجا إليه ليأخذ عنى المسئولية او يشاركنى فيها. ويجب ان اعترف ان ذلك قد تسبب فى سهرى للعديد من الليالى، غير انه كان هناك ايضا ما يعوض ذلك. اذكر جيداً اننى قد شخصت حالة التهاب سحائى لطفل بريطانى صغير كان يلعب دائماً مع طفلتنا. قمت بعمل التشخيص السريرى، ثم اجريت عملية النزل القَطنى (ثقب صغير فى أسفل الظهر)، وبعد طرد السائل وتلطيخه بنفسى على الشريحة تأكد لى تحت مجهر

(نيس Zeiss) وجود تلك البكتيريا المميزة (مكورة مزدوجة سلبية الجرام gram negative diplococcus). كان جميع أفراد الأسرة من أقرب الأصدقاء إلينا، ويمكنك أن تتصور مدى إحساسنا جميعاً بالارتياح عندما استجاب الطفل للعلاج وبدأ يتماثل إلى الشفاء التام. كانت مثل هذه الممارسات (الإجمالية) فى نظرى من أعظم الأشياء التى تؤدى إلى رضاء الطبيب عن عمله وإحساسه بتقدير الآخرين، ذلك أن اللحظات الخالدة فى الحياة هى تلك التى يستطيع المرء فيها أن يفرج عن كرب، وكم كنت أنا سعيداً بما حظيت به من تلك اللحظات التى لا تنسى.

كانت البلهارسيا من الأسباب الرئيسية للاعتلال الصحى، وكانت القنوات المائية الممتدة أميالاً وأميالاً، والتى أقيمت القرى على ضفافها هى التى توفر المناخ المثالى لانتشار العدوى بهذا المرض الذى أصبحت نسبة الإصابة به عالية بين السكان. كان الالتهاب فى الغالبية العظمى من الحالات يقتصر على المثانة والأمعاء، ويؤدى إلى حبس بول أو إسهال دموى، ولكن أحيانا يشرد البيض بعيدا فيسبب تلفاً فى موضع آخر. وأذكر حالة مثيرة لأحد القرويين فى منتصف الثلاثينات من العمر كان يعانى من شلل نصفى (كلا الساقين)، ويبدو أنه قد أصيب به تدريجياً فى العام السابق. لقد أحضر إلى المستشفى فى حالة غيبوبة بعد أن ضرب على رأسه بفأس توفى على إثرها. لم يكن الشلل النصفى لدى الشبان مرضاً معتاداً، ولكن كان يظهر من وقت لآخر، ونظراً إلى غياب الفحص عن طريق التشريح، فقد كان يعزى دائماً إلى الزهرى. كان العرب لا يقبلون تشريح الجثة ويعتبرونه مجافياً لتعاليم دينهم، غير أن تلك الحالة كانت جريمة قتل وكان لا بد من تشريح الجثة، لذلك تمكنت، بوصفى جراح الشرطة، من إجراء التحريات المطلوبة. كان واضحاً لماذا توفى ذلك الشاب. لقد ضرب بعنف فى مؤخرة رأسه، وكل ما كان بوسعى فعله لأجل

استيفاء متطلبات القانون هو الإقرار بأسباب الوفاة. غير أنه تبين لى أن تلك الحالة يمكن أن تتيح لى فرصة مدهشة إذا أردت اغتنامها. وهى معرفة الأسباب الحقيقية لتلف الحبال الشوكية لدى أولئك الشبان التعساء. كان الوقت عصرا خانق الحرارة، وكانت فكرة قضاء ساعتين فى نشر العمود الفقرى لاستخراج النخاع الشوكى ليست جذابة كثيراً، ولكنى كنت عائداً لتوى من الإجازة مليئا بالطاقة والحماس. لذلك شرعت فى العمل فوراً، وتمكنت، وأنا أتصبب عرقاً، من نشر ما بين الأقواس العصبية وأخذ العينة المناسبة من الحبل الشوكى فى قطعة واحدة متصلة. ثم قمت بغسل العينة بالفورمالين (محلول حمضى) وأرسلتها إلى هيربرت سبنسر (Spencer Herbert) أستاذ علم الأمراض بمستشفى سانت جيمس، الذى كنت أعلم اهتمامه بأمراض المناطق الحارة. ولدهشتنا معاً كان الحبل الشوكى مليئاً ببيوض بعوض المانسونيا (S.mansoni). لم نكن نحن وحدنا أول من أثبت هذا الحدث، وأعتقد أنه قد جاء وصف له من قبل، ولكن من المؤكد أنه قد أصبح مسوغاً لإعداد ورقة قصيرة بشأنه.(١)

كنت أهتم دائما بالبحوث الطبية، ومن خلال الحرية الجديدة التى توفرت لى بعد التخلص من العمل الإدارى الروتينى، شعرت أنه قد أصبح لدى أخيراً الوقت الكافى للبدء فى مشروع كبير. أضف إلى ذلك أن نجاحى فى نيل عضوية كلية الأطباء الملكية قد أثار فى نفسى طموحا للتطلع إلى أشياء عليا: الحصول على شهادة أكاديمية فوق الجامعية تكون مدعاة للفخر. الدكتوراه فى الطب (من كيمبردج) الموضوع الذى وقع عليه اختيارى فى النهاية هو (داء الفُطر المادورى Madura foot) أو ما يسمى أيضاً بـ (داء القدم الفطرى My-cetoma) وكان اختيارى موفقاً بحق. يسبب هذا المرض كائن حى يختبئ فى

(1) Transactions R. Soc. Trop. Med. Hyg. 1953, 47, P. 221

التربة، وعندما يدخل الأنسجة، عادة فى القدم أو الساق، يسبب لها تدميراً شماً. وغالبا ما يحدث ذلك من طعنة شوكة تؤدى إلى جرح تدخل من خلاله الفطريات، خاصة وأن الشوك كان يوجد بكثرة فى المنطقة، وبمجرد ان تجد لها موطئ قدم ، فإنها سرعان ما تنتشر لتلتهم وتدمر ببطء جميع الخلايا التى تكون فى طريقها. لم يكن يوجد علاج معروف لهذا المرض، ولذلك كان بتر الطرف المصاب هو النتيجة المعتادة.

إن ما جعل هذا الموضوع مناسبا للدراسة هو حقيقة أن "داء القدم الفُطرى" مع انه كان منتشراً فى السودان، إلا انه كان نادراً فى بقية أنحاء العالم، ولم يخضع للدراسة إلا قليلا. وكانت الكتب الدراسية فى طب المناطق الحارة لا تزال تعتمد فى وصفها للمرض على ورقة أعدها بوكارو Bocaro (١٨٩٣) ضمنها تحليلاً لمائة حالة فى مستشفى حيدر أباد. لذلك أتيحت لى الفرصة للقيام بعمل تكون له قيمة حقيقية حول سمات المرض السريرية، وعلاقته بعلم الأوبئة، والكائنات الحية التى تسببه. علاوة على ذلك، أننا الآن فى عصر اصبحت فيه العقاقير المضادة للبكتيريا والفُطريات ترد إلى الأسواق بأعداد متزايدة، كذلك لربما يكون بالإمكان اكتشاف علاج ينقذ أولئك المرضى التعساء الذين يقاسون من هذا المرض.

فى عام ١٩٥٢ شرعت فى دراسة وتوثيق كل حالة لداء القدم الفُطرى وردت إلى مستشفى ود مدنى، وفى شهر يونيو من ذلك العام وأثناء إجازتى بأرض الوطن، قضيت وقتاً طويلاً بمكتبة الجمعية الطبية الملكية فى الاطلاع وتسجيل الملاحظات من الأدبيات العالمية التى نشرت حول الموضوع منذ التقارير الأولى الصادرة فى عام ١٨٤٢ إلى يومنا هذا، وفى نوفمبر أقرضنى روبرت كيرك (Robert Kirk) جهازاً لحضانة البكتيريا من معامل استاك، وشرعت فى العمل بحثاً عن الكائنات المسببة للمرض. كان كيرك يتشكك فى النتائج التى سوف

أصل إليها بواسطة هذا الجهاز إذ قال لى: "سوف تنمو لديك كمية من الفطريات ولكنها سوف تكون مجرد ملوثات"، ولكن اتضح انه كان مخطئاً.

كانت كل الأعمال الخاصة بالتزريع، بما فى ذلك عمل الوسائط، تجرى فى الأمسيات داخل غرفة الجلوس بمنزلى بعد انتهاء العمل الروتينى اليومى، وكان ذلك بالنسبة لمارى تجربة مزعجة، غير أنها، على كل حال، قدمت كل مساعدة ممكنة، حتى أنها قامت بتعتيم الحاضنة بواسطة ستائر الطباعة. أما جين، وقد بلغت آنذاك السادسة من العمر، فكانت أقل مساعدة دون قصد منها. كان قد تم تصميم إحدى تجاربى لأجل توضيح أن حُبيبات الفُطريات يمكن ان تعيش تحت أقصى الظروف الحرارية على سطح التربة، ولذلك قمت بدفن عدد من أنابيب الاختبار فى أرض الحديقة على عمق بوصة واحدة، وكانت الأنابيب تحتوى على تربة مجدبة مع حبيبات الكائن الحى المسبب لمرض ورم القدم الفطرى، وكان القصد من ذلك هو اختبار حيوية الفطريات بعد بضعة أشهر. غير أن جين عثرت على أنابيب الاختبار، فقامت بغسلها وأحضرتها لى بكل فخر واعتزاز، ولكن فوجئت بأن أباها لم يسره ذلك كما كانت تتوقع.

عندما ذهبت للإجازة مرة أخرى فى يونيو ١٩٥٣ كنت قد جمعت ١٢٦ حالة، وكان العمل فى المشروع يسير على خير ما يرام، ثم حدثت الكارثة. أوقفت سيارتى (طراز ديملر) فى أحد شوارع لندن، وهى سيارة محترمة كنت قد اشتريتها مستعملة، ثم دخلت إلى الحانة لأتناول مشروباً، وفى هذا الأثناء سطا عليها أحد الأشخاص وسرق حقيبة أوراقى الخاصة التى كانت تحتوى على جميع مذكراتى حول أدبيات ورم القدم الفُطرى التى بذلت جهداً عظيما فى جمعها طوال العام السابق، والأخطر من ذلك ملاحظاتى التفصيلية حول حالات المرض منذ يناير ١٩٥٢. كان ذلك بالنسبة لى ضربة قاسية بحق أدت إلى تثبيط همتى، مما جعلنى افكر فى التخلى عن المشروع باكمله اثناء

قيادتى للسيارة فى الطريق إلى (بيرلى) فى منطقة (نيو فورست) حيث كنا نقضى إجازتنا. غير أنى تذكرت أن تى. إى. لورنس(T.E. Lawrence) كان قد فقد مؤلفه الشهير (أعمدة الحكمة السبعة The Seven Pillars of Wisdom) ، فإذا كان قد استطاع أن ينهض من جديد، فأنا كذلك سوف استطيع، خاصة وأن أدبيات الموضوع لا زالت متوفرة ويمكن دراستها مرة اخرى، كما أن السجلات الخاصة بالـ ١٢٦ حالة لا زالت موجودة بالمستشفى. وهكذا كانت خلاصة كل ذلك أن جاءت أطروحتى النهائية أفضل مما كانت ستكون عليه فى السابق، بالرغم من أن تسليمها قد تأخر ستة أشهر. لقد استطعت أن أعود إلى الوراء لألقى نظرة طويلة على كل ما أنجزت، فازدادت معرفتى بالموضوع، وأفلحت فى أن أعيد صياغة العمل من جديد فى شكل مناسب أفضل. وبحلول شهر يوليو من عام ١٩٥٤ كانت الأطروحة قد اكتملت مغطية ٢١٢ حالة، وكانت أطول سلسلة تنشر آنذاك. لقد استطعت أن أعزل داء القدم الفُطرى من ٤٤ حالة، ومن خلال وصفى لهذه الحالات تمكنت من أن أشرح بوضوح كيف أن عدداً كبيراً من الكائنات الحية، التى أطلقت عليها أسماء معينة واعتبرت هى المسببة للمرض، قد انخفضت إلى قائمة من المترادفات. كذلك قمت باختبار بعض المضادات الحيوية وتمكنت من إجلاء المبحث الوبائى لذلك المرض.

قدمت أطروحتى، وكم كنت فخوراً باختيارى دكتوراً فى الطب لدى جامعتى القديمة.

استكمالاً لقصة هذا الجزء من البحث، وبعد عامين من مغادرتى السودان والتحاقى بكورس لنيل دبلوم طب المناطق الحارة قبل التحاقى بشركة شل، دعيت لإلقاء محاضرة بالجمعية الملكية لطب المناطق الحارة، ويسعدنى أن أقول أنها قد لاقت صدىً طيباً، ثم جاءنى الاعتراف الأكبر عندما دعيت فى عام

١٩٥٨ لقراءة ورقة عن مرض ورم القدم الفُطرى أمام المؤتمر العالمى السادس لطب المناطق الحارة بمدينة لشبونة.(١) وبعد ذلك وجدت أنه قد اقتبس منى فى كل مقال نشر حول هذا الموضوع، وبخاصة فى الكتب الدراسية المقررة لدراسة طب المناطق الحارة، وأمراض الفُطريات Manson's Tropical Diseases,Conant's Manual of Cinical Mycology كما علمت أنه نتيجة لهذا العمل الذى قمت به فى مدينة ود مدنى أننى أنا الذى قمت بكتابة الورقة الرئيسية حول الموضوع.(٢)

أثناء العام الأخير من خدمتى بحكومة السودان، كان المشهد السياسى يتغير بسرعة، ووضح أن نهاية الحكم الثنائى ستأتى فى غضون شهور معدودة وليس بعد عشرين عاما كما كنا نتوقع جميعاً. وفى أثناء ذلك العام استدعيت للمساعدة فى أمرين كانا خارج واجباتى العادية؛ فقد عينت ممتحناً خارجياً فى كلية الطب بالخرطوم، كما منحت إجازة غياب من المستشفى للقيام بتصنيف "الدليل الوطنى للوصفات الطبية بالسودان".

سعدت كثيراً بهاتين المهمتين، فبعد أن قضيت عمراً طويلاً وأنا أجلس فى الطرف المستقبل لأسئلة الممتحنين، إذا بى أستمتع الآن بالجلوس فى الطرف المقابل على الطاولة بجانب صديقى البروفسير مورغان (Morgan) الممتحن الخارجى بجامعة الخرطوم.

أما المهمة الثانية الخاصة بتاليف وتصنيف ونشر "الدليل الوطنى للوصفات الطبية بالسودان"، فلم يكن أمراً سهلاً، ذلك أنه بخلاف ما هو حادث اليوم حيث أصبحت معظم العقاقير فى شكل حبوب تقوم شركات الأدوية بتصنيعها وتوزيعها على الصيدليات والمستشفيات لتكون جاهزة لاستعمال المريض، أما

(1) Proceedings of VITH Internat. Congress Trop. Med. and Malaria, 4, 565

(2)Transactions R. Trop. Med. Hyg. 1956, 50, PP 11-30

الملاج للمرضى، حيث كان يتم تجهيز الدواء فى أجزخانات المستشفيات فى عام ١٩٥٥ فكانت زجاجات الدواء السائل هى الطريقة المعتادة لإعطاء ويرسل إلى الشفخانات فى الأرياف. لذلك كان من المهم إيجاد وصفات قياسية للأدوية المزيجية التى كانت تستعمل بكثرة، مثل المزيج المسكن للكحة، ومزيج وقف إسهال الأطفال وهكذا. كان العمل المناط بى هو توفير هذه الوصفات القياسية وإدخالها فى دليل للاستخدام الوطنى. ويمكنك أن تتصور تباين الآراء القوية التى كانت ترد من الأطباء حول الأدوية التى يصرفونها، وقد شاركت فى الكثير من الجدل الذى كان يدور فى هذا الخصوص. كذلك كانت تسمية العقاقير تسبب بعض الصعوبات، ذلك أنه لأجل التأكيد على أن الطب هو مهنة تعلمية، فقد ظلت الوصفات الطبية منذ عصر قديم تكتب باللغة اللاتينية، أما بالنسبة لى فقد ارتأيت أنه قد حان الوقت لإلغاء هذا النظام خاصة فى السودان، ولذلك وضعت الدليل الجديد بناء على هذا المفهوم، وأصبحت بذلك عرضة لانتقادات شديدة من البعض.

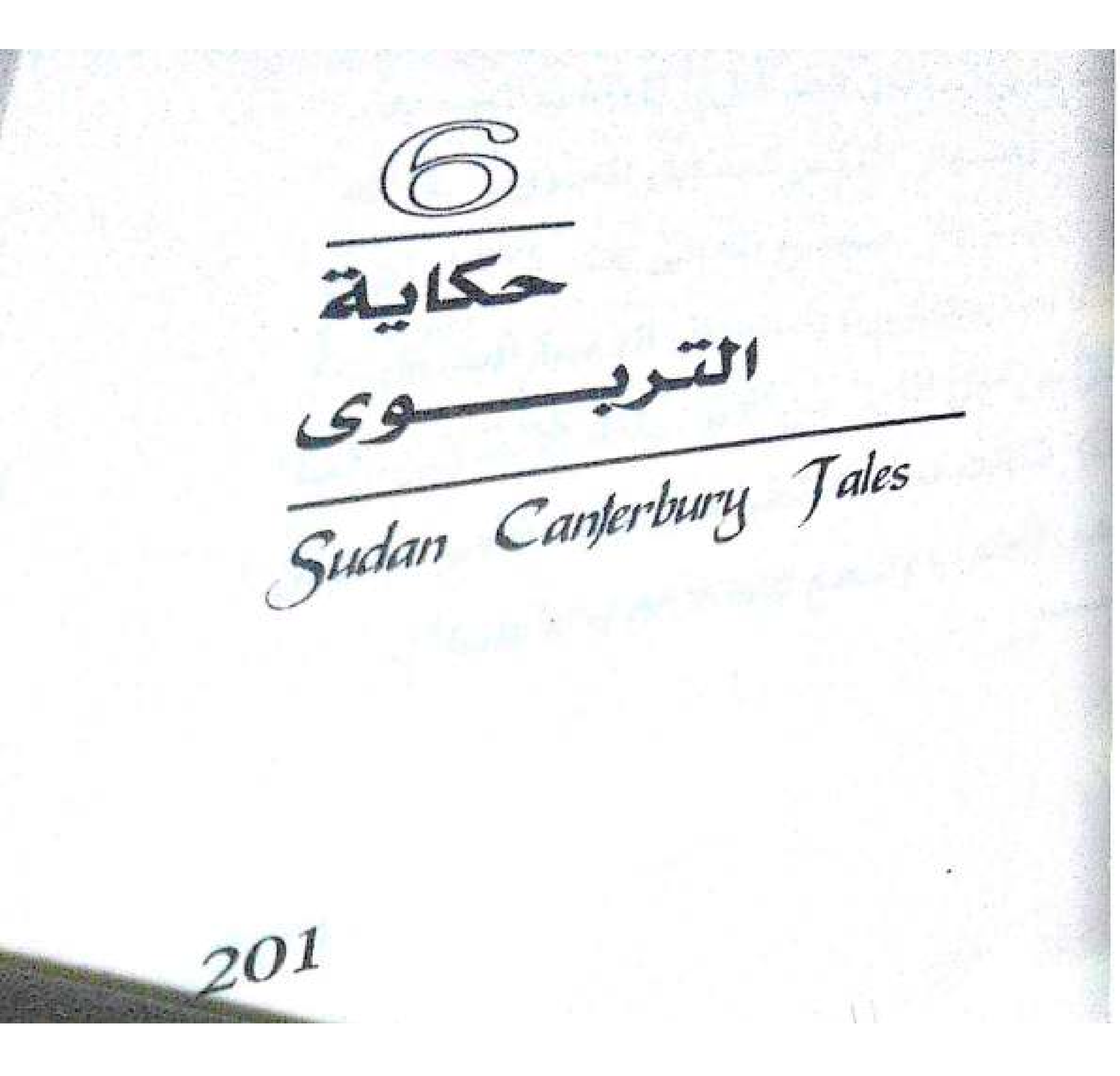
تم نشر دليل الوصفات الطبية وتوزيعه قبل مغادرتى البلاد بقليل، وكنت أود أن أعرف إلى أى مدى وجده الناس مفيداً، وكم من الزمن ظل مستخدماً.

جاء وقت الفراق على عجل. لقد أبدى عدد من الموظفين البريطانيين استعدادهم للبقاء فى السودان والعمل تحت رئاسة أولئك السودانيين الذين كانوا حتى ذلك الوقت يتدربون على أيديهم. وكان مما يدعو إلى السرور أنه بالرغم من التوتر الذى حدث أثناء حملة الحكم الذاتى، إلا أنه من المدهش أن الحقد كان قليلا، وقد غادرنا السودان بروح حسن النية المتبادل. واعتقد أنه يمكن أن نقول بإنصاف أن معظم السودانيين، خاصة رجال القبائل فى المديريات قد أسفوا لفراقنا، وحتى أولئك المتعلمين من سكان المدن قد بدا عليهم الحزن لمغادرتنا البلاد، وقد دعينا للكثير من حفلات الوداع من كافة الأطراف.

بدأت رحلة عودتى إلى الوطن من بورتسودان، وكنت قد أخذت سيارتى معى على السفينة إلى بيروت، ومن هناك سافرت بها عبر آسيا الصغرى عائداً إلى انجلترا. وأنا اتكئ على جانب السفينة وأشهد الساحل السودانى يتلاشى بعيداً، تساءلت مع نفسى: ترى هل ستكون الأعوام الثلاثة عشر القادمة مثيرة للاهتمام ومليئة بالسعادة كتلك التى قضيتها فى السودان ؟!

بيتر أبوت (Peter Abbot)

■■■



6

حكاية التربوى

Sudan Canterbury Tales

«إن طول وتنوع عبارات التحية الممكن استخدامها تتميز بأنها تمنع ذلك الارتباك الذى ينتاب المرء عند أول لقاء له بالآخرين كما توضح .... متعة اللقاء بين شخصين».

فى. إل. جريفث وعبدالرحمن على طه

«عادات المجاملة السودانية»، ١٩٣٦.

••

كان الشخصان اللذان تعرفت بهما على ظهر السفينة عبر البحر الأبيض المتوسط فى طريقنا إلى السودان مهندسين، ويبدو أنه كان فى مقدورهما أن يتعاطيا كمية كبيرة من الويسكى (الاسكوتش) أثناء جلوسنا معا فى فرندة فندق شبرد بالقاهرة فى شهر نوفمبر من العام ١٩٣٩، وكنت أحاول مجاراتهما. كنت فى طريقى لأن أصبح "معلماً" بكلية غردون، المدرسة الثانوية الوحيدة آنذاك التابعة لحكومة السودان. "جميع هؤلاء المدرسين يلبسون (صنادل). المراقب الجديد، كثبيرت سكوت[1] (Cuthbert Scott) (مفتش المركز السابق المعروف بآرائه الليبرالية)، لماذا ! إنه حتى لا يريد أن يضربهم". صحيح أنه فى عام ١٩٣٩ فقط أصبح يسمح لضباط الداخلية (معظمهم بريطانيون) باستعمال العصا(البسطونة) ،وكان سكوت يمارس ضغطا مثمراً من أجل المزيد من الانضباط الإنسانى. أما سلفه، دوجى يودال (Dougie' Udal) فكانت معاملته لطيفة وبخاصة مع الشبان المتفتحين، وكان مبداه الأساسى هو: (إضرب وشجع Beat and promote)

(١) انظر الملحق «ب».

كان كثيرت سكوت شخصية خلافية بالتأكيد. كان أحياناً يلبس صندلاً وهو يقود سيارته القديمة طراز (فورد إيه "A") وكان حبه للناس عميقا، وشخصيته مزيجاً من الفضول والشاعرية والسخرية، وهو سلوك غير معتاد بالنسبة لزملائه الآخرين الذين يعملون فى "الخدمة السياسية"، وكانت لغته العربية جيدة جدا، بالنسبة له كناطق بالانجليزية، ويستطيع أن يُدرسها بطريقة تثير الإعجاب، ذلك أنه كان يرى كلا وجهى المسألة ولا يقتصر على تدريس اللغة فقط، بل كان يلم كذلك بالنواحى الثقافية والاقتصادية المحيطة. لا أعتقد أننى قد أحببت رئيساً آخر بقدر حبى له، مع أن حبى لتافى جريفس (Taffy Griffiths) كان لا يقل عنه كثيراً.

كان بضعة من المعلمين البريطانيين فى كلية غردون شبه أعضاء فى "الخدمة السياسية" منهم: دينس هبرت (Denys Hibbert) بضحكته المجلجلة، وآلن ثيوبولد (Alan Theobald) بقامته الطويلة ورؤيته الثاقبة التى اكتسب بها تقديراً متزايداً من أصدقائه السودانيين، وفارغارسون لانج (Farquharson Lang) بوقارة وومضة عينيه اللطيفة. كان المتظاهرون يهتفون: Hang Lang (اشنقوا لانج) وهم يطوفون حول مدرسة وادى سيدنا التى كان هو ناظراً لها فى الخمسينات، ولكن كان معظم أولئك المتظاهرين عندما يكونون لوحدهم، أو بعد تفكير وترو يتحدثون عنه بكل الحب والإعجاب. سأذكر فى هذه الحكاية القصيرة أسماء القليلين من أولئك الرجال، ولكن هناك العشرات بل المئات الآخرين من السودانيين والسودانيات، والبريطانيين، والقليل من المصريين الذين كانوا ينعمون (بمتعة اللقاءات الشخصية)، وبالعمل معا.

يمكن تصنيف الموظفين البريطانيين فى السودان بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وفقاً لرؤيتهم تجاه متى نسلم السلطة للسودانيين. كان أصدقائى المهندسين مثلاً يرون أن ذلك لن يحدث إلا بعد خمسين سنة، بينما كان

زملائى بحكم صلتهم اللصيقة بالشباب السودانى يقولون بعد عشرين سنة، ولم يكن هناك من يرى أن ذلك سوف يحدث بعد عشر سنوات سوى الطلبة أنفسهم.

كان هناك قسم آخر، أو قل نوع من التدرج بين المعلمين الأجانب، فكان هؤلاء يقولون إنهم أتوا أساساً لتدريس "مادتى"، ثم أولئك الذين كان إدراكهم يتزايد بحجم مشاكل التأقلم التى كانت تواجهنا: التأقلم على ذلك الخليط الذى يتميز بتنوعه وثرائه الثقافى فى بلد يعانى من مشاكل عميقة، ويواجه احتمالات الانقسام. لقد اكتسبت المدارس الثانوية (كانت هناك بضعة مدارس جديدة) قيماً حميدة من الأولين المتخصصين. أما بخت الرضا (تدريب المعلمين وتطوير المناهج)، ومكاتب مفتشى التعليم بالمديريات، فقد تبنوا موقفاً أكثر تكيفاً واعتماداً على التجربة. واستطاعت جامعة الخرطوم المزدهرة أن تجتذب إليها من هؤلاء ومصادر أخرى العديد من الموهوبين، وخير مثال على ذلك بيتر هولت (Peter Holt) وألن ثيوبولد Theobald Alan ، وريتشارد هيل (Richard Hill) . وهو شخصية متعددة الثقافة أتى من السكة الحديد . ولكن يحتاج الأمر إلى تأليف كتاب عن جامعة الخرطوم التى خلفت كلية غردون القديمة.

مع نهاية الحرب بدأ ينمو زخم جديد، الا وهو التوسع فى تعليم البنات. فى عام ١٩٣٩ وصلت إنا بيسلى (Ina Beasely) لتعمل كمراقبة جديدة، ويحكى كتابها (قبل تغير اتجاه الريح "Before the Wind Changed" الكثير من تفاصيل هذه القصة. وفى عام ١٩٤٤ تم نقلنا نحن معلمى كلية غردون (الثانوية) إلى أم درمان، وفجاة سمعنا أن هناك خمس معلمات بريطانيات على وشك الوصول، وكان ذلك بالنسبة لنا نبأ مثيراً . وتم تعيين حوالى اثنتى عشرة معلمة جديدة خلال الأعوام الثلاثة التالية، وكان القصد من ذلك هو تعزيز

مدارس البنات الوسطى بالمديريات (١١-١٥) ببعض المعلمات الأجنبيات اللاتى أصبح بعضهن مفتشات بالمدارس الأولية، وعملت إحداهن، اليزابيث ريتشاردز (Elizabeth Richards)، التى تزوجت فيما بعد من لويس براون، فى تعليم الكبار بين القرى المجاورة لبخت الرضا لإجراء التجارب التعليمية، ثم نقلت أخيراً إلى الجزيرة. كان مطلوب منهن جميعاً تعلم اللغة العربية، وبصرف النظر عن ذلك لم يتلقين إلا القدر القليل من التوجيه والإرشاد. هذا وقد ساعد بعض مفتشى المراكز وزوجاتهم، وعدد من السودانيين (مثل بعض أفراد عائلة بدرى الذين كانوا يعملون فى وظائف مختلفة) الوافدات الجدد ليكن مقبولات وفاعلات فى المجتمع. وفى هذا الخصوص لا يفوتنا أن نذكر الشيخ بابكر بدرى شخصياً الذى أصبح قبل ثلاثين عاماً من الرواد العظام فى مجال تعليم البنات، والتعليم الأهلى للبنين.[١]

كان لويس براون معلما ممتازا بدرجة غير عادية: منفتحا، ونشطا، ومسليا، وإنسانيا، ولكن لغته العربية كانت متعثرة. ثم أصبح فى عام ١٩٤٦ ناظراً لمدرسة حنتوب الثانوية الداخلية الجديدة التى تقع عبر النيل الأزرق من ود مدنى على الضفة اليمنى، وكانت تمثل القدوة منذ تأسيسها حتى تقاعده فى عام ١٩٥٥. اشتهر براون بأنه هو الذى اكتشف جعفر نميرى كالفة للفصل و(كابتن) فى كرة القدم.[٢] وبعد تقاعده بقليل أصبح معلماً للفيزياء بكلية لانسنج (Lancing College)، ثم رئيساً لشعبة الفيزياء بالكلية لفترة من

(١) انظر سيرته الذاتية التى كتبها فى مجلدين، وقام بترجمتها جى. سى. سكوت وبيتر هوج. المجلد الثانى يحتوى على مقالة نقدية مفيدة حول سياسة التعليم البريطانية كتبها جى. أن ساندرسون.

(٢) أصبح نميرى رئيساً للجمهورية وديكتاتوراً (يسارياً) خلال سبعينيات القرن الماضى. دعينا، براون وأنا، لحضور العيد الأول لانقلابه العسكرى (١٩٧٠). كان القذافى (الذى استمر مدة أطول فى الحكم) يجلس فى الصف الأمامى ويشاهد عرض الدبابات الروسية، بينما كان لويس براون يتهامس مع نميرى.

الزمن. لقد رويت عنه الكثير من القصص الأسطورية التى نبعت من تلك الحكاوى التى كان يرويها فى الفصل وغرفة المعلمين، وكان ٩٥% منها حقيقياً كما يجب أن تكون حكاوى المعلم الجيد، وكانت جميعها تقريباً تحكى عن أيامه فى افريقيا: سحب الوطاويط التى تخرج من داخل حفرة مرحاض كان لا يزال مستعملاً، تسافد الإبل وطريقة هضمها، نباتات رونزورى (Ruwenzori) العملاقة، شجر الإكسير الذى ينمو على قمة جبل كسلا (التسلق الأول) والسلوك الشاذ لقطرات الماء.[1]

أثناء سنوات الحرب كان براون، إلى جانب وظيفته كضابط فى قوة دفاع السودان المساعدة، عضوا قيادياً فى اللجنة الاستشارية التى وضعت ما عرف بـ (خطة براون) وهى عبارة عن تصور لزيادة كبيرة فى المدارس الثانوية الصغرى(١٤ - ١٦) بحيث تكون أوسع انتشاراً، وأكثر انحيازاً للتعليم المنتج: زراعى، وصناعى .. الخ. غير أن الرأى العام للمثقفين السودانيين، الذى بدأ يُستمع إليه، كان يرى أن تكون هذه الخطة (الثانية فى الأسبقية)، وكانوا يطالبون بالمزيد من المدارس الأكاديمية. وكان أحد كبار السودانيين الذى قام بزيارة إلى انجلترا يرى أن إيتون (Eton) "على الخط الصحيح" ثم اتضح فى النهاية أن هناك بصمة لكل من إيتون وغوردونستون (Gordonstoun) فى حنتوب والمدارس الداخلية الأخرى. كانت الأهداف أوسع بكثير من مجرد إنجاز أكاديمى، غير أن موقف المعلمين البريطانيين كان يتناقض نوعاً ما مع التربية الأخلاقية والروحية لصفوة البلد فى المستقبل، وذلك لشىء واحد هو أننا نجهل الكثير عن الإسلام، وكنا نعترف بذلك، ولهذا قنعنا بترك الجانب الدينى الصارم للشيوخ معلمى اللغة العربية والدين (لابسى الجلاليب). أما

---

(١) لقد تسلقنا جبل كسلا فى ديسمبر ١٩٤١، وكان تسلقاً شاقاً استغرق زمناً طويلاً. ثم كررنا التجربة فى عام ١٩٤٢ مع اثنين من طلبة الثانوى، ولا أعرف بعد ذلك غير تسلق واحد تم فى الستينيات. لم تكن شجرة الأكسير لذيذة الطعم.

معظم تلاميذنا فكان ينمو فى أذهانهم توجهان لا لبس فيهما: توجه ثقافى دينى، وآخر يرنو إلى المعارف الغربية العلمانية المفيدة. غير أن ما كان يوحد بين سائر المعلمين فى هذه المدارس وبخت الرضا رغم تنوعهم الثقافى هو قليل من الكياسة والدعابة، مع درجة عالية من قول الصدق عن شئون المؤسسة التربوية، وضمن هذا المفهوم إيمان راسخ مشترك بمواهب أبنائنا الطلاب الذين نعمل ونلعب معهم، وأحياناً نخرج معهم فى رحلاتهم المدرسية.

كان من متناقضات لويس براون ذلك النزاع بين التعاليم المسيحية المنهجية التى يؤمن بها فى أعماقه، وبين ماديته العلمية التى كان يعلنها ويجاهر بها، وكان ينطلق فى جدله، خاصة مع زملائه البريطانيين، من الفلسفة الإنسانية الإلحادية. لم يكن يضعفه هذا التناقض، بل كان مناسباً له للعمل بمزاج انفصامى، فيكون متشدداً ومعقولاً فى الأمور العملية، ويميل إلى السخرية والتشكك فى المسائل الأكثر عمقاً، ولكن حتى ذلك الصبى الأعور (المراسلة والعبد المعتوق قد شهد له بالاستقامة. كانت لوجبة الغداء فى حنتوب شعائرها الخاصة: يتجمع كل الطلبة. طرق بصوت مرتفع. نقف جميعاً. صمت. ابتهال دينى. "دعنا .. نبدأ". إنها تعبير علمانى مشترك عن الزمالة وحسن النظام له جذوره فى الشرق والغرب معاً.

يمكن القول كنوع من الاستدراك المتأخر أنه لم يكن هناك ما يبرر إنشاء تلك المدارس الداخلية المكلفة. هل كان من الأفضل لنا جميعاً أن تكون هناك مؤسسات تعليمية كبيرة اقل عزلة واقل تكلفة؟ لا أدرى. كانت قضية وضع كليات المعلمين الأولية أقوى بكثير، ذلك أن معلمى المدارس الأولية كانوا بحاجة الى إعدادهم للعيش فى الأرياف أو المدن الصغيرة، ولذلك كان منهج المدارس الأولية بأكمله، وجميع الكتب المدرسية المبسطة التى تدعمه، تسير فى هذا

الاتجاه.[1] كما كانت أغلب الأنشطة العملية التى يقوم بها التلاميذ تتركز على الزراعة والعمل معاً فى مجتمع ريفى صغير.

مرة أخرى إذا نظرنا إلى الوراء، يتضح لنا أنه ما كان يمكن على المدى البعيد مقاومة القوة الجاذبة إلى المناطق الحضرية الغنية، وإلى المهن الكتابية ذات المردود النقدى خاصة بالنسبة لغالبية الطلاب الموهوبين. إن إيجاد نخبة ذات جودة عالية كما كانت تهدف إليه المدارس الثانوية القليلة العدد آنذاك، وإيجاد صفوة متعلمة فى الريف كما كانت تهدف إليه بخت الرضا، إنما هو عمل يمكن أن تقوم بتعزيزه وإطالة بقائه إمبريالية خيرة، وليس أمة جديدة تناضل بجسارة وتنافس، وهذه قصة تتشابه فى جميع بلدان العالم النامى فى مرحلة ما بعد الاستعمار، وهى من التعقيد بحيث تصعب مناقشتها هنا. فى ذلك الوقت كان الصراع الروحى الخفى، والكثير من المشاكل الاجتماعية - الاقتصادية التى كانت تلوح لنا تشغل أذهاننا كثيراً، وقد بذلنا بعض المحاولات لمكابدتها والصراع معها.

كان فى. إل. قريفث وبخت الرضا. تلك القرية الطوباوية التربوية الموبوءة بالملاريا، والواقعة على السهول المنبسطة التى يغمرها فيضان النيل الأبيض، كلاهما مشتبه فيه من وجهة نظر أهل المدن والمدارس الثانوية. لماذا - على سبيل المثال - تحصل بخت الرضا على أفضل المعلمين السودانيين؟ ولماذا تحصل فى الغالب على مال أكثر؟ ولماذا تحظى باهتمام واعتراف عالميين كبيرين؟ وهل إطلاق اسم "معهد التربية" عليها كان متكلفاً ومصطنعاً؟ أولاً، كان قريفث يعرف جيداً كيف يدير علاقاته العامة، ولكن كان يخدمه فى الرئاسة

---

(1) خير مثال على ذلك - فى رأيى - هو كتاب «سبل كسب العيش فى السودان» الذى يصاحبه دليل للمعلم مليء بتفاصيل مفيدة عن تسع عائلات ريفية وثلاث حضرية، مع الرسومات والخرائط لتلاميذ السنة الثالثة بالمدارس الأولية. وضع الكتاب فريق من الأساتذة، وصمم الرسومات بإتقان جرينلو (Greenlw).

شخص يعمل فى الظلام (جيمسون Jamieson). كما كان الانحياز للريف فى أحسن حالات التناغم، ويجد سنداً قوياً من مفتشى المراكز. كذلك كان معلمو بخت الرضا يشجعون على الإكثار من السفر إلى الأقاليم لأجل متابعة خريجيهم".

كما أنه قد حدث ضمن هذه العلاقات العامة الجيدة أن جان بيير جرينلو (Jean Pierre Greenlaw) الذى لربما كان يعتبر متطفلاً على الفنون، ويلبس صندلاً، كان يجلس فى فرندة مفتش مركز سنكات أو الفاشر ويعزف على جيتاره ويغنى بعض الأغانى الفرنسية.

وبالرغم من تلك العلاقات العامة العارضة، فقد استطاع قريفث أن يقرن اهتمامه الشديد بالتفاصيل بنوع من مثاليات الحياة البسيطة. لقد زار خلال إجازاته، التى كان قبل الحرب يقضيها فى الهند، المعتزلات الدينية لكل من طاغور وغاندى، ودرس جميع مؤلفاتهما. كان له شبه قليل بالضفدعة، ولكن مع لمسة من شخصيته التبشيرية، وذوقه الفنى الرفيع، إلى جانب خبرته فى اختبار الأطعمة والمشروبات. وكانت بخت الرضا هى الجزء المؤسسى الوحيد فى المصلحة ووزارة المعارف التى كتب عنها كتاب فى هذا الشأن، وهو الذى ألفه بعنوان "تجربة فى التربية (Griffiths's 1953 An Experiment in Education وتكملته بعنوان: "التركيز على المعلم" (Teacher Centred) وهما مثال حى، بل واعتقد انهما وصف صادق لكل التجارب التى كانت تجرى هناك فى "محطة التوليد التربوية".

كانت أهدافها المركزية تنعكس فى هذين الكتابين؛ تجربة محسوسة شارك فيها بعض من أفضل المعلمين السودانيين، وتركيز على تزويد جميع المعلمين بأفضل المهارات والأدوات (الكتب والوسائل التعليمية) التى يمارسون بها هذه المهارات. لقد ظلت بخت الرضا منذ سنواتها المبكرة المجدبة تحاول أن يكون

تحقق جميع الأشياء الجيدة فى التربية بعيدا عن المدن النهرية إلى القرى البعيدة. لقد تم تأليف ما يربو على ٢٠٠ كتاب وكراسة باللغة العربية (كتب تلاميذ وأدلة معلم) ولكن قد فقد معظمها الآن.[١]

كانت هناك أيضا مكتبة بريدية تخدم المعلمين فى شمال السودان، إلى جانب الدورات التدريبية أثناء الخدمة التى كانت تعقد لقدماء المعلمين للحفاظ على تعاطفهم ومواكبتهم.

بالرغم من اتجاهات تافى قريفث وعبد الرحمن على طه المعتدلة أو لربما بسببها، فقد كانت هناك بعض الانتقادات. قيل إنها تنزل من الأعلى إلى الأسفل. علمانية جداً. متعجلة جداً. غربية جداً. غير أن المرء يستطيع أن يرى الآن (١٩٩٦) أننا كنا نقلل من تأثير القوى المعاكسة. ذلك المد المتزايد للإسلام المسيس، بالإضافة إلى تهديدات الاضطرابات الجنوبية. وأذكر جورج جانسين- سميث (George Jansen-Smith) المدير الكاثوليكى الذى كان يعمل فى الجنوب وهو يتحدث فى ذلك الوقت المتأخر من المساء بذكائه الحاد، عن تلك الأشياء فى بخت الرضا، وعن الحاجة إلى المزيد من الحوار بين المؤسسات الشمالية والجنوبية، وأهمية توضيح وتدريس المبادئ المشتركة بين مختلف العقائد والثقافات، وكذلك الأفكار مثل إنسانيتنا المشتركة، وبحثنا المشترك عن الحقائق العميقة. كانت إحدى نتائج هذه المناقشات أننى قمت بتأليف كتاب عن التوترات والمبادئ التى تشكل الأساس للتدريس الثقافى الشامل، والأوضاع التعليمية المختلفة بعنوان "التربية والتغيير" (Education and Change, Oxford University Press,1957).

---

(١) توجد قائمة كاملة باللغتين العربية والإنجليزية وتتوفر كذلك مجموعة مختارة بالمصادفة، لربما من ربع عناوين الهدايا التذكارية الخاصة بجريفس وشخصى، فى أرشيف درم (Durhm Archives) ولكن أشك فى وجود أى منها فى الخرطوم أو بخت الرضا.

لم يكن أى منا يؤمن بالخرافات، ذلك انه فى تلك الأمسية أصيب مكتبى فى الحديقة بصاعقة واحترق باكمله، وكان كل ما فى وسعنا فعله هو ان نتفرج فقط.

يفترض أن تكون هذه الحكاية عن تجارب ومساهمات المعلمين الأجانب بالسودان الذين لا يستطيع المرء أن يتحدث عنهم دون أن يتذكر نوعية زملائنا السودانيين. إننى أذكر واحداً أو اثنين من بخت الرضا رغم أن الحكاية تتناول أيضاً عدداً من المؤسسات الأخرى. كان هناك نصر الحاج على (أصبح مديراً فيما بعد وسر الختم الخليفة (أصبح رئيس وزراء لاحقا)، وعبد الله وجريزلدا الطيب، وجمال محمد أحمد، وعبد اللطيف عبد الرحمن، وفى تاريخ مبكر، مكى عباس الذى اشتهر فى العديد من المجالات. فى حوالى عام ١٩٤٥ تم تعيين عبد الرحمن على طه نائباً للعميد وبذل جهداً عظيماً فى الترجمة والتأليف المشترك مع فى. ال. قريفث، ثم أصبح فيما بعد أول وزير للمعارف. كذلك برزت أسماء العديد من البريطانيين: جرينلو (Greenlaw) برسوماته الرائعة، إضافة إلى مؤلفاته الموسيقية، ومدرسته المتخصصة فى التصاميم (واصلتا نجاحهما بعد مغادرته)، أو جون برايت (John Bright) الذى أصبح من الرواد العالميين فى مجال تدريس الإنجليزية كلغة أجنبية، وفى نفس هذا المجال آر. إتش. درم (R.H. Durham) بكلية المعلمين الوسطى. إننا ندين لأمثال هؤلاء لمواهبهم وضخامة أخذهم وعطائهم.

هل كان كل ذلك مخططاً له؟ نعم جزئياً. فى السنوات الأولى لإنشاء بخت الرضا، كان تافى قريفث يجلس فى مكتبه الصغير الملحق بمنزله المبنى بالطوب الأخضر ليقوم بفرز وتصنيف أفكاره الخاصة، وتلك الواردة من الآخرين، ثم يحدث فيما بعد نقاش مطول عقب إفطار جماعى متأخر لوضع الخطة التى يسجلها بخط يده الأنيق على صفحات مفكرته الزرقاء لتصبح بعد ذلك "خطة

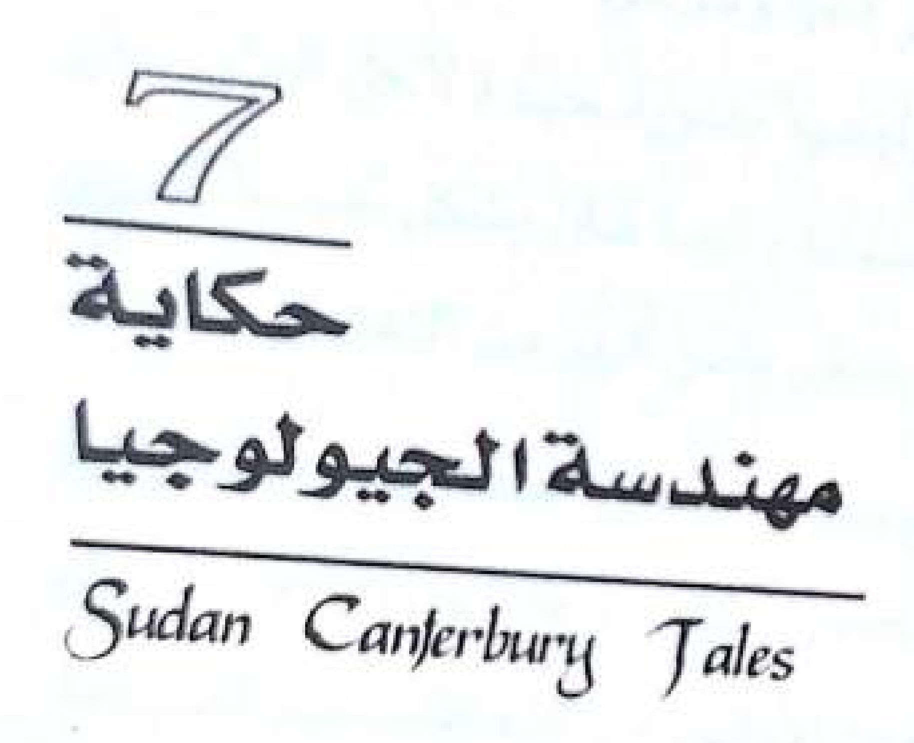
لعمل الأسبوعية. ثم يكتب قائمة بالأشخاص الذين سيقابلهم فى مختلف
أقسام المعهد، مع الشكاوى التى وردت فى الأسبوع السابق، والتقارير الواجب
كتبها، والكتب المطلوب مراجعتها أو الإرسال فى طلبها. كان هناك قرد صغير
مربوط على عامود خارج المنزل يسمى مفى (Maffey) على اسم حاكم عام
سابق، وهو نفسه الرجل الذى قام فى العشرينات بوضع سياسة نقل السلطة
إلى الإدارة الأهلية التى انحازت بيعد نظر إلى ضرورة تأسيس بخت الرضا فى
وقت كانت تعانى فيه البلاد من تخفيضات اقتصادية. كان تافى، مرتدياً
ملابسه غير الرسمية، يرمقك بنظرة جانبية، وهو يتصبب قليلاً من العرق (لا
كهرباء ولا مراوح) ثم يقذف إليك بسيل من الأسئلة مسجلا "الإجراء" فى
مفكرته الزرقاء: "ما هو الهدف؟ كيف ستحصل على المال اللازم؟ كيف سيكون
وقعه على السودانيين؟" وبعد ذلك لربما يتفق معك على أنه يجب، على الأقل،
محاولة القيام بشىء ما. ولكن من الأفضل التشاور أولاً مع عبد الرحمن على
طه، أو شيخ أحمد ناظر مدرسة التجريب والتدريب. كان أول عمل أسند لى
تحت رئاسة قريفث هو البدء فى إنشاء مكتب النشر الذى كان يتولى إصدار
بعض الكتب الأدبية للصغار الذين تركوا المدرسة، بالإضافة إلى تنسيق أعمال
النشر الأخرى الخاصة بالمعهد. تولى مكتب النشر كذلك إصدار "الصبيان"
وهى مجلة نصف شهرية نالت شهرة واسعة. وفى عام ١٩٤٩ أصبحت عميداً
للمعهد خلفاً لقريفث، وبقيت هناك مع اليزابيث (إحدى أولئك المعلمات)
وأطفالنا الثلاثة حتى تقاعدنا فى عام ١٩٥٥.

كان قريفث، مثل سكوت وبراون والكثير من المعلمين الآخرين، ينظرون إلى
"رسالتنا الإمبريالية" بنوع من السخرية. كم من الزمن سوف تستمر؟ هل
ستبقى تلك المبادئ الأساسية (الصداقة، والعدل، والعمل الصادق، والبحث
عن الحقيقة)؟ كان رائعاً أن نقوم بكل هذه الأشياء المثيرة التى كانت تبدو لنا
صائبة آنذاك، ويحتمل أن تظل كذلك فى المستقبل. ولكن قد يتساءل المرء

وقتها. ولا زلت أنا أتساءل: لماذا نحن؟ إنى أفترض أن أغلب زملائنا الأجانب
ومفتشى المراكز، وأولئك المهندسين والأطباء يشاركوننى نوبات مماثلة من
التساؤل والأمل: الأمل على المدى البعيد. بل الذى يجب أن يكون الآن.

روبن هودجكن (Robin Hodgkin)

■ ■ ■


7
حكاية
مهندسة الجيولوجيا
Sudan Canterbury Tales

يعتبر السودان من أوجه عديدة فردوسا جيولوجيا بحق ، خاصة بالنسبة لواحدة مثلى من "الجنس الضعيف" . لم يعد هناك ما يدعونى لأن أحمل فى حقيبة الظهر ما يزيد على ٢٠ كيلو جراماً من عينات الصخور طلوعا ونزولا على منحدرات جبال الألب . أصبحت أستخدم الآن مختلف وسائل النقل بها من لوارى، وإبل وخيول بدلا من السير على الأقدام. وأصبح يعمل معى الآن عمال قليلو الشكوى والتذمر أغلبهم من جبال النوبة، بالإضافة إلى طباخ دنقلاوى مولع بالذهاب معى فى الجولات ، وجميع هؤلاء لا يمانعون فى الركوب على ظهور اللوارى أو الجمال أو الثيران .

فى عام ١٩٤٨ كانت المعرفة الجيولوجية ضئيلة متناثرة ، وكانت الخرائط الطبوغرافية المتاحة عبارة عن تحليق فى الخيال ، بالرغم من أنه كان بالإمكان التوصل إلى الحقائق بمساعدة التصوير الفوتوغرافى الجوى ثلاثى الأبعاد. كان يتم تطبيق الجانب الأكاديمى للجيولوجيا بصورة جيدة لأجل العثور على الماء الذى كان يعتبر المظهر المكافىء لعملنا ، كما كان يشكل أهمية كبرى للبلاد. أما التنقيب عن المعادن فلم يكن يحظى بقدر كبير من الاهتمام.

تعاقدت للعمل بالسودان لمدة سبع سنوات، وكان العقد ينص على راتب قدره ٥٤٠ جنيها مصريا فى العام[1] والحصول على موافقة مسبقة من الحاكم العام على أى زواج محتمل خلال العامين الأولين من التعاقد. لقد أصبحنا

---

(١) كان الجنيه المصرى فى ذلك الوقت يعادل واحد جنيهاً استرلينى وستة بنسات.

جزءا من التوصيات الحكيمة غير المكتوبة مثل عدم ارتداء الملابس عارية الكتفين فى الأسواق، ولحسن الحظ أصبحت (الاسكيرتات الميني) خارج الموضة فى سنوات ما بعد الحرب. كان يصرف بدل نقدى قدره ٤٠ جنيها مصريا لكل من ينجح فى امتحان اللغة العربية الذى كان أعلى مستوى من الدرجة الأدنى المطلوبة من الجيولوجيين (رغم أننى كنت بالتأكيد استخدم اللغة العربية أكثر من موظفى الخدمة المدنية). لقد غششت قليلاً فى الامتحان التحريرى الأقل مستوى حيث كانت الأرقام العربية بالنسبة لى تمثل سرا غامضا، ولكن لحسن حظى الشديد كنت جالسة بجانب نتيجة التقويم العربية التى ساعدتنى على النجاح فى الامتحان. كذلك أسعدنى الحظ على عدم الرسوب رغماً عن عدم استعمال الكلمة العربية الصحيحة(فاكهة) التى استخدمت بدلاً عنها الكلمة المحلية العامية(فُرُطة).

كان هناك أثر ثانوى آخر لوظيفتى المتواضعة بمصلحة الأشغال العامة يتمثل فى ذلك العدد المحدود من جمال تحميل العفش التى يمكن استخدامها فى الجولات والتى كانت تحمل كمية أكبر من الصخور. كذلك كانت غالبية النساء الأوربيات ممن يقمن بجولات عمل فى السودان يتبعن لمصلحة الخدمات الطبية. أما بين قبائل الشمال فكان أغلب النساء(المستقلات) أرامل قد تلقين تدريبا على عمل القابلات، وهن من كنت أنعم برفقتهن أثناء التخييم ، وكان حديثى معهن محدوداً ذلك أن معرفتى بأمراض النساء، والكلمات العربية للمصطلحات القليلة التى كنت أعرفها بالإنجليزية كانت معدومة تماما. كنت لكى أكتسب نوعا من الاحترام وأعيش حياة عادية أدعى أننى متزوجة ولدى عدد من الأطفال. وفى إحدى المرات بينما كنت أتجول بالحصان فى جنوب غرب البلاد إذا بمجموعة من الرجال يخرون راكعين أثناء مرورى بهم. لست متأكدة لماذا فعلوا ذلك ، سوى هذا المنظر النادر لامرأة (بيضاء) فى مثل هذا الوضع. كما كنت فى العادة أستقبل بالزغاريد المدوية!

فى عام ١٩٤٨ عندما وصلت إلى السودان بناقلة جنود أدخلت عليها بعض التحسينات الطفيفة ، كان قسم المسح الجيولوجى يتبع لمصلحة الأشغال العامة ويتكون من مدير ومهندس سودانى أسمه(بنى)، وهو أبن لأحد التجار الإغريق الذين كانوا قد أسروا إبان الثورة المهدية ، وكانت أمه أثيوبية. وبفضل بنى هذا تعلمت كيف أسافر فى البلاد، وفهمت احتياجات أهلها. كانت معرفته بإمداد المياه، وحفر الآبار، والتنافس بين القبائل، لا مثيل لها. ومن خلال أول جولة لى معه من أم درمان غرباً إلى حمرة الوز، ثم فى الجنوب استطعت أن أكون فكرة جيدة عن السودان عموماً.

عملا بنصيحة أسديت لى، فقد جهزت نفسى من محلات شكرى قرنفلى بالملابس اللازمة، بالإضافة إلى (جاكيت) مصنوعة من (الدمور) وهو قماش قطنى منسوج محليا، ولكن ضيق عرض فتحات النسيج قد أستدعى عمل شبكة معقدة من اللفقات. غير أن كل هذا الجهاز من الملابس سرعان ما ورثه أحد الجنزرجية العاملين معى. كنت فى الواقع عندما أدير ظهرى إلى الشمس لأنظر إلى عينة من الصخور فى يدى، كان ذلك يعنى أن تحترق ركبتاى من الخلف بحرارة الشمس. كان بالجاكيت عدد من الجيوب تساعد على حفظ الساعة، والجنزير، وتذكرة السكة حديد، كما كانت على جانبيها جيوب أخرى اكبر حجماً، وجيب إضافى قد خيط وسط الظهر بحيث يمكن ارتداء الجاكيت بالمقلوب، مما لا يسمح بالحصول على أية تفاصيل أساسية(لمعالم) جسدى، ومن كان يريد معرفة موقع انفراج ساقىّ، فعليه أن يحدده من موقع كوعى.

إن تحديد مواقع الآبار، ورسم الخرائط الخاصة بجيولوجيا وبنية البلد يتوقف على مدى توافر الخرائط لها، وكانت مصلحة المساحة السودانية تقوم بطباعة صحائف كتانية ربع درجة بمقاس رسم (١٠٠٠.٢٥٠:)، وهى التى كانت تشكل الأساس لعملنا الجيلوجى. ولعل ما يثير الاهتمام تاريخيا هو ذلك الخط "المنقط" المؤشر عليه بعبارة (ماكملان،١٩٩٣) إشارة إلى التاريخ الذى انهارت فيه

إحدى الآبار التى حفرت فى "سنة ماكملان" (أى السنة التى حضر فيها ماكملان). إننى أتساءل أحيانا: كم من المعالم يعود تاريخها المحلى إلى (سنة أم شاكوش)، وهو اللقب الذى كان يطلق علىّ نسبة إلى مطرقة الجيلوجى التى كنت ألوح بها دائما. لقد لازمنى هذا اللقب فيما بعد عندما انتقلت إلى العمل فى جدة، إذ أن سائق زميلى الفرنسى وطباخه قد جاءا يوما إلى منزلى ليستفسرا عما إذا كنت أنا (أم شاكوش). ياله من حظ حسن أن يصبح المرء مشهوراً!

بعد أن ازداد عدد العاملين بالمسح الجيولوجى، بدأنا رسم الخرائط الجيولوجية فى منطقة جبال البحر الأحمر، ليكون بالإمكان تصدير أية معادن يتم اكتشافها. كانت منطقة العمل التى أسندت إلى هى (الصحيفة ٤٦١) بخور "لنقب" الذى سمى باسم خط تصريف المياه، وهو يشكل منحنيين رئيسيين قبل أن يصل إلى خور بركة الذى ينبع من إريتريا، ويتدفق شمالا مكونا دلتا طوكر. يقال أن المستكشف السويسرى بيركهارد (Burckhrdt) قد استغل هذا الطريق فى رحلته إلى مكة، وإن العثمانيين هم الذين أدخلوا زراعة القطن إلى دلتا طوكر.

كانت الصحيفة الطبوغرافية تحمل ملاحظة شاعرية حول هذا الخور: "خور لنقب وادى رملى واسع، تحيط به أشجار الطرفة والدوم، وهو يجرى بين تلال عالية، وتسكنه الحمير المتوحشة" غير أننى أثناء رسم الخرائط لم أشاهد حميراً، ولكنى رأيت أعدادا كبيرة من القرود الضخمة تأتى إلى أماكن وجود المياه السطحية. كانت أشجار الدوم تحدث حفيفاً مع هبوب الرياح الخفيفة، وكانت ثمارها من الأسباب التى تؤدى إلى الشجار والخلاف بين الهدندوة.[1]

أثناء رحلتى بالسيارة لزيارة آبار(تيمرين) التقيت برجلى الشرطة أبوشنب وإبراهيم، اللذين أسندت إليهما مهمة حراستى. لم تكن المنطقة آمنة تماما

---

(١) إحدى قبائل البجا الرئيسية الثلاث فى شرق السودان، ويسكنون فى تلال البحر الأحمر، وهم الذين أوحوا للشاعر كبلنج بقصيدته المشهورة (Fuzzy Wuzzies).

وذلك بسبب (الشفتة) المغيرين الذين كانوا دائما يأتون من الوادى إلى الشرق.
فى خور لنقب من خور بركة، وفى خور (أرفت) من خور لنقب، غير أننى لم أر
أحداً منهم، بل وجدت كل عطف وكرم من مشايخ المنطقة الذين استأجرت
بواسطتهم ناقة ركوب (مولدة لدى قبيلة البشارين)، وكانوا فى الغالب يهدون
إلى خروفا أو تيسا من الماعز. ترى هل كان ردى لهذا الكرم والعطف هو أننى
كنت اوفر لهم نوعا من التسلية؟ لربما نعم فى بعض الحالات، فقد كنت الاحظ
عندما انظر إلى أعلى من صحن الغسيل، والصابون يغطى شعر رأسى المبتل،
ان هناك مجموعة من الرجال يبهجها هذا المنظر. كان الهدندوة أنفسهم
يصفون شعر رؤوسهم بالودك، ويبرز من ذلك الشعر الكثيف مشط (خُلال)
بمقبض طويل.

كان الدكان المحلى بقرية (تيمرين) مليئاً بالدروع، والسيوف وأغمادها
باشكالها التقليدية ، والسياط، والودك (لتصفيف الشعر) والبن، والسكر، مع
القليل من الأقمشة خاصة الثياب النسائية باللونين الأحمر والأزرق. كانت
القهوة مصدرا للطاقة وحسن الضيافة. وبالقرب من الدكان كان يتم تخزين
الذرة تحت الأرض، ويتم استخراجه لشراء الاحتياجات.

كان أبو شنب يعاملنى باهتمام بالغ، وكان يلازمنى أينما ذهبت لابسا حذاءه ذى
المسامير، فوق قمم الجبال، أو وراء الأجمات لقضاء الحاجة (إلى أن أعلنت أننى
لست بحاجة إلى حماية فى هذا العمل الأخير)، وكان يطلب من مفتش المركز
السماح له بمرافقتى فى كل مرة أستطيع فيها الهروب من الخرطوم والعودة إلى
لنقب، حيث يترك جمله يرعى بالقرب، ويظل منتظرا معى تحت أضخم شجرة
ظليلة فى المكان متحليا بمنتهى الصبر إلى أن يسمع صوت اللورى قادما إلينا.

عند منتصف النهار اقرر أنا أو الجمل أنه قد حان وقت الراحة، فتفرش لى
فروة (سجادة وبرية تصنع من جلد الضأن وتوضع على سرج الدابة) فى ظل

شجرة مناسبة . ليبدأ فورا سماع ذلك الصوت الإيقاعى الودود (دق البن)
يضاف مسحوق البن إلى الماء ويوضع على النار فى (الجبنة) وهى وعاء من
الفخار له عنق طويل. ثم تسد فتحة العنق بقطعة من ليف سعف شجر الدوم
وتوضع (الجبنة) لبعض الوقت على "الوقاية" (حلقة من الخرز) حتى تنقع
القهوة. لتقدم بعد ذلك إلى جميع الحاضرين فى فناجين تقليدية صغيرة.
كانت القهوة بالنسبة لى تعتبر وجبة منتصف النهار. إذ لا يجوز أن أكون أنا
الشخص الوحيد فى المجموعة الذى يتناول شيئا من الطعام فى هذا الوقت.

كان الماء متوفرا بكثرة فى خور لنقب، ويمكن بالحفر إلى عمق ضحل توفيره
للإنسان والحيوان، ولكن تحسبا لليوم الجاف كان يتم تحميل كل من جمال
العفش ببرميلين من الماء سعة كل منهما ٢٠ جالونا. لقد رفضت استعمال ماء
هذا الوادى عندما كنت فى استراحة مدينة درديب، وذلك لعكورتها الشديدة
لدرجة أنها لا تصلح للاستحمام، بالرغم من أننى كنت أشربها فى المعسكر بكل
سرور، ولم يحدث أن عانيت من أية آثار مرضية نتيجة لشرب الماء دون غليه أو
تنقيته. لربما يكون السبب فى ذلك أننى كنت أشربه كشاى أو ممزوجا
بمشروب كحولى.

بعد إرسال قافلة العفش إلى الجهة المقصودة، أخرج مبكرة برفقة أحد
المرشدين الهدندوة وأبو شنب لرسم الخرائط الجيولوجية. لنصل إلى المعسكر
فى المساء . مع الطاولة ، والمقعد، وسرير على ملاءة أرضية، وغلاية الشاى
على النار، والجمال ترعى بالقرب. ربما كانت أخبار وصولى تصل الآبار ،
فيكون هناك عدد من الرجال جالسين حول الملاءة الأرضية إلى أن أضطر
لطردهم لأدعو النساء لتناول الشاى أوالقرفة معى.وهكذا أتيحت لى فرصة
للالتقاء بسيدة فاتنة هى الشيخة عائشة بنت على كريدم إذا لم تخن الذاكرة ،
التى كانت تزيل الذمام من أنفها بكل حرص قبل أن تشرب معى الشاى.

كان خور لتقب مشهورا بسوء الطقس وشدة الحرارة، وتلك العواصف الترابية التى تهب إلى الداخل من دلتا طوكر. وكان أى تأخير فى برنامجى كإرسال برقية مثلا بأننى سأصل إلى محطة درديب لأنتظر الشاحنة القادمة من الخرطوم، يسبب إرتباكا إدارياً، وقد أوحى مثل هذا التأخير إلى نائب مدير مديرية كسلا بهذه القصيدة القصيرة:

الآنسة ديلتى تأخرت

دون فىء أو رفيق

فى منطقة (لوى) القاحلة

يا ليتها لم تكن صبية وانما صبى

علماً بأن الجيولوجيين الذكور

اقل جاذبية مقارنة بالإناث

ولكنهم إذا ضلوا الطريق

أو تأخروا دون فىء أورفيق

لا يسببون اضطراباً أو ارتباك.

وكانت هذه أول وآخر مرة أكون فيها ملهمة لقصيدة شعرية!

بالرغم من أن ركوب الإبل فى الجبال كان تجربة سارة بالنسبة لى، إلا أن العمل فى تحديد مواقع الآبار كان بنّاء أكثر باستخدام الطرائق الجيوفيزيائية عموما، أو بالفطرة السليمة والحظ أحياناً. كانت منطقة غرب النهود عبارة عن مثلث من الكثبان الرملية ينمو فيه البطيخ بصورة جيدة، وكانت المياه تأتى من ثلاثة مصادر: من البطيخ نفسه، أو المياه التى تخزن فى أشجار التبلدى أثناء فصل الأمطار، أو برحلة ثلاثة أيام على ظهور الجمال إلى أقرب بئر للماء، ولكن يا للحسرة لم أعثر على الماء فى تلك المنطقة، حيث أن الصخور السفلى تحت الرمال كانت أعلى من منسوب المياه المحيط بها.

جرت محاولة فيما بعد لتطبيق نهج فى التنمية متعدد التخصصات، حيث قمت مع فريق من المختصين فى البحوث الزراعية، والبيطرية، والمائية، وحماية البيئة بمحاولة لتقدير طاقة التحميل القصوى للمراعى، ومنع الرعى الجائر بتحديد كمية المياه المتاحة. غير أنه عندما عدت إلى السودان بعد بضعة سنوات بصفة استشارى ضمن فريق من منظمة(الفاو)، واجهتنا كل صعوبات السفر فى السودان؛ وكانت الحفائر[1] ملأى بالطمى، ومضخات المياه معطلة. كم كان محزنا أن بعثتنا لتقصى الحقائق لم تتوصل إلى اى شىء يذكر.

كان الجانب المتعب فى إمداد المياه هو فحص عينات الحفريات، وكان من السهل جدا إرسال برقية بالتوقف عن العمل عندما يصل الحفر إلى طبقة الصخور المتبلورة، غير أن الصخور الرملية فى منطقة جبال النوبة المثيرة للملل والضجر لم تكن مريحة بهذا الشكل. تم العثور على كتلة فحمية ضمن عينات من إحدى الآبار بوادى كابو بالقرب من القضارف، واتضح أنها كانت مجرد مزحة من فنى حفر الآبار الذى أرسلها لنا ليختبر ما إذا كنا نقوم بفحص عيناته التى يرسلها إلينا، وقد أدى ذلك إلى حفر بئر أخرى لا قيمة لها أيضاً. كان من الجوانب المشرقة الاختبارات الجيوفيزيائية أنه عندما يتم إدخال العتلات وسقايتها بالماء لتحسين التوصيل الكهربائى، تأتى بعض الفراشات الصغيرة الزرقاء لتستقى من الماء الموجود بين الحواجز. وكانت قمة شعورى بالرضاء عندما أتسلم تقريراً فنياً يقول: " وجدنا الماء على مستوى كذا قدم" خاصة إذا كان ذلك هو ما قد تنبأت به.

لم تكن " التكنولوجيا الحديثة " أثناء سنوات خدمتى بالسودان عبارة لها بريق مثل ما هى عليه الآن، كما أن التقنيات الحديثة لم تكن تجد فى الغالب التقدير المضنى فى سحب المياه من البئر كان يساعد الأسر والقبائل. فى عصر ما قبل

---

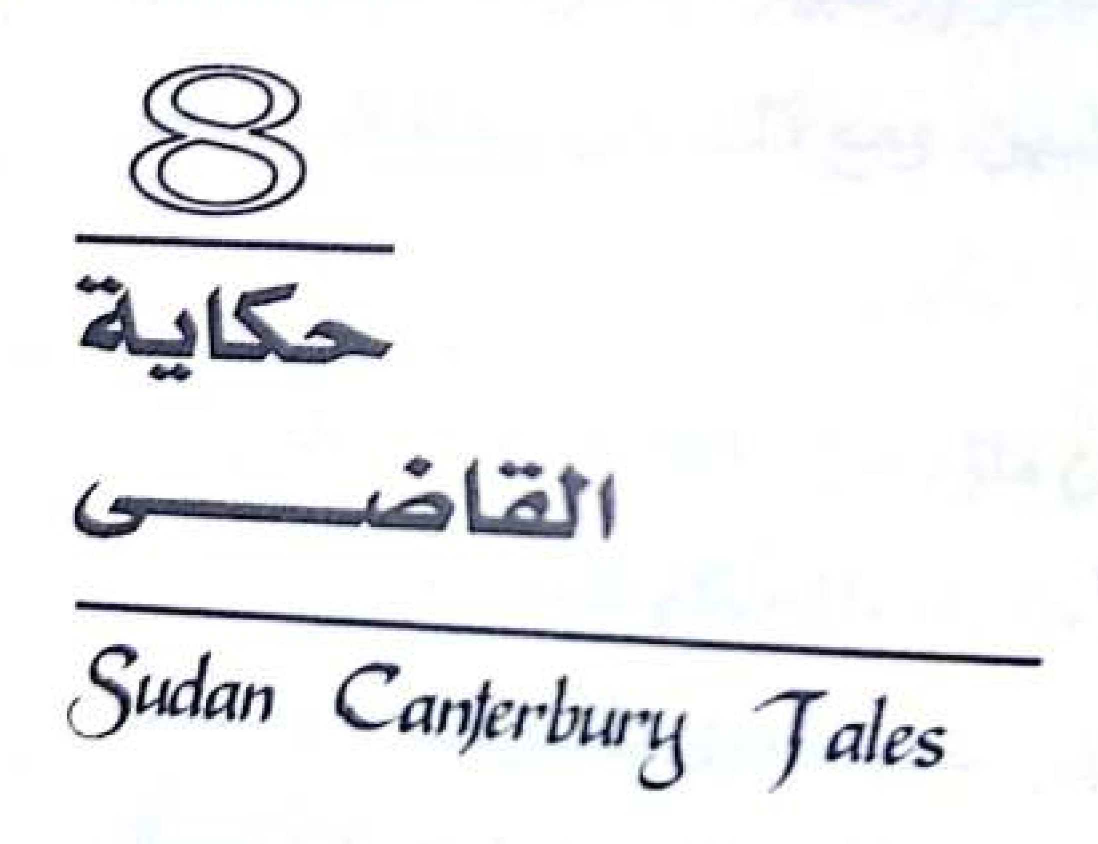
(١) تجويف فى الأرض يتم حفره آلياً أو يدوياً ليصبح خزاناً لمياه الأمطار.

الترانزستر. على ضرورة تبادل القيل والقال. غير أن البئر التى تضخ بضعة جوالين من الماء فى الدقيقة لا تترك زمناً للعلاقات الاجتماعية، كما أنها تحتاج إلى صيانة متخصصة حيث يوجد فى كثير من المناطق حفارو الآبار التقليديون الذين كانوا على مستوى جيد من الكفاءة، ولكن كانت مهنتهم تتسم بالخطورة خاصة فى منخفض بارا حيث كانت تنهار الآبار بسبب الرمال التى تكون بالكاد متماسكة أثناء إنزالهم براميل البترول الفارغة. أما عمق البئر فكان يعرف بطول الطريق الذى يسلكه الشخص أو الجمل الذى يقوم برفع دلو الماء بالحبل والبكرة.

أصبحت الدراسات المختبرية فى الخرطوم مقبولة من خلال الحياة الاجتماعية النشطة: التنس، والتجديف، وحفلات العشاء، والرقص. ونظرا لندرة المساكن فقد تم بناء صفوف من الاستوديوهات بغرفة واحدة. فى البداية كانت أربع بنات يسكن بين العزاب، ولكن فيما بعد تم بناء أربع وحدات سكنية للعازبات خلف ميز الهبوب. وكنوع من التحسين الكبير، كانت توجد نافذة صغيرة بالدولاب(خزانة الملابس) الموجود فى فرندة كل وحدة، ولذلك تم تحويله إلى مطبخ. كذلك كان هناك جدار يبلغ ارتفاعه ثلاثة أرباع ارتفاع الغرفة يفصل الحمام(الأسمنتى) من الغرفة ذات البلاط الأحمر، وتم تركيب فرن جاز لتوفير الماء الساخن فى الشتاء، كما تم تنظيم ميزات للممرضات. أما النساء الأخريات العاملات فى المصالح الأخرى فلم يوفر لهن شىء من هذا القبيل.

كانت سبع سنوات من العمل الممتع الذى يبدو انه قد وفر ظروفا معيشية أفضل لسكان يغلب عليهم الفقر ، وستظل صورتها مشرقة فى حياتى المهنية، ورغم أنها قد لا تسجل لصالحى فى سجلات الخلود . إلا انها كانت جداً ممتعة.

فرانسيس ديلنى (Frances Delany)



8

حكاية القاضي

Sudan Canterbury Tales

تمهيد

يمتد السودان من مصر إلى يوغندا، وهى نفس المسافة من البصرة إلى أزمير، أو من باكو إلى القاهرة، ولكن فى عام ١٨٩٨، ذلك العام الذى دارت فيه معركة أم درمان، كان السكان الذين يقدر تعدادهم بحوالى مليونى نفس يعانون من الفقر، والمرض، والقمع. لقد أدى مرض الجدرى، والمجاعة، والسيف إلى تدمير الناس، بل وأسوأ من ذلك: الجوع الروحى. لقد ضرب ستار حديدى بين السودان وبقية بلاد العالم لفترة امتدت ستة عشر عاما. لم تكن هناك أية مدارس، وأصبحت سهول العشب الممتدة فى الغرب خاوية على عروشها بعد أن سحقت قبائل الرحل، أو أجبرت على النزوح إلى ضفاف النيل.

سيطر الخوف على السودان؛ وأصبحت العقوبات الوحشية تروع الناس، ولكنها لم تمنع الجريمة. كان السارق تقطع يده أو قدمه، ولكن ظلت أم درمان تعج باللصوص والحرامية. وظل اللص الشهير (زغبير) بأطرافه المبتورة يثب على قدمه الواحدة، ويستمر فى عمله المشين، ومع ذلك كان يحتفظ بعلاقة طيبة مع القضاة، ثم مات ثرياً فى النهاية.

كان السودان يعيش فى فراغ ما كان يمكن ملؤه بعودة الحكم المصرى الذى كان سيعيد إلى السودان كل شرور الامتيازات الأجنبية، والمحاكم المختلطة والقنصلية. لذلك وضع المنتصرون شئون العدل والأمن فى أيدى مديرى المديريات[1] ومفتشى المراكز الذين كان الأوائل منهم ضباطا فى الجيش البريطانى، ثم استبدلوا برجال

---

(١) جميعهم كانوا بريطانيين حتى عام ١٩٥٥.

تم اختيارهم من خريجي الجامعات البريطانية. كان مدير المديرية يترأس المحاكم الكبرى التي تنظر في التهم الخطيرة، بالإضافة إلى عضوين من القضاة الجزئيين يكونان في العادة من السودانيين، ثم يُرسل الحكم للتأييد أو الاستئناف إلى المستشار أو السكرتير القضائي السير/ إدجر بونهام كارتر Sir Edgar Bonham-Carter، الذي كان قانونياً ضليعاً. كان هناك منذ البداية كادراً من أعضاء هيئة الحقوقيين الإنجليزية، وكان يشترط على القضاة المعاونين لهم أن يجتازوا امتحانات صعبة في القانون والإجراءات القضائية.

كانت الأسبقية الأولى في عام ١٨٩٨ هي العمل على كسب ثقة الناس من خلال رأفة الحكم في الجريمة الأولى، مع قمع السلوكيات الضارة، واحترام الدين، ونزاهة سير العدالة. وقد تم كسب هذه الثقة بالفعل، وكان القضاة والإداريون البريطانيون بدورهم يحترمون أهل السودان ويحبونهم كأشقاء.

يقال إن قانون العقوبات هو قانون الفطرة السليمة، ولكن لن تكون الفطرة السليمة وحدها بديلاً للنظام العادل، ولذلك تبنى السودان تطبيق قانوني العقوبات والإجراءات الهنديين بعد إدخال بعض التعديلات الطفيفة عليهما ليناسبا ظروف البلاد المحلية، ولا يزال هذان القانونان ساريين في الهند والباكستان حتى يومنا هذا، ويجدان كل التفهم من أفراد الشعب. تقوم الشرطة بموجب القانونيين المذكورين بالتحري في الجريمة بتوجيه من القضاة المحليين دون تدخل من القصر أو الوزارة، وبذلك تظل الشرطة أداة للعدالة دون أن تصبح أداة في أيدي السلطات التنفيذية.

كذلك تم إنشاء محاكم شرعية برئاسة قاضي القضاة أو المفتي، وأصبح هناك في جميع أنحاء السودان مفتشون يتولون النظر في قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بالمسلمين مثل الزواج، والطلاق، والميراث، كما تم إنشاء مدارس للشريعة حتى مستوى الجامعة.

أما فيما يتعلق بالقانون المدنى، وقانون الأراضى، فقد وضعا فى أيدى قضاة محترفين، على أن تستأنف أحكامهم لدى المحكمة العليا بالخرطوم. غير أن قانون الأراضى كان فى حالة من الفوضى نظراً إلى أن الاضطرابات التى حدثت فى عهد المهدية قد تركت مسائل الملكية والحيازة معلقة فى الهواء. لذلك تم تعيين مأمير الأراضى فى عام ١٨٩٩ وكانوا يسافرون إلى جميع أنحاء البلاد لأجل سماع شكاوى المواطنين، والتحرى فى سندات الأراضى المتنازع عليها فى المدن والقرى الواقعة على الأنهار وغيرها، وكان يصدر الحكم بحق الملكية بعد إثبات حيازة الأرض لمدة خمس سنوات متواصلة، وبعد ذلك يتم فوراً تسجيل سندات الملكية لدى سجلات الأراضى التى نظمت قانون الملكية فى السودان وأعادت الثقة إليه.

ظل مشايخ القبائل الرحل وشيوخ القرى منذ أمد بعيد يقيمون العدل بين أهليهم بتطبيق القانون العرفى. ثم جاءت الحكومة الجديدة ودعمت هذه السلطات القضائية، وفى نفس الوقت منعت إساءة استخدامها بأن أسندت مهمة الإشراف عليها إلى المديرين والمفتشين، ومديرى المديريات ومفتشى المراكز فى جميع أنحاء السودان الذين كانوا على اتصال يومى بالمشايخ وعامة المواطنين. كان جميع مديرى المديريات بريطانيين حتى عام ١٩٥٤، وفيما بين عامى ١٩٢١ و١٩٣١ أنشئت المحاكم المحلية، وحددت لها صلاحياتها وعضويتها والضوابط الخاصة بها. أما الاستئنافات فكانت ترفع إلى مدير المديرية، ولكن بحلول عام ١٩٥٢ أصبح هذا العمل الأساسى جاهزاً لإنجاز المرحلة الأخيرة وهى دمج المحاكم "الأهلية" فى النظام القضائى للدولة.

فى عام ١٩٠٦ إرتأى السير/ أوكلاند كولن (Sir Aucland Colvin) الرقيب العام البريطانى بمصر أنه يجب استبدال محكمة المفوض القضائى، التى أنشئت مع بداية الحكم الثنائى، بهيئة القضاة المدنيين، وأنه يجب أن يكون

هناك نظام دوائر فى المديريات البعيدة، ولكنه كان متقدما على زمانه، ذلك أنه كان لا بد من مرور عدة سنوات حتى يتم إرساء دعائم قوية للأمن تستوعب مثل هذا التطور، حيث أنه فى الفترة من عام ١٩٠٦ إلى عام ١٩٢٨ كان لا بد من قمع حوادث العنف المتكررة بتجريد حملات عسكرية فقدت فيها أرواح كثيرة، وكان أخطرها ثورة على دينار سلطان دارفور الذى كان مطالباً بدفع ضريبة للحكومة، والتى أخمدت بعد معركة عنيفة فى عام ١٩١٥ بالقرب من الفاشر. وقد أدت هذه الحوادث إلى ضرورة إقامة نظام لا مركزى للأمن والعدل يضع السلطة القضائية فى أيدى مديرى المديريات ومفتشى المراكز الموثوق بهم. أما تطوير القضائية على أسس حديثة فقد أرجئ إلى حين، غير أنه تم إحراز بعض التقدم بين الحربين العالميتين حيث تم استحداث مدرسة للحقوق، وتعيين قضاة سودانيين، وتأهيل أول محامين سودانيين. كما تم تعيين رئيس للقضاء لتؤول إليه الكثير من أعمال السكرتير القضائى. وفى بعض المديريات المعينة أصبح قضاة المحاكم العليا يتولون اختصاصات مديرى المديريات القضائية، وكان اثنان من هؤلاء الذين تم تعيينهم فى عام ١٩٤٨ من السودانيين. وبحلول عام ١٩٥٢ أصبح ثلاثة أرباع الجرائم الكبرى تحاكم بواسطة قضاة مؤهلين، وثلث هذا الكم ينظر أمام رؤساء محاكم سودانيين.

كيه. جيه. أو، سى هايز (K.j.o C. Haye)

■■■

فى نهاية الحرب التى كنت أعمل أثناءها فى البحرية الملكية، فكرت فى ماذا أفعل بعد ذلك؟ كنت أعمل محامياً معتمداً لدى هيئة المحامين قبل بداية الحرب، كما حظيت بوظيفة مؤقتة لدى كلية جرينيش Greenwich College فى انتظار التسريح من الجيش، تحت رئاسة ذلك الرجل البهيج كابتن كوبر Captain Cooper نائب ممثل النيابة العامة بالأسطول. وفى يوم من الأيام لفت نظرى أحد الأصدقاء إلى إعلان منعزل صغير فى إحدى الصحف اليومية بقبول طلبات للتعيين فى وظيفة مساعد قانونى لدى حكومة السودان.

كنت دائما أطالع خريطة السودان، وأقرأ كل ما يمكن قراءته حول هذا البلد الذى اشتهر بشجاعة محاربيه الذين بلغوا أوج شجاعتهم فى معركة أم درمان عام ١٨٩٨ عندما هزم اللورد كتشنر السودانيين بتفوق السلاح النارى.

كتب عنى كابتن كوبر تقريراً تقريظياً، مع أننى لم أكن من لاعبى الفرق الرياضية فى كيمبردج أو أوكسفورد، والذى أشيع خطأ أنه شرط مسبق للعمل فى السودان. بعد ذلك استدعيت للمثول أمام لجنة الاختيار التى كانت تتكون من ثلاثة أعضاء برئاسة القاضى ديريك لوماكس (Derek Lomax) الذى كان هو نفسه من لاعبى الكريكيت والتنس الجيدين، ويحمل شارة كيمبردج الزرقاء. سألنى لماذا أريد الالتحاق بالخدمة السودانية، فتحدثت عن اهتمامى بتاريخ المنطقة مما ذوب قطعة الجليد التى كانت تخيم على جو المقابلة، ثم جاء السؤال الذى لا مفر منه: ما هى اهتماماتك الرياضية؟ أجبت بأننى أهوى

تسلق الجبال، وأننى كنت أمارس هذه الهواية فى انجلترا وجبال الألب كلما كان ذلك ممكناً. هنا أبدى ديريك لوماكس مزيداً من الاهتمام، فسألنى إن كنت أعرف روبن هودجكن (Robin Hodgkin) الذى يعمل بمصلحة المعارف، فقلت: نعم أعرفه، وسبق لنا أن تسلقنا الجبال معاً عدة مرات فى منطقة ويلز". فجأة تغير جو المقابلة، وبدأ أعضاء اللجنة يتحدثون عن تسلق الجبال بسعادة غامرة، فعرفت أننى قد عبرت إلى بر الأمان.

وجدت نفسى فيما بعد على ظهر السفينة المتجهة إلى بورتسودان التى يمتد منها خط سكة حديد إلى الخرطوم ماراً بعطبرة عبر صحراء من الحصى والرمال. وفى الطريق هطلت علينا زخات من المطر، ولن أنسى أبداً أننى تنسمت لأول مرة تلك الرائحة الطيبة التى كانت تهب مع النسيم أثناء هطول المطر على الصحراء. فينبعث منها ذلك الشذى الفواح الذى كنا نستمتع به مع بداية موسم الأمطار فى شهر يوليو من كل عام بعد انقضاء فترة القيظ والجفاف.

بعد وصولى الخرطوم، مازلت بالطبع لا أعرف اللغة العربية مع أننى، كما هو مطلوب، قد اجتزت الامتحان العالى للغة العربية. وكنت فى تلك الأيام المبكرة أرتبك كثيراً فى الحديث حتى بمساعدة شارلز ستانلى- بيكر (Charles Stanley-Baker)، حيث وضعت فى وظيفة لم أكن مستعداً لها كقاضٍ لمنطقة أم درمان. كان الشهود ورجال الشرطة يتحدثون باللغة العربية التى كانت تبدو لى فى البداية غير مفهومة، ولكن أحد رجال الشرطة برتبة رقيب تكرم بمساعدتى طوال تلك الفترة إلى أن أصبحت أفهم كل ما يدور من حديث.

قبل ذلك، وبعد فترة قصيرة من وصولى إلى الخرطوم، تم إرسالى إلى إريتريا لأتولى مهمة الدفاع أمام محكمة عسكرية عن عدد من الجنود السودانيين. بعد انتصار الحلفاء فى حملة شرق إفريقيا، أسندت حماية أسمرا

عاصمة إريتريا إلى قوة دفاع السودان، وكانت فرقة النوبة السابعة تتمركز هناك. كان أفراد هذه الفرقة ينتمون إلى منطقة جبال النوبة بالسودان، ويعتزون ويفتخرون بأنفسهم، ولذلك كانوا يستخفون بالإريتريين الضعفاء، ولا يعيرونهم اهتماما كبيراً، وهكذا أصبح صدامهم معهم أمراً لا مفر منه. وفى يوم من الأيام قذف أحد الإريترين أمباشى نوباوى معجباً بنفسه، بقطعة طماطم متعفنة أو شىء من هذا القبيل. وكان النوباوى فى ذلك الوقت قد استمتع بشرب كمية وافرة من (المريسة) برفقة فتيات المدينة، الأمر الذى أثار حفيظته وجعله يركض إلى الحامية فى القلعة التى كانت تعسكر فيها الفرقة السابعة على بعد ميلين من المدينة، وذلك بقصد إحضار بندقيته ليرد على هذه الإساءة وينتقم لنفسه، فاقتحم مخزن السلاح ومعه آخرون، وتناولوا أسلحتهم وتوجهوا بها إلى المدينة حيث أطلقوا النار، مما نجم عنه مقتل عدد من الإريتريين.

كانت هناك محاولة لمعرفة الأفراد الذين شاركوا إيجابياً فى تسبيب هذا الأذى الجسيم، ولكن كان من الصعب تحديد ذلك حيث أن مجموعات كبيرة من الجنود كانت تدخل وتخرج من القلعة جيئة وذهاباً. لذلك أطلقت صافرة الإنذار، وقام الضباط بإغلاق البوابات لمنع خروج المزيد من الجنود، ولكن ظل السؤال قائماً: أى من الجنود كان بالداخل، وأيهم كان بالخارج فى تلك اللحظات العصيبة؟ بلغ عدد المتهمين حوالى التسعين، ولذلك نصحتهم جميعاً بأن يعلنوا أمام المحكمة بأنهم غير مذنبين، والا يحاولوا تجريم زملائهم. كانت النتيجة إدانة خمسة عشر منهم بارتكاب الجريمة بدرجات متفاوتة. وقد أدى نجاحى نسبياً فى الدفاع عنهم إلى أننى أصبحت بعد ذلك أتلقى التحية من كل نوباوى يلتقينى فى اى مكان، وكان كثيرون منهم يقومون بمصافحتى بكل ود واحترام أثناء جولاتى القضائية فى الأقاليم. كذلك أثناء سير إجراءات القضية، نشأت صداقة بينى وبين الضابط النوباوى الذى تولى مهمة الترجمة

أثناء المحاكمة، وقد ساعدنى ذلك كثيراً فى تقوية لغتى العربية رغم أنه كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة.

منذ أن تم تعيينى قاضيا بالمحكمة العليا بمديرية النيل الأزرق بعد بضعة سنوات، أصبحت إحدى ممارساتى. كلما كان ذلك مناسباً. أن أنقل محكمتى إلى مكان يكون قريباً بقدر الإمكان من مسرح الأحداث التى استدعت عقد المحكمة. وكانت الفكرة من وراء ذلك هى أننى بالنسبة إلى القضايا القبلية كنت أريد أن يتمكن أكبر عدد من الأشخاص المعنيين من سماع كافة البينات بأنفسهم. كانت من بين تلك القضايا ذلك القتال القبلى الذى حدث فى مدينة الحصاحيصا، وتتلخص خلفية الموضوع فى أنه كان قد تقرر إجراء أول انتخابات من نوعها للحكومة المحلية بالمنطقة، وتم اختيار مبنى المدرسة ليكون مركزاً للاقتراع. وفى يوم الانتخابات أقبل الناخبون بأعداد كبيرة وهم فى غاية الحماس، وكنوع من الاحتياط تم تجريدهم من أسلحتهم التى تعودوا على حملها مثل العكاكيز(الهراوات)، والسكاكين والفرارير (فئوس صغيرة الحجم)... إلخ، ووضعت جميعها خلف مبنى المدرسة.

جلس الناخبون بالدور حسب وصولهم، ثم أخذ ضابط الانتخابات ينادى كلا منهم باسمه على انفراد ليلقى ببطاقته فى الصندوق الذى يختاره، ثم يعود بعد ذلك إلى مكانه فى الخارج، وبالمناسبة كان حق التصويت وقفاً على الذكور فقط. اتضح فى بعض الحالات أن الشخص الذى اقترع ليس هو نفس الشخص الذى نودى باسمه، إذ لربما يكون قد طلب منه أحد أصدقائه أن يصوت نيابة عنه. لذلك بدأت المشاجرات بين أولئك الذين كانوا يعرفون هوية الأشخاص المعنيين، وأخذوا يتبادلون الشتائم مثل: "أنت كلب" و"أنت محتال"، مما أثار غضب البعض ودفعهم لأخذ أسلحتهم من خلف المدرسة، ونجمت عن ذلك معركة كبيرة انتهت بمقتل إحدى عشر شخصاً، وعدد كبير من الجرحى.

كنت بوصفى قاضى محكمة عليا أقوم أحيانا بزيارة منطقة النيل الأبيض للنظر فى القضايا الخاصة بالأراضى. والنيل الأبيض كما هو معروف عريض ومضحل فى بعض الأماكن، وعندما يهبط مستوى النهر بعد نهاية موسم الأمطار يظهر فيه عدد من الجزر التى تتميز بخصوبتها لكونها غنية بالطمى. لذلك كانت ملكية هذه الجزر تعتبر غنيمة كبرى لمن تؤول إليه، مما كان يؤدى إلى العديد من النزاعات. كان السودانيون يتخاصمون كثيراً بسبب هذه الأراضى، وكان المبدأ القانونى المطبق على هذا النوع من الأراضى النهرية هو أن ملكية الأرض الواقعة على الضفة تمتد إلى منتصف النهر. وبما أن الجزر تظهر فى أماكن مختلفة عبر المواسم المتتالية، فيمكن تصور صعوبة إصدار الحكم فى مثل هذه القضايا.

كنت لأجل أن أتمكن من معالجة قضايا النيل الأبيض، أغادر منزلى بود مدنى عاصمة المديرية، وأقود السيارة عبر حقول القطن فى الجزيرة، إلى كوستى أو الدويم، ومن هناك أعبر النيل الأبيض بعبارة من طراز زمن الحرب، مع عدد من الركاب والشاحنات حيث ترسو العبارة على شاطىء طينى أو رملى بحيث تستطيع بسهولة إنزال سقالتها (سلم الهبوط والصعود). كان من المناظر المألوفة أثناء عبورنا النهر رؤية عائلة من أفراس النهر وهى ترعى على الحشائش التى تنمو على ضفة النهر الطينية ونصف أجسامها داخل الماء.

كانت زوجتى التى كانت النساء يلقبنها بـ(الماركيزة) تستمتع بمرافقتى فى مثل هذه الزيارات. وكان قاضى مركز كوستى، التى يوجد بها فرع لرئاسة مديرية النيل الأزرق وتقع على النيل الأبيض، هو عبدالرحمن النور، الذى كانت بين زوجتى وزوجته صداقة حميمة. ورغم محدودية لغتها العربية كانت زوجتى تستمتع بالأنس معها والنساء الأخريات. كما كان لى صديق آخر فى كوستى يدعى أحمد كوكو وهو من أثرياء التجار ويتحدث الإنجليزية بطلاقة، وكان

عضواً فى المحكمة، وغالباً ما كان يجلس معى فى المحاكم الكبرى المتعلقة بجرائم القتل والقضايا الأخرى الخطيرة. كنت وزوجتى نمزح معه حول اولاده العديدين، ولكن فى بلد تسمح فيه الشريعة الإسلامية للرجل بالزواج من اربع نساء غير السريات، فلا غرابة أن تكون الأسر كبيرة وممتدة، ولكن رغماً عن ذلك يجب أن يكون الرجل ثرياً بدرجة كافية تمكنه من إعطاء زوجاته حقوقهن بالتساوى.

كان الطريق بين كوستى والدويم وود مدنى مملاً ومرهقا، ولكن كان هناك أحد المعالم بين كوستى والدويم أطلقنا عليه أنا وزوجتى اسم (الشجرة المعتمة) وكان ارتفاعها خمسة أقدام. عند استكشافنا وفحصنا لهذه الشجرة وجدنا أن سبب مظهرها العجيب هو أنها كانت مكسوة بكتلة من نسيج العناكب.

كنت أزور بصفة متكررة مدينة الكرمك فى أعالى النيل الأزرق استطعت أن أقرن العمل مع الترفيه. لقد سمعت بوجود مستعمرة للقرود من نوع (كولوبس colobus) بالقرب من المدينة وتملكتنى الرغبة لمشاهدتها. كان إصرارى فى محله إذ وجدتها جميلة الشكل، ويكسوها شعر أسود لامع ووجوهها ولحاها بيضاء ناصعة.

كنت أحياناً التقى صدفة بمدير المديرية أو نائبه أثناء جولاتهما فى تلك المديرية المترامية الأطراف. وفى إحدى المناسبات كدنا أنا ومدير المديرية بيل لوس (Bill Luce) أن نتصادم بسيارتينا أثناء قيادتى لسيارتى عبر الغابة القريبة من الكرمك. توقفت السيارتان محدثتين صوتاً كالرعد وسحباً كثيفة من الغبار. وتسبب هذا اللقاء المرتجل فى أن نعسكر معاً فى ذلك المكان، ونقضى امسية طيبة تجاذبنا فيها أطراف الحديث حول شئون المديرية، وكان للقاء قيمة خاصة هى اننا بحكم وظيفتنا لم نكن نتقابل كثيراً. وفى مناسبة

أخرى بالكرمك التقيت أيضاً بنائب مدير المديرية الذى كان فى زيارة تفتيشية للسجن. وقف السجناء فى صف، وعندما سألهم إذا كانت لديهم أية شكاوى، تقدم ثلاثة منهم إلى الأمام، وكان تظلمهم أن الفتحة التى كانت موجودة فى حائط السجن قد أغلقت استعداداً لزيارة نائب المدير، وأنهم بالتالى لن يستطيعوا الذهاب إلى بيوتهم فى الليل لمقابلة زوجاتهم!

كذلك أتاحت لى منطقة الكرمك الفرصة لتسلق بعض الجبال، ففى إحدى زياراتى سلكت طريقاً عبر جبال الأنقسنا يمر بمكان يسمى (صودا) بينما كان الطريق العادى يمر بمكان آخر يسمى (ويسكو) وتوجد فيه استراحة (أطلق الاسمين على المكانين بعض مهندسى المساحة العابثين فى مطلع عشرينات القرن العشرين عندما عجزوا عن إيجاد اسمين محليين. كان مساعد مفتش المركز يرافقنى فى تلك الرحلة ليتفقد الطريق قبل هطول الأمطار، وكان الطريق بالفعل وعراً وشاقاً، وكنت أنا وهو، لربما بنوع من الغباء، قد أرسلنا شاحناتنا أمامنا، ولذلك ركب معى فى سيارتى. هبطنا إلى أحد الوديان، وعندما وصلنا إلى قاع الوادى داهمنا سيل مفاجئ، وأصبحنا محاصرين تماماً، ولكن لحسن الحظ ظهرت لنا فجأة مجموعة من السودانيين المرحين وكأنهم قد جاءوا من عالم مجهول، فاندفعوا إلى الماء وهم يضحكون ويمرحون وسحبونا إلى الخارج.

كان الطريق يمر بالقرب من جبل (بنى شاكو) الذى كنت أريد تسلقه. بدأت التسلق ومعى سائقى الشرطى يوسف قبل طلوع الفجر إلى أن وصلنا إلى منبسط صخرى صغير على بعد ٥٠٠ قدم تحت القمة حيث وجدنا هناك مجموعة صغيرة من الأكواخ مستديرة الشكل. كان هناك معتقد خرافى بوجود أرواح فى قمة الجبل، ولكن لم تكن لدى أدنى فكرة عما إذا كان أى شخص قد تسلق إلى ما بعد هذه الأكواخ قبل ذلك. على أية حال عندما كنا نتسلق إلى

أسفل القمة تأكد لنا، أنا ويوسف، أننا كنا "مُرافَقين" من الجانبين برجال صامتين و(مسلحين)، وكنا بين الفينة والأخرى نسمع أصوات حجارة تتحرك أو صوت رمح يلامس الصخور، ولذلك ظل يوسف بدوره يقوم بتحريك (ترباس) بندقيته.

عندما وصلنا إلى الأكواخ لم نر أحداً مع أننا كنا نسمع أصوات أسورة النساء تأتي إلينا من الداخل. ناديت باللغة العربية داعياً زعيم القبيلة ليظهر نفسه، وفوراً تقدم إلى الأمام واحد من (مرافقينا) الذين كانوا يتابعوننا، فشرحت له ما كنت أريد. وبما أنه لم يبد اعتراضاً قويا فقد واصلنا التسلق إلى أعلى بينما بدأت الشمس تشع بضوئها على قمم الجبال.

كان الجزء الأسفل من التسلق أسهل مما كنت أتصور، وبعد برهة قصيرة وصلت إلى شق بين الصخور ملئ بالشجيرات التي تسمح بقليل من الظل. ومن هناك تسلقت إلى أعلى حيث كنت أتساءل ما إذا كان وجودي سوف يتسبب في أية ردة فعل خرافية أخرى. لم أبق هناك لفترة طويلة حيث أن حرارة الشمس قد جعلت من الصعب الإمساك بالصخور، ولذلك عدنا أدراجنا بأسرع ما يمكن.

عند عودتي إلى ود مدني كتبت إلى "جامبو" ويكفيلد (Jumbo Wakefield) مدير الخدمات وسألته عما إذا كان قد سبق تسلق جبل شاكو من قبل، فردّ بأنه يعتقد انه قد سبق تسلق الجبل مع أنه لا يوجد في السجلات ما يشير إلى من قام بذلك. ربما يكون روبن هودجكن (Robin Hodgkin)؟

"جوك" بوديلي (Jock' Bodilly)

■■■

نص شوسيرى

هنا تبدا حكاية "وين كوبر"

تبدا وبرج الدلو ينفث برداً زمهريراً أحال الكل إلى جليد

هنا فى دوفر بدأت حكاية "وينى"

صانعة براميل كانت، وتسمى كوبر

على كل شاطىء تزمجر فيه الريح وتزأر

ابحرت كوبر سادرة، فى مركبة شحن هولندية

مسفورةً بدوار البحر إن أتخمها الطعام

ابحرت إلى أرض السود واسمها السودان

إنها بلاد غريبة ما عرفها إنسان

••

قبل الخرطوم الشوس أبناؤها

شاهدت كوبر البجاويين والجلابة

اواه ليا لهول رفقتها!

للراحة والاستجمام استراحة جمعية التبشير الكنسى مهداً لها كانت

حيث قضت افضل الأوقات

ثم كان الموكب المهيب، دوت الأبواق فالملك مات

كلهم تدافعوا مشاركين .رجال دولة ودين

إلا هى.. قلقةً كانت من هيئتها

ما من كسوة لها سوى رداء فرو كبيرا

●●

ثم كانت كوستى حيث شاهدت من آن لآن، أشكالاً من الحيوان

حين رحلت مبحرة فى النيل الأبيض

صوب جوبا حيث كان راعى الأبرشية

بول جيبسون يا له من نفر ذائع الصيت

بصدق يبشر من العهد الجديد

واسعة كانت أبرشيته مليئة بالناس

لكنه ما فاتها أبداً ما همّه مطر او راعه رعد

بل على عصاه يعتكز

واعظاً القطيع

ليحذو حذوه

نموذجا نبيلا

●●

ثم إلى أرض الزاندى عبر لوى والأدغال

واللورى ذو الطنين إذا ما حرن، فما من سبيل سوى دفعه من الأوحال

آل "بارى" عملوا فى عدة مدارس للبنات

فى أماكن من بعدها يصاب الراس بالدوار

الأكل عسير المضغ بقولاً كان أم لحماً من الأبقار

وفاكهة كثيرة تحيل ذاك العسر لينا

ودائماً هناك مرض..كثيره دوماً خطير

ملاريا وجذام وتقرحات خلفتها الحصبة والجذام

●●

فى مدرسة الزاندى كانت تدرس التلميذات

حين أطل برأسه من النافذة ثعبان يتلوى

فباغته باولو الصغير بطعنة بحربته

باولو يا له من رجل طيب يحبه الجميع

اللحم كان يجلبه الدينكا وكنا نفرمه

غير أنها لم تستسغه مذاك اليوم

البق أشكال وألوان تارة كبير وتارة صغير

والنمل الأبيض أكل ما سقط على الأرض من كسائها

●●

جاء أسقف هناك اسمه جليستورب .. جاء

يسيم جون بارى كاهناً من أخير الرجال كان

كان تقياً ورعاً وصالحاً

لم يكن للأثيم قاسياً

لا ولم يكن فى حديثه جارحاً

بل كان فى وعظه حكيماً ولطيفاً

يعظ الناس بالمعروف إلى النعيم

كان قدوة يحتذى فى عمله

هناك أيضاً كانت هيلينا زوجته وكانت مارغريت ودبورا

كن قيمات الرفقة وكن يعتنين بالبنات أيما اعتناء

●●

أسقف آخر اسمه اليسون قال عنه كثيرون

إنه يجيد اللهجات القبلية، بمبلغ كبير تعلم

وكان ورعاً فى فكره وعمله

عالماً وكاتباً كان

لطيفاً ومخلصاً كان

وصابراً عند النوائب.

●●

قالت البنات إنها الأرواح جاءتنا من ثغرة السقف

فسدّت الثغرات بالعشب كبرهان لهن

ثم جاء دونالد كوغان يحاضرنا

برفقته كان كريس كوك ودافيد براون عن التدريس

ثم جاء العسكر فأطلق الرصاص

ثم اعترى نفوس الكل خوف وارتياب

ارتحلت وين كوبر إلى العيش فى يوغندا

وما أحزنها أنها لم تعد تذهب إلى يامبيو.

●●

يامبيو ١٩٥٢ - ١٩٥٤

غادرت دوفر بتاريخ ١٨ يناير عام ١٩٥٢ فى سفينة شحن هولندية، وبعد أسبوعين رسونا فى ميناء بورتسودان. كنا أربع راهبات من جمعية الإرسالية الكنسية (Church Missionary Society)، كل منا متجهة إلى منطقة مختلفة، مما يعنى أننا فيما بعد لن نشاهد بعضنا البعض إلا نادراً فى هذا البلد المترامى الأطراف.

استقبلتنا بورتسودان بمقدمة مدهشة: حر شديد، رجال الهدندوة وهم يتزاحمون فى حظيرة العفش، وجماعات من قبائل الجنوب، وأولاد العرب الذين كانوا يتحركون بتؤدة بجلاليبهم وعمائمهم. بعد رحلة يوم بالقطار وصلنا

إلى الخرطوم، ولكن وجدنا أنه قد فاتنا القطار والباخرة المتجهين إلى جنوب السودان، وكان علينا أن ننتظر القطار التالى بعد أسبوعين. لذلك أقمنا مع الممرضات فى المجمع السكنى التابع لمستشفى جمعية الإرسالية الكنسية بأم درمان.

عادت بنا أفكارنا فجأة إلى المملكة المتحدة بعد أن تلقينا النبأ الحزين بوفاة الملك جورج السادس، حيث دعينا إلى الصلاة التذكارية التى أقيمت له فى الخرطوم، ولكن واجهتنا مشكلة ماذا نلبس. ارتدت الممرضات زيهن الخاص، أما أنا فقد وفروا لى معطفاً رمادياً من الفراء، وكم كنت شاكرة ومقدرة لذلك. فى السابعة صباحاً كانت تهب رياح باردة جدا من جهة الصحراء، ولكن أقيم الاحتفال فى مكان جميل، وحضره جمع غفير من السودانيين. كان هناك الحاكم العام، وموظفو الدولة (أغلبهم بريطانيون فى تلك الأيام)، وزعماء المسلمين والمسيحيين، والتجار. يبدو أن الخرطوم بأسرها كانت هناك فى ذلك الصباح لتحيى فى صمت ذكرى الملك الذى شارك فى الحكم الثنائى آنذاك.

لم يعد الجو بارداً عند منتصف النهار، ولكنى قد استسلمت لارتفاع فى حرارتى بلغ ١١٨ درجة، فأصبحت بحاجة إلى بضعة أيام لاسترداد صحتى، ولذلك فاتنى القطار التالى أيضاً، وكان على أن أنتظر أسبوعين آخرين. أعتقد أنه قد استبد بى القلق والإحساس بالفراغ، ولذلك أتيحت لى الفرصة للتدريس فى مدرسة الإرسالية للبنات بأم درمان، والبدء فى تعلم اللغة العربية. لحقت بالقطار التالى المتجه إلى كوستى، ولكن هذه المرة لوحدى، ومن هناك بدأت رحلتى على الباخرة النيلية. كانت المناظر جميلة من على ظهر الباخرة ، مع تلك الصنادل المربوطة بها والمحملة بالعفش، ومن فوقه تجلس مجموعة من الناس.

إننى سأظل دوما شاكرة للظروف التى أتاحت لى الفرصة للقيام برحلة عشرة أيام طويلة على النيل من كوستى إلى جوبا . كم كانت مقدمة مدهشة لنا

أن نرى تلك المناظر الطبيعية الخلابة، ومختلف القبائل، وتلك القطعان الضخمة من الفيلة، والظباء وأفراس النهر، إضافة إلى تلك الأسراب من المخلوقات الصغيرة. ثم تلك الأيام الثلاثة والباخرة تشق طريقها فى منطقة (السدود)[1] والتى كانت بالنسبة لى تجربة مريرة جعلتنى أتصبب عرقاً.

عندما وصلنا إلى جوبا استقبلنى رئيس الأساقفة وسكرتير الجمعية الإرسالية الكنسية بول جيبسون (Paul Gibson) وقال إننى محظوظة لأننى سوف أغادر فى اليوم التالى إلى يامبيو على مسافة ٢٥٠ ميلاً فى اتجاه الغرب بعربة مفتش المركز. تخيلت أن تكون هذه العربة من نوع (رولز رويس) على الأقل، ولكن وجدت نفسى فى اليوم التالى جالسة بجانب السائق على شاحنة ثقيلة حمولة ٢ طن، وحيث أن السائق لم يكن يتكلم الإنجليزية، فقد كانت السفرية صامتة، بصرف النظر عن ذلك الجمهور الفضولى الذى كان يتحلق حولنا أينما توقفنا. قضيت ليلة ممتعة فى الطريق بمستشفى (لوى) الذى استقرت فيه صديقتى دوريس (Doris) قبلى بأسبوعين لأنها لم تتعرض إلى أى تأخير فى الخرطوم. وبمغادرتنا لوى بقى أمامى يوم واحد لأستكمل رحلة الأسابيع الثمانية.

بينما كنا نواصل سفرنا متوغلين فى اتجاه الغرب، كانت أشجار الغابة تزداد كثافة، وكنا نرتج صعوداً وهبوطاً على مجرى ذلك الطريق الصلب الذى يعبر أميالاً من الأدغال. ثم بدأت أشجار المانجو وزيت النخيل تحيط بجانبى الطريق المؤدى إلى الإرسالية، محطتى النهائية. عندما وصلت إلى مسكنى الجديد فى يامبيو، وجدت هناك مارجريت بولى (Margaret Pooley) وديبولا وليسيمبلى (Debola Wallisimbli) اللتين جاءتا لاستقبالى. كانت مارجريت قد وصلت فى

---

(١) سلسلة من الجزر الطافية التى تغطى مساحة كبيرة من النيل الأبيض، وتحتوى على مختلف النباتات الطافية مثل نبات البردى والحشائش... إلخ.

العام السابق، أما ديبولا، وهى من يوغندا، فقد جاءت فى الأيام الأولى لمدرسة البنات التى بدأتها نورا إينلى (Nora Ainley) قبل عشرين عاماً أو أكثر، وكانت هى الأخرى قد جاءت إلى يامبيو من يوغندا. كانت ديبولا معروفة فى المنطقة حيث أنها كانت تدير روضة الأطفال، ولكنها فى الحالات الطارئة كانت تستدعى للقيام بعمل القابلة محلياً، وأثناء غيابها يكون للأطفال متسع من الوقت للعب.

رافقت مارجريت لتقوم بتقديمى إلى جون وهيلينا بارى (John and Hel- ena Parry) كان جون يتولى الإشراف على مدارس الكنيسة الخارجية بالمنطقة، كما كان هو القس المسئول عن المنطقة حسب التقليد الذى كان متبعاً آنذاك. لقد فرض علينا جون قانوناً يجب علينا التقيد به، وهو الالتزام بالحضور إلى "النادى الليلى" مساء كل سبت. كان ذلك يعنى عشاء خاصاً لنا الأربعة، ثم يلى ذلك لعب (الهارت) وهو إحدى لعبات "الكتشينة" (لها أسماء أخرى أيضاً). كان جون يقول إن هذه اللعبة تطرد غل الأسبوع وتجعلنا نستعد لاستقبال يوم الأحد، وكان ذلك بالتأكيد جزءا من حكمته التى كانت تساعدنا على الاحتفاظ بنوع من الإحساس بالتوازن.

فى وقت متأخر من ذلك اليوم الأول، جاءت كل المدرسة بمعلمتيها الشابتين مع باقة من الأطفال الصغار المحبوبين غير المرتبين الذين كانوا يرتدون أوراق الشجر وبعض الأسمال البالية. وكان كل ما استطعت أن أقوله لهم هو كلمة "سينى" التى تقال للتحية والترحيب، حيث أهدتنى مارجريت كتاباً لقواعد لغة الزاندى، وبذلك بدأت أولى محاولاتى لتعلم (البازاندى).

كان يجب عمل ستائر جديدة لمنزلنا الذى كان مبنياً من الطوب ومسقوفاً بالزنك، ولذلك كان حاراً جداً. وفى ذلك المساء ذهبت مارجريت إلى المدرسة وتركتنى لأواصل العمل فى خياطة الستائر، ولأرتاح قليلاً من (قواعد جور)،

وقالت لى: إذا أردت ماكينة خياطة ما عليك إلا ان تقولى فقط (مو بى نا مكينا). فى أثناء فترة العصر قلت هذه العبارة لثلاث فتيات مختلفات، ولكن لم تصلنى أية ماكينة خياطة. وعندما عادت مارجريت من مشوار المدرسة كان يبدو عليها بعض الضيق فصاحت قائلة: "هذه هى دراجتى"، ثم رأينا جميعا انه توجد ثلاث دراجات فى الخارج، واتضح أن كلمة "ماكينا" يمكن أن تكون دراجة أو ماكينة خياطة. لا شك اننا كنا سنعانى كثيراً لولا معرفتنا للغة البازاندى، ولكننا كنا نتقاسم معاً محاولاتنا بكل ما كان فيها من محن وبلايا.

كانت إرساليتنا تضم مدرسة داخلية للبنات، وكان ذلك يعتبر توجهاً جديدا حيث أن غالبية المدارس كانت نهارية وللبنين أساساً، مع قليل من البنات النهاريات اللائى لم يتجاوز عددهن أصابع اليد. ولهذا السبب كانت البنات يأتين لمدرسة يامبيو للبنات من أماكن تبعد ٨٠ ميلا. كان الآباء الذين يرسلون بناتهم إلى المدرسة هم فى العادة من المراكز المسيحية، أو من أولئك الذين كانوا يسكنون بعيداً، ولذلك كانت البنات يقمن بالمدرسة من شهر مارس إلى ديسمبر نظراً لبعد قراهن.

كان بالمدرسة ما يقرب من مائة بنت، وعادة لم تكن أعمارهن معروفة، وكانت أحجامهن مختلفة. كان كل من عنابر الداخلية العشرة يضم اثنتى عشرة بنتاً، وتلقب اكبرهن سناً بـ "أم العنبر"، وهى تشرف على الطبخ، وكان الجميع يشاركن فى تحريك "الباكيندى" وهى عصيدة تصنع من الذرة المحلية. كان الطعام متوافراً بكثرة مع وجود اليام، والفول السودانى، والذرة كغذاء رئيسى، بالإضافة إلى كثرة الفواكه مثل الأنناس، والمانجو، والباباى. كان لكل عنبر قطعة ارض صغيرة لزراعة "الخاص" من الخضروات مثل الطماطم، ولكن بما أن الزاندى يحبون اللحم، فكان الدينكا يأتون إليهم بالأبقار التى كانت تذبح فور وصولها. كنا لحسن الحظ نملك مفرمة لحم، ذلك أن لحم البقر، إذا لم

بفرم، يكون عسير المضغ، خاصة بعد ما تكون الأبقار قد سارت تلك المسافة الطويلة من بلاد الدينكا التى تقدر بأكثر من ١٠٠ ميل فى اتجاه الشمال. لم تكن يامبيو نفسها منطقة لتربية الأبقار، بسبب وجود ذبابة التسى تسى بكثرة. لذلك عندما يكون اللحم متوافراً، ينتشر الخبر بسرعة حول البلدة، ويريد كل شخص أن يحصل منه على نصيبه. غير أن اللحم كان يجب أن يطبخ ويؤكل فى نفس اليوم، ذلك انه لم تكن لدينا ثلاجة فى ذلك الوقت. حصل بعض الناس فيما بعد على ثلاجات تعمل بالكروسين، ولكنها كانت غير مضمونة، وغالباً ما تتوقف أو يخرج منها دخان مزعج. وطبعا لم يكن هناك غاز أو كهرباء، وإنما مصابيح زيتية وحطب للطبخ.

كانت الخضروات تنمو بصورة لا تصدق رغم حرارة الجو فى يامبيو المشبعة بالبخار، ولكن كانت الجراثيم الناقلة للأمراض تنتشر بكثرة. حاول مفتش مركز سابق مكافحة مرض النوم عن طريق إعادة توطين الزاندى على شوارع مخططة فى الغاية حتى يمكن تغطية أكبر عدد من الناس بحقنهم بلقاح مرض النوم بصورة منتظمة.

عند بداية الفترة الدراسية من كل عام، كان يتم فحص البلهارسيا لجميع بنات المدرسة، وكان ثلثهن على الأقل مصاباً بالمرض، ويجب علاجهن بحقنة يوميا لمدة ستة عشر يوماً، وأثناء هذه الفترة يشتد عليهن المرض، وحدث فى الواقع أن إحدى البنات الصغيرات قد توفيت أثناء فترة العلاج. كانت الملاريا أيضاً وباء مستوطناً، بل وكانت بعض البنات مصابات بالجذام، ولكن للسخرية الشديدة كان الوباء المرعب لنا بحق هو "الحصبة" التى كانت تصيب أربعين إلى خمسين من البنات، وكان باورو وسوزانا (Pauro and Susana) يتوليان تمريضهن. كان باورو رجلاً قصيراً مقوس الساقين، وله ابتسامة مدهشة، ومتزوجاً من سوزانا مشرفة المدرسة، ولذلك كانا يسكنان داخل المدرسة

ويعتبران كالأب والأم لأسرة المدرسة. لقد بذل الاثنان كل ما فى وسعهما لفصل حالات الحصبة من غير المصابات بها. فى ذلك الوقت كانت توجد شفخانة فى يامبيو، بالإضافة إلى مستشفى حكومى صغير فى مدينة ليرانجو على بعد سبعة عشر ميلاً. أن يوصف الكثيرون من أبناء الزاندى بالخمول والكسل ليس أمراً غريباً. ولكن كان يتعين عليهم أن يكونوا أكثر صلابة لمقاومة تلك الأمراض العديدة. لقد وجدنا كل المكان يتسم بالبطء الشديد لدرجة تثير السخط والغضب، إلى أن وجدنا أنفسنا نبطئ أيضاً فى حركتنا وأعمالنا بصورة تلقائية.

كانت توجد بمدرسة يامبيو روضة أطفال تتكون من أربعة صفوف لأطفال المنطقة. فى ذلك الوقت، مطلع الخمسينات، كان القليل من الأطفال يبقون بالمدرسة حتى الصف الرابع، وهؤلاء كانوا يتعلمون اللغة الإنجليزية بالقدر الكافى الذى يمكنهم من مواصلة تعليمهم بمدرسة (ياى) الوسطى الجديدة. عندما يأتى أحد الآباء طالباً أخذ ابنته لأنه قد تم سداد "مال الرمح" لزواجها، ما كانت الدموع ولا الصراخ يجديان، وما كنا نعرف كم من البنات يمكن أن يعدن إلى المدرسة فى بداية العام الدراسى الجديد، ولكن بالرغم من كل ذلك أخذ تعليم البنات ينتشر تدريجياً فى بلاد الزاندى.

كانت مارجريت تتولى إدارة المدرسة إلى جانب تدريس الصف الرابع، بينما أسند إلىّ تدريب مجموعة من البنات الأكبر سناً، اللائى لم يحرزن درجة القبول بمدرسة ياى الوسطى الجديدة، ليصبحن معلمات تحت التدريب، ولكنى كنت أقضى معظم الوقت مع البنات الأصغر سناً. وفى صباح أحد الأيام، وبينما كنت فى روضة الأطفال إذا بثعبان طويل أسود يطل من خلال النافذة، فنهضت إحدى الصغيرات مسرعة لإحضار باورو، بينما تسللت الأخريات بهدوء من أمامى إلى الباب. فجأة كانت هناك جلبة صاخبة عند النافذة، فإذا

بياورو قد سدد طعنة بالرمح للثعبان! كانت البنات وقد تعودن على رؤية الثعابين فى المدرسة، يحملن عصيهن استعدادا لقتل أى ثعبان صغير على المر، ولكن باورو كفانا شر الثعبان السداسى (أى طوله ٦ أقدام).

كان باورو فى أيام الأحد يخرج بدراجته إلى مركز للتبشير، أو لربما على بعد بضعة أميال إلى المراكز الخارجية لأبرشية يامبيو. كانت الكنائس النامية تعتمد على شخصيات قوية الإيمان مثل باورو وسوزانا لتصل إلى مناطق الزاندى الوثنية. وفى أثناء الأسبوع كان باورو يتولى رعاية مجموعة من العمال لإصلاح أسقف منازل الزاندى التى كثيراً ما كانت تنزلق عن مكانها، ولذلك أصبحت صيانتها صداعاً مستمراً. كان باورو فخوراً بابنه الذى كان أول زاندوى يلتحق بمدرسة رمبيك الثانوية، وكذلك بابنته التى أصبحت فيما بعد إحدى تلميذاتى المتدربات للالتحاق بمهنة التدريس.

كانت الخنازير البرية، تلك المخلوقات المخيفة، من الآفات التى تقوم باقتلاع نبات الفول السودانى من جذوره، إضافة إلى أن الغابة كانت أيضاً مرتعاً للفهود، وقد استطاع أحدها فى إحدى الأمسيات أن يجد طريقه إلى حظيرة الدجاج الخاصة بديبولا، فأغلقت عليه الباب. وفى صباح اليوم التالى جاء مفتش المركز وأطلق عليه النار، ولكن ليس قبل أن يلتهم جميع دجاج ديبولا. كانت هناك أفيال أيضاً، وعندما قام أحد حراس الصيد بقتل واحد منها بالقرب منا، خرج تلاميذ المدرسة صفاً تلو الآخر لرؤيته والقفز على ظهره. وفى اليوم التالى لم يبق من الفيل غير العظام، ذلك أن لحم الفيل يشكل وليمة من نوع خاص بالنسبة للأهالى. وبهذه المناسبة اعتقد أحد الصيادين من الأهالى أننا ربما نرغب فى لحم القرنتى (فرس النهر) الذى قام باصطياده فى نهر (يوزى) المجاور، ولكن عندما جاء إلى المدرسة بشاحنة ضخمة يغطيها الذباب، وتنبعث منها رائحة كريهة، لم يجد أى نوع من الترحيب.

كانت المنطقة تعج أيضا بمخلوقات أخرى صغيرة؛ فكانت هناك أعداد كبيرة من كثبان النمل الأبيض شبيهة بالأبراج الطويلة، وكان يعتبر من الآفات أيضاً، ويكفى أن أى جلباب يترك على الأرض فى الليل، يتحول فى الصباح الى خرق ممزقة، كذلك كانت أى كتب توضع أو تخزن بالقرب من الجدار تصبح بسرعة مليئة بالثقوب. لذلك كان على باورو مراقبة أعمدة سقوف العنابر التى يمكن أن تتجوف من الداخل ثم تنهار إذا تعرضت لهجوم النمل الأبيض. كانت البنات عندما يطير النمل، يقضين وقتاً ممتعاً فى ملاحقته وقتله وتجميعه فى الجرادل إذ كان يعتبر طعاما جيداً وغنياً، ولكن عندما قدمت لى ديبولا طبقاً من الحلوى مزيناً بالنمل الأبيض ليبدو كالزبيب الخالى من البذرة، اعترف بأننى لم استسغه.

قام ببناء كنيسة سانت جورج بيامبيو القس رايلى Canon Riley من استراليا، وأحد المبشرين التابعين لجمعية التبشير الكنسية الذى تسلم العمل من القس جور (Gore) والسيدة زوجته، وهما من أوائل الذين عملوا بالتبشير فى منطقة يامبيو. قام القس رايلى، بمساعدة كتيب عن المعمار لا تتجاوز قيمته ستة بنسات، بتشييد كنيسة ضخمة ليفاخر بها إحدى كنائس الأبرشية الإنجليزية الفيكتورية بعد أن قام بصنع الطوب محلياً. كان برج الكنيسة يحتوى على دعامتى قضيب سكة حديد استعملتا للقرع عليهما فى أوقات الكنيسة لعدم وجود جرس. وكان من الوسائل الأكثر فعالية فى إرسال رسالة ما للناس، هو طبل الزاندى الضخم الموجود فى خارج الكنيسة، وهو عبارة عن جذع شجرة مجوف يسمع دويه على بعد عشرة أميال فى الغابة. كانت الكنيسة مسقوفة بحشائش الفيل المحلية الطويلة ولكن فى غير انتظام، لذلك كان المرشحون للتعميد الدينى (confirmation) يقومون فى العادة بترميم السقف عندما يحضرون من جميع أنحاء المنطقة لحضور هذه المناسبة التى كانت تقام سنوياً.

فى ذلك الوقت كان الأسقف اليسون (Bishop Allison) هو المطران المساعد فى السودان، وكان يقوم برحلة سنوية إلى جميع مناطق الجنوب لإجراء التعميد الجماهيرى الذى يقام سنوياً كما ذكر آنفاً. كان الجميع يتطلعون إلى حضوره بشغف لأنه كان يستطيع ان (يدردش) مع كل قبيلة بلغتها المحلية، كما انه كان يتذكر قدامى تلاميذه بمدرسة (لوكا) ويعرفهم بالاسم مما كان له أطيب الأثر فى نفوسهم.

فى عام ١٩٥٢ جاء الأسقف جيلستورب (Gelsthorpe) مطران السودان، لحضور مناسبة رسامة (Ordination) القس جون بارى، وصادف ذلك وجود اثنين من الرواد الأوئل هما رئيس الأساقفة شو (Shaw) والقس إيويل Canon Ewell) اللذين كانا أيضاً فى زيارة للمنطقة فى ذلك الوقت، مما أتاح فرصة طيبة لاجترار ذكريات أيام الكنيسة القديمة فى يامبيو، والتمتع بما طرأ عليها الآن من نمو مثير منذ ذلك الوقت.

بعد ذلك بوقت قصير غادرنا جون وهيلينا بارى لتسلم مركز تدريب معلمى اللغة العامية فى ياى، وخلف جون بارى فى الإشراف على المدارس القروية جون بلمترى (John Plumtree) . ثم جاء ديفيد براون (David Brown) الذى أصبح فيما بعد أسقف جيلدفورد، فى أول جولة له مع جمعية التبشير الكنسية استعداداً للتدريب اللاهوتى، حيث كنا فى مطلع الخمسينات نتمتع بصلاتنا مع المسئولين فى الحكومة البريطانية. كان هناك بالإضافة إلى مفتش المركز ضباط زراعيون يتولى بعضهم مهمة تشجيع المواطنين على زراعة القطن، وفى عام ١٩٥١ تم بناء محلج القطن فى مدينة أنزارا على بعد خمسة عشر ميلا، لإنتاج نوعية جيدة من القطن، بالإضافة إلى الصابون كمنتج مشتق من بذرة القطن، بينما كانت المخلفات تستخدم كوقود لتوليد الطاقة.

كان قصب السكر يزرع بكميات وافرة، ويتم تكريره فى (ساكورى لانيتورا) على بعد أربعة أميال فقط من يامبيو. وكانت هناك مدرسة للتدريب

الزراعى يديرها معلمون حكوميون من بريطانيا، وكذلك بداية إنشاء محطة الأبحاث التى كان لبيير دى شليب (Pierre Schlipe) دور بارز فى إنشائها، وكان قد قضى بضعة سنوات فى الكونغو. اشتهرت هذه المحطة بمختلف المشاريع فى بداية الستينات، حيث أجريت تجارب فى تصدير الأناناس، الذى كان يزرع بكميات كبيرة جداً، إلى الخرطوم. وكان يشحن باللوارى فى أقفاص خاصة إلى جوبا، ومن هناك إلى الخرطوم عن طريق الجو. كما كانت هناك أيضاً أفكار أخرى بشأن استغلال الإمكانات الهائلة للكثير من الأشياء التى يمكن إنتاجها فى يامبيو (الفاكهة، والسكر، وزيت الطعام) وتصديرها إلى أسواق العالم، ولكن من المحزن أن الحرب فى الجنوب لم تترك مجالاً لذلك.

بعد سنة واحدة تقريباً تأهلت طالباتى اللائى كن تحت التدريب كمعلمات، وبذلك توفر لنا عدد ست معلمات جديدات. كان ناظر مدرسة قرية (دياوو) التى تبعد حوالى أربعين ميلاً، قد قام ببناء عنبر للطالبات يسع ثلاثين أو أربعين طالبة، ولذلك طلب إمداده بمعلمتين. كانت هذه المدرسة الجديدة (الابنة) مشروعاً مثيراً، وقد حظيت منذ البداية بدعم وحماس الزعيم المحلى الذى قمنا بزيارته مع زوجاته العديدات.

بعد شهر أو أكثر، وردت أخبار بأن جميع الطالبات قد هربن من المدرسة مدعيات أن بعض "الأرواح" أخذت تقذف العنبر الجديد بالحجارة فى الليل. وعندما ذهبت للتحرى فى الموضوع، فوجئت بأن عدداً قليلاً من الطالبات قد بقى فى المدرسة ولكن كن يقضين الليل فى سكن المعلمة الصغير. قضيت تلك الليلة مع الطالبات فى عنبرهن، وفى الحقيقة كانت هناك حجارة تأتى وتتبعثر داخل العنبر من الفراغ تحت السقف، فاقترحت على الناظر أن يعمل على إغلاق هذا الفراغ بالقش، ولم تعد هناك مشاكل بعد ذلك.

أصبحنا الآن فى عام ١٩٥٥، وقد غادر الإداريون البريطانيون البلاد. وصل إلى يامبيو أول مفتش مركز شمالى، وحاول بشدة أن يكون مقبولا لدى

المواطنين ويكسب احترامهم، ولكن الزاندى لم يكونوا سعداء بتعيين (شمالى) فى المنصب، بل كان هنالك الكثير من التذمر، كذلك حدث تغيير آخر وهو أن بعض التجار العرب فتحوا متاجر فى البلدة، بينما كان التجار الإغريق يغادرون، وتم أيضا بناء مسجد صغير.

فى اواخر عام ١٩٥٥ ذهبت مع مارجريت وطالبات الصف الرابع إلى دياور لحضور "اليوم المفتوح"، وجاء زعيم القرية والأهالى لمشاهدة البرنامج الذى أعدته الطالبات، وكان يوماً سعيداً. عدنا بعد ذلك إلى يامبيو بالشاحنة، وفى صباح اليوم التالى جاء إلينا جون بلمترى ليخبرنا بالمجزرة التى حدثت فى نفس الطريق الذى جئنا به فى الليل. لقد قتل العديد من الشماليين بمن فيهم بعض الإداريين، وقد تشتت من هربوا منهم على طول الطريق الذى سلكناه من دياور قبل ساعات من الحادث.

كنا فى ذلك اليوم نتوقع وصول الأسقف دونالد كوجان (Donald Cogan) وكريستوفر كوك (Christopher Cook) سكرتير البعثة، مع أنه كان من النادر أن يأتى إلينا زوار لأننا كنا فى "نهاية الخط". وصل الضيفان فى وقت متأخر بعد رحلة محفوفة بالمخاطر، وكان ضمن أغراض الزيارة أن يقدم الأسقف كوجان محاضرة فى كلية الأسقف جواين (Gwynne) بمدينة مندرى التى أصبح ديفيد براون، أحد تلاميذ الأسقف كوجان، عميدا لها، ولكنهما رأيا أنه من الأنسب أن يعودا إلى جوبا فى اليوم التالى بأسرع ما يمكن.

كان صوت إطلاق الرصاص عند المركز مثيراً للأعصاب، مما جعل الطالبات اللائى يسكن فى الجوار يركضن إلى أهليهن، أما من بقين فقد كن تحت رعاية باورو وسوزانا اللذان اخذاهن ودخلا بهن الغابة، وأخيراً ذهبت أنا مع مارجريت إلى (دنقو) بالكونغو، ومن هناك إلى ياى، ثم خرجت فيما بعد إلى الإجازة، بينما رجعت مارجريت إلى يامبيو لإعادة الأمور إلى نصابها

واستئناف الدراسة مرة أخرى. أما جون بلمترى فقد قضى فترة فى سجن يامبيو، ولكنه لم يكن يعرف أى سبب لذلك. صارت الحياة كالحة رتيبة، خاصة بعد أن أصبح من الصعب تلقى أخبار دقيقة. استطاعت مارجريت أن تشرع فى إنعاش مدرسة البنات مرة أخرى مع كبار طالبات مدرسة (مونو)، وبعض الطالبات من لوى بصحبة أثنتين من معلماتهن. وفى ديابوو تزوجت ابنة باورو من ابن زعيم القرية، ولكن لحسرة باورو وسوزان، فقد اختفيا سوياً فيما بعد وانضما إلى الثوار فى الغابة.

عندما عدت من الإجازة نقلت مارجريت إلى مريدى، وجاءتنا مارى شابمان (Mary Chapman) فى جولة وحلت محلها. بعد ذلك تقرر عدم تجديد تصاريح العمل تدريجياً لزملائنا الأجانب، وبحلول عام ١٩٦٢ أصبحت الراهبة الوحيدة فى يامبيو. كانت إجازتى شهرين فى العام، وكنت فى العادة آخذها فى يناير وفبراير، غير أن ضغط العمل ظل مستمراً، خاصة أنه كان علينا أن نتقيد بالقانون الجديد بجعل يوم الجمعة عطلة رسمية على أن تستمر الدراسة فى أيام الأحد، ولم يكن وقع هذا القانون طيباً على الناس.

انتشرت الشائعات. كان مفتش المركز الشمالى يشدد الرقابة، ولكن عندما خلفه المفتش الجديد جاء إلى المدرسة بعربة مليئة بالجنود، مما أدى إلى دخول الطالبات إلى الغابة، فسألنى: "لماذا فعلن ذلك؟" وعندما شرحت له أنهن خائفات من الجنود، علق قائلاً: "أنتم ليس لديكم مشكلة، عندكم باورو." مما يعنى اعترافاً صريحاً بالتقدير الذى كان يكنه المسئولون الشماليون لباورو.

فى ذلك الوقت كان الأسقف يريمايا (Yeremaya) يسكن فى يامبيو، ويتمتع أيضاً باحترام المسئولين الشماليين، واعتاد أن يدعوهم إلى الحفل الذى كان يقيمه سنوياً بمناسبة عيد الكريسماس، حيث يقف مع وزوجته عند مدخل منزلهما للترحيب بالضيوف، وكان ذلك شيئاً جديداً بالنسبة للمسلمين الذين

لم يعتادوا اصطحاب زوجاتهم معهم، ولكن روحهما الودية كانت محل التقدير. كان العديد من الأهالى خائفين ومنزعجين، ولكن الأسقف بريمايا كان يرى أن هذا الشاهد المسيحى مهم جداً.

فى مطلع عام ١٩٦٤ ذهبت لقضاء الإجازة فى يوغندا، وأثناء وجودى هناك وردت الأخبار فى شهر فبراير بطرد جميع من تبقى من الأجانب، ولذلك لم أستطع العودة، ثم أغلقت المدرسة بعد ذلك. والآن بعد أكثر من ثلاثين عاماً ابتلعت الغابة مبانى المدرسة، وفتحت مدرسة جديدة يتولى إدارتها بعض المعلمين من تلاميذى.

وين كوبر (Win Cooper)

■■■

في أكتوبر من عام ١٩٥١ كنت في (فنجاك) بمديرية أعالي النيل في السودان. وكان موسم الأمطار الذي بدأ في أواخر أبريل يقترب من نهايته، وبدأت الطرق تجف فيما عدا بعض الجسور التي لم تزل مليئة بالمياه بحيث يتعذر استعمالها بواسطة العربات. كان ارتفاع الحشائش يصل إلى حوالي ستة أقدام، ولكنها بدأت تميل إلى الاصفرار، وبدأت سنابل الذرة في النضوج ليبدأ الحصاد بعد حين قصير. في إحدى الأمسيات، بينما كنت جالساً في الفرندة أقرأ في ضوء مصباح الجاز، جاءني (عُث طُقطُق) رئيس الخدامين الثلاثة الذين كانوا يعملون لدي، وأبلغني بأن (كولانق بيلى) أمباشي شرطة المركز يريد مقابلتي.

دخل (كولانق)، وهو أحد أبناء النوير وظل يعمل في خدمة الشرطة حوالي عشرين عاماً. كان قوي البنية، ذكيا، وصريحاً، ومتمرساً، وأميناً، ويتمتع بكامل الصفات الحميدة المرجوة منه. قال لي إنه قد وصلت أخبار إلى فنجاك مفادها أن قتالاً قد نشب بين فرعين من قبيلة النوير، وذلك في اتجاه الشمال الغربي على بعد حوالي خمسة وثلاثين ميلاً داخل جزيرة الزراف، وأن القتال قد دخل الآن في يومه الثاني، ويشارك فيه عدد كبير من الرجال، وسينضم إليهم المزيد ما لم تتخذ الإجراءات اللازمة لوقفه. وأضاف أنه يتعين عليّ أن أغادر مع طلوع الشمس، وأن آخذ معي أكبر عدد يمكن الاستغناء عنه من رجال الشرطة، على أن تسبقني رسالة إلى هناك بأنني في الطريق إليهم. كما يجب توجيه رسالة أخرى إلى زعماء القبائل الفرعية المجاورة، الذين يجب أن يكونوا من

المحايدين الذين يتمتعون باحترام الجميع، وأطلب منهم الوصول إلى موقع القتال فى أسرع وقت ممكن، لأجل المساعدة فى وقف القتال، ومن ثم الاستماع إلى طرفى النزاع ليقرروا على من يقع اللوم، مع إصدار العقوبات المناسبة.

وافقت على جميع ما قاله كولانق، وبناء على ذلك كان يجب أن ينطلق العداؤون بهذه الأوامر فى نفس تلك الليلة، وأن أغادر أنا فى الفجر ومعى خدمى والسايس، والحصان، وجميع الاحتياجات اللازمة لقضاء حوالى عشرة أيام فى ظل إحدى أشجار الشوك. لا أذكر الآن هل كان على كولانق أن يأتى معى أم يتولى المسئولية فى فنجاك؟ هل كان يتعين علىّ أن آخذ العدد الكافى من الشرطة؟ لم أستطع ذلك، لأن مجموع رجال الشرطة الموجودين فى فنجاك فى تلك الليلة كان حوالى ستة عشر فرداً، وأنه يجب إبقاء نصف هذا العدد بالبلدة، ومعنى ذلك أن ثمانية منهم بالكاد ربما يستطيعون التعامل مع مثل هذا القتال الكبير. كان الحل الذى توصلنا إليه هو تعزيز الثمانية باختيار ثمانية من المساجين، وتحويلهم فى ليلة واحدة إلى شرطة قبلية، ولكنهم بالطبع لم يكونوا مثل شرطة المركز، لأنهم بدلاً عن الزى الكاكى والبنادق، كانوا يعقدون على أكتافهم قطعة قماش خضراء، ويحملون رماحاً، ولكنهم مع ذلك سوف يساعدون فى إنجاح المهمة، وهكذا كان الأمر. مع بزوغ شمس اليوم التالى، كنت وفريقى قد تحركنا فى اتجاه الشمال الغربى عبر غابات السنط إلى ما وراء نهر الزراف يتقدمنا مرشد الطريق، وبعده أنا على حصانى، ثم رجال الشرطة الحقيقيون، يليهم الثمانية غير الحقيقيين، ثم خدمى الثلاثة، فالسايس، ثم الحمالون المكلفون بحمل عدة السفر التى كانت تشمل الطعام، والقدور، والبطانيات، والسرير السفرى، والطاولة القابلة للطى، والكرسى، والمصباح، والناموسية، وبعض الملفات والسجلات، وكتاب أو كتابين، وبعض أدوات الكتابة، والبندقية. كل ذلك ؟ هذا النوع من القتال يجب عدم التعامل معه على عجل إذا ما أريد للقرارات التى يتم التوصل إليها أن تحظى بالقبول،

وتؤدى إلى إعادة السلام. لذلك كانت الحكمة تقتضى أن نكون فى وضع مريح تحت أى شجرة من أشجار الشوك التى سنتخذها مقراً لنا خلال الأيام التالية.

وأنا أكتب الآن، أجد أن بعض البلاد التى عبرناها فى ذلك اليوم لا زالت فى عين الذاكرة. كانت هناك غابات أشجار السنط بلحائها الأحمر وأشواكها المستقيمة البيضاء الطويلة، ومن وقت لآخر كانت تظهر أشجار الفايكس ذات الخضرة الدائمة بضخامة أشجار البلوط وبثمر التوت الذى تحبه طيور الحمام الخضراء. كان الطريق يتعرج أمامنا وسط الحشائش الطويلة إلى أن وصلنا إلى مجموعة المبانى الصغيرة التالية، وحظائر للماشية مخروطية الشكل، ومبنية من القش بارتفاع ثلاثين قدماً، وبالقرب منها اثنتان أو ثلاث من القطاطى(الأكواخ) أصغر حجماً يسكن فيها أصحاب الماشية. كان القرع ينمو فوق السطوح، وصغار العجول مربوطة إلى أوتاد بالقرب من الحظيرة. كنا كلما سرنا مسافة أبعد، كلما قل عدد الرجال حول القطاطى أو فى حقول الذرة المجاورة، وبعد الظهيرة لم يكن هناك أحد منهم، فقد ذهبوا جميعاً إلى القتال، ولم يبق فى القرية غير النساء والأطفال الذين حصلنا منهم على أخبار تفيد بأن جولة أخرى من القتال قد دارت فى ذلك اليوم، وأن الزعماء المحايدين قد بدءوا فى الوصول إلى المكان.

فى صباح اليوم التالى وصلنا إلى مسرح الأحداث الذى كان عبارة عن واد ضحل يتوسطه عدد من أشجار السنط، مع منحدرين مفتوحين على الجانبين تتناثر فيهما بعض الحشائش القصيرة. جاء إلينا كيك وار (Kic Wur) وهو أكثر الزعماء المحايدين احتراماً. كان لونه أسود فاحماً، وجسمه نحيلاً كأداة جمع العشب، وأسنانه قليلة جدا، وكلامه لطيفاً، وكان يرتدى قميصاً ورداء من الكاكى، مع قبعة حكومية مزينة بالريش، ويلبس فى أعلى ذراعه سواراً "قوور" عرضه بوصتان (كان كل رجل من النوير يحترم نفسه يلبس هذا السوار)،

ويحمل غليوناً طوله قدمان، وكرسياً قابلاً للطى مخلعاً. شرح لنا كيك الوضع بأنه وبقية الزعماء المحايدين قد وصلوا فى اليوم السابق أو أثناء الليل وتمكنوا من فصل الفريقين الخصمين عن بعضهما، وأضاف أن عدد المتورطين يبلغ ٨٥٠ رجلاً، ٥٠٠ منهم من قبيلة، و٣٥٠ من قبيلة أخرى، وأنه فى المنحدر الذى كنا نقف عليه يوجد ٥٠٠ رجل مسلحين بالرماح، وفى المنحدر المقابل يوجد ٣٥٠ رجلاً من القبيلة الأخرى مسلحين بالمثل. وأضاف أن رجال القبائل المحايدة قد دخلوا فيما بين الفريقين، ونصح بأن أقوم أنا وفريقى بالانضمام إليهم، ونعسكر تحت الأشجار فى بطن الوادى. ذهبنا إلى هناك حيث سبقنا الخدم والسايس لتجهيز المعسكر: الكرسى والطاولة تحت شجرة شوك ضئيلة الظل، وبجانب الطاولة الصندوق المعدنى وبداخله الملفات والسجلات، والسرير والناموسية تحت شجرة أخرى على بعد بضعة ياردات، وحولهما النار والقدور والمقلايات والطعام، وقرب الماء معلقة على أغصان الأشجار.

جلس قائدا الفصيلين المتحاربين، وكيك وزملاؤه من الزعماء المحايدين وشخصى تحت شجرة، واتفقنا على ما يجب عمله. تقرر أن يبقى كل جانب فى مكانه على منحدر الوادى، وعلى الزعماء المحايدين أن يجدوا إجابة على عدد من الأسئلة: ما هى أسباب القتال فى المقام الأول؟ وكم عدد القتلى من الجانبين؟ ومن هو المسئول عن مقتلهم؟[1] من هم الرجال الآخرون المسلحون بالرماح من الجانبين؟ ومن قام بتسليحهم؟ وكم عدد الرجال الآخرون الذين اشتركوا فى القتال من كل جانب؟ وأخيراً، ما هى العقوبة المناسبة لكل من الثمانمائة والخمسين فرداً المتورطين فى القتال؟ وما هى العقوبة الجماعية

(١) حسب عادات النوير يكون الشخص مسئولاً عن القتل إذا كان هو أول من سدد للميت طعنة برمحه بصرف النظر عن أى رأى آخر يبديه الطبيب حول احتمال أن يكون قد أعقب ذلك طعنة أخرى من شخص آخر وتكون هى سبب الوفاة. وقد أدى قبول هذا المبدأ إلى تسهيل عملية تحديد الجناة وعقابهم، ولم يحدث أن ترددت فى تطبيق هذا المبدأ طوال فترة عملى بين النوير.

التى يجب توقيعها على القبيلتين بما لا يشجع تكرار حرب من هذا القبيل فى المستقبل؟

بينما كان أولئك الزعماء الذين يستحقون كل الإعجاب يقومون بإجراء تحرياتهم، ماذا كنت أفعل وأنا أنتظر النتيجة؟ لم يكن بإمكانى غير التخمين، ويحتمل أننى كنت أطالع بعض الخطابات المكتبية التى جاءت مع الملفات فى ذلك الصندوق الحديدى، ومن المؤكد أننى أكون قد قرأت أية تقارير عن المشاكل السابقة بين القبيلتين، وبالتأكيد أننى كنت أقرأ كتاباً من وقت لآخر، وبالتأكيد أيضا أننى كنت أشاهد تلك الطيور التى تدخل فى مدى منظارى القديم من نوع (Zeiss). كانت هذه الطيور بألوانها الزاهية توجد بكميات كبيرة فى جزيرة الزراف أكثر من أى مكان آخر رأيته فى حياتى. كانت هناك طيور الباتلير، ونسور الأسماك، وطيور الكاتب، والحبارى، والكركى ذو العرف الذهبى، بالإضافة إلى مجموعة من مختلف الطيور آكلات النحل، والرفراف، وكثير غيرها. غير أنه مهما كانت تحركاتى، فقد كنت موجوداً باستمرار فيما لو أراد أى فرد من النوير مقابلتى، ولا بد أن حضورى ووجود الشرطة قد ساعدا على عدم تشجيع أى اشتباك جديد.

لربما كان هو اليوم الثالث الذى علمت فيه من كيك أنهم يواجهون مشكلة. لقد تلقوا إجابات على جميع أسئلتى باستثناء شرط واحد هام هو أنهم قد تعرفوا على الرجال المسئولين عن مقتل أربعة من الخمسة الذين لا قوا حتفهم، ولكنهم لم يتوصلوا إلى معرفة القاتل الخامس، وكان من الضرورى أن يتعرفوا عليه، وإلا فإن أية تسوية نقوم بها سوف تجعل الجانب الذى ينتمى إليه القتيل الخامس يشعر بالغبن، ومعنى ذلك أن يبدأ القتال مرة أخرى. وافقت أنه لا بد من معرفة القاتل الخامس بأى وسيلة أو أخرى، ولذلك واصل كيك حديثه واصفاً الكيفية التى يرى أن يتم بها ذلك.

قال كيك إن من أسوأ الأعمال لدى النوير هو أن يأكلوا أو يشربوا شيئاً يخص شخصاً قاموا بقتله، والأسوأ من ذلك إذا حلت على هذا الفعل لعنة (كجور جلد النمر). واسترسل قائلاً إن القاتل المجهول لا بد أن يكون من بين الـ ٢٥٠ رجلاً الذين يشكلون أحد الجانبين، وذلك لأن القتيل ينتمى إلى الجانب الآخر. وبما أن القتيل كان يمتلك بعض الماعز، لذا كان الحل فى نظره هو أن نرسل فى طلب أكثر كجور جلد النمر احتراما فى المنطقة، وبعد وصوله سيطلب من الـ ٢٥٠ رجلاً كل على حدة أن يشرب جرعة من حليب ماعز القتيل، ويتناول قطعة من لحمها. بعد ذلك يقوم الكجور بإحلال لعنته على من قتل صاحب الماعز أيا كان. وهذا هو ما حدث مع أنه قد تم بعد يومين أو ثلاثة لأن كاهن جلد النمر كان فى رحلة خارج المنطقة، واستغرق الحصول عليه كل هذا الوقت.

لم يحدث شىء فى بقية اليوم الذى تلا إحلال اللعنة، ولكن فى منصف الليلة التالية أُيقظت من النوم، فوجدت كيك ومجموعة من أبناء النوير يقفون حول سريرى. لقد تبين لى حتى بضوء المصباح أن شيئاً جسيما قد حدث لواحد منهم بعينه، ذلك أن وجهه كان شاحباً مما يدل على أنه الرجل المطلوب، وأنه من المتوقع أن يموت قبل أن ينبلج الصباح، ما لم يرفع كجور جلد النمر لعنته عنه. لقد أراد كيك أن اسمع ذلك من الرجل حتى لا يقال فيما بعد أن الاعتراف لم يتم. وهكذا لا بد أن تكون اللعنة قد رفعت عن الرجل لأنه وجد حياً فى اليوم التالى، وبلونه الأسود المعتاد، ولم يكن لديه أى ميل للتراجع عن أقواله.

تم استكمال تسوية القضية فى اليومين التاليين. وبعد رجوعى للمركز بفترة قصيرة، أثار معى زعماء القبائل ضرورة تحديد عقوبات ثابتة للاقتتال بين القبائل. وبالفعل تم وضع قائمة عقوبات متفق عليها لتطبق فى أى نزاع يقتل فيه أحد الأشخاص، فأصبحت عقوبة المشاركة فى مثل هذا النزاع ستة أشهر سجناً، ولمن يجرح شخصا اثنا عشر شهراً سجناً، ولمن يقتل شخصاً أربع

سنوات سجناً. أبلغنى كيك والزعماء المحايدون فى حضور الـ ٨٥٠ رجلاً، أنه يجب تطبيق هذه العقوبات عليهم. سألت ما إذا كان أى من أولئك الرجال يشعر بأنه مظلوم ويريد استئناف الحكم، فلم يتقدم منهم أحد. لذا قمت بتدوين هذه النتيجة فى سجل المحكمة، ثم قام كيك بشرح ما توصلوا إليه حول الأسباب التى أدت إلى نشوب القتال، وأى الجانبين يقع عليه أكثر اللوم. إن كل ما أذكره الآن حول هذه القضية هو أن الجانب الذى أدين قد فرضت عليه غرامة قدرها عدد معين من الماشية، وتم قبول ذلك باعتباره حكماً عادلاً، وسجل ملخص القضية فى سجلات المحكمة. دعنى أضيف أن مفهوم "القتال العادل" كان مهماً جداً من وجهة نظر النوير. إنه شىء مشرف لأى فرد فى القبيلة، ولذلك يجب أن تكون عقوبته خفيفة، ويكفى فقط منع مواصلة القتال إلى ما لا نهاية. أما "القتال غير العادل" مثل وضع كمين، أو طعن رجل من الخلف فذلك أمر آخر ونادر الحدوث، ومن ثم لا بد أن تكون عقوبته شديدة. أوردت هذا للمناسبة فقط.

عندما تم قيد آخر كلمة فى السجل، كان وقت ما بعد الظهيرة قد انقضى، فودعنا بعضنا البعض، وتفرق الجميع فى اتجاهات مختلفة. سلك الزعماء المحايدون وكجور جلد النمر الطريق الذى يؤدى بهم إلى أهلهم، أما الثمانمائة وخمسون رجلاً فقد شكلوا صفين، أحدهما يتكون من ٥٠٠ والآخر من ٣٥٠ رجلاً، واتخذ رجلان من شرطة المركز، وشرطة الشرف القبلية مكانهم فى المقدمة، وأربعة آخرون فى الوسط، والباقون فى المؤخرة، واتجهوا جميعاً إلى فنجاك وهم ينشدون ويغنون. كانت جوقة غنائية ممتازة جهيرة الصوت، أما أنا وحاشيتى المباشرة، فقد أقلنا أحد لوارى المركز. وكان لنهاية فصل الأمطار، وجفاف الأرياف، والصدفة التى جعلت ذلك القتال يدور على أحد الطرق، الفضل فى مساعدة السائق على إتمام الرحلة بنجاح. هكذا توجهت إلى فنجاك، وفى مخيلتى الاستمتاع بحمام جيد بعد قضاء تلك الأيام، وغناء المساجين يشنف أذنىّ من على البعد.

فى اليوم التالى، وعند نقطة معينة، سمعنا صوت الغناء مرة أخرى. جاءنا من وراء النهر، وفى البداية من مسافة بعيدة، ثم أخذ يقترب تدريجياً. وأخيراً كان هناك ٨٥٠ رجلاً على الضفة الأخرى لنهر الزراف يطرحون أول مشكلة من جملة مشاكل أخرى نوعها ينبغى إيجاد الحلول لها دون إبطاء: كيف يعبرون النهر؟ بالبنطون الذى كانت تستخدمه العربات مع حشر أكبر عدد منهم فى كل مرة، ولكن ليس كثيراً جداً، وذلك لأن النهر عميق وكان يجرى بقوة، بالإضافة إلى أنه موطن للتماسيح. أضف إلى ذلك أن السجن لم يكن يتسع إلى أكثر من ستين سجيناً. أين يتم إنزالهم إذن؟ فى الخارج تحت أشجار النيم[1] التى تحيط بمساكن الشرطة، بعد تقسيمهم إلى مجموعات تضم كل منها عشرين شخصاً، وتخصص لها شجرة أو شجرتان. ما هو الطعام الذى يقدم لهم؟ الذرة بواقع رطلين فى اليوم للرجل الواحد. لذلك، ونسبة إلى هذا العدد الكبير كان كلما أسرعنا فى إحضار مائتى جوال ذرة من ملكال بباخرة المديرية، كلما كان ذلك أفضل. من يطحن الذرة و من يقوم بطبخه؟ زوجات وأخوات السجناء. كيف لنا أن نتأكد من حضور كل سجين فى كل يوم؟ لم يكن بالإمكان مناداة الأسماء لمعرفة الغائبين لأن ذلك سيستغرق وقتاً طويلا، ولذلك كان يجب أن نثق فى أمباشى وكاتب الشرطة اللذين كان عليهما أن يتأكدا، عند غروب الشمس فى كل يوم، من حضور كل المجموعات، ووجود عشرين رجلاً فى كل مجموعة.

فى خلال الأسبوع التالى، جاءت باخرة المديرية بالذرة، وعادت إلى ملكال بخمسة وستين سجيناً حكم عليهم بالحبس لأكثر من ستة أشهر. أما الباقون وعددهم ٧٨٥، فيتم استغلالهم فى أى عمل أختاره لهم. لذلك تفاوضت مرة أخرى مع زعماء جزيرة الزراف، وكانت النتيجة أن يقوم السجناء برفع مستوى الطرق الرئيسية فى الأماكن المنخفضة التى غالباً ما تغمرها المياه أثناء فصل

(١) شجر دائم الخضرة أصله من الهند، واستورد إلى السودان فى عهد الحكم الإنجليزى.

الأمطار. لقد تم تثبيت تلك الأماكن بالفعل، وكان السؤال كم هى كمية التراب التى يتوقع أن يحفرها الرجل الواحد ويردم بها الطريق فى اليوم الواحد؟ كانت هناك أخطاء فى بعض الأمور، ولذلك كان لا بد من تعديل بعض الخطط، ولكن عموماً أخذ العمل يسير بانسياب تام وبروح طيبة من الدعابة والمرح. لقد وضح أن كمية التراب الواجب ردمها حسب قرارى الأول كانت كبيرة جداً، ولذلك كان يجب تخفيضها. بعد بضعة أشهر جاء مراجعو الحسابات إلى فنجاك فوجدوا أن كمية الذرة الموجودة أقل مما يفترض أن تكون، ولم يرد فى تقريرهم أية تهنئة لمفتش المركز أو إدارته. غير أن بعض الأمريكيين الذين كانوا يديرون بعثة تبشيرية على بعد عشرة أميال من فنجاك جاؤوا إلينا فى أبهى ملابسهم، وقدموا لنا التهانى، وكان ذلك بعد وصول السجناء بقليل. أخذ السجناء يأكلون ويزدادون وزناً، ذلك أن الحصة اليومية المقررة لهم من الطعام كانت تزيد كثيراً عما تعودوا عليه فى حياتهم العادية. أما الطرق الرئيسية فقد أصبحت نعمة على الناس. وفيما يتعلق بالمشاكل بين فرعى قبيلة النوير، فقد تم التعامل معها بصورة جيدة أنهت كل إشكال بينهما. وأهم من ذلك ان المساجين لم يهرب منهم إلا واحد فقط، ولكنه ترك رسالة يقول فيها انه يجب ان يهرب لأن اخته ستتزوج ولكنه سيعود، وقد عاد بالفعل.

هل كل ما ورد أعلاه حقيقة؟ اعتقد ذلك، رغم أنه قد مضى عليه أكثر من اربعين سنة، ولكن إذا شابه اى تحريف أو تشويه، فلربما أكون قد نسبت معظم الفضل إلى نفسى. غير انه لم يكن لنا غنى عن مساهمة الآخرين بطرقهم المختلفة: أمباشى ورجال الشرطة الآخرون، والزعماء المحايدون، وكجور جلد النمر. وفى الواقع اننى بدون مساعدتهم لم اكن لأستطيع إعادة الأمن والسلام إلى ربوع المنطقة، ولكن بالمثل، فإنهم بدونى ما كانوا سينجحون أيضاً.

بيل كاردين (Bill Carden)

■■■

11

حكاية المرضة

Sudan Canterbury Tales

فى نهاية الحرب العالمية الثانية، كان الدافع للسفر والعمل بالخارج قوياً جداً فى أوساط الكثيرين من أصدقائى، وكان بعضنا يرغب فى الالتحاق بالقوات المسلحة بعد إكمال فترة التدريب للتمريض العام التى تمتد لأربع سنوات. غير أن الحكومة لم تستجب لذلك الخيار، وإنما تم توجيهنا للالتحاق بدورة تدريبية فى فن القبالة (توليد النساء). ولربما كان ذلك مقدمة لزيادة متوقعة فى عدد المواليد فى ما بعد الحرب. بعد أن أكملت هذه الدورة، وعندما رفع الحظر عن السفر، خطر لى أن الالتحاق بدورة تدريبية أخرى فى أمراض المناطق الحارة ربما تكون فكرة جيدة، لأننى فى ذلك الوقت كنت على وشك التقدم بطلب إلى مكتب الخدمات الطبية الاستعمارية، ومصلحة الخدمات الطبية السودانية للحصول على وظيفة.

وصلنى رد الأخيرة برجوع البريد، وبعد إجراء مقابلة شخصية فى لندن، تم قبولى، واقترحوا على السفر عن طريق البحر واستلام عملى خلال شهرين أو ثلاثة. يمكنك أن تتخيل مدى دهشتى عندما تم الاتصال بى، وطلب منى أن اسافر جواً إلى السودان بأسرع ما يمكن، على أن يتبعنى ما ثقل من عفش طريق البحر. لقد دفعتنى هذه العجلة إلى الاعتقاد بأن أزمة أو وباء ما ينتظران وصولى، ولا زلت أجهل حتى اليوم سر ذلك الاستعجال، وبالتأكيد عندما وصلت كان كل شىء هادئا تماماً. خلال تلك الأسابيع المليئة بالقلق، وأنا اقوم بتجهيز الزى الرسمى وأمتعتى الشخصية، وأحاول تعلم بعض العبارات العربية، كنت دائماً أُسأل: "لماذا السودان بالذات؟"، هذا البلد الذى كانت

معلوماتى عنه شحيحة، ولو أنى سريعا ما اكتشفت أننى لم أكن الوحيدة فى هذا الجهل.

بعد مغادرتى مطار بلاكبوش (Blackbushe) فى صباح يوم بارد من شهر أبريل عام ١٩٤٧ برفقة ممرضتين جديدتين سبق أن التقيت بهما فى محطة فيكتوريا، بدأت رحلتنا على متن إحدى طائرات الفيكنج. كنا نحن الثلاثة نبدأ حياة مهنية جديدة مليئة بالإثارة، ولم يسبق لنا أن سافرنا بالجو من قبل. كان المسافرون الآخرون بالطائرة هم زوجات موظفى الخطوط الجوية السودانية، إضافة إلى أفراد طاقم الطائرة. وفى الحقيقة أننا سرعان ما اكتشفنا أن زوجة كبير الطيارين كانت معنا بالطائرة، مما ساعد على تهدئة أى إحساس بالقلق نكون قد شعرنا به. بعد توقف ليلة حالمة فى مالطا، تقرر تحويل مسارنا إلى القاهرة لأسباب ميكانيكية حيث قضينا هناك ليلة أخرى. وصلنا إلى وادى حلفا على النيل فى الوقت المناسب، وهى المدينة السودانية الحدودية مع مصر، لنلحق بقطار السكة الحديد السودانية، ونستمتع فيه بالراحة مع سرعته البطيئة.

كان الوقت منتصف الصيف وشديد القيظ، حيث كانت درجة الحرارة فى الظل تفوق أحيانا ١٠٠ ° فهرنهايت. تحرك بنا القطار متجهاً إلى الخرطوم على الخط الحديدى الذى قام ببنائه كتشنر قبل خمسين سنة مضت عندما أعاد غزو السودان. يخترق الخط الصحراء ليلتقى بالنيل مرة أخرى عند محطة أبو حمد، التى تبعد عن وادى حلفا بمسافة مائة ميل، مختصراً بذلك منحنى كبيراً من النهر. كانت قمرات النوم واسعة بسريرين فى كل منها، ومزينة بطبقة لامعة من الخشب المهوقنى، مع حوض للغسيل يلمع نظافة، ومزود بالماء البارد والساخن واخفى بذكاء داخل خزانة خشبية. وكان الزجاج المعتم ومصاريع النوافذ يساعدان على خفض وهج الشمس وعزل الحرارة، وأثناء سير القطار

كان يساعد على تلطيف الهواء أيضاً نسيم بارد منعش ولو أنه مشبع بالغبار. كان "السفرجية" الصامتون يلبون كل طلباتنا، ويزودوننا بمشروب الليمونادة البارد، ويعيدون ترتيب أسرتنا بالليل بملايات كتانية أثناء تناولنا وجبة العشاء في عربة البوفيه.

كانت وجبات الطعام جيدة عموماً، ومكوناتها الطازجة يتم توفيرها من بعض المحطات، حيث كان يستقبل القطار جميع من كان يعمل بالتجارة، بل معظم السكان. كانت بعض المحطات تعرف بالأرقام وليس لها أسماء، وكانت سرعة القطار بطيئة لا تتجاوز ١٠-١٥ ميلاً في الساعة. وفيما عدا المدن والقرى التي توقفنا فيها، كان المنظر العام عبارة عن صحراء خالية من الناس تماما، وسرعان ما أصبح وميض الرمال الممتدة مملاً. في إحدى وقفات القطار سمعت لأول مرة زغاريد النساء السودانيات الذي يبدأ أولاً بصوت غريب يخرج من الحلق بنغمة عالية متغيرة، وعلمت أنه يمكن أن يكون للتعبير عن الفرح أو الحزن الشديد.

كان بين المسافرين معنا على القطار رئيس أساقفة كاتدرائية الخرطوم، الذي أظلنا برعايته نحن الثلاثة، وأطلق علينا اسم "الثالوث المقدس"، وكان هو من رجال الدين المسيحي المعروفين والمحبوبين، وفيما بعد ببضعة سنوات كان هو الذي قام بتعميد ابني في كنيسة الأبيض. وصلنا الخرطوم وحرارة الجو في الظل تبلغ ١١٢ فهرنهايت، وكان في استقبالنا رئيسة الممرضات التي كانت تقف تحت مظلة. لا يمكن أن أنسى أبداً ذلك الجو الحار ونحن نخطو من داخل القطار إلى الخارج.

اختارت اثنتان منا الذهاب إلى أصغر الميزين الخاصين بالممرضات، وهناك استقبلتا بحرارة من قبل الممرضتين الساكنتين في الميز من قبل. كان المسكن واسعا يتكون من طابق واحد بفرندة كبيرة ظليلة، وبه حديقة واسعة تزينها

أشجار النيم الظليلة، ونبات الخبازى، والبوغنفيلية، وشجيرات الدفلى الوردية اللون ذات الأريج الفواح، لكن لم تكن فيها أحواض للزهور نظراً لقلة الماء.

من هنا بدأنا ندخل غمار حياة المناطق الحارة. أُخذنا فى جولة تعريفية للخرطوم وما حولها شملت زيارة المستشفيات، والعيادات، والصيدليات، ومدرسة تدريب القابلات بأمدرمان التى يتعلم فيها النساء الأميات مهارات فن القبالة. أثناء هذه الفترة المبدئية كنت أعانى من آثار ضربة شمس جعلت منى رفيقة (ساخنة) لمن يجلس بجانبى على السيارة التى كانت مخصصة لجولتنا، وذلك لأننى لم أكن قادرة على إفراز العرق. كان ضمن جولتنا أن نقوم بزيارة ودية إلى مدير الخدمات الطبية الذى أكد لى أنه يجب أن أحضر إليه إذا واجهتنى أية مشاكل. كم تمنيت أن أعترف له بالمأزق الذى وجدت نفسى فيه، وما أعانيه من مشقة، وتخيلت أنهم سيعيدوننى إلى الوطن بسبب عدم قدرتى على إفراز العرق. استمرت هذه الحالة لمدة عشرة أيام قبل أن يعتدل جهاز تنظيم الحرارة فى جسمى، وذلك بفضل الجهود الكريمة التى بذلتها أيضاً صديقاتى فى الميز.

بعد فترة وجيزة أُرسلنا إلى مستشفى الخرطوم، الجناح الأوروبى، ومن هناك تم توزيعنا على أقسامنا المختلفة. كان نصيبى هو أجنحة السودانيين بما فى ذلك جناح النساء حيث كان للدورة التدريبية التى سبق أن تلقيتها فى أمراض المناطق الحارة فائدتها الفورية، إلى جانب ما تعلمته من كلمات عربية أثناء الفترة التى كنت أنتظر فيها اكتمال إجراءات تعيينى، أما رفيقتاى فى السفر فقد أبقيتا فى الجناح الأوروبى.

كانت أيامنا فى الخرطوم بهيجة ومليئة بالحياة الاجتماعية، وكنا نجد من الجميع كل مساعدة ومعاملة كريمة، لكنى سرعان ما اكتشفت أن "الجن" يجب أن يستبعد من قائمة مشروباتى المفضلة، حتى وإن خُفف كثيراً، ذلك انه بدأ يدور برأسى، وأصبحت أتناول مشروب الليمون الطازج البارد لأنه أكثر أماناً.

ومن بين ذكريات حياتنا فى الخرطوم - المختلفة جداً - تلك السلال العجيبة المملوءة بفاكهة المانجو (الفونس) التى كانت ترسل إلينا بانتظام من جنينة سراى الحاكم العام. كذلك كان من ضمن التجارب المثيرة بالنسبة لنا الذهاب إلى السوق الذى كان يعج بمختلف أنواع العطور من الجزيرة العربية، بالإضافة إلى أصناف عديدة من الملبوسات الحريرية الدمشقية، والأقمشة الملونة المطرزة، ومختلف أنواع المنسوجات القطنية، وأهمها الفوالات القطنية الناعمة، إلى جانب المنسوجات الصناعية التى بدأت لتوها تدخل السوق.

كانت النساء السودانيات يفصلن ثيابهن من تلك الأقمشة القطنية لأنها تناسب (الثوب) السودانى المعروف، وهى تتباين من قماش قطنى ثقيل تنبعث منه رائحة الصبغة الزرقاء، إلى الفوالات الجميلة الناعمة، ويتوقف الاختيار بالطبع على وضعية صاحبة الثوب. وفى العادة يلبس الثوب فوق فستان، وهو شبيه بالسارى الهندى، ويكون لونه أبيض فى الغالب، وأحينا بظلال فاتحة اللون، ويمكن إضافة المزيد من الألوان بعمل شريط مطرز على طرف الثوب الذى يلقى على الكتف فى غير مبالاة، كما يمكن لفه حول الرأس واستخدام جزء منه لتغطية الوجه بالكامل مع إبراز العينين فقط، وغالباً ما يغطى أيضاً تلك العلامات القبلية الموسومة على الخدين (الشلوخ) التى تعمل للوجه أثناء فترة الطفولة لأغراض جمالية. لقد تعرفنا فى السوق على سيدة سورية مدهشة تمتهن خياطة الملابس، واستطاعت بسرعة أن تمتد إلى دواليب ملابسنا، ولو أن ذلك كان من الضرورات حيث أن عفشنا قد تأخر فى الوصول. كان من ضمن قدرات (مدام س) الخاصة براعتها فى إدخال الأقواس إلى تصميماتها التى غالبا ما تبرز المعالم الجسدية التى نريد إخفاءها، وكانت تعانى من ضيق فى التنفس، ويبلغ وزنها خمسة عشر استوناً (الاستون يعادل ١٤رطلا بريطانياً)، وتلبس فى العادة جلابيب عديمة الشكل تفوح منها رائحة العطور الشرقية التى سرعان ما أصبحت مألوفة لدينا.

انقطع كل ذلك سريعاً، إذ أنه بعد ثلاثة أشهر كلفت بالسفر إلى ود مدنى لأخلف ممرضة ذاهبة للإجازة. كانت إقامتى فى النيل الأزرق قصيرة، ولكنى لا زلت أذكر نزهاتنا فى الجزيرة صباح أيام الجمعة، حيث يزرع القطن قوام الحياة الاقتصادية فى السودان. كنا نقضى وقتاً طيباً بعيدا عن غبار المدينة وحرها، ونسافر أحياناً عبر تلك الأراضى المروية المنبسطة بتربتها السوداء الخصبة. وبالرغم من وعورة الطرق، إلا أننا كنا نشعر بالانتعاش ليوم واحد فى الاسبوع بعيداً عن جو العمل، ونستمتع بما كنا نلقاه من كرم وحسن ضيافة خاصة فى نادى (٨٨) الخاص بموظفى مؤسسة القطن الأجانب.

فى نهاية عام ١٩٤٧ نقلت إلى الأبيض عاصمة مديرية كردفان التى تقع جنوب غرب الخرطوم على مسافة رحلة يوم وليلة بالقطار. تغطى المديرية مساحة ضخمة من الأراضى تقدر بآلاف الأميال المربعة، بما فى ذلك المراعى الشاسعة التى يستفيد منها العرب الرحل الذين يملكون أعداداً لا تحصى من الأبقار والإبل والأغنام، بالإضافة إلى جبال النوبة التى هى عبارة عن سلسلة من الجبال الصخرية المنخفضة التى ترتفع فوق سهل ممتد، ويسكنها بكثافة النوبة السود الذين يمارسون حياة بدائية، وهم خليط عجيب من التنوع الجسمانى، ويعيشون فى مجموعات كل منها مستقلة بذاتها، وكان أغلبهم وثنيين بخلاف بقية سكان المديرية الذين كانوا من العرب والمسلمين. وكان رجالهم يتميزون ببنية جسدية قوية، جعلت منهم جنوداً أقوياء، وتم تجنيد الكثيرين منهم فى قوة دفاع السودان.

كانت الأبيض بتعداد سكانها البالغ ٤٠,٠٠٠ نسمة سوقاً هاما للحبوب والماشية والإبل والأغنام، وكذلك مركزاً للصمغ العربى الذى يتم تجميعه من غابات أشجار الهشاب المنتشرة فى السهول، ويعتبر من الصادرات السودانية الرئيسية، ويشكل نسبة ٩٠٪ من الإنتاج العالمى. ولكونها عاصمة المديرية، فقد كانت بها المجموعة المعتادة من الموظفين البريطانيين بزوجاتهم، ويسكنون فى

مجمع يضم حوالى عشرين منزلاً بالقرب من مكاتب الحكومة، ولكن يفصله عن المدينة ما يعرف هناك بـ (الميدان)[1] وكانت هناك أيضاً مساكن مخصصة لعدد من الضباط المنتدبين من الجيش البريطانى للعمل مع فرقة الهجانة، وهى وحدة من قوة دفاع السودان، بالإضافة إلى نادٍ مزود بحوض للسباحة، وكنيسة إنجليكية صغيرة.

لم يسبق للممرضات البريطانيات العمل فى المديريات الغربية من قبل، وهانحن الاثنتان قد وصلنا إلى الأبيض الآن لنسكن معا فى بيت واحد، وننشئ مدرسة لتدريب الممرضات بالمستشفى. كان منزلنا مجهزاً بصورة جيدة، وتم تأثيثه حديثاً، وكان واسعاً وبارداً بفرندات لا يدخلها البعوض، إضافة إلى مصطبة للنوم على السطوح كلما كان ذلك ممكناً. كانت درجة الحرارة أحياناً تنخفض فجأة بالليل، وفى بعض الأوقات كنا نحتاج إلى عدد من البطانيات على أسرتنا. بالرغم من استعمالنا للناموسيات، إلا أن منظر السماء المرصعة بالنجوم كان مثيراً بالنسبة لنا. وكانت النجوم تبدو لنا كأنها قريبة فى متناول اليد. لم نكن ننعم بترف مراوح السقف كما فى الخرطوم، وإنما كنا نعتمد على مراوح الطاولة الصغيرة، ولكن على الأقل كانت لدينا كهرباء. لم تكن هناك مزروعات فى حديقة المنزل عند وصولنا فيما عدا بعض الشجيرات الشوكية، وقليل من الأشجار السامة ذات أغصان بنية كثيفة ناضرة تخرج فى الموسم زهوراً وردية اللون مليئة بالحيوية، ولكن دون صفق يذكر، بالإضافة إلى بعض أشجار النيم للاستفادة من ظلها. كان يوجد أيضا اسطبل ملحق بجناح الخدم استطعت أن احتفظ فيه بحصانى الخاص.

كانت الحياة الاجتماعية مليئة بالنشاط، وكنا نعرف فى الغالب بـ (السسترات)، وندعى للحفلات خاصة فى البداية. وكنا كلانا نلعب الأسكواش

---

(1) ساحة كبيرة مفتوحة تمتد إلى مئات الياردات، وتتناثر فيها أشجار السنط والنيم.

والتنس فى ميادين مغطاة بخليط من الطين والصمغ العربى كان يتشقق مع هطول الأمطار. كذلك كانت هناك لعبة الاستكويت (stiquet) التى يقال إن أصلها هندى، وهى خليط من التنس والاسكواش، وكانت تُلعب فى ملعب مزدوج محاط بجدار من الطوب الأخضر، وهى لعبة منهكة جداً. كنت أيضاً أشتاق إلى ركوب الخيل فى الصباح الباكر مرة فى الأسبوع قبل الإفطار، وأقضى ما تبقى من صباح الجمعة فى حوض السباحة بنادى كردفان الصغير. كذلك كنا نقوم، مع بداية أيام الحر والجفاف، بنزهات ممتعة فى الليالى المقمرة تحت سفح جبل يبعد حوالى ثلاثين كيلو متراً من الأبيض، وكنا نرتاح لهدوء المكان وسكونه بعد صخب المستشفى وضجيجه.

كان يوم الجمعة هو يوم الراحة والعبادة للمسلمين ، ولذلك تتعطل كل مكاتب الحكومة، مما يتيح لنا الفرصة لكتابة خطاباتنا إلى أرض الوطن، وكذلك لتعلم بعض الكلمات العربية، خاصة وأنه كان لدينا معلم ممتاز مرح هو ناظر المدرسة الوسطى بالمدينة، الذى أنجبت له زوجته ولداً بعد عشر بنات، وكان محبوباً من جميع فئات المجتمع فى الأبيض.

كان موسم الأمطار يحل فى يونيو/يوليو، وهى لها أهميتها الحيوية فى سد نقص إمداد المياه، ولذلك كان صهريج الماء الصغير الذى يخدم مجتمع الأجانب يراقب بقلق شديد فى هذا الوقت من العام، وأصبح مألوفاً لدينا رائحة الأرض التى تعطر الجو قبل العواصف الممطرة، وكنا نعجب لاستجابة الأرض السريعة لماء المطر، ولأوراق العشب التى كانت تظهر إلى الوجود بين عشية وضحاها، وتلك الحشائش الخشنة التى تسمى بـ (الحسكنيت). كان يظهر فى الأفق فجأة أحياناً جدار بنى سميك يتقدم إلى الأمام بثبات، وبعد قليل يصبح الجو ملبداً برمال بنية اللون بسبب الرياح القوية المصاحبة لها والتى تتراوح سرعتها بين ٢٠ - ٥٠ ميلاً فى الساعة، وأحيانا تكون مصحوبة بالمطر. إنها (الهبوب) المخيفة التى يتسرب غبارها إلى كل مكان، وعندما تمتزج بالمطر تبدو كأنها تمطر طيناً.

مثلنا كما في البيت نندفع مذعورين لإغلاق الأبواب والنوافذ، ثم تأتي فيما بعد نظافة المنزل التي كان يقوم بها الخدامون دون تذمر، وذلك بمساعدة المنفضات المصنوعة محلياً من ريش النعام الأسود، والتي كانوا يعتبرونها أداة بالغة الأهمية.

كان المستشفى يحتوي على ١٥٠ سريراً موزعة على أجنحة من طابق واحد: الباطنية، والجراحة، وأمراض النساء، والأطفال، بينما كان الموظفون البريطانيون يعالجون في غرف صغيرة بسريرين في كل منها، بالإضافة إلى قسم الدرجة الثانية للجنسيات الأوروبية الأخرى. كانت المقابلات المختلفة تجري في قسم العيادة الخارجية بازدحامه وضجيجه، وكانت غرفة العمليات تتوسط المستشفى. أما الصيدلية ومختبر الفحوصات الطبية فكان يديرهما اثنان من السودانيين الأكفاء. وكانت الهيئة الطبية تتكون من طبيبين بريطانيين وثلاثة أطباء سودانيين، بينما كانت هيئة التمريض تضم ثمانين فرداً أغلبهم من الرجال، غير أن جناحي أمراض النساء والأطفال فكان يخصص لهما بعض الممرضات الأميات اللاتي يتميزن بالطيبة. كان المرضى يأتون إلى المستشفى برفقة ذويهم للمساعدة في رعايتهم، وأحياناً ينامون بالقرب منهم تحت أسرتهم.

كان هدفنا الأول من وضع برنامج للتدريب هو إقامة دورة مكثفة لكبار الممرضين لمدة عام تقريباً لتمكينهم من تحسين أساليب وممارسات التمريض، وبعد نهاية الدورة يحصلون على ترقية وزيادة في الراتب، وليصبحوا قادرين بدورهم على تدريب زملائهم في الأجنحة. كانت المحاضرات ودروس المعاينة تقدم باللغة العربية (لم يكن أي من الممرضين يتحدث غير القليل من الكلمات الإنجليزية)، وكانت تلك الدروس والمحاضرات تستقبل بحماس غامر، والحافز على ذلك هو بالطبع زيادة الراتب. كان هذا العمل صعباً بالنسبة لنا الاثنتين، حيث كنا نقوم بترجمة المحاضرات إلى اللغة العربية، ونجند معنا معلمنا للغة

العربية، أو أحد الأطباء السودانيين عندما نحتاج إلى مساعدة فى نطق بعض الكلمات.

بما أننى أثناء فترة التدريب قد مارست العمل فى غرفة العمليات، فقد طلب منى الطبيب الجراح البريطانى أن أحاول تحسين الممارسة العامة بغرفة عمليات المستشفى، وكان قد سبق أن اختار قبل وصولنا بعض الممرضين الجيدين، ثم قام بتدريب أكثرهم خبرة على العمل فى غرفة العمليات، وكيفية إعطاء المخدر البسيط تحت إشرافه. وكان أثناء إجراء العمليات يستفسر من وقت لآخر عن حالة المريض ولونه، وتأتيه الإجابة دائما إما أنه "كويس" أو "مش كويس"، وكانت الأخيرة تعنى أن المريض لم يعد ممنا. وبالنظر إلى الحالات عموماً، فقد كانت نسبة الشفاء جيدة بصورة تدعو إلى الدهشة. لقد عرف السودانيون بجلدهم وتحملهم كما سيتضح من القصة التالية:

فى الصباح الباكر لأحد الأيام عند شروق الشمس، استدعيت للمستشفى على عجل لأرى هناك منظراً لن أنساه. كان أحد رجال القبائل العربية يركب على ظهر جمل يسير عكس أشعة الشمس، وهناك رمح قد اخترق عنقه أفقياً من جانب إلى الجانب الآخر، وتم إسناد الرمح بذكاء باستخدام عمامته وربطها بإحكام بحيث يصعب فكها، وكان يرافقه ذلك الحشد المعتاد من رجال قبيلته.

أمكن إزالة جانب واحد من الرمح بمساعدة ضابط الصف المسئول عن مستودع معدات النقل الميكانيكى بفرقة الهجانة، ثم نقل المريض إلى غرفة العمليات حيث أجريت له عملية جراحية. ويكفى أن أقول أنه فى لحظة حرجة أثناء العملية اصبح لا مفر من استعمال القوة لسحب الرمح ذى الأسنان (الشكابة) من عنق الرجل، وعندها حبس الجميع أنفاسهم. غير أن هذا الرجل المحظوظ قد استرد صحته خلال أيام قلائل بصورة لا تصدق، وتم علاجه وتمريضه كأنه قد أجريت له عملية إزالة الغدة الدرقية، وفى خلال أسبوعين

أو ثلاثة أصبح قادراً على ركوب جمله والعودة إلى مضارب قبيلته فى شمال سودرى على بعد أميال عديدة من المستشفى.

كان من ضمن مسئولياتنا تفقد القابلات القرويات فى شتى أنحاء المديرية، ويعنى ذلك القيام بجولات قد تستغرق أسبوعاً أو أكثر. كانت رحلات طويلة شاقة على طرق غير معبدة، وأحياناً تمتد إلى القرى النائية، يرافقنى فيها سائق شرطى نوباوى يعمل معنا بالإعارة، وزائرة صحية سودانية، والطباخ/الخادم الذى كان يجلس فى الصندوق الخلفى لعربة الفورد حمولة واحد طن، مع جميع متعلقاتنا ومعدات المعسكر. لا يمكن وصف غبار الطريق الذى كان يتغلغل فى كل مكان، ولذلك وجدت أن "الثوب" السودانى هو أفضل جلباب يمكن أن أقى به نفسى فوق زيى الرسمى. وبالرغم من ذلك كان يتغير لون شعرى، مع عدم وجود الشامبو آنذاك، وكان مجرد الاغتسال فى حمام المشمع بما لا يزيد عن أربع بوصات من الماء، يعتبر ترفاً فى حد ذاته عند نهاية رحلة يوم واحد. كان الماء أحياناً يصبح نادراً جداً لدرجة أننا كنا لكى نغتسل نعتمد على حوض صغير من الماء العكر، وزجاجة كبيرة من مستحضر "اليزابيث أردان".

كنا أحياناً نصل إلى إحدى القرى لنجد أن القابلة قد خرجت لإحدى حالات الولادة، فأقوم بمراقبتها أثناء تأدية عملها. ونظراً لوجودى فقد يطلب منى القيام بتوليد الجنين، الأمر الذى كنت أستمتع به كثيراً، وبالرغم من التعامل مع تعقيدات الخفاض الأنثوى، كان من النادر حدوث تعسر فى الولادة. وإذا جاء المولود بنتاً، فكانت تسمى "مريم" تيمناً بى، وهو الاسم العربى المعادل لاسمى. وبعد عدة سنوات من زواجى كنت أزور تلك القرى برفقة زوجى الذى كان يعمل فى الخدمة السياسية السودانية، فكانت أولئك (الحريمات) الصغيرات يأتين لمقابلتى فى الاستراحة، أو أى مكان آخر ننزل فيه، وكنت فى العادة أهدى إليهن فساتين جديدة.

كنا خلال تلك الجولات نخوض العديد من التجارب العجيبة، خاصة فى جبال النوبة. كان المرء يستطيع أن يعرف دائماً متى يكون الناس فى حالة مغادرة من المدينة، وذلك من خلال مظهر النساء النوبيات وهن يسرن على جانب الطريق بلون بشرتهن الحالك السواد المتدرج بين الأزرق والأسود، وكن يمشين عاريات إلا من حزام أزرق مصنوع من الخرز أو الجلد، مع هداب يوضع فى الأمام من أجل "الحشمة". وبالرغم من ذلك كان سلوكهن يتسم بعزة النفس والاستقامة نظراً لإحساسهن بالطمأنينة وراحة البال وهن يحملن أمتعتهن على رؤوسهن. أما فى المدينة فكن يغطين أجسامهن، ويخلعن البستهن عندما يتعدن بمسافة عن البلدة حيث يستعملنها بعد ذلك كوقاية على الراس يضعن عليها أحمالهن.

فى إحدى المرات وصلنا جبال النوبة فى وقت متأخر بعد الظهر لنقضى الليل فى الاستراحة، وهى عبارة عن بناء من الطين مسقوف بالقش، وأرضيته من الرمل، ويتكون من كوخين مستديرين مبنيين من الطين للنوم يتصل بهما جناح للجلوس وتناول الطعام. وبمجرد الفراغ من إنزال حقائبنا ومعدات المطبخ، وقيام الخادم بإشعال النار لإعطائنا كوباً من الشاى، ومن ثم إعداد طعام العشاء، إذا بصوت ضجيج و هياج يأتينا من الخارج. وبعد قليل وصل رسول من قبل العمدة يطلب من "الستات" الحضور معه بسرعة حيث كانت هناك ناقة تعانى من الألم وتحتاج إلى المساعدة. ودون أن نعرف ماذا ينتظرنا هناك، فقد أسرعنا للنجدة. وعند وصولنا وجدنا الناقة فى حالة مخاض، وكان نتاجها فى وضعية البروز إلى الخارج. ولحسن الحظ كنا قد قابلنا فى وقت مبكر من اليوم أحد الأطباء البيطريين الذى كان أيضا فى جولة بالمنطقة، واقترح أن ينزل معنا فى استراحتنا ويقضى معنا تلك الليلة، وكنت قد دعوته لتناول وجبة العشاء معنا، حيث كنا سنصل إلى الاستراحة أولاً، ويمكن أن يقوم خادمنا بإعداد الطعام. بعد ان اكدت للعمدة مجدداً أن المساعدة ممكنة، تركت

زميلتى السودانية لتتولى طمأنة صاحب الناقة، بينما انتظرت أنا وصول الطبيب البيطرى. فى تلك الليلة تناولنا طعام العشاء فى وقت متأخر، ولكن أمكننا على الأقل إنقاذ جمل جديد غالى الثمن.

كانت البعثات التبشيرية التابعة لجمعية الإرساليات المسيحية البريطانية، والإرسالية المتحدة السودانية تنتشر فى جبال النوبة، وكان موظفو الأخيرة من أستراليا ونيوزيلندا، وبعضهم لم يعد إلى بلاده منذ عشرين عاماً، حيث أنهم كرسوا أنفسهم لخدمة الكنيسة. وكنا فى جولاتنا نحرص دائماً على زيارتهم فى شفخاناتهم ومدارسهم. ومهما كان وقت وصولنا ليلاً أو نهاراً، كان الشاى يعد ويقدم إلينا فى دقائق، ولا أدرى كيف كانوا يعرفون أننا فى المنطقة، ولكن يبدو أنهم كانوا مستعدين دائماً لاستقبالنا. وبالرغم من أنهم كانوا يعيشون فى ظروف صعبة، إلا أنه يبدو أنهم كانوا ناجحين فى عملهم التبشيرى، إذ كانت كنائسهم فى أيام الأحد تمتلئ بالناس حتى تفيض.

أثناء إضراب عمال السكة الحديد الذى استمر لفترة طويلة، كانت زوجة أحد مفتشى المراكز على وشك الوضوع، ولم يكن بالإمكان أن تسافر عن طريق الجو إلى الخرطوم نظراً إلى أن الخطوط الجوية السودانية لم تكن مستعدة لنقلها وهى فى تلك الحالة على متن طائرة "الدوف" الصغيرة. لذلك كان البديل الوحيد هو أن تضع طفلها فى الأبيض. غير أن الإمكانات اللازمة لمثل هذا الحدث لم تكن تتوافر بالمستشفى، ولذلك كانت زوجات المسئولين فى العادة يذهبن للوضوع فى الخرطوم. والآن مع طبيب بريطانى واحد كان فى إجازة، وطبيب آخر جراح اعترف بأن خبرته فى التوليد محدودة وتقتصر على أيام الدراسة فقط، وهكذا لم يتبق غير أن تقوم الممرضتان البريطانيتان الموجودتان بمواجهة الموقف. كان مصدر قلقنا الرئيسى هو أن جميع أنواع الأمراض تنتشر فى ذلك الوقت من العام، أى فى شهرى مارس وأبريل، وكان من الصعب تجنب انتقال العدوى مع مواصلة أعمالنا الأخرى بالمستشفى،

إضافة إلى الاعتناء بهذه الحالة. وكأمر لا مفر منه عندما حان وقت ولادة الطفل، كان قد انتشر مرضا السعال الديكى والجدرى، وبعض حالات الالتهاب السحائى، غير أن الأم قد وضعت طفلة جميلة فى أشد الأوقات حرارة. وبعد قضاء فترة قصيرة بالمستشفى غادرت وطفلتها إلى المنزل حيث كانت تنتظرهما مربية بريطانية لتتولى رعاية المولودة الجديدة، ولكن لحسرتنا الشديدة، فقد أصيبت الأم بالسعال الديكى، وهى لا تزال تحت رعايتنا، وخلال بضعة أيام انتقلت نفس العدوى إلى طفلتها وأصبحت مريضة جداً، مما سبب لنا جميعاً قلقا شديداً. كانت تلك الأيام من أسوأ الفترات فى حياتى المهنية، غير أنه لحسن الحظ أن نهاية هذه القصة كانت سعيدة، ويسرنى أن أسجل هنا أن أول طفلة بريطانية ولدت فى مستشفى الأبيض هى الآن أم لولدين اثنين.

كان مرض الجدرى يشكل مشكلة فى الأشهر الأولى من كل عام، ذلك أن أعداداً كبيرة من الفلاتة (النيجيريين) كانوا يأتون من غرب أفريقيا فى طريقهم إلى مكة لأداء فريضة الحج عبر مدينة الأبيض، التى كانوا يمارسون فيها بعض الأعمال لأجل الحصول على مال يساعدهم فى الطريق. لذلك كان لا بد من إخضاعهم للفحص الطبى بواسطة سلطات الصحة العامة، وكان غالبا ما يتبين أنهم يحملون مرض الجدرى، ولذلك أقيمت لهم (كرنتينة) داخل مخيم نصب خارج المدينة بغرض إجراء التطعيم اللازم لهم. وكانت واحدة منا تقوم يومياً بزيارة هذا المخيم، بينما ترسل المستشفى أيضاً بعض الممرضين لرعاية المرضى. كان أولئك الحجاج الفلاتة حريصين على الحياة ويتدفقون حيوية ونشاطاً، ولذلك لم يكونوا يتهيبون من تلك القيود.

لقد سمعت فى أحد الأيام من زائرة صحية تعمل فى الأبيض أنها قد اكتشفت وجود امرأة حامل تعانى من مرض الجذام، وأن القابلات المحليات لا يردن الاقتراب منها. وعليه قررنا أنه فيما لو ذهبت أنا لزيارتها، لربما يقلل

ذلك من تخوفهن. بعد أيام وضعت المرأة طفلة على يدى بمساعدة إحدى الزائرات الصحيات فى ظروف غير مثالية، ولكنها اختفت بعد أيام من تزويدنا لها وطفلتها ببعض الملابس. كذلك كنا نواجه مشاكل مماثلة مع الأمهات غير المتزوجات المنبوذات من قبل ذويهن، واللاتى كن يعشن على التسول، ويختفين أيضا بعد ولادة أطفالهن مباشرة. طلب منا مدير المديرية بحث إمكانية تحسين أحوال النساء السجينات بالسجن المحلى الذى كان يوجد به عدد كبير من الأطفال الصغار، والأطفال الرضع مع أمهاتهم. كان الطعام الذى يقدم من السجن غير كاف لهم، ولذلك تقرر زيادة الكمية، مما أدى إلى تحسين الأحوال الصحية عموما، خاصة لدى الأطفال. ولست بحاجة إلى أن أذكر بأن الخبر قد تسرب بأنه قد تم توفير كل ذلك، ونما إلى علمى أن عدد النساء السجينات نتيجة لذلك كان يزداد بصفة أسبوعية!

أثناء أول إجازة لى قررت الالتحاق بدورة إنعاشية، حيث أننى كنت قد ابتعدت عن التمريض العام لعدة سنوات عندما انشغلت بدورات تدريبية فى القبالة، وأمراض المناطق الحارة. تم اتخاذ التدابير اللازمة لعودتى إلى مدرستى القديمة فى فترة تدريبية لمدة شهر واحد، ولكنى وجدت أنه قد حدثت هناك تغيرات كبيرة فى أساليب العلاج خاصة فيما يتعلق بالجراحة. غير أن اهتمامى الرئيسى كان ينصب على معرفة الأفكار الجديدة الخاصة بعلاج الحروق، ذلك أن كثيراً من الأطفال بالسودان، كانوا يصابون بحروق مرعبة أثناء فصل الشتاء بسبب سقوطهم فى النيران المفتوحة.

عند عودتى إلى الأبيض، خرجت زميلتى لقضاء إجازتها، وأثناء ذلك تمت ترقيتها إلى وظيفة رئيسة ممرضات بمستشفى الخرطوم. وبما أنه قد تأخر وصول بديلتها، فقد أصبحت لوحدى بالمستشفى لعدة أشهر. وأثناء شهر رمضان الذى كان قد انقضى لتوه، تدهور مستوى المستشفى بصفة عامة، وأصيب

الممرضون بالكسل والخمول، وأصبحوا لا يهتمون بنظافة ملابسهم، وأهملوا النواحى الصحية، واتضح لنا أن كل ما حققناه منذ وصولنا من مستويات عالية قد انهار تماماً، وأصبحنا فى حالة كأننا سوف نبدأ من جديد. عدت بعد الإجازة وأنا أكثر طاقة وأشد حماساً للعمل، وظلت الأمور تسير بصورة عادية لبعض الوقت، غير أنه فى صباح أحد الأيام جئت إلى المستشفى فجأة لأخذ الغياب من كبير الممرضين بكل قسم، ولكن لم أجد أياً منهم. وجاءنى ممرضان كانا يقومان بالعمل ويبدو عليهما بعض الخجل والارتباك، وأوضحا لى أن جميع الممرضين، فيما عداهما وممرضات جناح الحريمات/الأطفال، قد أضربوا عن العمل، وأنهم لن يتلقوا أى أوامر أخرى من جانبى. وقام المضربون بإرسال برقيات إلى مدير المديرية، ومدير الخدمات الطبية توضح ما كان يحدث، وتطالب بإبعادى عن المستشفى. كانت المدينة فى ذلك الوقت تشهد بعض الاضطرابات السياسية، واكتشفت شرطة المباحث أن بعض الشيوعيين المعروفين الذين كانوا يعملون تحت رئاستى هم الذين قادوا الإضراب. بالرغم من أننى كنت أشعر بعدم الميل للاستمرار، إلا أننى قد واصلت العمل، وصرف التعليمات أثناء طوافى بالأجنحة من خلال الممرضين القائمين بالعمل، ولحسن الحظ أننى أثناء تلك الفترة العصيبة كنت أجد كل دعم ومساندة من جميع أطباء المستشفى، وموظفى الصيدلية والمختبر، وفيما عدا ذلك كنت أشعر بالعزلة. فى غضون ذلك ألغيت كل المحاضرات والدروس، وكان ذلك بالنسبة لى بمثابة الكارت الرابح، لأنه سوف يؤخر ترقيات الممرضين، وما يعقبها من زيادة فى الرواتب بعد التأهيل. لقد استمر هذا الوضع المتوتر حوالى أسبوعين قبل أن يطلب منى المضربون مواصلة المحاضرات، مما جعلنى أسترد سلطاتى، وتم استعادة التوازن. وعند عودتى فيما بعد، وأنا لا أزال أسكن فى الأبيض، طلب منى تقديم الجوائز إلى الممرضين الأوائل الذين سبق أن ساعدت فى تدريبهم، وكان ذلك مسك الختام لعملى بالخدمات الطبية السودانية.

أثناء الإجازة تزوجت وعدت إلى السودان مع زوجى الذى كان يعمل بالأبيض، وفى ذلك الوقت كان عقد خدمتى قد انتهى، ولكن عرضت الاستمرار فى عملى ريثما يتم توفير البديل، وهكذا أصبحت الجولات فى المديرية بصحبة زوجى أكثر متعة وإثارة، خاصة وأننى أصبحت الآن أُكرّم كعروسة.

فى إحدى تلك الجولات المبكرة بصحبة زوجى، أهدانى أحد المشايخ تيس غزال حبشى رمادى اللون، وموشح بخطوط سوداء مع علامات أكثر سواداً على رأسه، وكان عمره حوالى اثنى عشر شهراً، وطوله قدمين. وبما أنه قد تربى منزلياً، فقد أصبح أليفاً جداً. كان طول قرنيه بوصتين فقط، ولكنهما حادان جداً. قمنا بنقله ليقيم معنا فى منزلنا بالأبيض، حيث أخذ يتجول بحرية داخل المجمع السكنى أثناء النهار، وينام فى الليل داخل أحد الأسطبلات. وأصبح محبوباً، خاصة لدى الأطفال الذين كان يلعب ويمرح معهم، وعندما نما قرناه، أصبحنا نقلق من أن يؤذى بها أحدهم، لا سيما وقد بلغ طولهما ست بوصات قبل أن يغادرنا، وكان أحد المعارف قد اقترح علينا تغطيتهما بالفلين، ولكن نظراً إلى أنهما وسيلته الوحيدة للدفاع عن نفسه، فقد قاومت الفكرة.

كان "ديك" حيواناً أليفاً مدهشاً يصدر أصواتاً حنونة محببة عندما يتبعنى من مكان إلى آخر وهو يقفز من سجادة إلى أخرى بالمنزل ليتفادى الانزلاق على بلاط الأرضية، ثم يرقد على الأرض مسنداً أنفه وفكه على إحدى قدمىّ عندما أجلس للقراءة. كما كان مولعاً بشيئين: أحدهما بسكوت الزنجبيل، والآخر أعقاب السجائر التى كان يتناولها بنفسه، فى غفلة الآخرين، من على الطاولات الصغيرة فى غرفة الجلوس. كان الخدم يحبونه جداً، وفى يوم من الأيام شعرت أنه لا بد أن يكون قد وقع خطأ ما عندما حيانى الخادم محمد بحزن شديد بعد تناول طعام الإفطار، ثم أبلغنى بأن ديك أصبح أعرجاً. لقد خشيت من الأسوأ، فقد اتضح جلياً أنه قد حدث له كسر فى فخذه بطريقة أو

أخرى. جاءنا الطبيب البيطرى بسرعة ولكن بدا عليه الحزن، ولم أتقبل رأيه بأنه لاشىء يمكن عمله. وبعد إقناع ومساعدة الطبيب الجراح قمنا نحن الثلاثة بوضع ساق الغزال فى الجبس من مفصل الورك إلى مفصل الركبة ليبقى هكذا لمدة أربعة أسابيع حيث أوكلت لى إزالته بعد ذلك. ولحسن الحظ كان ديك صغيراً فى عمره، وعظامه غضة، مما ساعد على جبر الكسر بسهولة. كان من المفترض أن يحل موعد إزالة الجبس فى يوم الإهداء[1] (Boxing Day) ، وكنت متخوفة من ذلك كثيراً. غير أنى بعد تناول طعام الإفطار فى ذلك اليوم ذهبت إلى الاسطبل لرؤيته كالعادة، فإذا بى أجده هناك واقفا منتصباً فى ضوء الشمس، والجبس الذى اتخذ شكل المدخنة مرمياً على العشب. لقد سرنى ذلك كثيراً. يبدو أن عدم حركته الاضطرارية قد أدى إلى هزال وضمور فى عضلات ساقه، مما جعل الجبس ينزلق عن موضعه ويسقط على الأرض. وبصرف النظر عن ورم بسيط فوق موضع الكسر، وعرج طفيف فى الساق استمرا لمدة أسبوع. فسرعان ما أصبح "ديك" قادراً على العدو من مكان إلى آخر بصورة عادية. غير أنه قد اتضح لنا أنه لن يكون بإمكاننا الاحتفاظ بهذا الحيوان الساحر الجذاب أكثر من ذلك، علاوة على أننا كنا على وشك السفر للإجازة، ولذلك فقد أصبح بحاجة إلى رفقة. وعليه عندما اتصلنا بحديقة الحيوانات بالخرطوم فى هذا الخصوص، رحبوا بقبوله لديهم بكل سرور، خاصة وأنه كانت لديهم أنثى من نوعه، وكانوا يأملون أن يحصلوا منهما على نسل. لذلك أرسلوا لنا صندوقاً مبطناً لنضع فيه ديك فى طريق رحلته بالقطار إلى الخرطوم بصحبة مرافق. وبعد بضعة أشهر عندما غادرنا للإجازة مررنا بالخرطوم، وتمكنت من زيارة حديقة الحيوانات، وهناك داخل تلك الرقعة الواسعة من الأرض المسورة التى تحتوى على كل ما يمكن تخيله من

---

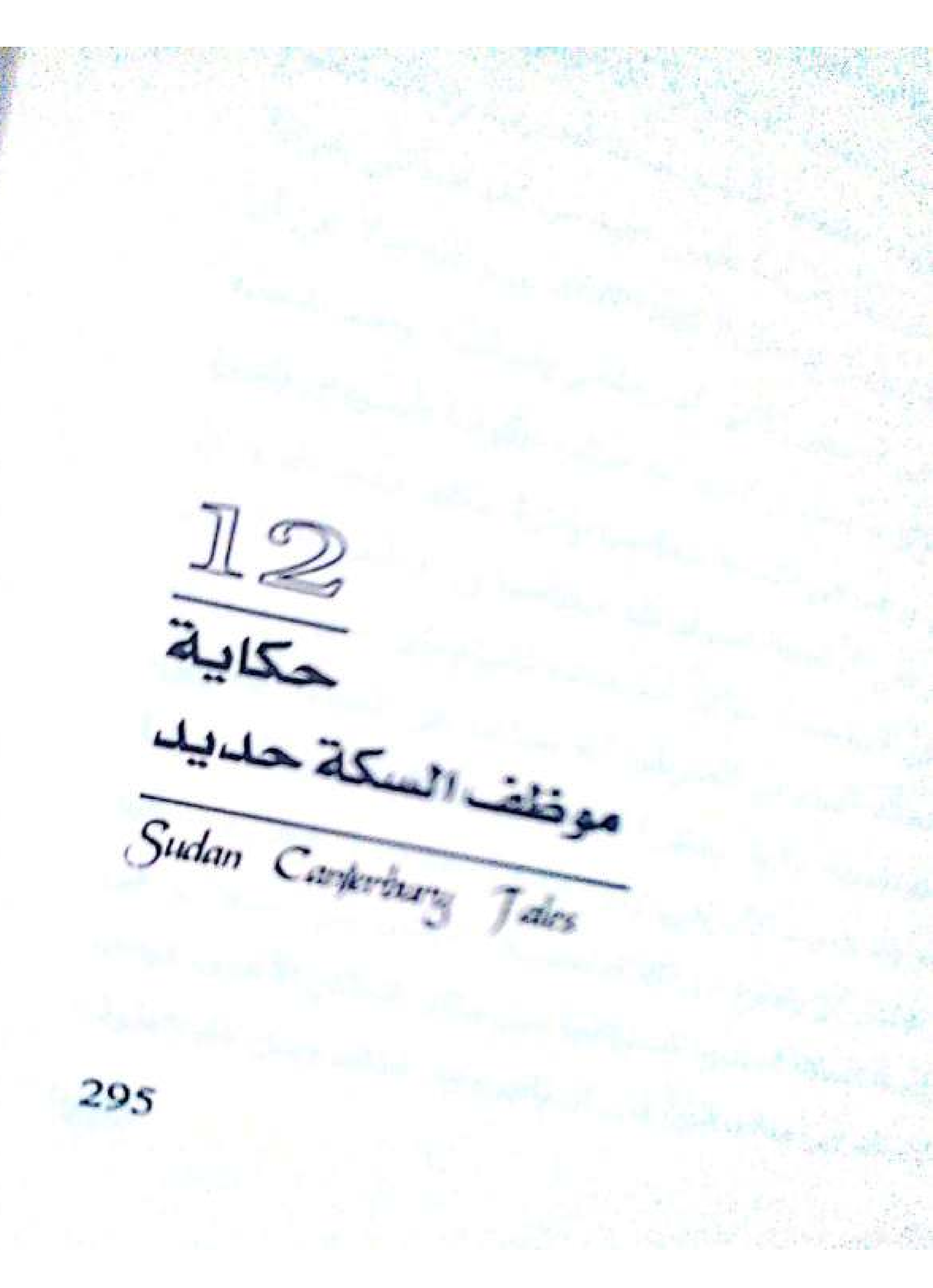
(1) يوم ٢٦ ديسمبر التالى لعيد الميلاد الذى تقدم فيه الهدايا إلى سعاة البريد وغيرهم من المستخدمين الآخرين. (المترجم)

أنواع الغزلان، وقع نظرى على ديك، فناديته، ولن أنسى أبداً ردة فعله: تصلب جسده، وارتعشت أذناه، ثم أخذ يستشط مرة أخرى قبل أن يتجه نحوى ليبادلنى التحية. كنت أحمل معى صندوقا من بسكوت الزنجبيل استعداداً لهذه اللحظة.

بعد سنوات قليلة غادرت السودان مع زوجى وابنى الصغير، واستمرت تلك الذكريات تتدفق فى حياتى، وستظل دائماً مفعمة بالحيوية من خلال ما اكتسبناه من صداقات حميمة سنواصل الاستمتاع بها خاصة مع السودانيين القلائل الذين لا زالوا يتحفوننا بزياراتهم. إن السودانيين، كشعب، محبوبون جداً وأفراحهم ومسراتهم معدية للآخرين، وإحساسهم بالمرح والدعابة يماثل ما لدينا. إنهم فى كل مكان يغمرونك بحسن استقبالهم وكرمهم العربى الأصيل. لا يهم أين كنت فى السودان، ربما على بعد أميال عديدة من مكان ما، وبرفقتى سودانيون فقط، ولكننى لم أشعر قط بأى قلق تجاه سلامتى الشخصية. غير أن حالة السودان الحالية، بعد هذه الحرب الأهلية التى استمرت أكثر من عشرين عاما، تجعلنا جميعاً نشعر بحزن عميق، ولكن السودانيين المعروفين بالمرونة والتسامح قد استردوا عافيتهم من كوارث سابقة عديدة، وأنا على ثقة أنهم سوف يستردون عافيتهم من هذه الكارثة أيضاً.

ماري رولى (Mary Rowley)

■■■



12

حكاية

موظف السكة حديد

Sudan Canterbury Tales

راوى هذه الحكاية شخص كان قد تقدم للحصول على وظيفة بالدرجة "دى" (Scale D) فى مصلحة المالية بالخرطوم، بعد أن تشبع بدراسة الاقتصاد والتجارة، ولكنه تسلم بطاقة الرفض المعهودة بأطرافها المذوقة باللون الذهبى، وقد أشير فيها إلى أنه بالرغم من تعليمه العالى، إلا أن الوظيفة قد تقدم لها من هو أفضل منه بكثير. وبعد بضعة أشهر بدأت الحرب، ولذلك تطوع الراوى بالعمل فى الجيش معتمداً على ما حصل عليه من إعداد ذاتى بفرقة تدريب الضباط بالجامعة (Officers' Training Corps). غير أنه بدلا عن أن يكون من حملة السلاح فى الجيش الملكى البريطانى بفرنسا، وجد نفسه "موظف سكة حديد بالإكراه" بعد أن اتصل به مكتب حكومة السودان بلندن مستفسرا عما إذا كان يرغب فى وظيفة محاسب بإدارة سكك حديد السودان بعطبرة، وأنه إذا وافق على الوظيفة فسوف تتم مخاطبة وزارة الحربية لإخلاء طرفه. رد الراوى على الاستفسار مؤكداً استعداده للقيام بأى عمل ترى وزارة الحربية وسعادة الحاكم العام فى الخرطوم أنه يساعد فى المجهود الحربى. وجاء الرد بلغة دبلوماسية عالية: يمكن أخذ الجنود حملة الأسلحة الخفيفة حسب الطلب أو بالتجنيد الإلزامى، ولكن إذا كان هناك شخص مصاب بالجنون وقد اختار أن يتطوع من تلقاء نفسه بالذهاب إلى السودان - فى عطبرة مقر رئاسة السكة الحديد السودانية دون سائر الأماكن الأخرى، فيجب العمل على إرساله إلى هناك فوراً قبل أن يغير رأيه. لذلك وصل خلو الطرف

فى ظرف ثلاثة أو أربعة أيام، وقد ساعد على ذلك تكرار وصول البريد يومياً بواقع بنس ونصف فى المرة الواحدة. غير أن وزارة الحربية احتفظت لنفسها بحق الاستدعاء فى حالة حدوث أية مشاكل فى ذلك الجزء من العالم، ولو أن ذلك كان بعيد الاحتمال. وهكذا بدأت الرحلة من مدينة شزيك (Chiswick) إلى مدينة عطبرة.

●●●

كان الطريق البرى من محطة فكتوريا يعنى رحلة عبر القنال إلى جنوب فرنسا، ومن هناك عن طريق البحر إلى الأسكندرية. وكانت غالبية الرحلة عرضة إلى التعتيم بسبب الغارات الحربية، ولذلك ليس هناك ما يستدعى إسدال قناع عليها، ولكنى سأفعل ذلك فيما عدا توضيح عبارة "موظف سكة حديد بالإكراه". من المؤكد أنه فى مرحلة ما قد ورد ذكره أن الوظيفة فى عطبرة وأنها فى اسكيل (إى E)، والأقل منها اسكيل (إى E2)، ولكن (إى) و(دى) كانا بالنسبة لى مجرد حرفين من حروف الأبجدية. كان معى على ظهر السفينة (تعتيم أمنى) بعض الذين تم تعيينهم أيضا للعمل فى خدمة حكومة السودان من بينهم معلم حرف يدوية علمت منه أنهم فى وضع سكنى أفضل ويستمتعون بالوجبات الساخنة، ولم يكن ذلك نتيجة لضربة حظ فى سحب بانصيب أجرى فى زمن الحرب، وإنما لمجرد أنهم كانوا فى اسكيل (دى). لقد ظلت هذه الدرجات الوظيفية - لبراءتى أو غبائى - تشكل سراً غامضاً بالنسبة لى، غير أن ذلك لم يسبب لى قلقاً يذكر طالما أنه قد تم إخلاء طرفى لأقوم بأداء عمل مدنى له أهميته الاستراتيجية، بالرغم من أن وثيقة خلو الطرف الرسمية قد نسبت السبب إلى أننى " لم أوضع فى القائمة الصحيحة " وهى عبارة يمكن أن يعتبر المرء أنها قد كتبت للتشهير بى.

تواصلت الرحلة بالسكة حديد المصرية من القاهرة إلى الشلال وهى آخر محطة فى الشمال لخدمات شبكة سكك حديد وبواخر السودان حيث تم بكل سهولة وكفاءة نقل المسافرين وامتعتهم إلى فصل آخر من الرحلة على نهر النيل

بمناظره الطبيعية الخلابة إلى وادى حلفا. لقد كاد يفوتنى القطار فى محطة القاهرة عندما انطلقت مسرعا إلى الرصيف رقم تسعة بدلاً عن رقم ثمانية، ومع شكرنا وتقديرنا لل (بى بى سى) إلا أنه لم يتيسر لها مساعدة حجيج أيام الحرب (لم أكن بحاجة إلى مساعدة كبيرة، ذلك أن عفشى قد وضع فى قمرة النوم كأنما بلمسة سحرية!)

كان عرض المسافة بين القضيبين فى خط السكة الحديد المتجه من وادى حلفا جنوباً أضيق من مثيله فى مصر، ولذلك كانت هزة القطار الناجمة عن ذلك تساعد البعض على الخلود للنوم. أما بالنسبة لأولئك الذين لا ينامون، فإن الرواد الأوائل بالسكة الحديد قد هداهم تفكيرهم إلى بناء محطات على الخط تعرف بالأرقام فقط، ويمكن تخطيها طالما لا توجد بهائم ينشغل المسافر بعدها عبر تلك الصحراء الممتدة إلى مدينة (أبو حمد) حيث يعانق الخط نهر النيل مرة أخرى.

عند الفجر، أو بعد وصول القطار إلى محطة التقاطع يلتقى خط السكة حديد القادم من بورتسودان بالخط الرئيسى القادم من الشمال إلى الجنوب ماراً بمدينة شندى إلى الخرطوم وما يليها. كان يحيط بمحطة التقاطع هذه عدد من المنشئات العمرانية اكبر بكثير من ما هو موجود على طول الخط من الشلال. كما توجد بها خطوط فرعية صغيرة مغلقة بالعديد من عربات السكة حديد والشاحنات، بالإضافة إلى أربعة أرصفة على الأقل، لذلك لا غرابة أن يطلق عليها (سويندون السودان The Swindon of Sudan). إنها مدينة عطبرة التى كانت محطة وصولى النهائية.

انتقلت للسكن مع رجل اسكتلندى عطوف من موظفى مكتب الإدارة، تفضل باستضافتى إلى أن تم العثور على موظف عازب سمح لى بمشاركته فى سكنه الذى كان عبارة عن (قطية) مبنية بالطوب الأحمر والمونة الحرة، ولولا تلك

المروحة التى وضعت هناك لإنزال الهواء الساخن الذى كان يتجمع فى القطية، وذلك الطوب التقليدى المصنوع من طين النيل الذى بنيت به القطية، لأصبح الجو فيها أكثر تحملاً. غير أنى سأظل ممتناً لذلك للأبد، خاصة أننى كنت بحاجة إلى بضعة أسابيع ريثما يصل عفشى الثقيل (صندوق شاى) عن طريق بورتسودان. فى غضون ذلك كنت أخرج سيراً على الأقدام لاستكشاف المدينة قبل أن أشترى دراجة مستعملة كانت فى السابق أكثر استعمالاً مما هى عليه الآن بعد شرائى لها.

كانت هناك بقالة ماركيتو (Marketto) ، ومكتب البريد، ومبنى رئاسة السكة الحديد، ورئاسة مصلحة الهندسة المدنية، وورش السكة الحديد التى تغطى مساحة شاسعة، وكان أبرزها المكتب الرئيسى للهندسة الميكانيكية، ومصلحة الكهرباء المشيدتين بالطوب وليس بالزنك.

كانت ساعات العمل الرسمى تبدأ عند السادسة والنصف وتستمر حتى الثامنة والنصف صباحاً، ثم فسحة لمدة ساعة لتناول طعام الإفطار الشهى، وبعد ذلك يستمر الكدح حتى الثانية بعد الظهر لستة أيام فى الأسبوع. كانت تلك الصدمة الأولى. أما الصدمة الثانية فقد تمثلت فى تلك العاصفة التى صاحبت تقديمى إلى رؤسائى بمستوياتهم الثلاثة. لقد انتظرت أسابيع قبل أن أقابل المدير العام الذى كان يتنقل بسيارة ليموزين أنيقة عنابية اللون، ويبدو أنه كان يصل إلى المصلحة بعدى ويغادرها قبلى. لا شك أن وضعه الوظيفى كان يستدعى ذلك، ولكن سلوكه فى القيادة كان يختلف كثيراً عن أسلوب هارفى جونز (Harvey Jones) فى القيادة على سبيل المثال، الذى أعتبره بطريقتى البسيطة الأسلوب الأنسب. أما الصدمة الثالثة فقد كانت عندما أدخلت إلى مكتب يضم (دستة) أو نحو ذلك من كتبة الحسابات الذين كانوا بأسلوبهم المحلى يعملون بهمة ونشاط، وهو يلى المكتب المخصص لى: "محاسب - قسم المرتبات والعلاوات". لقد تأكد لى، وأستطيع بدورى أن أؤكد أن جميع النظم

واللوائح ذات الصلة كانت معلومة بصورة جيدة لدى رئيس القسم القبطى المسيحى المصرى الذى تمّ تقديمى إليه. وبالرغم من ذلك، ومن كونه هو الذى يقوم بالتوقيع بجانب توقيع مقدم الطلب أو بصمته، ثم التوقيع من قبل رئيسه بالاعتماد، ثم توقيع الموظف المخول له فى أحد المكاتب الرئيسية بعطبرة، إلا أنه بالرغم من كل هذه التوقيعات ما كان يمكن صرف مليم واحد دون أن يحمل إذن الصرف توقيعى أيضاً! بل والأسوأ من ذلك أنه إذا اكتشف المراجع الداخلى، أو أحد مفتشى مكتب المراجع العام أى خطأ ما فإننى أنا الذى أتحمل مسئولية ذلك. كانت ترد إلينا فى كل شهر أكداس من استمارات المطالبات المالية، ولذلك فكرت فى محاولة تفويض شرف التوقيع إلى جهة أعلى، ولكنهم نصحونى بالعدول عن هذه الفكرة.

يمكننى أن أؤلف كتيباً عن تلك النظم واللوائح التى تكرس ذلك الاهتمام العجيب بالمحافظة على أموال الخزينة العامة، والتى تسمح فى نفس الوقت بشراء أسطول من القاطرات التى هى، فى تقديرى، مشكوك فى ملاءمتها لاحتياجات ومناخ السودان وطبيعة أرضه. ولكن دعنا نخوض غمار شئون أخرى أكثر توسعاً بعد أن نضيف أولاً أن الكتابة العربية كانت تغلب على عملنا الورقى. وبالرغم من ذلك، و تواضع درجتى الوظيفية، إلى جانب المسئوليات الجسيمة الملقاة على عاتقى، كان مطلوباً منى إحراز درجة المرور فقط فى اختبار اللغة العربية الشفهى للمبتدئين مع إعطائى مهلة عامين للاستعداد له. غير أنه لم تكن هناك فرصة للتعلم بخلاف الاستماع إلى حصة الحساب اليومية، وتكليف المراسلة بأخذ هذا أو إحضار ذلك.

كنا نستعمل الحرفين (إس. آر SR) كاختصار لـ (Sudan Railways) سكك حديد السودان، مع أنه بعد ضم خدمات البواخر النهرية التى كانت جزءاً من نفس الإدارة الحكومية، أصبحنا نستعمل الحروف (SGR&S) كاختصار لـ (Sudan Government Railways & Steamers) ، أى سكك حديد وبواخر

حكومة السودان، وربما كان ذلك للتأكيد بأن البواخر خدمة حكومية. غير أن التشعب لم يتوقف عند هذا الحد، فقدكنا ندير أيضاً بعض الفنادق لراحة المسافرين بالطيران الإمبراطورى، لذلك لم لا يصبح الاختصار (SGRS&H) * سكك حديد وبواخر وفنادق حكومة السودان، أو + SGRSH + PS +PS) RC&A) ليشمل كذلك محطات توليد الكهرباء (Power Stations) الثلاث فى عطبرة، ووادى حلفا، وبورتسودان، إضافة إلى خدمات الميناء المتسعة فى بورتسودان (Port Sevices) واستراحة معسكر أركويت (Rest Camp) ، والخطوط الجوية ((Airways (إدارة الحركة فقط)، مع أن هذه القائمة لا تشمل المؤسسات الصغيرة الأخرى التى تديرها السكة الحديد لمقابلة الاحتياجات التى لا يمكن توفيرها من قبل القطاعين التجارى أو الصناعى، مثل مصنع تكسير الحجر لرصف الطرق، ومصنع القطران لصيانة الأخشاب، والمدرسة الصناعية بجبيت، ومصنع مشتقات الخرسانة. غير أن حكومة السودان قد اختارت اسم "إدارة سكك حديد السودان" مع أنه لا يعكس سوى تلميع بسيط لشخصيتنا المختلطة، وعلى كل لم يشمل الاسم كلمة "حكومة" مما وفر لنا نوعاً من الاستقلالية التى كنا نثمنها ونستفيد منها كلما كان ذلك ممكناً.

كان الدور أو "الرسالة" ـ كما يصطلح عليه الآن ـ الذى تضطلع به سكك حديد السودان، والمؤسسات التابعة لها رهيباً بحق، ولكنه يتسم بالحيوية والإثارة.

عندما يتذكر المرء طول المسافة بين وادى حلفا وجوبا (حوالى ١٧٠٠ ميل) والمسافة بين بورتسودان والجنينة (حوالى ١١٠٠ ميل)، وتلك المساحة الشاسعة التى تبلغ بضعة ملايين ميل مربع، لا بد أن يصاب بالدهشة، ذلك أن ما يبلغ مجموع طوله ٤٥٠٠ ميل من خطوط السكة الحديد والبواخر النهرية، أى بنسبة ٥٠٪ من تلك المساحة تقريبا، كان يعتبر بالنسبة للسودان بمثابة العمود

الفقرى لأنشطة النقل والمواصلات والتجارة والتنمية، وكان من النادر القيام بأى نشاط حكومى أو خاص دون مساعدة من السكة الحديد. كان المجئ إلى السودان أثناء اشتعال الحرب فى أوروبا يضفى على المرء شعوراً بالهدوء والسعادة والامتنان، ولكنه مشوب بنوع من وخز الضمير ناجم عن الإحساس بالهروب من أداء الواجب أو اتخاذ الخيار الأسهل.

غير أن كل ذلك لم يلبث أن تغير بسرعة عندما قرر موسولينى الانحياز والدخول فى الحرب. كانت لدينا فكرة بسيطة عما يدور فى وايتهول (White-hall) إلى أن جاءنا بعض الخبراء العسكريين ليشرحوا لنا ما كان يختمر هناك، وليناقشوا معنا الاحتياجات المطلوبة من خدمات السكة الحديد والبواخر النهرية، وخططهم فيما يتعلق بتوفير المؤن العسكرية. وكان التصور حسب أحد مقترحاتهم التى صرف عنها النظر نهائياً هو إمكانية نقل ١٠٠٠ طن من المؤن يومياً من منابع نهر الكونغو فى غرب أفريقيا، عبر مدينة جوبا، ومن هناك إلى مصر. ذلك أن الخبراء الزائرين لم تكن لديهم أية خبرة عن منطقة السدود، أو أدنى معرفة ببواخرنا التى لم تكن حمولتها تتجاوز ٢٠٠٠ طن، ليس يومياً أو شهرياً، وإنما سنوياً.

ورد اقتراح آخر مناسب بإقامة مستودع على بعد ستة أميال شرق مدينة عطبرة، وتم تنفيذ الاقتراح بالفعل، بالإضافة إلى إقامة ورش لترميم وإصلاح الدبابات والمركبات الأخرى، وأطلق عليه فوراً اسم (إسلاو Slough) ومنع منعاً باتاً ترديد كلمات قصيدة بيتجمان (Betjeman)) التى تقول: "تعالى أيتها القنابل الصديقة واسقطى على إسلاو." خاصة أن بعض القنابل المعادية كانت فى الواقع تقذف على السودان من الطائرات الإيطالية. لم تسبب الغارة الأولى على عطبرة أى دمار فيما عدا إصابة شخص واحد بجرح طفيف، أما الثانية فقد أسقطت مواد متفجرة على المحطة، وبعض القنابل المحرقة على المكاتب،

ولكن لم يصب أحد بأذى، وفيما بعد تم إرسال طائرتين من طراز كلوستر Gloucester لحمايتنا، ولكن لم تستدعى أى منهما لمناوشة العدو.

أصبحت بورتسودان مزدحمة جداً بالعمل، وكذلك الخط الحديدى/ النهرى الموصل من هناك إلى الشلال. غير أن الأوضاع الأمنية فى القاهرة لم تكن كما يجب أن تكون، وتبعاً لذلك كانت قوافل سفن الحلفاء تعانى كثيراً أثناء عبورها للبحر الأبيض المتوسط، ولذلك تم إيجاد وتشغيل بديل آخر بمنتهى السرية. لقد استطاعت إحدى القوافل التى أبحرت حول أفريقيا أن تصل إلى بورتسودان بسلام، وتم شحن المؤن بالسكة الحديد إلى قواتنا المتمركزة فى الصحراء الغربية.

لقد طلب من حكومة السودان فى وقت سابق إخلاء طرف أى موظفين أوروبيين يمكن الاستغناء عنهم لمساعدة القوات العسكرية الضعيفة بما فى ذلك قوة دفاع السودان. وكنت قبل ذلك أتساءل: متى تطلب وزارة الحربية استدعائى من السودان بتمام وزن لحمى البالغ ١٣٢ رطلاً؟. وحتى أتمكن من استعجال الأمور لتصب فى مصلحتى الشخصية، فقد طورت المبدأ الذى كان معمولاً به فى السكة حديد "من جاء أخيراً يذهب أولاً". وفى النهاية كان هناك أفندى[1] مصرى ملماً أكثر منى بعمل المرتبات والعلاوات، بل ربما كان يعرف أكثر منى كيف يتهرب من المسئولية. ولم يمض وقت طويل حتى كنت فى طريقى إلى قيادة الجيش بالخرطوم حيث عملت أولاً فى وظيفة مدنية. وعلمت من خلال التجربة أن الجيش له مقدرة خاصة فى وضع الأشخاص غير المؤهلين فى الوظائف التى تسند إليهم، فقد سبق أن وضعونى فى كتيبة الأسلحة الخفيفة رغم أنه تم تدريبى على المدفعية. والغريب أنهم ألحقونى

---

(١) كان لقب «أفندى» يطلق على الموظف المصرى أو السودانى، فمثلاً إذا موظف فى السكة الحديد اسمه محمد حسن عبدالله، فإنه يصبح محمد أفندى حسن عبدالله.

الآن بسلاح المخابرات. كان العمل محاطا بسرية فائقة ومثيراً جداً، حتى أننى عملت لفترة قصيرة مع الجنرال وينجيت Wingate الذى كان فى السابق حاكما عاماً للسودان، وخبيراً متخصصاً فى شئون الشرق الأوسط. كنا نعمل بنظام المناوبة لنغطى ساعات اليوم الأربع والعشرين، وفى إحدى الليالى وصلت رسالة تبدأ بعبارة "وزير الدولة"، وبما أنه كان يوجد واحد فقط، فقد أرسلت الرسالة إلى السراى حيث كان أنطونى إيدن يقيم آنذاك مع الحاكم العام، وهكذا نقلت إليه الأخبار غير السارة بأن قواتنا سوف تنسحب من اليونان، ولربما يكون ذلك فوراً.

تمت ترقيتى فى هذا الوقت إلى رتبة ملازم فى سلاح المخابرات، ونقلت إلى أسمرا. وكانت الرحلة إلى هناك تعج بالتغيرات المفاجئة، فقد توقفنا فى مدينة كسلا للتغيير وحمل أمتعتنا على ظهورنا عبر خط السكة الحديد. وبما أننى كنت ملماً بمواعيد السكة الحديد الدقيقة، فقد كنت متأكداً أنه لن يصل قطار فى تلك الساعة، ولذلك رحت أعبر الخط دون مبالاة،، إلى أن وجدتنى أقفز فجأة وحملى على ظهرى عندما سمعت صفيراً صاخباً لقاطرة صغيرة تريد أن تتحول من خط إلى آخر. كان واضحاً أنه من غير المسموح أن أخرج كما أشاء مثل سفير متجول بسلاح المخابرات. أما الرحلة من كسلا إلى إريتريا فقد كانت صعبة ومخيفة، ذلك أن معركة (كرن) كانت قد انتهت منذ فترة قصيرة حيث كانت عزيمة وإصرار رجال كتيبة (الكاميرون هايلاندرز) وهم يتعاملون مع موقع يفترض أن يكون حصينا، مذهلة ومثيرة للإعجاب وتدعو إلى التأمل.

لم يكن ارتفاع مدينة أسمرا البالغ ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر هو وحده الذى جعلنا نلهث، وإنما كذلك جاذبية النساء سواء أن كن إيطاليات أو أثيوبيات. كان جميع الضباط تقريباً لديهم وسائل مواصلات فردية، ولذلك أرسلت إلى سلاح الإشارات حيث تعلمت خلال حصة مدتها عشر دقائق كيفية ركوب الدراجة النارية، ولكن بعد بضعة دقائق فيما بعد، وأثناء أدائى لمهمة من القيادة

إلى مكتب البريد، انحل (الكلتش) وتناثرت أجزاؤه على الأرض فى شكل قطع صغيرة. وبما أنه لم يكن يتوفر المزيد من المركبات التى تم الاستيلاء عليها كغنائم (كانت تعرف رسميا بالمصادرة)، فقد عدنا إلى السير على الأقدام، والوقوف على الطرقات لاستجداء الركوب بالتأشير للسائقين Thumbing (Lifts، فيما عدا تلك المهمة الرسمية التى كلفت بها إلى مصوع، والتى خصصت لى فيها سيارة كبديل مؤقت، وطلب منى أن أحرص على الوصول إلى مصوع خلال النهار حيث يغلق الطريق بعد ذلك وربما تسبب الترميمات التى كان يقوم بها سلاح المهندسين الملكى بعض المشاكل. كان الهبوط إلى مستوى سطح البحر فى مسافة طولها ٦٠ ميلا يعنى احتمال السير تجاه الساحل بسرعة قد تصل إلى ١٠٠ كيلومتر فى الساعة إذا نفد وقود السيارة. أبصرت أمامى مستشفى ميدانياً لم يكن لى به علم من قبل، فرأيت أن أسجل زيارة مجاملة للممرضات، وبذلك فقدت الأمل فى الوصول إلى مصوع أثناء النهار. لم يذكر لى مهندسو سلاح المهندسين الميكانيكيين والكهربائيين الملكى الكرام أى شىء عن ضعف (فرامل) السيارة، ومزاجية نظام الإضاءة فيها، ولربما كانوا يعتقدون أننى سوف اكتشف الأولى بسرعة، وأننى لن أحتاج إلى الثانية، هكذا خمنت! لقد انطفأت أنوار السيارة فى منحدر عال أثناء الهبوط من ارتفاع ٦٠٠٠ قدم، ثم بدأت تتوقف تدريجياً. حاولت بكل ما لدى من معرفة أن أعيدها إلى الحياة، وفى النهاية تركتها تتقهقر إلى الخلف دون (تعشيقة)، ثم وضعت الترس مرة أخرى ونجحت هذه الحيلة، ولكنى لا أوصى باتباعها على الطرق الجبلية أثناء الظلام. دفعنى حب الاستطلاع للخروج من السيارة لأعرف إلى أى مدى يمكننى إرجاع السيارة إلى الخلف، فوجدت أن المسافة المتبقية لا تتجاوز بضعة بوصات بين إحدى العجلتين الخلفيتين والسقوط فى هاوية مجهولة قد تكون عميقة جداً.

لم تعد مدينة مصوع معسكرا لقضاء الإجازات، فقد قام الإيطاليون الذين يفترض أن يكونوا مهذبين، ورومانسيين، ومثقفين، بتدمير جميع منافعها

العامة، وبذلك شجعوا الملايين من الذباب الرملى على محاولة القضاء علينا.

كانت لدى فكرة عن حرارة الطقس ورطوبته فى مصوع وأهمية الناموسية، وكنت أحمل معى زجاجة (جن) ليساعدنى على النوم، ولكن كنت فى كل مرة أحاول فيها ارتشاف جرعة كبيرة، تهاجمنى آلاف الذباب الرملى الذى كان يطن فى أذنىّ كأنما يريد أن يقول لى: "إعطنا جرعة مماثلة"، ولكنى لم التحق بسلاح المخابرات عبثاً، فقد رفعت الزجاجة وأدخلتها معى داخل الناموسية، واستسلمت فى النهاية إلى النوم وأنا أضحك مع نفسى لما سببته للذباب الرملى من غضب شديد.

عندما عدت إلى الخرطوم كان وينجيت مشغولا بتنظيم عملية تهريب شحنة نفيسة إلى أديس أبابا ممثلة فى الإمبراطور هيلاسلاسى، ومشفرة بعبارة "غير متوقع بتاتا" (Highly Unlikely). وبعد إنجاز هذه المهمة ظللنا نقيم فى خيام بالقرب من محطة الكهرباء كمجاملة لنا من شركة النور وإمداد المياه، ولكننا استبدلنا تلك الخيام بذلك "القصر الوردى" الجميل الفاخر الذى كان يختبئ فيه الإمبراطور هيلاسلاسى، وعندما أصبح جاهزاً للتفتيش النسائى، أقمنا حفلة تدشين دعونا لها العشرات من فتيات المدن الثلاث، وممرضات أحد المستشفيات الميدانية، وفتيات الـ (ATS أو الـ (WAAS) من الخرطوم بحرى، وكان بين الضيفات سيلفيا كولنز (Sylvia Collins) من الخدمات الطبية السودانية التى كنت قد التقيت بها فى بورتسودان عندما نقلت إلى هناك بين فترة عملى فى إريتريا وعودتى إلى الخرطوم.

كان هناك نوع من المودة والغزل جعلنى أتردد بالدراجة النارية جيئة وذهاباً بين ميزنا بالقرب من كبرى السكة الحديد بالخرطوم بحرى، وميز الممرضات فى أمدرمان، هل تصدق؟! لم يكن الطريق إلى الزواج لدى مكتب مدير المديرية بجويا بالقصير أو السهل، غير اننا استطعنا أن نستمتع فى البداية بالحياة الاجتماعية فى الجيش والحكومة السودانية، وببهجة نادى السودان، والتجديف

في النيل الأزرق. تلى ذلك نقلى إلى (كفرة) فى وسط الصحراء الليبية التى تقع على بعد مسافة طويلة إلى الشمال الغربى من مدينة وادى حلفا. لقد أثارنى، كما كنت أعتقد، احتمال أن أكون قريباً من القوات الألمانية بكل ما يشكله ذلك من خطر، وكذلك إمكانية قيامى بمساعدة قواتنا عن طريق تشكيل قوات خاصة، ولكن نظراً لتدخل سكك حديد السودان، وحكومة السودان فى الأمر، فقد طلب منى العودة إلى إدارة السكة الحديد.

لقد قاومت العودة بشدة. كان المصريون يسيطرون على العمل ويؤدونه بكفاءة لوقت طويل، ولكنى استطعت، على أى حال، أن أنمى نوعا من الاحترام للنظام العسكرى رغم شكوكى السابقة. كنت متأكداً أننى سأكون أكثر فائدة للمجهود الحربى بذهابى إلى كفرة، غير أن الجيش بعث إلىّ ببطاقة الرفض الثانية، ولكن هذه المرة بدون أطرافها المذهبة، وقبل إتاحة الفرصة لى لرفع الموضوع، بواسطة قائدى فى الخرطوم، إلى القيادة العامة فى القاهرة، ومن ثم إلى وزارة الحربية. لم يكن فى هذه المرة أى مجال للخطأ. فقد أمرت ببساطة أن أعود إلى تقلد مسئوليات مدنية ذات أهمية وطنية. إن من اتخذ هذا القرار، أياً كان، لم تكن لديه أية فكرة عن الأهمية المتناهية الصغر لإضافة توقيع خامس على مئات الطلبات الخاصة بعلاوات السفر والإعاشة.

بقيت فى الخرطوم إلى أن كادت السكة الحديد أن تعيدنى إلى عطبرة بالقوة، ولكن بعد أن عرضت خدماتى على مكتب الإمدادات الحربية (أصبح يطلق عليه فيما بعد اسم "مصلحة الاقتصاد والتجارة")، الذى أبدى رغبة شديدة فى تعيينى لديه، وكنت أعتقد أنه بما لدى من معرفة وخلفيات سأكون ملائماً لديه أكثر من بقائى فى السكة الحديد، غير أن الأخيرة تمسكت بشروط تعاقدها معى.

عندما عدت إلى عطبرة، وفور تقديم الإخطار باستقالتى، استدعيت إلى السراى، حيث أخطرنى سعادة الحاكم العام أننى يجب أن أذعن إلى القرار، وكان

هو القائد الأعلى للجيش، والحاكم المدنى للسودان. لقد استمع إلىّ بتفهم وتعاطف، وأعطانى انطباعاً بأنه لو كان فى مكانى لكان قد تصرف بالمثل، ولكنه قال إنه ليس بالإمكان تجاهل السكرتير الإدارى، ومديرعام السكة الحديد. لذلك قدم لى خيارين: إما عطبرة أو السجن بالخرطوم بحرى. وبما أن السجن لن يساعد السكة الحديد، أو الجيش، أو يرفع معنويات البريطانيين، فقد اخترت التوجه إلى عطبرة. ثم طلب من الياوران أن يكتب لى خطاباً يعبر فيه عن تقديره لخدماتى. تسلمت هذا الخطاب فى فرندة الفندق الكبير بواسطة ساعى البريد العسكرى الذى تلقيت منه تحيتى العسكرية الأخيرة.

بعد عودتى إلى مقرن نهرى عطبرة والنيل، وجدت الحياة كما كانت عليه من قبل، فيما عدا النقص المتسارع فى المتاجر والأسواق، والإرهاق المتنامى من كثرة الطلبات الإضافية على كل فرد. علاوة على قلة الإجازات أو ربما عدمها. وأصبح التعيين لشغل الوظائف الخالية من المتقاعدين مستحيلا عملياً إلى أن بدأ تسريح الجيش فى الوطن. وأثناء ذلك كان التضخم يزحف إلى الداخل، ولكن ساعد على احتوائه سياسة الحكومة الحازمة فيما يتعلق بالمرتبات والعلاوات الحكومية.

كانت الحياة فى الحى السكنى للسكة الحديد مليئة بالأنشطة الاجتماعية، رغم أن نشوب الحرب قد أدى إلى أن يكون عدد الزوجات أقل من المعتاد. غير أنه عندما تم تخفيف الحظر على السفريات المدنية، أصبح بالإمكان إحياء نشاط المسرحيين بعطبرة، وتم تقديم العديد من الأعمال المسرحية الطموحة، واستمر نشاطهم مزدهراً حتى عام ١٩٥٥ عندما تقاعد العديد من الموظفين البريطانيين.

كانت المدارس تشكل مشكلة بالنسبة لنا، ولكن مدرسة الراهبات بعطبرة كانت تقوم بإعطاء الأطفال وغيرهم أساساً جيداً فى التعليم المتأخر، وقد

أسعدنا الحظ بوجود سلسلة من المعلمات المخلصات المقتدرات بين سيدات عطبرة.

كانت الأنشطة الرياضية بأنواعها المتعددة تعتبر من وسائل التسلية الجادة، وكانت الفرق الزائرة من الخرطوم تحظى بمنافسات قوية، بالرغم من أننا كنا نخسر أمامها لقلة الجمهور الذى يغذى فرقنا. وكانت مباريات التنس تنال اهتماماً واسعاً، وتكشف عن مهارات عالية خاصة بين السودانيين الذين كنا نرحب بهم دائماً.

لا يمكن أن تكتمل هذه الحكاية دون ذكر لبعض نوادر "الشخصيات" التى أضافت إلى حياتنا نكهة خاصة، واحتلت مكانا بارزاً فى ذاكرتنا. كان هناك مصور سينمائى يملك قدرة عالية فى إيجاد المناظر التى تمكنه من رؤية وتصوير كل ما يحدث بزاوية ٩٠ درجة من خط إبصاره الظاهرى، وكان الناس دائما يصطفون من أجل مشاهدة الأوضاع المحرجة التى قام بالتقاط صور لها. كذلك كان هناك شاب آخر أعزب يحتفظ بسيارته الصالون فى حالة عرض مستديمة، ولا يستخدمها إلا فى المناسبات النادرة، ثم باعها أخيراً بأكثر مما كلفته. ثم مراقب المواصلات العبقرى الذى قام باختراع وتطوير (ترولى) بمحرك لاستخدامه على الخط الحديدى، وكان أفخم بكثير من ترولى "المضخة" العادى، لولا أن جهاز تبريد المحرك (الرادييتر) كان يسخن بسرعة. غير أنه وجد حلاً لهذه المشكلة بإزالة جهاز التبريد من المقدمة، وبدلاً عن ذلك قام بتركيب جهازى تبريد على كل جانب من المركبة، حتى يكون أحدهما أو الآخر فى الظل دائماً. ونسبة لولعه الشديد بأمور الطاقة فقد علق، عند استلامه برقية بأنه قد أصبح أباً لتوامين، بقوله: " حسناً، هذا يوضح أننى كنت فى قمة اللياقة".

ولكن ماذا صار لتلك العلاقة الرومانسية التى بدأت فى "حفل القصر الوردى"؟. لقد استمرت، ولكن نظراً إلى الفساد الذى كان ملازماً للتنقلات، فقد

نقلت (سيلفيا) إلى مكان بعيد خارج المدى الذى يمكن أن تصل إليه الدراجة. إلى جوبا، فأصبحنا نعانى سوياً من ضنى المحبين ووحشة الفراق والحرمان، إلى أن استجد تعديل غريب فى لوائح الإجازات فتعطفوا علىّ بإجازة لمد ستين يوماً فى شرق أفريقيا خلال العام الجارى. تقدمت سيلفيا أيضا بطلب لمنحها إجازة بنفس المدة، وتمت الموافقة على طلبها، ولكن البرقية التى قالت فيها "نعم" لعرضى عليها بالزواج منى قد ضلت طريقها إلى مكان يبعد عن عطبرة ببضعة أميال. ومما يدعو للغرابة أنه كان هناك أشخاص آخرون يحملون أسماء (Niel, Neale, Nealon, and Nolon)، وعندما يتم نقل البريد والبرقيات الخاصة بهم من الحروف الإنجليزية إلى العربية يتضح ما حدث من خلط. وعلى كل حال تكرم المستلم بإعادة توجيه برقيتى الغالية إلىّ بالجمل السريع!

سافرت إلى الجنوب. ولبضعة أيام عكس تيار النهر من ملكال، ظلت مدخنة الباخرة (الرجاف) تشتعل مع حرارة وقود حطب السنط. كانت التعليمات لمهندس الباخرة تقضى بأن يستمر فى الرحلة ما لم يكن هناك خطر يهدد الممتلكات الحكومية. أما المسافرون فلا يهم! بعد شهر العسل الذى استمر لمدة سبعين يوماً عدنا إلى الخرطوم فى الوقت المناسب الذى يمكننا من الجلوس للامتحان التحريرى للغة العربية، وكان المستوى الذى أحرزناه أعلى من متطلبات الدرجة الوظيفية لكل منا، ولذلك منح كل منا مكافأة مالية قدرها عشرة جنيهات مصرية، مما مكننا من شراء سجادة مصرية ضخمة لا زالت تبدو حتى الآن وكأنها يمكن أن تعيش خمسين سنة أخرى. لقد تعلمنا معظم الكتابة العربية خلال أيام شهر العسل مما يدل على وحدة عزيمتنا من نوع "سأفعل إذا فعلت".

فى خلال أربع سنوات من عودتى إلى عطبرة وصلت إلى درجة وظيفية عليا، ولو أنها لم تتجاوز المعدل الأساسى المسموح به للترقية، مع أن المعدل الذى كان معمولاً به بالنسبة للموظفين الذين تم تعيينهم بدون خبرة بعد

الحرب، كان أعلى من ذلك بنسبة ٢٥ ـ ٣٠٪ غير أنه من حسن حظى، ونظراً إلى كبر سن رؤسائى، فإننى بعد ترقيتين إضافيتين أصبحت أحتل مقعد كبير المحاسبين، وأترأس ٢٢٠ موظفاً، وهو إنجاز لا بأس به بالنظر إلى نفورى السابق وعدم رغبتى فى الالتحاق بمهنة المحاسبة والمراجعة. وعلى ذكر هذه المناسبة فقد قام الموظفون التابعون لى بتسجيل نقابتهم، ولكن لم يحدث أبداً أن تقدموا إلىّ بأى طلب للتفاوض، ولا زلت أستغرب لماذا لم يفعلوا ذلك؟!

عندما تسارعت عملية السودنة، قمنا بإعداد مشروع لتدريب المحاسبين فى أوقات الفراغ. وبحلول عام ١٩٥٥ أصبح هناك عدد كاف من السودانيين المؤهلين وشبه المؤهلين لشغل أكثر من الوظائف العليا الست، وعشرات الوظائف الأخرى على مستوى امتحان الشهادة المتوسطة، غير أنه من المؤسف أنه لم تتح لهم الفرصة للعمل بالترادف مع الموظفين الوافدين حتى يكتسبوا الخبرة من خلال التطبيق العملى. هكذا انتهت فترة خدمتى بالسودان التى اختلفت أثناءها مع ثلاثة من مدرائى العموميين الأربعة، وقال لى أحدهم أنه "يوجد مكان لمدير عام واحد فقط بسكك حديد السودان". والغريب أننى بعد مغادرتى السودان قد انجرفت نحو مهنة الاستشارات الإدارية حيث أصبحت أتقاضى أتعاباً مقابل ما أقدمه من نصائح وآراء بدلاً من الاستقبالات الباردة والجامدة أحياناً، ولكن كانت الحياة طيبة فى السودان، اكتسبت فيها خبرة ممتازة فى إدارة شئون الموظفين، كما تعلمت منها الكثير من الأعمال الأخرى.

●●●

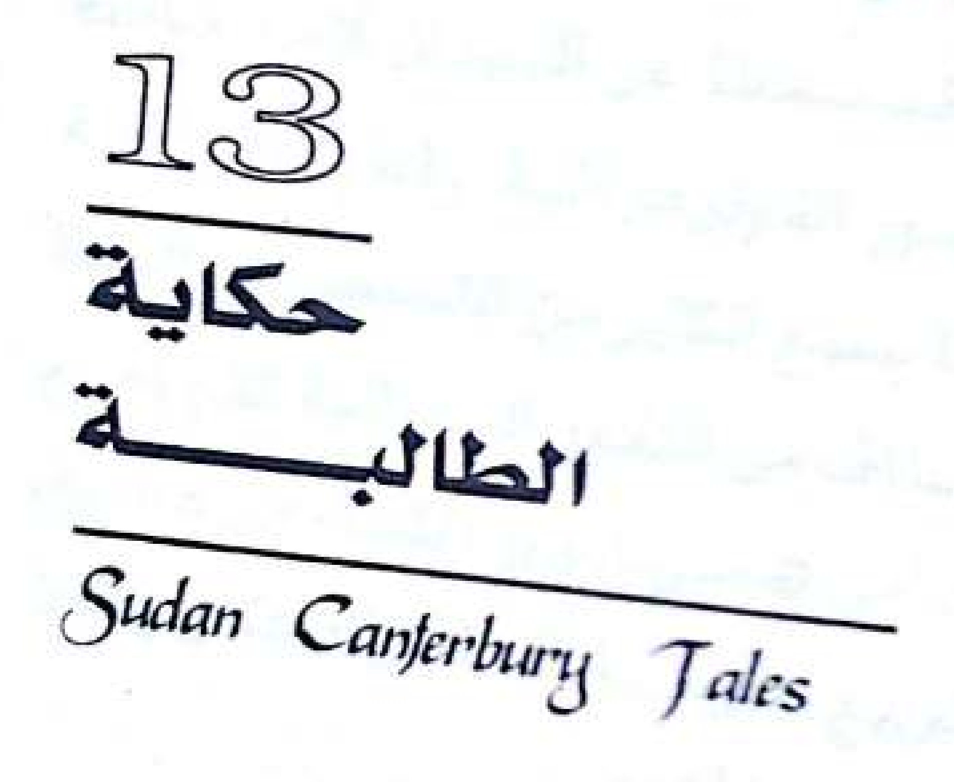
خاتمــة..

دعنا نتذكر مساحة السودان الشاسعة وصغر حجم خدمات السكة الحديد والبواخر النهرية، ولكن عندما غادرنا السودان كانت السكة الحديد والبواخر النهرية تحمل ٦,١ مليون طن من البضائع، و٦,٢ مليون مسافراً فى العام.

كانت موازنتنا منفصلة عن موازنة حكومة السودان، وعندما بدا مجلس النواب فى ممارسة أعماله، طُلب منى أن أجلس خلف وزير المواصلات اثناء تقديمه لآخر موازنة اشتركت فى إعدادها. كان صافى العائد المتوقع يتجاوز ٢ مليون جنيه مصرى من إجمالى إيرادات بلغ قدره ٤٥٠٩ مليون جنيه مصرى. ربما لا تعنى هذه الأرقام شيئاً فى عالم اليوم باستثناء ما يتعلق بشروط الإعاشة فى الفندق الكبير فى عام ١٩٥٥ التى لم تتجاوز ٧٠٠٢ جنيه (جنيهان وسبعماية مليم مصرى) فى اليوم.

نيك نيل (Nick Neale)

■■■



13

حكاية الطالبة

Sudan Canterbury Tales

كنت طالبة بكلية شيلتنهام Cheltenham للبنات فى عام ١٩٣٠، وقد احتفلت لتوى بعيد ميلادى السادس عشر، ولم أكن أتطلع إلى إكمال سنة الشهادة المدرسية. قبل نهاية الفترة أخبرتنى والدتى بأنها قد تحدث عميدة الكلية المرعبة وأخبرتها باننى سوف أترك الكلية لقضاء ستة أشهر بالسودان مع شقيقتى الكبرى التى كانت قد تخرجت حديثاً فى الكلية. وأضافت الوالدة انها تعتقد ان ما سأتعلمه فى السودان سيكون أفضل بكثير مما تلقيته فى الكلية.

كان ذلك بالنسبة لى أمراً مثيراً للغاية، ولذلك قررت أن أحتفظ بمفكرة يومية أسجل فيها جميع أحداث هذه التجربة. كان والدى روبرت فوكس[١] (Rubert Fawkes) يعمل فى وظيفة كبير المهندسين الميكانيكيين بسكك حديد السودان المتمركزة فى مدينة عطبرة، وكان من المقرر أن يحال إلى التقاعد فى الربيع التالى عند بلوغه سن الخمسين. لقد سمعنا عن السودان كثيراً خاصة بعد أن كبرنا. وكانت فى بيتنا بعض الصور الفوتوغرافية، وقطع من الفضة السودانية، والمصنوعات الجلدية. كما كنا نسمع الكثير من القصص عن الحياة فى عطبرة، وكانت ترد إلينا بالبريد أصناف من التمور السودانية التى يصنع منها طباخنا أنواعاً من الحلوى. كانت أمى تقضى شهور الشتاء فى عطبرة، وتعود إلى انجلترا مع بداية عطلة الربيع المدرسية. أما الوالد فكان يأخذ إجازته فى أكتوبر من كل عام، وتمتد إلى ثلاثة أشهر.

---

(١) تدعى الأسرة انها من سلالة جاى هوكز المشهور.

تم الحجز لنا للسفر عن طريق البحر من مرسيليا فى أوائل شهر اكتوبر، ولذلك كان لا بد لنا من القيام بالكثير من التسوق لشراء ما يلزم من الملبوسات الشتوية. وبما أنه كان من المنتظر أن تظهر أختى فى صالة الرقص بسراى الحاكم العام بالخرطوم، لذلك كان لا بد أن يكون من بين ملابسها فستان أبيض طويل. أما أنا فقد أوضحوا لى أنه يمكننى فقط ارتداء فستان إلى الساقين - باللون القرنفلى. كانت الموضة آنذاك أن تلتزم الفتاة فى كل الأوقات بتسريحة شعر متموج عند بلوغها سن الرشد، ولكن ظل شعرى مستقيما كما هو.

أبحرت بنا السفينة فى الليل، وبعد ستة أيام وصلنا إلى بورسعيد حيث نزلنا إلى الشاطئ، وفى مساء اليوم التالى وصلنا إلى بورتسودان حيث استقبلنا الوالد بصالونه الخاص الملحق بأحد القطارات العادية. كان الصالون يحتوى على مطبخ بطباخه، وغرفة جلوس، وغرفة نوم مزدوجة. أما أنا وأختى، فقد حجز لنا بعربة النوم لنسافر مع والدينا فى رحلة اليوم الواحد إلى عطبرة. كانت المناظر جميلة وجذابة، وقد أحببت الصحراء منذ تلك اللحظات. وصل بنا القطار إلى عطبرة فى الساعة العاشرة صباحا، ولدهشتى فقد سحب الصالون مباشرة إلى مدخل حديقة منزلنا حيث تولى الخدم نقل حقائبنا إلى داخل المنزل.

كان المنزل يتكون من طابق واحد وتحيط به حديقة يوجد على جانبها الجنوبى ميدان نجيلة ينحدر إلى النيل مباشرة، وكان عمال الحدائق السودانيون يستمتعون بغمره بالماء مرة فى الأسبوع، ولذلك كان مخضراً بصفة مستديمة. وفى الجانب الجنوبى من المنزل كانت توجد أيضاً فرندة طويلة مؤثثة بالكراسى والكنبات، وكانت جميع الغرف تفتح على الحديقة. لقد سجلت فى مفكرتى أن كل شىء جميل ويبدو جميلاً. كان لدينا زورق كبير يرقد تحت المنزل على ضفة النهر، وفى يوم وصولنا قام الوالد بإنزاله إلى الماء بمساعدة الخدم.

كانت الحياة فى عطبرة جديدة بالنسبة لنا، فكان الوالد يذهب إلى عمله يوميا فى الساعة السادسة صباحا بدراجته النارية، ويأتى إلى المنزل لتناول طعام الإفطار فى التاسعة، ثم يعود إلى العمل حتى الثانية مساء، فنتناول وجبة الغداء التى تعقبها قيلولة ما بعد الظهيرة، ثم نخرج إلى اللعب أو السباحة، ومع غروب الشمس نجلس لتناول الشاى فى الحديقة على طاولات صغيرة أنيقة مضاءة بمصابيح قياسية. بعد ذلك قد نخرج إلى حفل عشاء، أو نلعب البريدج أو ندعى إلى حفلة راقصة أو نزهة مسائية. كنا دائماً ننام فى الحديقة ليلاً حيث كان الخدم يتولون إخراج أسرتنا بعد تناول وجبة العشاء، ولا أذكر أننا كنا نستخدم أية ناموسيات أو أى نوع آخر من الحماية.

بعد أن استقر بنا المقام، وضع لنا الوالد برنامجاً لإقامتنا. كان مجتمع عطبرة يذخر بحياة اجتماعية واسعة، ولذلك كنا بحاجة إلى تجديد وزيادة معرفتنا بالبريدج، كما كانت هناك ألعاب أخرى كثيرة مثل التنس، والبادمنجتون، والسباحة، والرقص، وقد استؤجر لى خصيصاً بيانو لأتمرن عليه، وكنت أقوم بذلك لمدة ساعة أو ساعتين فى أغلب الأيام.

كذلك نظمت لنا دروس فى ركوب الخيل مع الكابتن دبل (Dibble) رئيس الشرطة المحلية، وأصبحنا نركب خيول الشرطة ونخرج بها عدة مرات فى الأسبوع. كان كابتن دبل يأتى إلى منزلنا فى الساعة السادسة والنصف صباحا ليأخذنى وأختى لنركب الخيل منذ شروق الشمس، فنمر من خلال السوق إلى أن نصل إلى المطار عبر أرض فضاء من الرمال والصحراء لا وجود لأحد فيها. وكنا أحياناً نخرج مع الوالد، وفى أحد الأيام كتبت فى مفكرتى أن "الخيول كانت لعوبة نوعاً ما. ركبت الحصان (بيستو) وأوشكت على السقوط من ظهره، ثم جربت حصاناً آخر عمره ثلاثة وثلاثون عاماً، وسقطت منه فعلاً". كنا أيضا نزاول رياضة التجديف وأحياناً نعبر بالزورق إلى الجزيرة فى نزهة نتناول

خلالها وجبة الإفطار، ونصطاد طيور القطا (٣٦ زوجاً فى مناسبة واحدة)، أو نصطحب معنا عدداً من الأصدقاء فنتناول الشاى معاً، حيث كان الزورق يتسع لثمانية أشخاص بارتياح. ورد فى مفكرتى أيضاً أننا خرجنا سيراً على الأقدام لمسافة طويلة على ضفة النيل. كما سجلت فى مناسبة أخرى خروجنا بالسيارات فى نزهة على ضوء القمر على شاطئ نهر عطبرة. وفى رحلة أخرى إلى مدينة بربر غرست السيارة فى الرمال عدة مرات مما اضطرنا إلى تناول وجبة العشاء وسط الخرابات. كذلك نظمت لنا رحلة أخرى على ظهور الجمال مع بعض الأصدقاء وصفتها فى المفكرة بأنها "ممتعة ورائعة" بينما كانت الجمال تخب بنا فى اتجاه بربر.

أما الاحتفال بعيد الكريسماس فقد وصفته فى مفكرتى بأنه "الأفضل أبداً". بعد أداء الصلاة فى كنيسة عطبرة، كانت هناك شمبانيا فى صالة الرياضة، ثم مادبة عشاء ورقص وسباحة حتى الساعة الثانية صباحاً، وفى الساعة الثالثة من صباح يوم الإهداء (Boxing Day) غادرنا إلى الخرطوم فى عربة النوم بالقطار. لم تكن هذه أول زيارة لنا إلى الخرطوم، ولكنها كانت زيارة خاصة لحضور "حفلة الرقص بالسراى"، غير أنه لم يرد فى مفكرتى سوى أن "القصر فخم ومضاء بصورة جيدة. البرنامج ممتاز وممتع جداً. رقصت مع الكثيرين. سهرنا حتى الثانية صباحاً".

كنا نذهب إلى الخرطوم كثيراً ودائماً بصالوننا الخاص الذى كان يضاف إلى قطار المساء ليصل إلى الخرطوم فى حوالى الثامنة صباحاً. كان للوالد العديد من الأصدقاء هناك، وكنا نقيم مع بعضهم حيث تقام لنا حفلات خاصة. كانوا يأخذوننا إلى حوض السباحة الفخم بنادى السودان (سودان كلوب)، أو يخرجوا بنا فى رحلة نهرية إلى أم درمان لنشاهد ميدان المعركة، وسوقها المدهش، وبيت الخليفة الذى أصبح فيما بعد متحف المهدية.

قمنا بزيارة أخرى إلى الخرطوم لحضور حفل (حديقة القصر). كان الجميع فى أبهى حللهم، والوالد يرتدى الزى الخاص بحفل استقبال الصباح. كانت حدائق القصر جميلة، وجلسنا جميعاً حول طاولات صغيرة لتناول الشاى، بينما كان الحاكم العام السير جون مفى (John Maffey) وعقيلته يتجولان بين المدعوين، وفى لحظة معينة وزعت أوسمة الشرف على مختلف الأشخاص". (منح والدى وسام الـ CBE ضمن أوسمة شرف يوم الميلاد لذلك العام). "لقد أعجبنى الحفل مما جميعه". حضر الحفل أيضاً العديد من الشخصيات السودانية بالإضافة إلى أفراد الجالية الإنجليزية.

كان أحد الأحداث الهامة أثناء إقامتنا فى عطبرة هو وصول ثلاث طائرات ضخمة من طراز فيكتوريا إلى المطار تحمل ضباطاً من الجيش ضمن رحلة من القاهرة إلى مدينة الرأس. لا بد أنه كان حدثاً غير عادي، فقد هرع عدد كبير من السكان لرؤية هذا المشهد. ولكن كان هناك دائماً الكثير الذى يستحق المشاهدة: تلك القافلة من الجمال التى مرت بنا أثناء ركوبنا الخيول فى صباح أحد الأيام؛ أو أولئك النسوة من الأهالى وهن يسرن على ضفة النيل ويحملن حزم الحطب على رؤوسهن، بينما المراكب تبحر فى النهر جيئة وذهابا.

وهكذا مرت اللحظات. وفى أحد الأيام أجريت مباراة للهوكى استعرضنا فيها أنا وأختى ما اكتسبناه من مهارات فى كلية شيلتنهام للبنات! وعند غروب الشمس فى تلك السماء الصافية أقيمت حفلات الشاى، ثم مباراة فى البريدج، وبعدها (بروفة) للتمثيلية التى ستعرض خلال أيام عيد الكريسماس بعنوان (هل تنضم إلى السيدات؟) لمؤلفها جيه. إم. بارى J. M. Barri. كما كانت تقام حفلات الرقص بصفة مستديمة داخل المنازل، ومن بينها تلك الحفلة الراقصة التى أقامها الوالد على شرفنا بالمنزل قبل حلول أعياد الكريسماس. استمر الرقص فى فرندة المنزل الواسعة حتى الساعة الثانية صباحاً. وتقول مفكرتى عن هذا الحفل: "رائع! (س) كان لطيفاً. احببت كل شيء".

فى شهر فبراير بدأت إجازة الوالد النهائية التى نظم لنا خلالها رحلة نيلية قصيرة إلى بلاد الدينكا. لذلك ذهبنا إلى الخرطوم، ومن هناك أقلنا القطار إلى مدينة كوستى حيث واصلنا الرحلة بإحدى البواخر النهرية لحكومة السودان. كانت الرحلة مريحة و"القمرات جميلة جداً" كما ورد فى المفكرة.

أبحرت الباخرة عكس التيار وهى تقطر صندلين طويلين مربوطين معاً. كانت المناظر مذهلة ومثيرة: أفراس البحر تسبح من حولنا، وستة من التماسيح تستلقى على إحدى الصخور. ولتمضية الوقت على ظهر الباخرة، كنا نلعب التنس، ورمى الحلقات، ورياضة القفز، وفى المساء نلعب البريدج كأمر لا مفر منه، أو نشاهد أحد العروض السينمائية. وصلنا (كدوك) فى اليوم التالى، وهى مدينة مثيرة للاهتمام. واستقبلنا رجال قبيلة الشلك بحرارة بقاماتهم العالية وملابسهم المزركشة بالخرز، وأغطية الرأس المتعددة الألوان، وكانوا يرتدون ثياباً طويلة تربط عند أحد الكتفين. كذلك كانت النساء بالمثل لافتات للنظر وهن يسرن فى الطريق ويحملن على رؤوسهن الجرار أو الصفائح. قدم والدى للرجال بعض التباكو فتقبلوه بسرور بالغ. وفى اليوم التالى وصلنا إلى ملكال، وهى مدينة كبيرة بسوقها وشوارعها المحاطة بقطاطى القش. وكانت ضفة النيل تعج بمراكب الأهالى التى يطلق عليها محلياً اسم (نُجَر). أما المنظر العام للمدينة فهو عبارة عن أرض منبسطة تكسوها الخضرة. وفى اليوم التالى وصلت باخرة أخرى لتقلنا فى رحلة العودة إلى كوستى. كانت رحلة مثيرة استمتعنا فيها برؤية مناظر الصحراء بمختلف أنواعها.

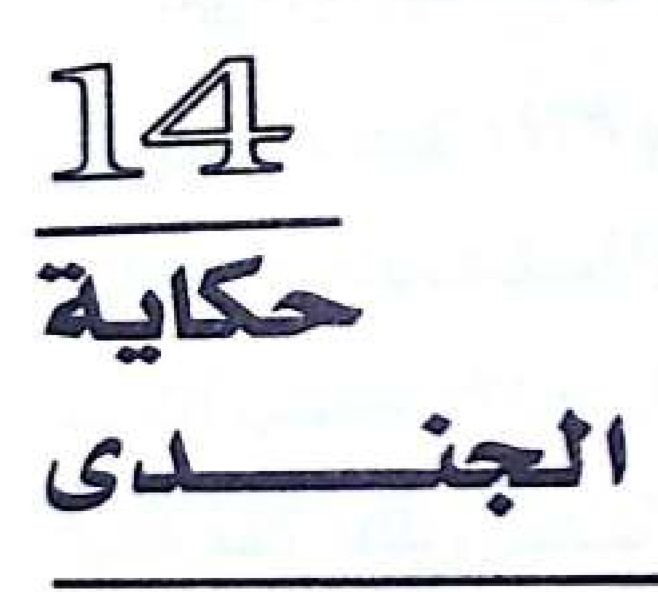
بعد عودتنا إلى عطبرة بدأت الإستعدادات لمغادرتنا. كانت هناك حفلات عشاء لوداع والدينا، وفى الصباح الباكر كنا نركب الخيل حتى المطار، ثم تم تسليم الزورق، ثم أقيم مزاد علنى فى منزلنا. وفى اليوم الأخير قام المطران جواين، أسقف مصر والسودان، والصديق الحميم لوالدى بأداء صلاة خاصة

فى كنيسة عطبرة. وفى ذلك المساء ركبنا صالوننا للمرة الأخيرة وغادر بنا القطار مدينة عطبرة فى الساعة الثانية صباحاً . وأثناء النهار أخذنا الوالد إلى غرفة ماكينة القاطرة البخارية حيث قضينا هناك ساعة كاملة، وكنا أحياناً نضع الفحم الحجرى على النار المشتعلة المحركة للقاطرة. استغرقت السفرية طوال النهار، ووصلنا مدينة حلفا فى الساعة السادسة مساء. كانت هذه بالنسبة للوالد هى رحلة الوداع للسكة الحديد التى ظل يخدمها لمدة ثلاثين عاما.

لكن ليست هذه هى نهاية حكايتى، فقد استمر "تعليمى" طوال سفرنا من حلفا عبر مصر، وفلسطين، وسوريا، وتركيا، وقبرص، واليونان، وإيطاليا، وبلجيكا، إلى أرض الوطن.

ديانا أودجرز (Diana Odgers)

■■■



14

حكاية الجندى

Sudan Canterbury Tales

لقد كان سبب انتدابى إلى العمل بقوة دفاع السودان فى عام ١٩٣٨ عندما قابلت سايمون فيرجسون Simon Ferguson، أحد الضباط الذين زاملونى فى فرقتى الأرجايل (Argyll) والسزرلاندرز، وذلك أثناء زيارته لى فى المخيم العسكرى الإقليمى فى (دنبار Dunbar) حيث كنت أقوم بالتدريب السنوى، وكان قد جاء فى إجازته حيث كان يعمل مع حامية الاستوائية التابعة لقوة دفاع السودان، والتى كانت تتمركز فى جنوب السودان الإنجليزى المصرى فى المنطقة المعروفة باسم "المستقعات"، وكان بالفعل اسماً على مسمى. ونظراً إلى أننى لم اعد انمتع بسلطات تستحق أن أبقى من أجلها، وحيث أننى بدأت أشعر بالملل من العمل العسكرى فيما قبل الحرب، فقد فكرت فى الاستقالة من الجندية، ولكن نصحنى سايمون بالعدول عن هذه الفكرة، واقترح علىّ أن أتقدم بطلب للانتداب إلى قوة دفاع السودان، حيث تتوافر هناك فرص القيادة الصحيحة، مع الراتب المجزى، ومتعة العمل فى أفضل بلاد العالم من الناحية الإدارية.

وهكذا تقدمت بطلبى، وبعد بضعة أشهر من عام ١٩٣٩ كنت فى طريقى على ظهر (لورى) مدنى غير مأمون، ولكن ليس إلى (المستنقعات) وإنما إلى كادوقلى بجبال النوبة فى أواسط غرب السودان، لأتولى هناك منصب القائد الثانى لسلاح الهجانة التابع لفرقة النوبة رقم (٦) أو "ستجى بلك" كما كانوا يسمونه باللغة العربية، تحت قيادة قس باول (Gus Powel) من البحرية الملكية الذى كان معروفاً بلقب (ابو زيز) لأنه كان كعادته يخلد إلى النوم سريعاً كلما وجد فرصة لذلك.

كانت هناك علاقة وثيقة بين فرقة النوبة السادسة والبحرية الملكية، وكان قائد سلاح الهجانة السابق، الأميرلاى[1] إيه. آر. شيتر بيه (A.R. Chater Bey)، الذى أصبح فيما بعد الميجر جنرال (اللواء) إيه. آر. شيتر، حامل وسام الامبراطورية البريطانية، ووسام الخدمة الطويلة الممتازة، ووسام الإمبراطورية بدرجة فارس. كما كان يأتى إلى كادوقلى فى كل عام أحد ضباط الصف من القوات البحرية لتنشيط برامج التدريب الخاصة بالمجندين السودانيين من قبائل جبال النوبة. وقال أحد ضباط الصف هؤلاء بعد وصوله بفترة قصيرة إن السودانيين فى براعتهم العسكرية يماثلون جنوده فى بليموث (Plymouth) بل هم أفضل منهم، من ناحية أن جندى البحرية لن ينفض أنفه إذا حطت عليه ذبابة، ولكن النوباوى يظل ثابتاً حتى لو جاءه نفس الخطر من زنبور.

كان من ضمن المهام المناطة بفرقتنا القيام بما كان يطلق عليه (جولة المطر)، التى تبدأ من كادوقلى وتنتهى فى تلودى على بعد ٧٠ ميلاً إلى الجنوب. كان الهدف من هذه الجولة هو التدريب واستعراض سلطة الحكومة وقدرتها على الحركة، حتى فى موسم الأمطار، لمواجهة أية انتفاضة محتملة، وقد أظهر هذا التمرين أفضل ما لدى الجنود السودانيين من سلاح المشاة من براعة. بدأنا المسيرة ونحن فى غاية السعادة والسرور لخروجنا من الثكنات، وكنا نتشوق إلى مواجهة صعوبات الرحلة. بدأت العواصف الرعدية، وكانت الرعود تقصف من بين الغيوم والبروق الخاطفة، ثم تهطل الأمطار بغزارة ، وتتوقف لفترة قصيرة، لنعود للمرح والضحك بينما يخفت صوت الرعد ويبتعد إلى أن يتلاشى تدريجياً. ثم نخلع ملابسنا المبتلة ونعلقها على الأشجار حتى تجف، وربما يغالبنا الضحك حينما تتحول الأرض إلى طين لزج، ويمشى عليه (الأنفار)

(١) الأميرلاى رتبة عسكرية كان يرقى لها الضباط فى ق د س. أو (الجيش المصرى)، وهى تعادل رتبة الكولونيل أو الليفتنانت كولونيل لدى الجيش البريطانى، ويمكن أن تسند إليه قيادة فرقة كاملة مثل فرقة العرب الشرقية، وكانت الفرقة فى ق د س. تعادل باتليون (Battalion) لدى الجيش البريطانى.

الذين تصرف لهم الأوامر لخلع صنادلهم وتعليقها على أكتافهم، بينما يظل الطين ملتصقاً بأقدامهم. أما الضباط فكانوا يعانون ويتضررون أكثر لأنهم يركبون الخيول.

وبالرغم من هذه الحالة كان الجنود يشقون طريقهم وبعضهم يحمل غلايات الشاى وأوانى الطبخ معلقة على أكتافهم، بينما يقوم (البروجى) بعزف مقطوعة موسيقية يتجاوب معها العساكر بترديد الأهازيج مع تكرار اللحن والكلمات. كانت إحدى هذه الأهازيج تقول:

"لا لا يا بنية ما تجنينني، اتكلم العسكرى كويونجو

ما عندى إلا اربعة وعشرين ساعة فى جبل كورونجو."

ومن بين أناشيد (المارشات) العسكرية التى أخذوا يرددونها بعد هزيمة الطليان فى شرق أفريقيا عام ١٩٤١ أنشودة تقول ما معناه:

"ثلاثة سودانيين قتلوا طلاينة كثير

نهض الباقون ولاذوا بالفرار

بعد ذلك وصلت قوة الهجانة"

قبل وصولنا إلى تلودى مررنا بخور ملىء بمياه الأمطار التى هطلت على بعد عدة أميال. قمنا جميعاً بعبور الخور ونحن فى غاية الابتهاج والسرور، كما عبره الضباط على صهوات خيولهم، وكان الجنود من الرتب الأخرى يضحكون عليهم وهم يحاولون البقاء على السروج بصعوبة، وعندما يعبر أحد الضباط إلى اليابسة بسلام، يصفقون ويهتفون له بحرارة. كانت دواب النقل التى تسمى "الحملة" من الثيران ذات الأسنام، وكانت بحوافرها المفلطحة تستطيع السير على تلك الأرض الطينية، ولكن عندما وصلنا إلى الخور أنزلت أحمالها، واقتيدت إلى مياه الخور الجارفة، وأخذت تسبح بقوة بينما لم يظهر منها على سطح الماء غير الأسنمة والقرون. غير أن المياه قد جرفت أحد

الثيران ليصطدم بشجرة، فقفز الجنود إلى الماء وتمكنوا من إنقاذه حيث أخذ بعضهم يدفعه من رأسه والبعض الآخر من ذيله، وهكذا الحقوه بالآخرين. أما البغال التى كانت تجر المدافع فقد عبرت الخور بحيوية واندفاع، رغم أنها كانت تعبر عن شكواها بصهيلها المتواصل.

فى ذلك الوقت كان روبن سنيد ـ كوكس (Robin Snead - Cox) قد خلف قس باول على القيادة، وكان يمتلك طوفاً مصنوعاً من خمسة براميل صغيرة سعة خمسة جالونات ومغطى بألواح خشبية، مع حبل موصل بكل من طرفيه، وكان يستخدم فى حمل المواد الغذائية، ومدافع الفيكرز، والمؤن دون أن تتعرض للبلل. أخيراً تمكن الجميع من عبور الخور، ومن ثم خلعنا ملابسنا ومعداتنا المبتلة بالماء وتركناها حتى تجف. كان معنا نيل إنز (Neil Inns) مفتش مركز كادوقلى الذى تعرض بنطلونه القصير إلى التمزق أثناء عبور الخور بحصانه. وحيث أن الرجل كان خبيراً بمستلزمات السفر، فقد كان يحمل معه إبرة وخيطاً استطاع بهما إصلاح التلف وهو ينحنى إلى أسفل فارجاً ساقيه دون أن يخلع البنطلون !

بعد قضاء بضعة أيام فى تلودى استمتعنا خلالها بكرم الضيافة من الأهالى، بدأنا رحلة العودة بطريق آخر يمر بجبال (كورونجو). كان نوبة كورونجو قوما طيبين ومشهورين بإنتاج أفضل المصارعين والمحاربين بالهراوات فى ذلك الجزء من جبال النوبة. غير أنه لم يتقدم منهم أحد للتجنيد بفرقة النوبة، رغم أنه كان لدينا أمل ضئيل فى أن يطمع أحد رجال الكورنجو فى الالتحاق بالجندية، وفى هذا المكان دخل حياتى شخص يدعى كوكو تية.

بعد عودتنا إلى كادوقلى، رجعنا إلى روتين ورتابة التدريب العسكرى وممارسة رياضة البولو. كان روبن سنيد كوكس صياداً ماهراً مثلى، وحتى نخفف من وطأة الملل والرتابة عن أنفسنا ورجالنا، فقد كنا أحياناً نتخذ قراراً

مفاجئاً، لربما فى إحدى الأمسيات التى كنا نتاول فيها شيئاً من الخمر، بأن نخرج فى مسيرة إلى بحيرة (كيلك) وهناك نقضى الوقت فى صيد الإوز ذى الشوك فى جناحيه، وإوز النيل، والبط ذى الذيل الطويل (وهو من أفضل ما يؤكل) إلى جانب البط الضخم ذى اللون الأزرق المائل إلى الخضرة المعروف محلياً باسم (أم شليلى) بالإضافة إلى واحد أو اثنين من الكراكى ذوات العرف التى يوضع ريشها على شرائط قلنسوات الضباط. وفى صباح اليوم التالى، وبناء على المبدأ المعلن من قبل الحاكم العام، السير هيوبرت هدلستون (Sir Hubert Huddleston) الذى كان هو نفسه قائداً سابقاً لفرقة الهجانه، بأنه "ينبغى أن يكون فى مقدور الجنود العيش على رائحة خرقة معطونة فى الزيت" فقد نسير من أرض الطابور مباشرة إلى الوجهة المقصودة، وكانت تدريبات التكتيك تدمج بطبيعة الحال مع التمارين العسكرية لإراحة ضمائرنا، كما كانت للحركة قيمتها كونها استعراض للقوة والسلطة.

بعد فترة قصيرة من وصولى كانت قد بدأت الدورة السنوية لاستخدام الأسلحة الخفيفة. وقد تولى الضابط السودانى اليوزباشى طالب أفندى إسماعيل، وهو أعلى منى رتبة، مهمة تدريبى على هذا النوع من الأسلحة. كان الماما بالخطوات جيداً، ولكن فى تلك المرحلة لم تكن لغتى العربية بالقدر الكافى الذى يمكننى من الإسهام فى التدريب بفعالية. وأثناء هذه الدورة علمت شيئاً عن قدرات الكجور والإيمان بها، وكان المك (الملك) والكجور (وهو الزعيم الروحى والطبيب الشعبى) هما اللذان يتوليان شئون الإدارة القبلية بين قبائل النوبة.

بالرغم من أن الكثير من الجنود المتمرسين كانوا يعتبرون تمارين الرماية مضيعة للزمن، إلا أنه كان يتعين على كل فرد أن يجتاز اختبار ضرب النار (الرماية) بأشواطه الخمسة من مسافة مئتى ياردة. وبينما كان الشاويش كاتشو البروجى يتخذ وضع القيام راقداً، علق اليوزباشى طالب بأن هذا الشاويش لربما يكون من أفضل الرماة فى قوة دفاع السودان، وأنه من النادر

أن يخطئ الهدف حتى ولو كان التصويب لعشر جولات. قام الشاويش كاتشو بإطلاق الجولة الأولى، ولكن بدلاً عن أن يكون القرص الأبيض موضوعاً فوق الهدف ارتفع علم أحمر فوق (الدروة) مما يعنى أنه قد أخطأ الهدف، فاعتقد الشاويش أن هناك رصاصة لم تنطلق، ولكن عندما أعاد المحاولة ارتفع العلم الأحمر مرة أخرى. هنا ركض أحد الضباط إلى (الدروة) لمعرفة ما جرى، فلم ير أى علامة على الهدف الذى كان كاتشو يصوب نحوه. اعتقد اليوزباشى طالب أن هناك خطأ ما فى البندقية، ولذلك قام كاتشو بإطلاق جولة جديدة مستخدما بندقية أخرى مضمونة، ولكن العلم الأحمر ظهر مجدداً. هنا أصدر اليوزباشى أوامره إلى الشاويش بأن يعود إلى الثكنات ريثما يتم التحقيق فى الأمر. وظل الشاويش كاتشو أثناء سير التحقيق يلتزم الهدوء تماماً.

كشف التحقيق الذى أجراه اليوزباشى طالب أن هناك أمباشى يتبع لنفس بلتون كاتشو له أحقاد وضغائن شخصية معه بسبب بعض الأمور المتعلقة بالانضباط، ولذلك قام الأمباشى بزيارة الكجور، وأقنعه بأن يحل لعنته على الشاويش بحيث يرسب فى دورة الرماية (ضرب النار) الأمر الذى سيكدر صفوه أكثر من أى شىء آخر. أوضح اليوزباشى طالب أن كاتشو لن يفلح فى إصابة الهدف طالما أن هذه اللعنة قد حلت فيه، ولذلك أصبح لزاما عليه أن يعود إلى الجبل حتى يتمكن كجور قريته من إزالة تلك اللعنة. عندما عاد كاتشو أفلح فى تصويب طلقات الجولة بالكامل، ولم يخطئ الهدف فى أى شوط منها. لقد استنتجت من ذلك أن اللعنة قد أزيلت، وأن براعة كاتشو فى الرماية ستظل لا مثيل لها كما كانت دائماً. غير أننى كنت أتساءل ربما كان طلب السماح له بالذهاب إلى قومه فى إجازة قصيرة نوعاً من التحايل، ولكنى أعتقد أنه كان فوق الشبهات، ذلك أنه قد سبق فى دورة سابقة أن حصل على الميدالية العسكرية للبسالة والشجاعة، كما منح لاحقاً براءة الحاكم العام كضابط فى الجيش.

فى مطلع عام ١٩٣٩ كثر الحديث عن الحرب لدرجة تأثر بها طائر الببغاء الذى كان يخص فيليب برودبنت (Philip Broadbent) مفتش مركز الدلنج. كان الببغاء يختال فى الردهة جيئة وذهابا متأرجحا من جانب إلى آخر مثل النوتى فى البحر، وكان عندما يحضر ضيف للمنزل يصيح قائلاً: "ويسكى صودا"، وعندما يقوم المضيف بتقديم الويسكى والصودا، يتدخل الببغاء فجأة فى الحديث ويقول: "بحق الجحيم ما هى احتياطات الغارات الجوية على أى حال".

مع ازدياد احتمالات نشوب الحرب، ارتفعت درجة الاستعداد فى الفرقة، وأصبحت فى كامل قوتها مع زيادة التدريب. وفى يوم من الأيام قدم شاب من منطقة (كورونجو) إلى غرفة حرس الفرقة، وأبدى رغبته فى الالتحاق بالجيش. وعلمت من البلك أمين أن الفرقة لم تكن فى كامل قوتها فحسب، وإنما لم يكن يتوفر لديها أيضا أى فائض فى الزى العسكرى. وبما أن الشاب القادم من كورونجو كان قوى البنية، ورغم أنه كان عارياً تماماً كما خرج من رحم أمه إلا من بعض أوراق الشجر التى كان يكتسى بها بطريقة فاخرة، إلا أنه كان لا مفر من قبوله والاحتفاظ به. إنه (كوكو تية) الابن الثالث، كما يشير اسمه، لكوكو زعيم قبيلة كورونجو التى قمنا بزيارتها أثناء دوريتنا من تلودى إلى كادوقلى. تم توفير بندقية له وحقيبة عسكرية، وحزام الكتف لحفظ الرصاص. أما حقيقة عدم وجود زى عسكرى فلم تقلق أحداً، ذلك أن كوكو تية أصبح بعد قليل يتبختر مع الآخرين مرتدياً كل شىء ما عدا الملابس.

••

الأيام الأولى للحرب

نشبت الحرب فى شهر سبتمبر من عام ١٩٣٩ ضد دولتى المحور ألمانيا وإيطاليا، وكنت فى الخرطوم بغرض علاج الأسنان فى اليوم الذى أعلنت فيه بريطانيا الحرب على ألمانيا. طلبنى القائد العام لقوة دفاع السودان الجنرال

سير ويليام بلات (William Platt) وأبلغنى بأنه قد أصدر الأوامر إلى سنيد ـ كوكس الضابط بسلاح الهجانة للتحرك فورا لحماية خزان سنار الذى كان يعتبر مصدر المياه لمنطقة الجزيرة المروية الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض، وأمرنى بالتوجه فوراً إلى سنار لاستكشاف منطقة الخزان (كان الخزان يعتبر هدفا لهجوم محتمل، حيث أنه قد علم من المخابرات أن قوات إيطالية تعرف باسم باندا رولو "Banda Rollo" كانت على وشك عبور الحدود إلى السودان) وذلك لاتخاذ التدابير اللازمة لوصول فرقتى (سلاح الهجانة) إلى هناك. وأثناء الحديث رن جرس الهاتف، وتلت ذلك محادثة طويلة انتهت بقول الجنرال: "آسف يا سيدى، أخشى أن تكون طائراتنا الآن فى طريق العودة بعد قصفها لأسمرا". ثم شرح لى بعد ذلك أن الحاكم العام المتزوج من امرأة إيطالية يرى أنه لم يتأكد على الإطلاق أننا فى حرب مع إمبراطورية شرق أفريقيا الإيطالية، وأردف قائلاً: "طبعاً هذا كلام فارغ". وفى نفس هذا اليوم توجه البمباشى آرثر هانكز، قائد ثلاجى بلك إدارة التابع لقوة العرب الشرقية إلى مسافة تمكنه من استخدام نيران الأسلحة الخفيفة على مدينة المتمة وقد هاجمها بالفعل، وكان ذلك مفاجأة كبرى للإيطاليين.

لحق بى روبن سنيد ـ كوكس وستجى بلك عند خزان سنار بعد رحلة شاقة وهم يشقون طريقهم خوضا فى الوحل الناجم عن أمطار نهاية فصل الخريف فى جبال النوبة إلى أن وصلوا محطة السكة الحديد المخصصة لتوزيع المؤن، ومن هناك واصلوا رحلتهم بالقطار. كان خطر هجوم فرقة (الباندا رولو) قد تلاشى، وأصبح فى مقدورنا نحن الضباط الاستمتاع بفواكه (جنينة) الحكومة التى كان يوجد بها أيضا حوض للسباحة. كما كنا نستمتع بصيد أسماك النيل، وتلك الأسماك الضخمة الموجودة فى قاع الخزان، بالإضافة إلى البط والإوز البرى فى منطقة (مايرنو) المجاورة، مع لعب البولو والبريدج فى الأمسيات. وكان نادى اليخوت بالخرطوم قد تكرم بإعارتنا قارباً لممارسة رياضة التجديف، وقد تم شحنه لنا على عربة سكة حديد مسطحة، وكان مرساه فوق

الخزان، وكنا نبحر به إلى أعالى مياه الخزان لمشاهدة التماسيح وهى ترقد على الشاطئ فاغرة أفواهها لطيور السقساق الأنيقة التى تخلل لها أسنانها. وفى أحد الأيام، وبينما كنا ننزل إلى القارب بواسطة سلم حديدى موجود فى واجهة الخزان، حذرنا احد موظفى مصلحة الرى بأنه يوجد ثعبان على ظهر القارب. لم نلاحظ شيئاً من هذا القبيل، ولكن طلبت من رقيب أول بالفرقة إحضار بعض خبراء الثعابين، فأتى إلينا باثنين منهم أحدهما كوكو تية الذى فاجانا بإحضار طوة معدنية مسطحة، وشوى فيها بعض الأعشاب الجافة غير المعروفة لدينا، واستمر يوجه الدخان المتصاعد منها إلى بدن القارب إلى أن خرج منه ثعبان ضخم انزلق بسرعة إلى داخل الماء.

وفى يوم من الأيام طلب منى مهندس الخزان أن أقوم بقتل نمر كان قد قضى على عُشر بهائم القرية التى يسكن فيها عمال الخزان، وطبعا بوصفى "ضابط ورجل محترم" ما كان يجوز لى أن أرفض مثل هذا الطلب. رافقنى (منان شيتاكا) وهو جندى سودانى قديم اشتهر بأنه فى السابق قد قتل ستة نمور، وكان من أولئك العساكر الذين لا يقدرون بثمن فى أية وحدة عسكرية يعملون بها، وكان يفوق كل الآخرين برتبهم وملفاتهم، ويخلو من أية عيوب سلوكية، ويتمتع باحترام جميع الرتب العسكرية، ولكنه بالرغم من كل ذلك كان دائماً محروماً من الترقية. وصلنا إلى أرض خالية من الأشجار، وكان كل منا يحمل بندقية ومعنا معزة بيضاء. قال منان أنه سيربط المعزة إلى وتد، ثم نجلس فى وسط الساحة وكل منا يسند ظهره إلى الآخر، على أن أكون أنا فى مواجهة المعزة. وجلسنا هكذا الى أن حل وقت الغروب، ثم جاء الليل ونحن ما زلنا نجلس دون حراك، وكل منا يريد أن يحك ظهره فلا يستطيع. كانت المعزة تصدر ثغاء من وقت لآخر إلى أن استسلمت للنوم فى النهاية. استمر هذا "الصمت الصاخب" لفترة طويلة من الليل، فقلت لمنان إن النمر لن يظهر بعد ذلك ويحسن بنا أن نعود، وقد أراحنى أنه قد وافقنى على ذلك.

كان الرجال فى هذه البقعة الريفية يمارسون لعبة كرة القدم ، ويقيمون المنافسات الرياضية للترفيه وتجديد النشاط، وفيما عدا ذلك كانوا ينشغلون بالأعمال العسكرية المعتادة من صيانة المعدات وتلميعها، والقيام بالحراسة، والاستعداد للزيارات التفتيشية، علاوة على طوابير التدريب، ودورات استخدام الأسلحة الخفيفة، والمسيرات العسكرية التدريبية. أثناء إحدى هذه المسيرات صرخ أحد الرجال: "أرنب!" مما أثار الآخرين للقيام بتمرين يجيدون ممارسته خاصة وأن صيد الأرانب من الأنشطة المحببة لديهم. تم الحصول على الإذن من القائد لتجاوز الرتب العسكرية، وبدأت المطاردة حيث انتظمت الفرقة بكاملها فى شكل (قرن)، وكان على كل من يحدد موقع الطريدة أن يصرخ بأعلى صوته: "أرنب!". استمرت المطاردة إلى أن أصيب الأرنب بالتعب، فقضى عليه أحد الرجال بأن رماه بتلك العصا الخاصة التى هى نوع من السلاح فى شكل قطعة خشبية معقوفة ومقوسة إلى الخارج بزاوية قدرها ٢٠٠ درجة، وإلى الداخل بزاوية ١٦٠ درجة، ويتراوح عرض جزئها السميك بين ٤-٥ بوصات، وهى مشطوفة فى جزئها الرقيق بمقدار ثلاثة أرباع البوصة، ويمكن أن يؤدى استخدامها إلى كسر ساق الأرنب أو الغزال الصغير مما يمكن الصائد من القضاء عليه بسهولة. وكان مما بعث على الارتياح أن كابتن رولو الإيطالى لم يظهر لنا فى تلك اللحظات المرحة.

لندع كل ذلك جانباً، فقد كان ينتظرنا عمل حقيقى فى القلابات. لقد تقرر أن يعود روبن سنيد - كوكس إلى أرض الوطن ليلتحق بكتيبته من جديد، ولذلك أسندت إلى شخصى قيادة ستجى بلك (الفرقة السادسة). وفى صباح أحد الأيام وصلت أوامر عاجلة من القيادة العامة لإعداد البلك للتحرك إلى منطقة القلابات على الحدود السودانية الأثيوبية. وكان آرثر هاكنز قد اضطر إلى إخلاء مدينة القلابات نفسها بعد أن واجه قوة إيطالية كبيرة كانت متمركزة فى (المتمة) عبر الوادى على الجانب الأثيوبى من الحدود، ومدعومة

بخلافات قتابل من طراز (كابرونى). لقد قام مع فرقته بانسحاب تكتيكى إلى منطقة صخرية مرتفعة محاطة بالأشجار والحشائش على مسافة ستة أميال من الطريق المؤدى إلى القضارف عاصمة المركز. وتمشياً مع مبدأ العيش على (رائحة خرقة معطونة بالزيت) تم نقلنا بسرعة إلى القطار المعد لنا الذى اقلنا إلى القضارف ليلاً، حيث كان قائد المنطقة الأميرلاى هوسى دى بيرج de Burgh Hussey يقوم بتجميع العدد الكافى من الإبل لحمل مؤننا وعتادنا. كان علينا أن نتحرك بأقصى سرعة فى مسيرة جبرية فور تجهيز الجمال، وبالرغم من ما كان يتفوه به من سباب ولعنات بطريقته الأيرلندية، فقد استغرق تجميع الجمال وقتاً أطول مما كنا نتوقع. ولكن عند الساعة الرابعة مساء تمكنا من مغادرة المدينة رغم طبيعة الأرض الطينية التى ازدادت لزوجة من جراء هطول الأمطار المتكرر الذى كان يصاحب أواخر موسم الأمطار فى ذلك الوقت من العام.

كنا قد تقدمنا على الطريق بمسافة اثنى عشر ميلاً قبل أن أقرر أخذ قسط من الراحة خلال ما تبقى من ساعات الليل على أن نواصل المسير مبكرا فى صباح اليوم التالى. كان معى جهاز تلفون لاستخدامه بالنقر على الخط الرئيسى لنبلغ بما نحرزه من تقدم، وقد أدت محاولتى لتنفيذ الأوامر إلى تمزق فى يدى وحدة فى الطبع دون تحقيق أية نتيجة، ولذلك لم أحاول مرة أخرى. تحركنا مبكراً فى اليوم التالى، وواصلنا المسير حتى الغروب بعد استراحة قصيرة عند منتصف النهار لتناول الطعام، ثم واصلنا السير بـ "رتل طائر" طوال الليل تاركين الأمتعة لتتبعنا من الخلف، وذلك بغرض اللحاق بآرثر هانكز عند الفجر. وبالرغم من عدم توافر اتصال لاسلكى مع آرثر، وعدم معرفتنا لطبيعة هذه المهمة العاجلة، فقد كانت التعليمات الصادرة لى هى الوصول إلى هناك بأقصى سرعة.

عند مغادرة (الرتل الطائر) أمطرت السماء بغزارة، وأخذ الطين يلتصق بأحذيتنا كما الشكولاتة مما اضطر الجنود والضباط إلى خلع صنادلهم وأحذيتهم، ولا زلت أذكر إلى اليوم إحساسى والطين يتخلل من بين أصابع قدمىّ. استمر هطول الأمطار بصورة متقطعة مع نقيق الضفادع وصرير الحشرات المتواصلين. وصلنا عند بزوغ الفجر، واتخذنا مواقعنا التى حددها لنا آرثر هانكز، ووجدنا أن الإيطاليين لم يتقدموا إلى ما بعد القلابات، ولكن كان لا بد من القيام بإنشاء بعض الاستحكامات الدفاعية فى موقعنا الجديد المطل على طريق القضارف - القلابات حتى نسلم من الأمطار، ونكون على أرض جافة بقدر الإمكان. تم تحديد الموقع المناسب لكل فصيل، واختيار الأماكن المناسبة للمدافع، ومخازن المؤن والذخيرة، والنقاط الطبية، وحفر الخنادق.

وبما أن الجنود السودانيين قد اعتادوا على الحياة الطبيعية، فقد كان سهلاً عليهم الارتجال، ولذلك قاموا بقطع الأخشاب اللازمة لمواقع المدافع باستخدام تلك المدى الطويلة التى عرفوا بها (كان كل جندى يملك مدية من هذا النوع محفوظة فى غمد من الجلد) كما استعملوا أشجار الشوك بدلاً عن الأسلاك الشائكة، وقاموا ببناء السناجر[١] بدلاً عن الخنادق باستعمال ألواح الصخور السائبة كلما لزم الأمر. وكان لابد من الحرص على تمويه الموقع بصورة جيدة قدر الإمكان، خاصة أن إحدى قاذفات كابرونى الإيطالية كانت تحلق فوق الطريق جيئة وذهابا بشكل يومى تقريبا. وهكذا كان يتعين علينا مع شروق الشمس إخفاء دواب النقل (الجمال والبغال والحمير) وإطفاء كافة النيران. فى ذلك الأثناء أصيب أحدُ الجنود بخطاف حزام السرج عندما كان يأخذ أحد البغال إلى الماء، فبينما كان يرفع رجله ليترجل من البغل، إذا بالخطاف يشتبك

---

(١) استحكامات دفاعية تبنى من الحجر وتخدم نفس أغراض الخنادق.

بوعاء خصيتيه، فصرخ بأعلى صوته معتقداً أن حياته قد دمرت، ولكن تمكن الطبيب من علاجه بسرعة، وتم إصلاح (المحفظة) ولم تصب (الثروة) التى بداخلها بأى أذى !

مكثت الفرقتان هناك طوال الفترة المتبقية من خريف عام ١٩٤٠ ، وكان نشاطنا الرئيسى خلال تلك الفترة هو القيام بدوريات ليلية ونهارية إلى القلابات التى تبعد حوالى ستة أميال، وذلك بغرض إثارة أعصاب الإيطاليين بقذف مواقعهم الأمامية ونقاط استخباراتهم. غير أن هطول الأمطار المتكرر كان كثيرا ما يضطرنا للبقاء فى مواقعنا. فى إحدى تلك الليالى كنت أقوم بتفقد مخافر الحراسة، وبينما كانت الأمطار تهطل بغزارة، والبرق يلمع ويلقى بظلاله المخيفة، لمحت رأس حربة يلمع فى الظلام، وبعد تبادل التحدى وكلمة السر، إذا بى أجد نفسى وجهاً لوجه أمام كوكو تيه الذى كان عارياً تماما. طلبت منه توضيحا لذلك، فقال أنه لا يزال لديه زى عسكرى واحد، وقد تركه ملفوفاً فى الفراش حتى يجده قد جف بعد انتهاء نوبة حراسته.

عندما تلاشى هطول الأمطار، ازدادت حركتنا وكانت طائرة الكابرونى الإيطالية تحلق فوق الطريق على مستوى منخفض ولكن دون أن تكتشف مواقع مخابئنا. وبعد حصولنا على إذن من القيادة العامة قررنا محاولة إسقاطها بمدافع البرين والفيكرز واتخذنا وضع الاستعداد. وبما أنى كنت خبيرا فى التصويب نحو الهدف، فقد تصورت أننا لن نخطئ إصابة الطيار فى غرفة قيادة الطائرة. وبينما كان الطيار يحوم حولنا صعودا وهبوطا، فقد تمكن من إطلاق عدد من القنابل المضادة للأفراد التى أحدثت بعض الأضرار. لذلك قررنا الانتقال إلى موقع آخر يبعد نحو ميلين. ومن هناك استمتعنا فى اليوم التالى برؤية ثلاث طائرات كابرونى وهى تقصف بغزارة موقعنا السابق الذى قمنا بإخلائه، ولكن يبدو أنها لم تلحق به اضراراً تذكر، وكان علىّ أن اضحى

بالجزء الأمامى لخيمتى للمساعدة فى تلك الخدعة. بعد ذلك لم يشن الإيطاليون علينا أى هجوم برى.

بعد وقت قصير وصلتنا تعليمات لاستقبال لواء من الفرقة الهندية الرابعة بقيادة العميد (البريجادير) بيل سلم (Bill Slim) الذى أصبح فيما بعد مشيراً (فيلد مارشال)، بعد أن حقق شهرة فى بورما. وكانت تحت قيادته فرقة من المدفعية مسلحة بمدافع ١٨ رطل، بالإضافة إلى وحدة من الدبابات الخفيفة. وفى الصباح تم شن هجوم على الإيطاليين فى القلابات والمتمة بكتيبة بريطانية على الجناح الأيمن يدعمها آرثر هانكز وثلاثجى بلك إدارة من قوات العرب الشرقية. واتخذت فرقة بريطانية أخرى موقعاً لها على بعد ميل ونصف شمال القلابات. كما كانت هناك كتيبة بريطانية احتياطية. أما الفرقتان النوبيتان فقد كانتا فى إجازة، ولذلك أسندت إلى مهام ضابط الاتصال مع اللواء الهندى، وكانت مهمتى العاجلة هى إرشاد الفرقة البريطانية إلى جبهة الطليان الأمامية. كان الهجوم ناجحاً وتم استعادة القلابات، ومع أن الطليان لم يمكثوا طويلا فى المتمة وانسحبوا منها إلى المرتفعات الأثيوبية، إلا أن الوضع فى القلابات ظل مضطرباً لبعض الوقت.

بعد أن قمت بإرشاد فرقة الجناح إلى الهدف، أسرعت إلى قلعة القلابات وفى الطريق شاهدت بعض الجنود البريطانيين يهربون، فحاولت اعتراضهم ولكن دون جدوى. ثم واصلت سيرى حيث بلغنى ما قيل عن قائد الكتيبة البريطانية الذى اعتصم بأحد الخنادق ورفض الخروج منه لقيادة رجاله الذين بعد أن استولوا على القلعة هاجمتهم قاذفات الكابرونى من على مستوى منخفض، وأمطرتهم بوابل من القنابل المضادة للأفراد. كان هناك عدد كبير من الجنود محصورين فى محيط ضيق، وداخل عدد غير كاف من الخنادق، مما أدى بالضرورة إلى سقوط عدد كبير من الضحايا. كما ازداد الوضع سوءاً

بوجود شاحنتى ذخيرة كانتا تحيطان بالموقع، ثم أحضرتا إلى داخل القلعة فأدى القصف إلى تفجيرهما، مما أعطى انطباعاً بأنه هجوم مضاد قام به بعض الأشباح. غير أن القائد الثانى أو أحد الضباط الآخرين (لست متأكداً أيهما) قد تولى القيادة، وقام بنشر بعض الوحدات من القلعة، واستعيد الهدوء، ولكن ليس قبل أن يضطر العميد سليم (Slim) من موقع القيادة الأمامى لإطلاق النار من مسدسه على الجنود الذين هربوا من ميدان القتال. وكان مثار التعليق فى ذلك الوقت أن القوات السودانية ظلت ثابتة فى مواقعها طوال الوقت. بعد ذلك عاد بيل سليم بلوائه لينضم إلى قيادته التى كانت موجودة فى مصر آنذاك.

تقهقر الإيطاليون واتخذوا موقعا دفاعياً فى أعلى المرتفعات الأثيوبية، وقاموا بتدعيم قلعة (شيلجا) التى كانت تحرس الطريق الممتد من الغرب إلى مدينة (قُندار). لذلك استعدت الكتيبة المكونة من قوة دفاع السودان بقيادة الأميرلاى جونى جيفورد بيه (Johnnie Gifford Bey) لمطاردتهم. كانت هذه الكتيبة فى الواقع عبارة عن قوة ميدانية متعددة السلاح وتضم الفرقتين (ستجى نوبة وخمسجى نوبة) بقيادة البمباشى قاى كامبل (Guy Campbell)، وثلاثجى إدارة بقيادة البمباشى آرثر هانكز، و(باندا بكر) وهى فرقة غير منتظمة تم تجنيدها من منطقة القضارف تحت قيادة البمباشى بات كاوسينز (Pat Cousens) . وتولى البمباشى جون يومانز (John Yeomans) مسئولية (البلك أمين) إلى جانب القيام بمهام ضابط الأركان لجونى جيفورد وألحقت مع القوة بطارية مدفعية من سلاح المدفعية السودانية مزودة بمدافع (هاوتزرز ٧.٣) بقيادة البمباشى جد بالمر (Ged Palmer)، بالإضافة إلى وحدة من سلاح الإشارات، وكتيبة من سلاح المهندسين التابع لقوة دفاع السودان، ومستشفى ميدانى صغير تحت قيادة الدكتور كوركيل (Corkill) من الخدمات الطبية السودانية.

سرنا إلى الشرق دون عوائق أو مضايقات فى اتجاه المرتفعات الأثيوبية المحصنة بالخنادق الدفاعية، وأنشأنا معسكر قاعدتنا العسكرية فى منطقة ريفية مليئة بالأشجار الظليلة والمياه المتدفقة (أرض تتدفق بالشهد واللبن) بالمقارنة مع أراضى السودان "الكالحة الكئيبة". قام الإيطاليون بتفجير الطريق، ولذلك بدا لنا من المستحيل فى البداية أن يتمكن المدفعجية من نقل مدافع (الهاوتزرز) إلى موقع يكون فى مدى قصف مواقع العدو الأمامية بقلعة شيلجا الهامة. لذلك قمنا بتقطيع أعواد الخيزران بأطوال مناسبة لنحمل عليها المدافع. وبما أن الجزء الأثقل من المدفع هو الماسورة، فقد حملها ثمانية من الجنود النوبيين، أربعة منهم فى الأمام وأربعة فى الخلف، مع تمرير أعواد الخيزران من داخل الماسورة. أما الأسطوانات والمعدات الأخرى مثل مؤخرة المدفع وعجلاته وعربته فقد تم نقلها جميعا بالأيدى. دون إلحاق ضرر بالأرواح أو الأطراف. وذلك من خلال الممرات المنحدرة والملتوية لتكون مواقع الإيطاليين فى مدى نيراننا. وربما يعتبر ذلك من الوسائل الفريدة لوضع المدافع فى حالة الاستعداد!

وفى اليوم التالى، وبعد مسيرة فى محاولة للاقتراب من العدو، شنت كتيبتنا هجوما سبقته بغارات جوية على مواقع الطليان الأمامية لقلعة شيلجا. كان الهدف من هذا الهجوم هو زعزعة العدو فى قلعته الرئيسة التى كانت تحميها قوة من لواء كامل. أما كتيبتنا المشتركة فكانت مكونة من أربع فرق فقط. غير أننا عندما وصلنا إلى مواقع العدو الأمامية، وجدناها مهجورة تماما مع كمية من الأسلحة والمعدات المختلفة التى تم التخلى عنها. ورأينا الطليان وهم ينسحبون إلى القلعة على مسافة نصف ميل. كان من بين الأسلحة المهجورة بعض المدافع المحمولة التى أعدناها إلى الخدمة فوراً بالرغم من عدم وجود مدفعجية معنا. ثم أطلقنا على القلعة قذائف شديدة الانفجار تعمل بضغط الهواء، ولعلنا كنا بذلك أكثر خطراً على أنفسنا منا على الطليان.

شن الطليان هجوما مضادا، ولكن ثلاجى بلك بقيادة آرثر هانكز رد عليهم بهجوم مباغت، ونجح فى صد نيرانهم، مع أن هانكز نفسه قد وقع فى أيدى العدو وقضى بقية أيام الحملة أسير حرب فى حصن قندار الذى قام البرتغاليون ببنائه فى وقت سابق. فى اليوم التالى لاحتلالنا مواقع العدو الأمامية، تسلل بعض القناصة الطليان إلى مكان يقع قبالة موقع ستجى بلك نوبة. وبعد حصولى على الإذن من القائد جونى جيفورد، قمت سريعاً بتحريك البلك حيث تم إخلاؤهم وتمكنا من قطع خط سيرهم، وإعادة ١٨ جندى من الطليان الأهالى على رأسهم وكيل أمباشى. أسرعت بعد ذلك لكى أمنع فصيلى المهاجم من التورط داخل مواقع الطليان الرئيسية. وبعد أن قمت بإيقاف تحركه، وصل جونى جيفورد واستفسر عن سير الأحوال. وكنت قد لاحظت أن بعض جنود سلاح المشاة الطليان كانوا يتسللون من بين الأشجار فى أشكال متقاطعة، فقلت له ربما يستعدون لشن هجوم مضاد. استعار جونى إحدى البنادق وأسند نفسه على شجرة، ثم أطلق النار على أول جندى قادم، ثم أعاد تعمير البندقية فأسقط الثانى، وكاد أن يصيب الثالث، ثم قال: "سيوقفهم ذلك من التقدم"، وبالفعل قد تم ذلك. لقد سبق لى أن أطلقت النار عدة مرات مع جونى فى دورست(Dorset) ، إلا أن ما حققه جونى فى شيلجا من إنجاز أمر لا يصدق، بل ربما يكون من أعظم إنجازاته جميعاً.

بالرغم من أن جنودنا قد اعتادوا على خوض هذا النوع من الحرب بحيوية شديدة، إلا أن تأثرهم بعاداتهم كان أقوى، فقد حدث أن واجهنا ونحن فى الجبال الأثيوبية المرتفعة نموذجاً آخر لقوة تأثير الكجور. جاءنى الباشاويش وأبلغنى بأن أحد الجنود أصبح عاجزاً عن الكلام ولكنه يصدر صياحا كالديك. اعتبرت ذلك هروباً من الخدمة العسكرية، واستدعيت الرجل أمامى وأخذت أخطب فيه منذراً له بأنه بموجب الصلاحيات الممنوحة لى أستطيع أن أطلق عليه النار لأنه قد جبن عن مواجهة العدو، ثم سألته غاضباً: "ما هو ردك على

تلقة" فأجاب بقوله: كوكا دودل دو". شعرت أن الكجور كان مسيطراً عليه تماماً، ولذلك أرسلناه إلى بلدته التى كانت تبعد مئات الأميال، حيث تم علاجه هناك وعاد إلينا بعد بضعة أسابيع وقد تعافى تماما، وأخذ يثرثر ويلغو مع الآخرين كعادته دائما.

كانت حملتنا الهجومية على شيلجا أكثر من ناجحة، ولذلك قرر جونى جيفورد فى اليوم الثالث ضرورة الانسحاب، خاصة وأننا قد نواجه هجوماً مضاداً أشد ضراوة. كانت الأمطار تهطل علينا بشدة وتم انسحابنا فى الوقت المناسب. عدت مع ستجى بلك نوبة إلى القضارف، بينما أخذ بقية الضباط من الرتب الأخرى إجازاتهم، وسافر معظم الضباط البريطانيين إلى جنوب أفريقيا عن طريق الجو إلى ساحل أفريقيا الشرقى عبر كيسيمو، ثم ممبسا ولورنسو ماركيز، ومنها إلى ديربان، وهناك تبادلوا أرقام هواتفهم مع فتيات جنوب أفريقيا. وعند وصولى إلى ديربان اتصلت بأحد هذه الهواتف، وبدلاً من أن أسمع صوتا عذباً مستساغاً كما كنت أتوقع، إذا بى أسمع صوت ضابط من قوة دفاع السودان، ومن يكون هو هذا الضابط سوى البمباشى قاى كامبل، قائد خمسجى بلك نوبة، الذى صار فيما بعد السير قاى كامبل حينما أتته البارونية عن طريق الوراثة.

بعد قضاء الإجازة، تم إرسال الكتيبة المشتركة إلى الرصيرص بالنيل الأزرق لتنضم إلى الأميرلاى هيو باوستيد الذى كان شخصية معروفة فى السودان، وكان يتولى قيادة كتيبة الحدود، وتجهيز قطار من الهجن لدعم حركة إعادة الإمبراطور هيلاسلاسى إلى مملكته. كان محور تحركنا هو اتخاذ الطريق من (أفودو) إلى (أسوسا). وكان هدفنا الأول هو احتلال أفودو التى كان يتحصن فيها الطليان لحراسة أسوسا. وبعد معالجة مواقعهم الأمامية، اتخذ جونى جيفورد تكتيكاً صعبعاً بالتحرك ليلاً وشن الهجوم عليهم عند الفجر. تم وضع ستجى بلك نوبة على اليسار، وخمسجى بلك نوبة على اليمين، وأسندت

قيادتهما معاً إلى كامبل، وبدا الأمر كانه شأن عشائرى خاص. كانت مهمتهم، مع إبقاء ظهرهم إلى اشوشا، هى زحزحة موقع العدو المحصن من اليمين إلى اليسار، بينما تتمركز فرقة باندا بكر بقيادة بات كاوسينز على طريق أسوسا لحماية القوة من الخلف، ويبقى ثلاثجى بلك إدارة التابع لفرقة العرب الشرقية كاحتياطى.

كانت الخطة أن يسبق الهجوم الرئيسى قصف مركز على مواقع الطليان من كتيبة المدفعية بقيادة قيد بالمر. اتخذت الفرقتان النوبيتان مواقعهما عند الفجر. وفى اثناء ذلك الصمت المطبق الذى يخيل فيه للمرء أن ضربات قلبه هى الوحيدة التى كانت تحطم جدار ذلك الهدوء الرهيب، إذا بقذيفة واحدة تنطلق بتصرف غبى من أحد جنودى، وبعد فترة من الهدوء فتح الطليان نيرانهم. انزعج رجالى بادئ الأمر من سير الأحداث بهذه الصورة المفاجئة، ولكن كان لا بد من الالتزام بالخطة، ولذلك أصدرت أوامر مشددة بالتزام الهدوء. وهنا برهن (النفر) منان شيتاكا، صائد النمور، على كفاءته عندما أخذ يمشى جيئة وذهابا بين الصفوف ينشر الهدوء ويطلب من الجميع انتظار الأوامر بالهجوم. غير أن إطلاق النار من بعض الأسلحة الصغيرة قد أقنع الجنود فى خمسجى بلك بأن المعركة قد بدأت، ومع أن ذلك كان مخالفاً للموعد المقرر، لكنهم شرعوا فى الهجوم على كل حال. وبما أننى كنت أعلم أن قيد بالمر كان على وشك فتح نيران مدافعه، إلا أننى أمسكت بقواتى، وبدأت فى إرسال إشارات ضوئية خفيفة خوفا من أن تقوم المدفعية بقصف جنودى، وتمت رؤيتها فى النهاية وتوقف القصف فعلاً.

بعد تجمعنا فى الموقع الرئيسى الشمالى، تقدمت الفرقتان خمسجى بلك نوبة على اليمين، وستجى بلك نوبة على اليسار فى اتجاه الشرق على طول انحدار أطراف الهضبة مع جعل الطريق كحد فاصل. وحيث أن المنطقة كانت غنية بالنباتات المختلفة خاصة أشجار الخيزران، فقد أصبح الاتصال بين

الفرقتين شبه مستحيل، ولكننا بالرغم من ذلك واصلنا سيرنا ونحن نواجه وابلاً من نيران البنادق الأوتوماتيكية والمدافع التى كانت تمطرنا بقذائفها فى خط ثابت، وبين الفينة والأخرى كانت تُسمع صيحات "وين ستجى"، ثم يأتى الرد سريعا: "هنا". بعد خروجنا من غابة الخيزران وصلنا إلى أرض ذات أشجار منخفضة، وبدأنا فى حصر الخسائر، خاصة تلك التى نجمت من نيران المدافع المطمورة فى الخنادق التى كان يطلقها علينا جنود إريتريون.

بعد ذلك وصلت رسالة تفيد بأن جون ويكستيد الذى كان يلينى فى الرتبة العسكرية، ويقود بلتون اليسار الأمامى، قد أصيب بجرح من قنبلة يدوية. وعندما ذهبت إليه وجدت أن حالته تستدعى بالتأكيد حمله على نقالة، فأعطيته بعض الحبوب المسكنة للألم قبل أن يتم نقله إلى المؤخرة. كان أغلب الطليان يمارسون طريقة (أنقذ نفسك ما أمكن)، وظل القليلون منهم يطلقون النار من الخنادق العميقة، ولكنهم فى النهاية لم يشكلوا عبئاً ثقيلاً علينا كأسرى حرب.

أخذنا جونى جيفورد إلى أسوسا مباشرة التى وجدناها قد أخليت من الطليان تماماً، فاعتقد جونى أنهم سينسحبون إلى أديس ابابا، ولذلك طلب الإذن بمطاردتهم، ولكن جاءت الأوامر بأن يعود بقواته إلى القضارف، ومنها إلى القلابات، ثم إلى شيلجا لإجراء محاولة هجومية أخرى عليها. وهكذا عدنا نخوض الأوحال مرة أخرى من القلابات إلى شيلجا بموقعها الدفاعى الممتاز. كان منظرنا بهيجاً ونحن نقترب منها عبر تلك الأراضى المجدبة الخالية من الخضرة، لنصل إلى نهر صغير حقيقى تغذيه مياه الأمطار التى تسقط من أعالى الجبال. وقع اختيار جونى جيفورد على هذا المكان كمعسكر مؤقت للمبيت. أما أنا فقد تصورت أنه لا بد من وجود أسماك فى هذا النهر الذى كان يتدفق بغزارة. لم يكن لدى عود للصنارة، ولكن كانت هناك عيدان

الخيزران، ولم يكن لدى الخيط، ولكن كان هناك خيط القنب، ولم تكن لدى صنارة ولكن تغلبت على ذلك بشى الدبابيس. وتمكنت بالفعل من نفض ثلاث أو أربع سمكات إلى الشاطئ من خلال ضربات شديدة خاطفة قبل أن ينحل الخيط، ولكن لحسرتى لم تكن ذلك اللحم اللذيذ الذى كنت أشتهيه. لقد كانت كلها عظاماً فقط!

سرنا فى اليوم التالى إلى معسكر قاعدة قواتنا الذى كان يحتل مساحة مليئة بالأشجار الظليلة، وتحيط به غابة من أشجار الخيزران الضخمة، وهنا دعانا القائد جونى جيفورد إلى اجتماع حول مشروبات المساء. كانت زجاجات الجن وكئوس الويسكى تتحرك على طاولته السفرية ليشرح لنا بها خطته لعمل تقدم أولى نحو مواقع العدو الدفاعية، وذلك قبل بدء الهجوم على شيلجا نفسها. وبعد أن تناولنا كأس الويسكى الثالث استوعبنا الخطة تماماً.

بعد ذلك شغلنا أنفسنا باستكشاف الطرق المؤدية إلى الموقع الدفاعى. ولم يكن أمامنا من سبيل لنتفادى تلك الفتحة فى الجبل التى كان يتعين علينا أن تناول عبرها يدويا كل ما نحمل من ماكولات، وأسلحة، وذخائر ومعدات. وقبل أن نتجاوز هذه العقبة المرعبة، ذهبت مع بعض البمباشية لزيارة مستشفانا الميدانى بقيادة الدكتور كوركيل الذى وجدناه يشرف على مجموعة عمل تحمل بعض المعاول والمجاريف. لقد تصورت أنه كان يقوم بحماية مخازنه الطبية، ولكنه أوضح لنا أنهم يقومون بحفر بعض القبور، ثم علق قائلاً: " إنها قد أعدت كأحسن ما يكون، أما انت يا دنكن فإنك تقف الآن بجانب قبرك؛ إنه أطول بقدمين لأنك فارع فى الطول"!

بعد تلك المقابلة البهيجة عدنا أدراجنا لننقل متاعنا إلى أعلى تلك الفتحة. لقد استغرق ذلك العمل يومين، حتى أن بعض البغال الأثيوبية المعروفة بخفة حركتها لم تساعدنا كثيراً، فقد انزلقت إحداها وسقطت مسافة مائة قدم

تلاقى حتفها فى أسفل الهاوية. كان ذلك بمثابة خسارة جسيمة لأن البغلة كانت تحمل الويسكى الخاص بيات كاوسينز وكل الجن الخاص بالحملة. لذلك قام زملاؤه من باب الولاء والإخلاص له بإنشاء بنك أودعوا له فيه بعض الزجاجات من مخزونهم الخاص! أقمنا المعسكر فى قمة موقعنا الدفاعى وسط منطقة جميلة تتدفق فيها جداول الماء الرقراق بما فيه من سراطين المياه العذبة، وتحيط بها الزهور البرية من كل نوع، وترعى حولها قطعان الماشية فى مروج الحشائش الخضراء المحيطة بها. إنها مفارقة مدهشة بالمقارنة مع أراضى السودان الصحراوية التى كانت تلوح لنا على البعد من خلال الغيوم المغبرة على بعد آلاف الأقدام إلى الأسفل. كان المكان جميلا أثناء النهار، ولكنه يتحول إلى برد قارس أثناء الليل.

كانت قلعة شيلجا تبعد حوالى ميلين أو ثلاثة إلى الشمال، وتتميز بموقع أمامى حفرت بداخله خنادق حصينة، وقد أحيطت بالأسلاك الشائكة على امتداد أنف الجبل الذى تقع عليه القلعة. كانت الخطة هى أن يقوم ثلاجى بلك إدارة التابع لقوات العرب الشرقية تحت قيادة البمباشى بوير (Boyer) بمهاجمة الموقع الأمامى مدعوما بخمسجى بلك نوبة الذى يجب أن يتقدم ليستغل اى نجاح يمكن إحرازه، بينما يتولى ستجى بلك نوبة وباندا بكر حماية المدفعية. قمنا بتحرك ليلى مستخدمين بوصلات سلاح المشاة اليدوية التى كان يحملها مسجلون يرتدون أطباقا بيضاء ويستخدمون فى سيرهم طريقة قفز الضفادع. وهكذا استطاع ستجى بلك بقيادتى أن يتقدم إلى الأمام بمشقة شديدة مما استغرق زمناً طويلا، وكان علينا أن نشد من مزالج أحذيتنا حتى نصل إلى خط البداية عند حافة الجبل.

كان الطليان يتحصنون فى خنادقهم بقوة لواء كامل داخل قلعة شيلجا، بينما كنا نحن مجرد كتيبة ومطالبين باحتلال هذه القلعة. كانت الخطة الوحيدة هى أن نقترب من القلعة بثلاثة بلتونات (فصائل) مدعومة ببلتون رابع. بدأ تراشق

صاحب بنيران الأسلحة الصغيرة، ووجدت نفسى مع قسم مدافع البرين ضمن بلتون اليسار على جناح المواجهة. أما البلتون الآخر فكان على اليمين متخذا من طرف الموقع حماية له. وكان هناك كوكو تية، الابن الثالث لزعيم قبيلة الكورونجو، والمجند الوحيد من ذلك الجبل فى كردفان. كان يقوم بعمل جيد بمدفعه البرين عندما صرخ فجأة بصوت أشبه بالعواء نتيجة لإصابته برصاصة فى فخذه. قال إنه يستطيع أن يزحف إلى الخلف لكى يخرج من خط النار، فاستلمت منه مدفع البرين مع خزائن الذخيرة. ثم لاحت لى فى الأمام بعض رؤوس وأكتاف جنود العدو وهى تتحرك بوضوح بين الخنادق التى لم تكن تبعد عنا بأكثر من ١٥٠ أو ٢٠٠ ياردة. وعندما وجدت أنه ليس بالإمكان استبانة الهدف من على مستوى الأرض، فقد قمت برفع البرين على غصن شجرة صغيرة فى شكل شعبة. كيف يجوز لى أن أخطئ الهدف؟ كان الأمر عبارة عن إطلاق النار على سوق محلى موسمى، وبدا لى أن تلك الرؤوس المتحركة قد قل عددها. ثم سمعت صوت انفجار فى مؤخرة جيشنا كان سببه حاجز النيران الذى أقامه الطليان بين موقعهم وبين موقع فرقتى، ووسط هذا الوابل الكثيف من قذائف المورتر كان كوكو تية يقفز وهو يجر ساقه المصابة ويعدو بساقه السليمة إلى خط الانسحاب.

لقد نجا كوكو تية، ولكن وصلت رسالة من فصيلنا بالجناح الأيمن تحمل خبراً أليماً. لقد قتل منان شيتاكا أثناء مطاردته للعدو فى مواقعه الأمامية بروح قتالية عالية لرجل يكفيه فخراً انه قد قتل ستة نمور من قبل، وأنه قد عرف برباطة جأشه، وكنت أعتبره من أشجع الرجال الذين قاتلت بجانبهم، مما أهله لنيل الميدالية العسكرية بعد وفاته. وأثناء ما كنت أحاول استيعاب التقرير الخاص بمقتله، تيقنت أن العدو سوف يشن هجوما مضاداً من جهة اليسار، فرأيت انه قد حان الأوان للانسحاب، وأصدرت الأوامر بذلك قبل أن أبدا بنفسى فى طريق العودة. أوقف الطليان حاجز النيران الذى كانوا قد أقاموه وذلك لأجل سلامة قواتهم التى ستنفذ الهجوم المضاد. عندما وصلت

إلى أطراف مواقعنا الدفاعية التفت لأطمئن على أن فرقتى قد تمكنت من تجاوز منطقة الخطر، وهنا شاهدت ثلاثة من جنود العدو قد أطلوا برؤوسهم فجأة، فركضت مسافة ٢٠ ياردة تقريباً إلى أسفل الجبل حتى اختفى من ناظريهم، ثم أفرغت فيهم مسدسى عيار ٢٨.٠ وأخذت أعدو بسرعة محاولاً أن أسلك طريقا ملتوياً لتصعب عليهم ملاحقتى، ولكن كان يتملكنى شعور بالعار ليس لكونى قد لذت بالفرار، وإنما لأننى لم أتمكن من إصابة أى منهم.

كان صباحاً مليئا بالحيوية بالنسبة لستجى بلك، فقد كتب جونى جيفورد فى تقريره الرسمى أننا قد خضنا المعركة بحماس دافق، وأننا ظللنا نقاتل بحيوية لمدة أربع ساعات. لم نكن نشعر بطول الوقت، ذلك أن الزمن يمضى بسرعة إذا كان هناك ما يجعلك تشعر بالمتعة. غير أن ما قمنا به من عمل، مع أنه قد وضح أنه قد أدى إلى بعض التحول، إلا أنه لم يكن له تأثير يذكر على هجوم ثلاثجى بلك إدارة ضد موقع العدو الأمامى، فقد تداعى الهجوم بعد مقتل نورمان بوير أثناء محاولة التغلب على حاجز الأسلاك الشائكة.

ربما كان هذا الهجوم على شيلجا هو آخر عمل تم القيام به ضد الامبراطورية الإيطالية فى شرق أفريقيا ـ كان الأول هو ذلك الهجوم الذى قاده آرثر هانكز على المتمة. وبعد مضى ثلاثة أيام، ولكون الطليان قد استسلموا فى شرق أفريقيا فقد خضعت لنا قلعة شيلجا بعد أن منحنا الطليان (شرف الحرب) حيث قامت فرقتى، ستجى بلك نوبة، بتشكيل حرس الشرف الذى مرّ الطليان من أمامه قبل أن يلقوا بأسلحتهم لتصبح كوماً غير منتظم، وحتى نوفر عليهم الشعور بالحرج من أن قوتهم كانت تمثل لواء كاملاً، بينما كنا نحن مجرد أربع فصائل صغيرة، فقد قرر جونى جيفورد وضع الجزء الرئيسى من قواتنا فى المؤخرة. بعد ذلك أقيم (طابور النصر) فى مدينة قندار معلناً انتهاء الحرب فى شرق أفريقيا، وهناك التقيت بالكتيبة التى أنتمى إليها (أرجيل والسزرلاند هايلاندرز) التى شاركت فى العرض العسكرى بفرقتها الموسيقية، وقد أشير هناك إلى أن كلا

الفرقتين النوبيتين يقودهما أحد أفراد آل كامبل، ولذلك عندما مررنا أمام المنصة لإلقاء التحية العسكرية صرخوا قائلين: " آل كامبل قادمون " (The Campbells are coming) !!

قبل مغادرتنا منطقة شيلجا إلى السودان، تقرر أخذ جزية من السكان المحليين الذين لم يتعاونوا معنا أثناء عملياتنا الحربية ضد الطليان. لذلك صرح لنا بالإغارة على سكان الهضبة بغرض جمع ما يمكن من رؤوس الماشية، وأمكن بالفعل جمع سبعين رأسا سيقت جميعها إلى جبهتنا الدفاعية عبر القلابات ثم إلى القضارف. وقد ساعد عائد بيع هذه المواشي على تحسين مخصصات الرعاية لدى الوحدات التى شاركت فى العمليات العسكرية.

استعاد كوكو تية صحته بالكامل من الجرح الذى أصيب به فى ساقه، ولكن عندما عدنا إلى مركزنا الرئيسى فى كادقلى لم ينتظر إلى أن يتم اكتمال إجراءات التسريح العادية، وإنما قرر من تلقاء نفسه الارتحال فوراً إلى موطنه فى جبال كورونجو. وقد أرسلتُ فى أعقابه بعض رجال الشرطة العسكرية، ولكن بعد ثلاث محاولات فاشلة خضعت للأمر الواقع. ويكفى أنه قد ادى واجبه بالانخراط فى قوة دفاع السودان، وساعد فى دحر أعداء السودان، وكان له شرف الإصابة فى ساحة القتال. لم اكن اتصور اننى سوف التقى بهذا الرجل الممتاز مرة أخرى.

بعد حملة شرق أفريقيا، وانتهاء خدمتى فى شمال افريقيا مع الجيش الثامن الذى كانت قوة دفاع السودان تشكل جزءاً صغيراً منه، التحقت بخدمة (فرقة العمليات التنفيذية الخاصة) عندما قام الجيشان الثامن والأول معاً بطرد الألمان والطليان من شمال افريقيا. كنت آنذاك فى اليونان بهذه الصفة، ثم نقلت إلى إيطاليا كاحد أسرى الحرب. وبعد إعادة الأسرى إلى أوطانهم، قمت فوراً بتقديم طلب للانتداب مجدداً إلى قوة دفاع السودان، وحظيت بموافقة الحاكم العام السير هيوبرت هدلستون (هدلستون باشا) لأصبح قائداً لسلاح الهجانة.

وفيما بعد، وبصفتى القائد العسكرى المحلى، رافقت السير هدلستون لحضور عزومة (وليمة) أقيمت فى جبال النوبة، وأبلغنى السفرجى بأن هناك رجلاً ذكر أنه صديق لى ويريد مقابلتى. كنت أجلس فى قطية القش المخصصة لى - شيدت هناك قطية لكل مسئول - فأخذت زوجتى التى اقترنت بها حديثاً، وخرجنا من القطيـة لنرى من هو ذلك الصديق. وهناك كان يقف كوكو تية متألقاً فى ملابسه القبلية، وبعد أن تصافحنا بحرارة، قدمته إلى زوجتى، كما قام هو بتقديمنا إلى زوجته بلونها الأسود الأبنوسى، وكانت ترتدى تنورة جلدية قصيرة مجديلة، وعلى رأسها حلية مصنوعة من الأصداف الصفراء وسدادات زجاجات البيرة. لقد مضت ثلاث سنوات منذ التحاقه بالجيش، وجاء هذا اللقاء السعيد كتجربة سارة يجب أن تدخر.

لم يعد لقوة دفاع السودان أى دور فى الدفاع المباشر عن السودان بعد انتهاء حملة شرق أفريقيا مع أنها قد استمرت فى الخدمة فى شمال أفريقيا. لقد حاولت أن أعكس طعم ما كنت أشعر به وأنا أقاتل فى صفوف هؤلاء الجنود السودانيين المدهشين القادمين من كل قبيلة فى السودان، ولكنى أعلم أن حكايتى هذه إنما تشكل جزءاً يسيراً من كل، إذ كانت هناك مساهمات عظيمة قدمتها وحدات قوة دفاع السودان الأخرى مثل المدفعية، والهجانة، والمشاة، والمهندسين، والإشارات، والوحدات الطبية وغيرها. غير أن الكتيبة المشتركة بقيادة الأميرلاى جونى جيفورد بيه، حامل وسام الخدمة الطويلة الممتازة، قد أدت دوراً بارزاً فى حراسة حدود السودان أمام الطليان فى شرق أفريقيا، وذلك من أسوسا فى الجنوب إلى كسلا فى الشمال، وصمدت بمفردها ضد قوات العدو بأعدادها الضخمة.

دنكان كامبل (Duncan Campbell)

■■■

15

حكاية مهندس المساحة

Sudan Canterbury Tales

لقد خدمت بالسودان لمدة أربعة عشر سنة، من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٥١ فيما عدا الفترة بين عامى ١٩٤٣ و١٩٤٥ التى انتدبت فيها إلى سلاح المهندسين الملكى بالقاهرة، ولعبت دوراً مهما فى مجال المساحة ورسم الخرائط الخاصة بالسودان.

كانت مصلحة المساحة السودانية صغيرة الحجم نسبياً، وتتمركز فى الخرطوم، وتتولى إدارتها مجموعة من الموظفين البريطانيين كنت أنا واحداً منهم، ويساعدنا بضعة مئات من السودانيين، وواحد أو اثنان من المصريين والإغريق. كانت البلاد واسعة تقرب مساحتها من مليون ميل مربع، وبالرغم من ذلك أمكن تغطيتها بالكامل بخرائط تخطيطية بمقياس رسم قدره «١:٢٥٠,٠٠٠» أو ٤ أميال إلى البوصة، مع أنه كانت توجد هناك خرائط لأماكن أخرى بمقياس رسم أقل. كنا بصفة عامة نواجه مختلف المشاكل من طبيعية، وجغرافية، وإنسانية وغيرها، وسأصف فيما يلى من صفحات كيف كان يتم أداء أعمال المساحة فى تلك الأحوال المختلفة المتباينة.

●●

وضع إطار العمل

كما هو الحال فى المبانى الحديثة التى تقوى فيها الجدران والأرضيات الضعيفة بإطار حديدى، كذلك فإن رسم الخرائط التفصيلية للطبوغرافيا، أو حدود الأملاك يتطلب إطار عمل أكثر دقة، أو كان كذلك قبل اختراع أجهزة

تحديد المواقع الأرضية (Global Positioning Systems) التى غيرت بالكامل تلك التقنيات التى كانت مستخدمة فى مجال المساحة. كان إطار العمل المستخدم فى السودان يشتمل على ثلاث طرق: النقاط الثابتة المحددة فلكياً (بملاحظة الشمس والنجوم)، والتثليث (Triangulation) والمسح الاجتيازى (Traverse) .

●●

(أ) النقاط الثابتة المحددة فلكيا:

وكانت تستخدم فى شمال السودان المعروف بلياليه الخالية من السحب من خلال ملاحظة النجوم التى كان من الضرورى تحديدها بطريقة سليمة. لقد فشلت فى تحديد النجوم فى إحدى المناسبات الهامة عندما كنت أعمل فى قوة دفاع السودان برتبة بمباشى أثناء غارة حربية من كفرة إلى واحة جالو التى كان يحتلها الطليان. ذلك اننى اعتقدت أن نجمات (الفرس الأعظم الأربع) جميعها فى هذا الكوكب، ولكن فى الواقع واحدة منها لم تكن كذلك، غير أننى لحسن الحظ قد اكتشفت خطأى فى الوقت المناسب، ولكنى شعرت بالارتياح بعد أن ساعدت فى توجيه قواتنا للسير فى اتجاه القلعة الإيطالية لنرى ونسمع نشوب القتال من هناك وليس من خلفنا!

أثناء الحرب تم مسح مساحات شاسعة فى الصحراء الشمالية، وكذلك فى جنوب غرب مصر وليبيا عن طريق المسح الاجتيازى، وكان يتم حساب المساحة باستخدام عداد المسافة بالسيارة، وتحديد الاتجاهات بواسطة البوصلة الشمسية، مع رسم تخطيطى مفصل يمتد إلى بضعة أميال على أى من الجانبين، وكانت تتم مراجعة موقعى فى المعسكر بواسطة قراءة النجوم فى كل ليلة. وبهذه الطريقة أمكن رسم أكثر من الف خارطة فى اليوم الواحد، وكان بالفعل عملاً سريعاً رائعاً. فى إحدى المناسبات استلفنا سيارة زميلى البمباشى دونالد هولى (Donald Hawley) واثناء سيرنا اصطدمت السيارة بواجهة كثيب

رملی، فارتطم وجهی بالبوصلة الشمسية التى كانت موضوعة على (طبلون) السيارة، ولحسن الحظ كنت قد فقدت من قبل إبرة الحياكة الحديدية السودية التى تركب على البوصلة لعمل ظل إرشادى، واستبدلتها بمشبك ورق قمت بتعديله لجعله مستقيما، ولكونه قد أصبح مسطحاً، فقد نجوت من كارثة محققة سوى كدمة بسيطة حول العين، مع أن الصدمة قد قذفتنى إلى خارج السيارة. ولحسن الحظ أيضاً، أن اللورى الآخر الذى كان يقوده جندى سودانى (نفر) قد توقف فى قمة (القوز) للتأكد من عبورنا بسلام ثم تحرك بعد ذلك.

••

(ب) التثليث:

كان يطلق على أدق طريقة للتثليث فى عصر ما قبل الأقمار الصناعية اسم التثليث الجيوديسى (Geodetic Triangulation) لأنه كان يسهم فى دراسة شكل الأرض. وفى الواقع أن ذلك العمل الجيوديسى المبكر هو الذى جعل دقة تحديد مواقع الأقمار الصناعية، التى تتوقف عليها الآن الكثير من الأشياء، أمراً ممكناً. وكان إسهام السودان الرئيسى فى هذا المجال هو استكمال الفجوة الأخيرة فى القوس الثلاثين الأعظم لدائرة خط الزوال (Arc of Meridian) الذى يمتد فوق الأرض إلى مسافة ٧٠٠ ميل من آرشنجيل إلى مدينة الرأس (كيب تاون).

بدأ هذا العمل جمبو ويكفيلد[1] (Jumbo Wakefield) فى عام ١٩٣٥، وهو عمل قد تميز بالدقة وحسن التنظيم والتكلفة المنخفضة. كان يجب تمديد هذه المثلثات من وادى حلفا عبر الصحراء إلى تخوم مدينة الأبيض فى كردفان. اختار "جمبو" ستة من السودانيين للعمل معه فى وظائف كبار ملاحظين لأعمال

(١) آر. سى. ويكفيلد، شقيق اللورد ويكفيلد، وقد اشتهر ضمن أشياء أخرى كلاعب رجبى عالمى، ولرئيس اتحاد الرجبى.

الإضاءة الشمسية، وقام بتدريبهم على استخدام العاكسات للضوئية، ثم أخذهم معه كمساعدين لاستكشاف كل قطاع على حدة. وبعد ذلك عادوا إلى المنطقة لبناء أعمدة على التلال يبعد كل منها عن الآخر بحوالى ثلاثين ميلاً، وبهذه الطريقة اعتادوا جميعاً على الموقع، وأصبح فى مقدورهم التعرف على كل تل ومحطة بالنظر إليها فقط.

شكلت هذه الأعمدة زوايا للمثلثات والأشكال الرباعية منتظمة الأضلاع فى السلسلة. وفور الانتهاء من بنائها، قام جمبو بزيادة عدد الفريق فى كل محطة ليتم منها تسجيل الملاحظات باستخدام المزواة لبضعة أيام فى ستة أماكن يوجد بها عدد من مشغلى العاكسات الضوئية الذين سبق تدريبهم على هذا العمل. وتولى كبار الملاحظين تحديد الأهداف بعمل حفر على الأرض، واستخدام الأسلاك المتعارضة بحيث تظل العاكسات الضوئية متجهة إلى التل الذى يتم منه تسجيل الملاحظات من قبل الملاحظين الستة الأقل خبرة فى كل فريق.

لم تكن هناك أجهزة لاسلكى محمولة فى تلك الأيام، ولذلك كانت جميع الاتصالات بين الفرق السبعة تتم بواسطة العاكسات الضوئية، وذلك من خلال مجموعة من الإشارات المبسطة باستعمال سلسلة من التوقفات داخل الهدف أمام العاكسة، التى تعنى "زيادة أو نقصان الإضاءة" أو "اغلق ولكن ابق مكانك"، أو "اغلق وتحرك إلى المحطة التالية" وهكذا. كان المسئول عن النقل بواسطة العربات الخفيفة والشاحنات هو عجب على، أحد السودانيين البارعين الذى قام بتعيين سائقين للعربات من أقربائه. وكان إذا لحق بالعربة أى خلل نتيجة للإهمال أو التقصير، أو إذا ارتكب أحدهم أية مخالفة أخرى، توقع عليه أشد العقوبة بطرق لم تكن معروفة لدينا.

كانت الملاحظات التى يتم تسجيلها تكاد أن تكون دقيقة بشكل لا يصدق، ويتم إجراؤها بواسطة مزواة (theodolite) مقاس خمسة بوصات، من خلال

تكرار قياس الزوايا الذى يتم التخطيط له بعناية فائقة فى مختلف أقسام الدائرة المقسمة إلى ٣٦٠ درجة. وكانت النتيجة أن ثلاث زوايا فى كل مثلث اتفقت تماما خلال ثانية من القوس، وهى تعادل بوصة واحدة فى كل ثلاثة أميال. ولهذا السبب استخدم جمبو الأعمدة بمفردها بدلا عن (السيبة) وبالتالى تم فى كل محطة وضع المصباح والعاكسة الضوئية فى نفس المكان بالضبط، وكان ذلك يتطلب قدراً كبيراً من الإتقان وعدم قبول مرتبة (الأفضل رقم ٢) التى لم أفلح فى تحقيقها أبداً.

بعد كل مسافة ٢٠٠ ميل، كان يتم تخفيض حجم سلسلة المثلثات وإدخالها فى قاعدة قد سبق قياسها لإيجاد مقياس الرسم، ويتم إجراء ذلك شرقاً وغرباً على أرض منبسطة بشكل مناسب، مع وجود تل عند نهاية كل طرف يكون مرتفعاً بالقدر الكافى الذى يجعله ظاهراً من التل التالى والمحطات الرئيسية بالسلسلة. وبعد ذلك يتم قياس هذه القاعدة بدقة تصل إلى حوالى عُشر البوصة فى الميل الواحد، وذلك باستخدام شرائط حديدية خاصة بطول ١٠٠ قدم، وكانت هذه الشرائط تعلق بين السيبتين، ويتم حمايتها من الرياح الشمالية الشتوية بواسطة ستارة يمسك بها حوالى ٣٠ عاملاً.

كان هؤلاء العمال أكثر خشونة من الملاحظين المستديمين، وفى إحدى المناسبات نشب شجار فى المعسكر نجم عنه أن أحدهم قطع أذن زميل له، مما جعل جمبو ويكفيلد، وديفيد منسى (David Munsey) وهو مهندس مساحة آخر من بريطانيا، يقضيان النهار بأكمله فى المعسكر يستمعان إلى الشهود لمعرفة حقيقة ما حدث قبل توقيع العقوبة المناسبة. وبصرف النظر عن مثل هذه التصرفات النادرة، فقد كانت الخصائص الرئيسية المتعلقة بقياس القاعدة تدعو إلى الملل المشوب بنوع من الاهتمام النظرى بسبب الحاجة إلى تفادى الأخطاء المجهرية المنهجية فى أقسام المائة قدم التى يمكن أن تتراكم فتؤدى إلى إفساد العمل بأكمله.

كان العمل المنوط بى شخصياً فى عملية التثليث هو وضع إطار العمل الخاص بأعمال المساحة الحدودية على سهل فيضان النيل شمال الخرطوم. كان خط السكة الحديد المتجه إلى وادى حلفا محاذياً لهذا السهل، وفى إحدى المرات وبينما كنت أقوم بملاحظة إحدى النقاط التى تقع بعد السهل من تل على ضفة النيل المقابلة، وصلتنى إشارة ضوئية غريبة ليست موجودة فى الدفتر، وكانت عبارة عن مجموعة من النقاط تفصلها شَرطة تأتى على فترات متقطعة. وعندما وجهت المنظار إلى العاكسة الضوئية، وجدت أن قطاراً كان يمر بيننا. وكانت تلك النقاط بسبب شعاع العاكسة الذى كان يأتى من خلال نوافذ عربات القطار. أما الشَرطة فكانت تأتى من الفجوات بين كل عربة وأخرى. وفى مناسبة أخرى، وبينما كنا فى سهل الفيضان نقوم بملاحظة التل، استفسر صبى صغير عن العمل الذى نقوم به، فقلت له بخبث: "إننا نشعل النار على ذلك التل بشعاع الموت." وبعد بضعة دقائق أضاءت العاكسة الأخرى، فما كان من الصبى إلا أن أطلق ساقيه إلى الريح، ولم يتوقف إلا بعد مسافة ميل.

كانت الخطة أن نستمر فى قياسات القوس الثلاثين عبر أعالى النيل، ونظرا إلى عدم وجود تلال فى تلك المنطقة، فكنا نستخدم أبراج بيلبى (Bilby Towers) المتنقلة الأمريكية الصنع، وهى مزدوجة الشكل بحيث يمكن استخدام البرج الداخلى لوضع المنظار والمصباح العاكس، والبرج الخارجى الذى يتصل بالآخر عند القاعدة، لاستخدام الملاحظ. كانت هذه الأبراج تبنى على عارضات حديدية يبلغ وزن كل منها حوالى ٢ طن، وقد يصل ارتفاعها إلى ١٠٠ قدم. كنا نصعد إلى أعلى البرج بواسطة سُلم خارجى، وكان الجزء المتدلى من تحت مسطبة الدرج يتطلب الوقوف فى هذا المكان المرتفع دون الشعور بالخوف أو دوار الرأس. لقد سبق أن قمنا ببناء أحد هذه الأبراج لمعرض أقيم بالخرطوم، وحدث أن أحد الزائرين السودانيين للمعرض عندما بدأ فى صعود البرج، تذكر فجأة أنه يعول أسرة تحتاج إلى رعايته، فهبط بالدرج مهرولاً. كان

من الممكن استخدام ثمانية أبراج ملاحظة مساحية رباعية الأضلاع بما فى ذلك أضلاعها القطرية مع الجوانب، وذلك بطول ١٤ ميلاً، وكذلك باستخدام الأشعة الأمامية والخلفية الممتدة إلى نقطتى رباعى الأضلاع التالية والسابقة. وبعد ذلك يتم تحريك البرجين الخلفيين باللورى إلى الأمام لينصبا مرة أخرى بعد البرجين الأماميين.

كانت الخطة أن يفرغ السودان من هذا العمل خلال سبع سنوات، مع ملاحظة أنه لم يكن يوجد فى البداية سوى مهندس بريطانى واحد (ميسون دوجلاس Mason Douglas) مع مسجل سودانى، بالإضافة إلى ملاحظى العاكسات الضوئية الذين تم تدريبهم أيضاً على تركيب وتفكيك الأبراج إلى جانب تشغيل العاكسات الضوئية أو المصابيح. غير أنه فى المؤتمر الأول للمساحين بدول الكمنولث الذى عقد بعد الحرب فى عام ١٩٤٧، كان الأمريكيون الذين شاركوا فى المؤتمر أيضاً قد أبدوا حرصهم الشديد على إكمال هذا العمل بأسرع ما يمكن، واقترحوا أن نقوم نحن فى السودان بإنشاء رباعى أضلاع رادارى ضخم مع سلسلة للتثليث، على أن يتجه شرقاً وغرباً فى المناطق الواقعة شمال وجنوب الفجوة.

وبوصفى ممثلاً لحكومة السودان، فقد اتفقت مع المساح العام لجنوب أفريقيا على أن عدم إكمال مسح القوس الأكبر بواسطة القياسات الأرضية أمر يدعو للأسف، ولكن بعد التشاور مع الأمريكان الذين كان يهمهم معرفة شكل الأرض فيما لو دعت الحاجة إلى إطلاقهم صواريخ إلى موسكو، وافقنا على الانضمام إلى المجموعة العاملة فى المشروع لأجل الإسراع بالإجراءات، ووافق الأمريكان على توفير الكادر المهنى المطلوب بحجم أكبر بكثير من القدرات المتوفرة لدينا، على أن نقوم نحن بتوفير العمال والسائقين والميكانيكيين تحت إشراف (عجب على)، وبهذه الطريقة كانوا يأملون الانتهاء

من المهمة خلال أربع سنوات. وأسندت إلى دوجلاس ميسون مهمة قياس جميع القاعدات، وهو عمل شاق مرهق كاد فى النهاية أن يصيبه بالجنون.

وبالرغم من أن السودان لم يكن عضواً بالكمنولث، إلا أننى قد تشجعت وقدمت اقتراحاً يؤيد أن نقوم بإكمال المهمة معاً بالوسائل التقليدية، على أن تقوم يوغندا بإكمال جزء صغير فى حدودها الشمالية. لقد قمت بذلك، ولكن تسجيل وقائع هذا المؤتمر قد واجهته بعض العقبات، ولم تنشر مداولاته الرسمية إلا بعد أربع سنوات قبيل انعقاد المؤتمر التالى. لقد سجلت ملاحظاتى الخاصة إزاء ذلك على التقرير الأمريكى الذى تم إعداده حول هذا العمل الضخم، ولكن كان لا بد لى أن أضيف أيضاً أن ذلك العمل الضخم الذى يكلف مبالغ طائلة وتشارك فيه ثلاث حكومات يعتبر نموذجاً نادراً كونه يكتمل قبل طباعة التوصية الصادرة بشأنه. غير أن سكرتير المؤتمر الذى أصبح فيما بعد رئيساً لى بدائرة المساحة لما وراء البحار بلندن، لم يكن مرتاحاً للأمر بالرغم من موافقة الأعضاء الآخرين. وعندما أسندت لى سكرتارية المؤتمر، الذى كان ينعقد كل أربع سنوات، تمكنا من إصدار وقائع المؤتمر فى عام واحد.

فى عام ١٩٤٥ أسهمت فى وضع طريقة دقيقة لقياس القواعدعندما كنت مساعداً لديفيد منسى الذى كان آنذاك يتولى مسئولية العمل الجيوديسى، وذلك بقياس قاعدة مساحتها ثمانية أميال ونصف بمنطقة (الهشيب) بأرض البطانة شمال الخرطوم، وكان ذلك من أجل سلسلة المثلثات شرق - غرب التى أصبحت جزءاً من السلسلة الثانية عشرة الموازية لـ (خط الطول) التى تعبر افريقيا. وقد استخدمت هذه الطريقة فيما بعد لوضع مقياس الرسم لإطار عمل عالمى يمكن من خلاله أن تقوم محطات المراقبة بتحديد مواقع الأقمار الصناعية بكل دقة، حيث استفادت من ذلك أنظمة ملاحة الأقمار الصناعية المستخدمة اليوم، وبالنظر إلى حجم السودان فقد لعبنا دوراً هاماً فى تحديد شكل الأرض بصورة دقيقة.

اثناء قيامنا بقياسات منطقة الهشيب، احتفل منسى بعيد ميلاده، وقمنا أنا وزوجه وعجب على بتجهيز هدية خاصة له . مقعد مرحاض خشبى، تم تزيينه للمناسبة بشريط بنفسجى قبل وضعه على حفرة المرحاض التى حفرت داخل خيمة صغيرة مفتوحة فى اتجاه الريح من المعسكر.

••

(ج) المسح الاجتيازى:

يشمل المسح الاجتيازى قياس الزوايا عند محطات متتالية فى اتجاهات مختلفة على خط أو بقعة دائرية، مع قياس المسافات بين هذه المحطات، وكانت العادة أن يتم قياس الزوايا بواسطة المزواة (الثيودوليبت) أو بواسطة البوصلة المنطيسية، أما المسافات فكانت تقاس بطرق متعددة تتباين بين استعمال الشريط الحديدى والخطوات.[1]

كان شمال السودان يتميز بأراضيه المنبسطة، وبخاصة على سهل فيضان النيل بحقوله المروية. ولذلك كان يمكن مد شريط القياس على الأرض، ولكن عندما ذهبت إلى الجنوب لمسح مشروع الزاندى بيامبيو، حيث الأراضى هناك غير متساوية ومليئة بالغابات، وجدت أن الأمر يحتاج إلى عمل كثير يشمل إزالة كثبان النمل، وأحياناً عبور قيعان بعض الأنهار العميقة، وبالرغم من أننى لم استخدم شريطاً يعلق بين سيبتين، إلا أننى قد تعلمت القيام بذلك نظرياً، واستخدمته على وجه الخصوص فى عبور أحد الأنهار العميقة المخيفة.

كذلك استفدت من السيبات الاحتياطية فى عمل جهاز مبسط لقياس منحنيات السلسلة شبيه بالجهاز الذى يستعمل لقياس القاعدة، ووجدته اكثر سرعة حتى بالنسبة للأراضى المنبسطة نسبياً[2]. كان أحد العمال يقف فى

---

(١) لم يكن ذلك بغرض وضع اطار عمل وإنما لأجل تسجيل التفاصيل.
(٢) يتميز أيضاً بانه اكثر دقة لأن حرارة الشمس تؤثر فى طول الشريط.

منتصف شريط المائة قدم ممسكا بالشريط فوق بكرة قطن موصلة بشاخص المهندس (Ranging rod) ويتم ضبطه بالعين المجردة بين السيبتين. وكان يتم إعطاء أطوال الخطوط المستقيمة من خلال معادلة تشمل الوزن والطول والجهد من ميزان زنبركى، ويمكن بكل سهولة تحقيق دقة ترتيب السنتمتر الواحد فى ١٠٠ متر بسرعة نصف ميل فى الساعة.

••

رسم الخرائط الطبوغرافية

(أ) بواسطة مسح الأراضى:

كان يستحيل تماماً قبل عصر التصوير الجوى والأقمار الصناعية تغطية السودان البالغ مساحته مليون ميل مربع بخرائط طبوغرافية دقيقة، ولكن فى البلاد المفتوحة كان استخدام لوحة المسح المستوية هى الأسلوب الأمثل الأكثر دقة. كانت الخريطة تثبت على لوحة يمكن تسويتها وتدويرها على الحامل (بواسطة البوصلة أو من نقطة عمل إلى أخرى) إلى أن تصبح متوازية مع الأرض، ثم يتم تعيين الانحرافات تخطيطياً بواسطة مسطرة بصرية، والارتفاعات باستخدام الكلينومتر (مقياس الميلان والانحدار) لقياس الزوايا الرأسية.

أما الأسلوب الأقل دقة فهو العبور بالبوصلة مع قياس المسافات باستخدام عداد المسافة بالسيارة، أو بواسطة الخطوات، أو بتوقيت تقديرات المسافة عند السفر بالجمال أو سيراً على الأقدام، وكان يتم تزويد الإداريين وغيرهم، خلال فترة تدريبهم المبدئية بالمملكة المتحدة، بتعليمات محددة حول كيفية رسم الخرائط التخطيطية أثناء أسفارهم فى البلاد، وكنا نبين هذه الرسومات على خرائطنا، ونحتفظ لدينا بقائمة تحتوى على أسماء الذين قاموا برسمها مع اعتبار التفاصيل المتعلقة بدقتها سرية للغاية، ذلك أن

الخرائط المتجاورة نادراً ما تكون متوافقة مع بعضها البعض، كما أن دقة عمل الإدارى لا علاقة لها دوماً بأقدميته!

أذكر فى هذا السياق أن مفتش أحد المراكز قد عبر لى عن غضبه من أنه كاد أن يموت عطشاً أثناء عبوره مسافة تقدر بخمسين ميلاً سيراً على الأقدام فى أعالى النيل، وذلك لأنها كانت مبينة على الخريطة على أنها "مستنقع". كذلك اكتشفنا فى مكتب الرسم أن عبارة الوصف المميزة "ممطرة" قد حذفت فاعتذرنا لهذا الخطأ و أعدنا إدخال كل العبارات المحذوفة فى الطبعة التالية. أما فى صحراء الشمال، فكان يتم أحياناً توضيح بعض السمات القليلة، ولكنى وجدت خريطة لم يوضح عليها أى شىء سوى خط منقط يشير إلى الطريق الذى سلكه أحد المسافرين فى السابق، وتم وصفه مثلا بعبارة (كذا وكذا ١٩٢٩). كان ذلك أمراً مضحكاً، ولكن مثل هذه الطرق تبقى مرئية أحياناً، وتعتبر علامة أرضية لعشرات السنين فى المناطق التى لا تميزها أية سمات أو خصائص أخرى.

••

(ب) بواسطة المساحة الجوية:

كان التصوير الجوى يستخدم نادراً، غير أن خبرتى مع سلاح المهندسين الملكى بالقاهرة فى الفترة ١٩٤٣ - ١٩٤٥ جعلتنى استكشف الإمكانيات التى كانت متاحة آنذاك. لقد بذل الأمريكان جهوداً عظيمة خلال عامى ١٩٤١ - ١٩٤٢ من خلال استخدامهم للتصوير ثلاثى الأبعاد، أو التصوير بثلاث كاميرات بغرض توضيح طرق الإمداد الجوى من تاكورادى فى غانا إلى الخرطوم والقاهرة، ثم إلى الشرق الأقصى مؤخراً. وفى عام ١٩٤٥ عندما تسلمنا نسخاً من نصف المليون خريطة التى قاموا برسمها، اكتشفت أنه بإمكاننا أن نقوم بعمل خرائط مماثلة، ولكن بمقياس رسم اكبر بكثير من

المعتمد فى تلك الخرائط إذا ما تمكنا من الحصول على الصور الفوتوغرافية، خاصة تلك التى أخذت للمناطق المنبسطة الضخمة التى لا تحتاج إلى رسم خرائط كنتورية، أو للمدن التى تمت تغطيتها بالصور الراسية.

بناء على ذلك حصلت على تصريح لزيارة الولايات المتحدة لاستجلاب نسخ مطبوعة من تلك الصور، ومعرفة كيفية تحويلها إلى خرائط، وكعادة حكومتنا الصديقة تمت الموافقة على ذلك بسرعة أثناء جلسة شراب مع جوفرى هانكوك[1] (Geoffrey Hancock) الذى صادق على تغطية تكاليف الزيارة. قضيت حوالى أسبوعين فى الولايات المتحدة، تمكنت خلالها من جمع ٦٠,٠٠٠ صورة فوتوغرافية تغطى جميع أنحاء السودان من حدوده الشمالية إلى واو فى الجنوب، فيما عدا الصحراء الشمالية الغربية.[2]

كانت التقنية الأمريكية بالنسبة لنا متقدمة جداً، ولكن أثناء زيارتى إلى القاهرة التى سوف أتطرق إليها لاحقا، تمكنت من الحصول على بعض معداتهم التى خلفوها هناك. والتى قمنا بتعديلها لتساعدنا فى تدريب خريجى المدارس على استخدام التقنيات البسيطة، وبهذه الطريقة تمكنا من رسم خرائط لمناطق واسعة للفريق الذى كان يقوم بإجراء دراسة حول مشروع جونقلى، وذلك بطريقة تحديد النقاط فلكياً التى قام باستخدامها مهندس المساحة دونالد فيرجسون (Donald Ferguson) ، وقد ساعد حرق الحشائش على معرفة السمات الأرضية فى الصور المائلة، وبذلك أمكن ربط الطريقتين معاً. كذلك تم إجراء مراجعة لمشروع الجزيرة بمديرية النيل الأزرق الذى تم مسحة بتصوير دقيق وضح أن متوسط الخطأ فيه لا يتجاوز ٢٠٠ متراً على

---

(١) موظف بمكتب السكرتير الإدارى آنذاك.

(٢) مع بداية الحرب الباردة فى عام ١٩٥٠ تم منع الصور الأخرى من التداول بحيث لا يمكن رؤيتها فى الوقت الحاضر، ولكن إذا تغير ذلك فإنه سيوفر سجلاً فريداً للصحراء عبر شمال أفريقيا عن الفترة ١٩٤١ ـ ١٩٤٢.

الأرض، ولكن لم يكن لذلك اهمية تذكر فى مناطق أعالى النيل حيث كنا نقوم باستبدال الخرائط التخطيطية غير الدقيقة.

••

مسح أراضى الأملاك والعقارات

أ) المديرية الشمالية:

إن أهم أعمال أى مصلحة للمساحة هو رسم خرائط القياس الخاصة بحقوق ملكيات الأراضى. ويشمل ذلك فى معظم بلاد العالم، فيما عدا بريطانيا، ترسيم حدود الأراضى التى تملكها أو تؤجرها الدولة، أو المؤسسات، أو القبائل، أو الأفراد وذلك بعمد شواهد (نواطير) على أركانها. وبالنسبة لشمال السودان، فقد قامت الإدارة التركية السابقة بتسجيل ملكيات أراضى الأفراد، ولكن دون رسم خرائط لها، واكتفت فقط بتحديد أركانها بأعمدة أو شواهد طينية.

وعند إعادة فتح السودان فى نهاية القرن التاسع عشر تم رسم خرائط لهذه الأراضى بمقياس رسم قدره (١: ٢٥٠,٠٠٠)، وقام بهذا العمل مساحون تم تدريبهم محلياً تحت إشراف البريطانيين، وتمت تغطية جميع أراضى المنطقة الواقعة على امتداد نهر النيل التى تروى بالسواقى، وبالمضخات الآلية مؤخراً بدءاً من مقاس ثلاث بوصات، التى يمكن تحريكها من مكان إلى آخر فى اسفل أو أعلى ضفة النهر حسب مستوى المياه، إلى المضخات الضخمة الثابتة التى تروى آلاف الأفدنة.

كذلك قامت فرق خاصة من المساحين بتخصيص الأراضى التى تزرع بالسلوكة للملاّك الأفراد، وهى تلك الأراضى الواقعة تحت مستوى الفيضان العادى وكانت قيمتها عالية، رغم أنها كانت تتغير باستمرار، ذلك أنها بعد

زراعتها لا تحتاج إلى رى لأنها تتغذى على الرطوبة التى تخلفها مياه الفيضان. وبما أن ظهور هذا النوع من الأراضى كان يختلف من عام إلى آخر، فكان من يحظى بها فى إحدى السنين، يقوم بتأجير جزء منها لمن لم يحالفهم الحظ الذين قد يسعد الحظ أبناءهم فى المستقبل ليتولوا بدورهم رد الجميل بالمثل. غير أن هذا العمل الضخم كان يكتنفه خطأ فادح، وهو عدم وجود إطار للعمل فوق أعلى مستوى للنهر بحيث يمكن بعده إعادة تثبيت النواطير أو الأعمدة الطينية فى حالة تحريكها، أو إذا جرفتها مياه الأمطار أو الفيضان كما حدث فى فيضان عام ١٩٤٦ الذى ضرب رقماً قياسياً.

لذلك عندما نقلت إلى المديرية الشمالية فى عام ١٩٥٢، أسند إلىّ القيام بمهمتين رئيسيتين: إعادة تثبيت العلامات الحدودية فى أماكنها التى كانت فيها، وإقامة نظام مستديم لعملية تحديد الأراضى، ذلك أن عدم وجود علامات حدودية للأراضى كان يتسبب فى نشوب نزاعات كثيرة. وهكذا خصص لى مدير المديرية بن آربر (Ben Arber) سجيناً محكوماً عليه بالسجن المؤبد كان قد قتل جاره بسبب مثل هذا النزاع حول حدود الأراضى (حول قطع الأخشاب وجلب الماء) وقال لى إن هذا كفيل بتذكيرك بأن عملك الأساسى هو منع حدوث مثل هذه النزاعات.

كانت هناك بالمديرية ستة مكاتب للمساحة يديرها سودانيون نالوا تدريباً جيداً، وهى موزعة على رئاسة المديرية بالدامر، ورئاسات المراكز فى كل من شندى، وبربر، ومروى، ودنقلا، ووادى حلفا. تم التنسيق مع السلطات القضائية على تشكيل فريق عمل مشترك من القضائية والمساحة يتولى إعادة تثبيت علامات حدود الأراضى ورسم خرائط لها، ومن الناحية القانونية تسوية أية نزاعات حول الأراضى، أو أية ادعاءات أخرى فى هذا الشأن. كانت حقوق الأراضى تشمل على سبيل المثال حق المرور فوق أرض زراعية تقع على الشاطئ يملكها شخص آخر ملكاً حراً بغرض الحصول على الماء.

قمت بإقناع كبار المساحين السودانيين لمساعدتى فى عمل إطار جديد للعمل المساحى. وبينما كنت أقوم بربط مجموعات العلامات المرجعية فى الأماكن المحددة على امتداد النهر حتى موقع (القوس الثلاثين)، كانوا هم يقومون بإجراء المسح الاجتيازى باستخدام العاكسات الضوئية وأشرطة الحديد بين تلك العلامات المرجعية، مع وضع النواطير التى يبعد كل منها نصف كيلو متر عن الآخر. كذلك قمت، كما ذكرت أعلاه، بإنشاء مجموعة من العلامات المماثلة عن طريق استخدام عملية (التثليث) من التلال المقابلة للأراضى الزراعية، وتم تحديد كل هذه الأراضى بوضع علامات خرسانية عليها وتثبيتها داخل الأرض. وتمكنا فيما بيننا من تثبيت ١٠٠٠ شاهد (ناطور) خلال أربع سنوات، وعندما عبرت عن شكرى للمساحين عند تقاعدى فى عام ١٩٥٥ قالوا لى: "لقد كنت أنت تؤدى العمل، ولذلك كان لا بد لنا أن نؤديه معك"!

كانت تستخدم فى البلاد الأخرى قطعة من الحديد كعلامة حدودية توضع على قاعدة خرسانية ، ولكنها كانت دائماً معرضة للسرقة، وبدلاً عن ذلك قمنا ببساطة بعمل حفرة داخل القطعة الخرسانية قبل تثبيتها فى الأرض لنضع بداخلها شاخص المهندس كهدف، ولكن كان الصبية يعبثون بهذه الحفر ويملئونها بالحصى، وكحل لهذه المشكلة أصبحنا نملأها بالرمل، ولكن بعد تجهيز المساحين بملاعق طويلة!

لقد أدى إعادة مسح حدود الأراضى إلى إثارة بعض الشكوك لدى ملاك الأراضى، وكانت البداية عندما قام جمهور من هؤلاء المتشككين بمرافقة أحد المساحين أثناء تادية عمله، فقد اكد هذه الشكوك فى العديد من المرات عندما كان يسأل عن أماكن الشواهد الطينية التى لم يكن لملاك الأراضى مفر من نصبها فى المكان الذى يعتقدون أنها كانت فيه من قبل. كان المساح يطلب منهم

أن يحفروا فى الأماكن المفترض وجود العلامات فيها حسب مؤشرات المقاسات التى أخذت من الشواهد الطينية القليلة التى كانت لا تزال قائمة، وعندما تكشفت الأساسات القديمة زالت الشكوك وتفرق الجمهور.كان يتم تثبيت العلامات الخرسانية التى حلت مكان الأعمدة الطينية فى الموقع باستخدام قوالب صنعت فى مصلحة السكة الحديد، وتحاط بالأسلاك الشائكة لحمايتها.

لم تكن لى صلة مباشرة بجلسات الاستماع فى المحاكم الخاصة بحقوق الأراضى وحدودها، ولكن فى إحدى المرات أتيحت لى الفرصة لحضور إحدى هذه الجلسات حيث جاء إلى المحكمة رجل كبير السن يصحبه ابنه وابنته، اللذين قالا إنهما الوحيدين القادرين على مخاطبته والتفاهم معه، ولذلك لم يكن غريباً أن إجاباته التى قاما بترجمتها للمحكمة كانت تؤكد باستمرار جميع الادعاءات التى تقدما بها نيابة عن والدهما.

كانت حدود الأراضى فى المدن تتطلب فى الغالب تقسيم المنطقة التى تقع بين شارعين إلى قطع سكنية، وكان يتم تخطيط قطع غير مستطيلة على الشوارع التى ليست فى زاوية قائمة، وبالتالى تشيد عليها منازل غير مستطيلة وتسقف بألواح زنك مستطيلة يتم تعديلها بالمنشار، الأمر الذى أثار سخط المختصين بمصلحة الأشغال العامة، وقد شكا لى أحدهم بمرارة من هذا التصرف.

●●

(ب) مشروع الزاندى:

قضيت ستة أشهر بالجنوب خلال عامى ١٩٤٥- ١٩٤٦ لأجل مسح مشروع الزاندى لزراعة ونسيج القطن الذى وضع مخططه الدكتور توتهيل (Tothill) مدير مصلحة الزراعة، وتايجر وايلد (Tiger Wyld) مفتش مركز الزاندى

القيم فى يامبيو. كان وايلد فى السابق ضابطاً متميزاً فى الجيش، ويحمل نياشين الخدمة الطويلة الممتازة، ونيشان الصليب الحربى من الحرب العالمية الأولى، ويتمتع بشخصية قوية كما يدل على ذلك لقب تايجر (نمر) الذى أطلق عليه. وكان قد تعاقد مع المصلحة بصفة ضابط وليس كعضو منتظم بالخدمة السياسية، وهو أحد الذين كان يطلق عليهم (بارونات المستنقعات Bog Bar-ons) وعمل على تهدئة الأحوال فى الجنوب، وكرس كل طاقاته لقبيلة الزاندى ورعاينها، خاصة وأنه كان يرى أن السودانيين الشماليين يستغلون الجنوبيين. وفى مسلك مستقل، رفض وايلد أن يرفع العلم المصرى، مع أن العلمين البريطانى والمصرى كانا يرفعان فوق مبانى جميع الرئاسات الحكومية الأخرى بالسودان، وهو إجراء دستورى سليم فى ظل الحكم الثنائى الإنجليزى المصرى، كما أنه لم يسمح برفع أية أعلام فوق مكتبه.

كانت خطة تنفيذ المشروع تشمل تشييد المكاتب والمساكن الحكومية فى رئاسة المركز بيامبيو، مع مصنعين للنسيج والملابس فى مدينة انزارا على بعد ثلاثين ميلاً من يامبيو باستغلال القطن المزروع محلياً الذى لم يكن يستحق التصدير إلى الخارج عن طريق البر والبواخر والسكة الحديد إلى بورتسودان. كان الزاندى قوماً ذوى أحجام صغيرة، ويميل لونهم إلى السمرة، ويعرفون باسم (نيام نيام) لأنهم اشتهروا بأنهم من آكلى لحوم البشر. وكانوا يرتدون صديريات ويضعون على رؤوسهم قبعات مستديرة مصنوعة من القش ومربعة الشكل فى جزئها الأعلى.

قام لاركن (Larkin) الذى خلفه وايلد بتنظيف العديد من الطرق، وأسكن الأهالى على جوانبها ليبتعدوا عن الأنهار وذبابة (التسى تسى) التى تسبب مرض النوم للإنسان والحيوان. كانت هذه الطرق التى تتابع مستجمعات المياه متعرجة، وتشكل معالم أرضية جيدة عند النظر إليها من الجو. قمت بمساعدة

اثنين من المساحين السودانيين برسم الخرائط الخاصة بمنطقتى يامبيو وأنزارا باستخدام مقياس رسم كبير، كما وضعت خطة لتحسين خريطة ربع البوصة التفصيلية التى سبق أن قام لاركن بتصنيفها بحيث تشمل جميع الأنهار مع أسمائها.

لذلك طلبت مساعدة سلاح الجو الملكى لعمل استكشاف جوى، واتضح لنا أن الطرق هى السمات الوحيدة التى تستخدم للملاحة الجوية فى مناطق الغابات الكثيفة. كان التصوير من الجو يتم بتحليق الطائرة فوق المنطقة، مع الانعطاف عند نهاية كل خط مستقيم بزاوية محسوبة من الشاطئ. وبالاستفادة من الطرق التى كانت تطبق فى الصحراء، قمنا بمسح الطرق على الأرض حتى يتم التنسيق مع التصوير الجوى، وتمكنا من رسم خرائط بمقياس رسم كبير عن طريق المسح الاجتيازى على امتداد الخطوط التى تم شقها داخل الغابة مع أن العمال المحليين لم يكونوا ماهرين فى عمل ثلاثة خطوط متوازية، وبالرغم من الجهود التنظيمية التى بذلها شاويش شرطة سابق يدعى (مبورى) التى تعنى "إله" باللغة المحلية. لقد استفاد وايلد، وألن ماكول (Alan McCall) مفتش الزراعة الذى أصبح فيما بعد آخر مدير لمصلحة الزراعة قبل استقلال السودان، من هذه الخرائط فى إعادة توزيع القرى من أجل تسهيل زراعة القطن المحلى.

●●

تهجئة الأسماء

كانت كتابة الأسماء بحروف غير عربية تشكل صعوبة كبيرة، كما كانت تتباين كثيراً تهجئة أسماء الأماكن على خرائط مقياس الرسم الصغير التى تغطى البلدان الواقعة تحت مختلف أشكال الاحتلال الأوروبى، فعلى سبيل المثال كانت كلمة "جبل" تكتب وتنطق فى كل من مصر وسوريا بطرق متباينة

مثل (gebel) أو(djebel) أو(jabal) أو(ghebel) كما كان الفرنسيون يكتبون كلمة "وادى" (ouadi).

لذلك فكرت فى إزالة حرف الـ i)) من كلمة (Gambeila جمبيلا) حتى تكون هناك تهجئة موحدة للبلدتين السودانية والأثيوبية اللتين تحملان نفس الاسم. غير أن مفتش المركز اعترض موضحاً أن ذلك يعنى أن البريد المرسل إليه لن يصل أبداً. وهكذا عدلت عن الفكرة، ولكن بالرغم من ذلك تقدمت بتوصية فى النهاية بأن تكتب الأسماء فى نسق واحد على كل الخرائط، وفى جميع الوثائق الرسمية.

••

نسخ وطباعة الخرائط

عندما ذهبت إلى السودان أول مرة، كان النظام المتبع فى المساحة قديماً وبسيطاً، فكانت الرسومات الاستشفافية تعمل من الصفحات الميدانية الأصلية بواسطة الرسامين السودانيين مع واحد لكل لون على الخريطة إذا لم تكن ابيض وأسود. كانت فى الغالب تستخدم ثلاثة ألوان: اللون الأسود للأسماء والتفاصيل الأخرى مثل المسالك والقرى، واللون البنى لخطوط الكنتور، والأزرق للأنهار والوديان والخيران والسمات المائية الأخرى، وبعد ذلك يتم عمل أكليشيه لكل رسم شفاف بتعريض صفيحة زنكية حساسة إلى الشمس بعد تغطيتها بمستحلب فى إطار زجاجى للطباعة. ثم يتم تحميض الشريحة ومراجعتها تحسباً لأية تشوهات قد تحدث بسبب الغبار أو غيره. وبعد ذلك تحول الشريحة إلى ماكينة الطباعة. كانت لدينا ماكينتان للطباعة مبسطتان بقاعدتين مسطحتين توضع فيهما الشريحة بعد تغطيتها بصفحة من الورق، ثم يضغط عليها بالدحراجة لنقل الصورة المغطاة بالحبر إلى الورق. أما بالنسبة إلى الخرائط الملونة فتكرر العملية بالشريحتين الأخريين. كانت كمية العمل المنتج فى الأيام الأولى ضئيلة جداً، ولكن لم يكن لبطء العمل تأثير يذكر.

كنا نستخدم فى السودان وسيلة غير عادية، إن لم تكن فريدة، للعمل الإدارى الجيد - (الخريطة المنديل Handkerchief Map) التى كانت نسخة خاصة من خرائط البلاد الطبوغرافية بمقياس الرسم القياسى (١: ٢٥٠,٠٠٠) التى كانت تطبع على قماش أبيض، وكان يستفيد منها بصفة خاصة أولئك الذين يعملون فى مناطق المراكز، ذلك أن الخريطة الورقية قد تحدث حفيفا أو خشخشة تجعل الجمل يجفل، أو قد تطير أو تتمزق مع هبوب الرياح، أو تسبب أية متاعب أخرى. كان يتم إنتاج خرائط المنديل بنفس الطريقة التى تنتج بها الخرائط الورقية، فيما عدا أن قطعة القماش التى تطبع عليها يجب أن تثبت فى ستة نقاط على ورق مقوى. وكان الجيش البريطانى يتبع طريقة مماثلة بطباعة الخرائط على الحرير ليستخدمها من قد يتعرضون للأسر فى الحرب، ولكنها كانت رقيقة جداً بحيث أنه بعد حياكتها داخل الملابس لا يمكن العثور عليها إذا تعرض الأسير للتفتيش بحثاً عن الأسلحة المخبوءة.

أثناء الحرب طُلب من مصلحة المساحة طباعة أربعين نسخة من ملصق للتجنيد فى الجيش، وكان الملصق عبارة عن صورة لجندى سودانى فى زيه العسكرى. لم يكن هناك ما يبرر عمل شريحة منفصلة للرقع الصغيرة الملونة الموجودة على الزى نظراً إلى أن العدد المطلوب كان أربعين نسخة فقط، ولذلك تم إجراء عملية التلوين باليد. كان أحد الأسباب التى استدعت انتدابى إلى سلاح المهندسين الملكى بالقاهرة فى عام ١٩٤٣ هو معرفة ما طرأ من مستجدات فى مجال استنساخ وطباعة الخرائط.

وهناك فى القاهرة وجدت كافة وسائل الطباعة بطريقة (الأوفست) بما فى ذلك آلة تصوير ضخمة تقوم بتقليل حدة رسم الخطوط وتحسينها، وكذلك آلة (النيموغراف) الفوتوغرافية التى تقوم بطباعة الأسماء على الورق الشفاف.

كما وجدت هناك ماكينة طباعة تدور بسرعة هائلة وتطبع الخريطة خلال بضعة ثوان باستخدام تقنية الأوفست. وبعد الحرب عُرضت هذه المعدات للبيع، فأرسلنى جمبو ويكفيلد لشراء ما كنا نحتاج إليه. كذلك حصلت عن طريق الإعارة المستديمة على آلة للتخطيط البيانى كانت ضمن المعدات التى خلفتها الكتيبة الأمريكية. وعندما عدت إلى السودان، أبدى ضابط الجمارك المصرى فى الشلال بعض الصعوبة بشأن هذه المعدات نظراً إلى أنه لم ير مثلها من قبل، غير أنه سرعان ما غير موقفه وسمح بمرورها عندما سرت به إلى الخارج وانتحيت به جانباً لبعض الوقت تحت حرارة الشمس. لم يطالب الأمريكان، حسب علمى، باستعادة هذه المعدات، ووضعنا كل ما حصلنا عليه من القاهرة فى مكانه الصحيح، وأحسنا استعماله.

بعد الحرب طرأت مشكلة شغل وظيفة مدير مصلحة المساحة خلفا لمديرها السابق. كان ريكس هاردى (Rex Hardie) قد تقاعد فى مطلع الأربعينات، وكان من يليه فى سلم الأقدمية هو جيم ثورنبيرن (Jim Thornburn) وجيرى سويتنج Sweeting Gerry الذى كان يعمل فى مخابرات قوة دفاع السودان أثناء الحرب ولكنه أصبح مريضاً. كذلك كان هناك جمبو ويكفيلد صاحب الشخصية القوية المميزة، ولكنه كان أقل منهما من حيث درجته الوظيفية. فجاءنى جون ويلى روبرتسون (John Willie Robertson) الذى كان آنذاك أحد كبار المسئولين بمكتب السكرتير الإدارى عندما أخذنى جانباً أثناء حفل عشاء أقيم فى دار الإكليروس الملاصق لكاتدرائية الخرطوم، وطلب منى الإدلاء بوجهة نظرى فى ما يجب عمله. اعترضت على طلبه قائلاً: "من أنا يا سيدى حتى أقوم بتقديم مقترحات؟"، فرد بطريقته الماكرة المعتادة: "حسناً، هاأنذا أسألك". فاقترحت له تعيين شخص برتبة عميد أو عقيد مهندس متقاعد له إلمام بالتقنيات الحديثة كإجراء مؤقت. غير أنه تم تعيين جمبو ويكفيلد مديراً للمصلحة رغم صغر سنه نسبياً، ولكن كان قرار تعيينه موفقا بالنظر إلى همته

وذكائه، وقوة شخصيته المطابقة لقوته الجسدية. أذكر مرة أنه كسر مقبض باب إحدى العربات بقبضة يده القوية، وفى مناسبة أخرى أثناء حملة قطبية، تمكن من سلخ دب مستخدما يده أيضا، كما لعب دوراً هاماً خارج مصلحة المساحة من خلال مشاركته فى المجالس واللجان التى تقوم بتشكيلها الحكومة المركزية، ورئاسته للجنة القومية الخاصة بأجور الوظائف الفنية فى حكومة السودان.

بعد الحرب تمكنت المصلحة من استجلاب بعض المعدات الجديدة، والقيام بأعمال إضافية تشمل طباعة مئات النسخ من الميزانية السنوية للدولة، وهى مهمة صعبة لم تكن أى جهة أخرى تستطيع القيام بها، إضافة إلى عدد كبير من الملصقات التى تدعو إلى محو الأمية فى جميع أنحاء البلاد. غير أن الأحوال الطبيعية، خاصة فى فصل الصيف لم تكن تساعد على أعمال الطباعة. كان يتولى مسئولية هذا العمل أليكس داوسون (Alex Dawson) مع اثنين من الفنيين من قسمى الإنتاج والطباعة بعد أن قاموا بتجميع ماكينة طباعة جديدة. بدأ تشغيل هذه الماكينة فى يوم حار جداً من شهر يونيو، وحاول داوسون أن يلمس أحد ركائز الماكينة فوجدها ساخنة جداً. وبعد لحظة صمت مسح خلالها حاجبيه، اتكأ على أحد أعمدة الغرفة الحديدية فإذا به يقفز فوراً إلى الخلف، إذ كان العامود أشد سخونة - ١٢٠ درجة.

أما أولئك الذين كانوا يتولون أعمال المعالجة، فقد كانوا أوفر حظاً حيث أنهم كانوا يؤدون عملهم داخل غرف مكيفة. وفى شهر رمضان طلب الموظفون السودانيون من جمبو ويكفيلد أن يأذن لهم بالبقاء داخل الغرف المكيفة بعد انتهاء ساعات الدوام المعتادة التى كانت تنتهى عند الواحدة بعد الظهر خلال شهر رمضان. وافق جمبو على الطلب، ولكن بشرط أن يواصلوا العمل، وهكذا حدث أن ساعات دوامنا، بخلاف المصالح الأخرى، كانت اكثر وليس اقل إنتاجاً

فى شهر رمضان.

لم يكن مطلوباً منا معرفة اللغة العربية مثل الآخرين الذين كانوا يعملون بالخدمة السياسية السودانية، وقد دهش الأساتذة الذين اختبرونى فى اللغة العربية من عدم إلمامى نسبياً بمفردات المصطلحات المساحية مع أننى قد نجحت فى الامتحان. لم أتمكن بعد ذلك من تعلم عدد كبير من المصطلحات الفنية كما كان يفترض، وذلك نظراً لوجودى فى الميدان فى أيام الحرب، وكنت فى الممارسات اليومية مع العمال استعمل الأوامر البسيطة، ولكن تحسنت لغتى العربية كثيراً أثناء سنواتى الأربع الأخيرة بالمديرية الشمالية.

كنا محظوظين جداً فيما يتعلق بكبار الموظفين السودانيين الذين عملوا معنا فى المصلحة. ذلك أن كثيراً من الطلبة المتفوقين من خريجى كلية غردون قد اختاروا الانخراط فى المصالح الفنية التى يستطيعون أن يتقدموا فيها بسرعة أكثر مما هو متاح فى المصالح الإدارية - كان هناك أطباء مؤهلون فى السودان منذ عام ١٩٢٧، وكان لدينا موظفون بمستوى رفيع يترقون بسرعة فى عملهم، وقد انضم بعضهم إلى جمبو ويكفيلد فى عمله الجيوديسى الميدانى. وكنت قد تعرفت على اثنين منهم معرفة جيدة هما مكى المنا ابن شاويش فى الشرطة كان يعمل فى كردفان، وشارلى أنطون الذى كان مسيحياً وجده إغريقى، أما جده الآخر فكان مبشراً مشهوراً، وقبل هروبه إلى مصر حكم عليه بالإعدام شنقاً ست مرات - لم ينفذ فيه القدر - فى عهد الخليفة عبد الله فى محاولة يائسة لإدخاله الإسلام. أما مكى فقد أصبح أول مدير سودانى لمصلحة المساحة بعد الاستقلال، ولكنه لم يلبث أن استقال ليصبح مديراً للمشاريع المروية التابعة للسيد عبد الرحمن المهدى فى منطقة النيل الأبيض، ثم عين مؤخراً وزيراً للرى وهو منصب هام فى السودان حيث أن أغلب المشاريع الزراعية تعتمد على المحاصيل المروية، وكان قد خلفه شارلى أنطون مديراً

للمساحة حيث شغل هذه الوظيفة لعدة سنوات.

كان من أصدقائى الآخرين عمر العتبانى، مراقب المكتب الطبوغرافى، الذى احتج علىّ فى إحدى المرات لأننى فقدت أعصابى فى المكتب أمام العامة، ولكنه سامحنى عندما علم أننى كنت قد تلقيت للتو خبراً بوفاة والدى فى إنجلترا، ولم يكن ممكناً بطبيعة الحال أن أعود إلى الوطن لحضور الجنازة. لم يكن السودانيون يبدون اهتماما عندما يحتد مزاجنا بين حين وآخر، وكانوا يعتبرون ذلك تصرفاً إنسانياً، وأذكر أن بعض سائقى العربات الذين كانوا يعملون معنا قد عبروا عن قلقهم لأن أحد مهندسى المساحة البريطانيين كان دائم الهدوء، وكانوا يقولون عن مثل هذا الشخص، "إنه بارد".

كانت مساحة الأراضى مهنة صغيرة، ولكنها كانت من المهن التى تشجع على المبادرة من وراء البحار بعيداً عن مواقع القيادة. ولذلك استطاع القليلون من أفراد المهنة أن يبرهنوا على قدراتهم الفائقة التى جعلتهم يتمسكون بها، وخير الأمثلة على ذلك تشمل كل من جورج واشنطون، وغردون، وكتشنر، وليونيد بريجنيف. ومن الأمور ذات الدلالة أن ألمع ضباط الجيش فى السودان قد انجذبوا إلى الأسلحة الفنية، فقد كان أحمد باشا محمد الذى أصبح قائداً للجيش بعد الاستقلال، ضابطاً بسلاح المهندسن، وإبراهيم عبود الذى أصبح رئيسا للسودان بعد انقلاب عسكرى وصفته جريدة التايمز بعبارة انقلاب سودانى أبيض (Soft Sudan Shuffle) قد جاء أيضاً من سلاح الخدمة.

••

خاتمــة..

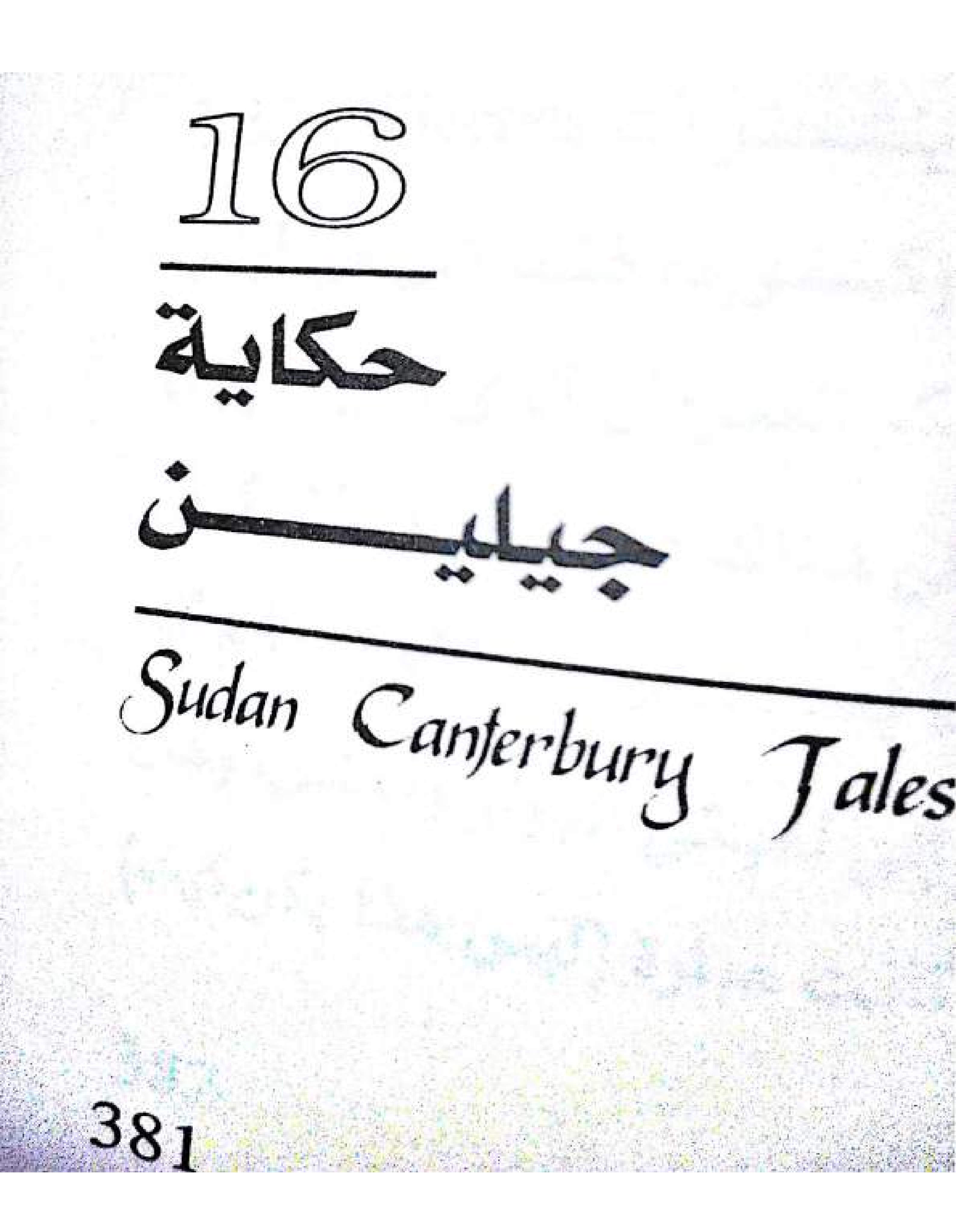
أثناء فصل الشتاء الذى أعقب الاستقلال، كنت أنا الموظف البريطانى الوحيد المتبقى فى الدامر. وكان هناك (فكى) قادم من كردفان اشتهر فى المديرية الشمالية بأنه يشفى كل الأمراض، وجذب إليه أعداداً هائلة من عامة

الجمهور، بل أن بعضهم كان يأتى إليه محمولاً على العناقريب (الأسرة). وكان يعالجهم بطرق مختلفة، منها أحياناً وضع قطعة عملة ملتهبة على العضو المصاب.

وفى يوم من الأيام مررنا بالمنزل الذى كان يسكن فيه وكان محاطاً بالمرضى الصامتين وهم يجلسون القرفصاء على الأرض خارج المنزل، وعلمت من سائقى أن (الفكى) يخرج إليهم بين الفينة والأخرى ويكرر عليهم ألا يعطوا فلوساً لحيرانه (حواريه)، ولكن يمكن إعطاؤهم طعاما فقط. وأخيراً قام بعض الأطباء السودانيين، وموظفى الحكومة، لربما بعد ممارسات خاصة كبيرة، بإبلاغ مدير المديرية الذى كان من أحفاد الخليفة مطالبين بضرورة منع (الفكى) من ممارسة هذا العمل حيث أن ازدحام الناس قد أدى إلى تفشى بعض الأمراض. ولذلك قام مدير المديرية باستدعائه وطلب منه أن يوقف عمله، ويعود إلى قريته فى كردفان. ألقيت نظرة خاطفة عليه أثناء انتظاره لمقابلة المدير، فوجدته سقراط أسود اللون، واسع العينين. لقد أطاع الأوامر.

جون رايت (John Wright)

■■■



16

حكاية

جيلين

Sudan Canterbury Tales

السياسية السودانية، وكان الآخرون هم روبن يونغ Robin Young، وروبن كرول (Robin Crole) إلى جانب إيليوت بالفور (Elliot Balfour) ابن الطبيب المشهور الذى نجح فى استئصال الملاريا بالخرطوم، وجون يودال (John Udal) ابن "دوجى" ناظر كلية غردون المعروف، وكان الأب والابن - كما فى حالتى - من أهالى (ويكام Wykeham). كما كان هناك قاى بيز (Guy Pease) وهو ابن هيربيرت بيز الذى كان يعمل بالشرطة، وأخيراً مورى جونستون (Morie John-ston) ابن أحد موظفى حكومة السودان.

لقد عاش والدى قاى بوسون (Guy Pawson) إلى أن أدرك الثامنة والتسعين من العمر، وعندما توفى فى عام ١٩٨٦ كان عميداً لموظفى الخدمة السياسية السودانية، بالإضافة إلى أنه كان لاعب كريكيت ممتازاً فى ذلك الوقت، بل ربما كان نموذجاً مصغرا تجسدت فيه شخصية وأصالة عضو الخدمة السياسية. وبما أنه قد نال تعليمه فى وينشستر (Winchester) وكلية كرايست تشيرتش (Christ Church) بجامعة أوكسفورد، فقد كان من أوائل المدنيين الذين تم اختيارهم للمشاركة فى حكم السودان الذى كان لا يزال آنذاك تحت الإدارة العسكرية، حيث ذهب إلى هناك فى عام ١٩١١. كان (كابتنا) لفريق الكريكيت فى أوكسفورد، وفيما بعد لفريق يوركشير، رغم أنه فى السودان قد حول مهاراته فى الكريكيت إلى لعبتى البولو والتنس، وكان يتميز بحس صادق لإنصاف الآخرين، عندما كانت عبارة (ليس هذا بكريكيت)

التى يقصد بها تورية أن هذا ليس بعدل، تعنى معناها الحقيقى، وتجسد النهج العام للإداريين البريطانيين خلال فترة الحكم الثنائى فى تعاملهم مع السودانيين. لقد تجلى ذلك بوضوح فى استمراره فى اللعب فى خانة حارس مرمى بعد تقاعده، تماما كما كان حاله فى فرق الدرجة الأولى بفريقه المحلى (بنهيرست بارك Park Penhurst). كذلك كان حسه الرياضى، الذى ربما تكون السنوات التى قضاها كمدير مديرية قد وضعت بصماتها عليه، قد اكسبه عادة لم تكن دائما تجد قبولاً لدى رماة كرة الكريكيت إذا ما طالبوا بخروج الخصم بحجة مشكوك فى صحتها، كأن تكون ساق ضارب الكرة أمام مضربه، أو أن تكون الكرة قد تم التقاطها بطريقة مشكوك فيها، فكان هو يخالفهم الرأى، ويصر بلهجة آمرة على بقاء الخصم، وبأن (رامى الكرة لم يخطئ) حتى قبل أن يصدر الحكم قراره برفع إصبعه. واستمر يلعب الكريكيت حتى بلوغه سن الرابعة والستين.

لقد عمل الوالد فى كل من مديرية الخرطوم، والنيل الأبيض، والنيل الأزرق، وأعالى النيل، كما قضى فترة فى مكتب السكرتير القضائى. وأصبح مديراً لمديرية النيل الأبيض فى الفترة من عام ١٩٢٧ إلى ١٩٣٤ التى كانت رئاستها فى مدينة الدويم. وهناك أصبح صديقاً وسنداً للسيد عبد الرحمن المهدى الذى ولد بعد وفاة أبيه المهدى الذى قتلت قواته الجنرال غردون فى عام ١٨٨٥. كان السيد عبد الرحمن أحد أبرز زعيمين دينيين فى البلاد، ولم يكن فى ذلك الوقت صاحب ثروة أو شخصية بارزة فى الشئون الوطنية مثلما أصبح فيما بعد، ولكن تشجيع والدى له قد مهد له الطريق للبدء فى مشاريع الزراعة بالطلمبات التى شكلت الأساس لثروته فى المستقبل. كذلك ساعد والدى فى إرساء الأساس لمشروع الجزيرة الذى كان يزرع فيه معظم القطن السودانى. وفى عام ١٩٣٧ عندما جاء السيد عبد الرحمن إلى لندن لحضور احتفالات تتويج الملك، وكان والدى حينئذ قد تقاعد عن الخدمة فى السودان، فرافقه

إلى أحد المسارح حيث كانت تعرض مسرحية (بلالايكا)، وبهذه المناسبة تم حجز مقصورة خاصة لنا بالقرب من خشبة المسرح. كان السيد عبد الرحمن شخصية مهيبة وهو فى زيه السودانى الفضفاض، وأثناء الاستراحة، وعندما بدأ الجمهور يصفق للممثلين أثناء بروز كل منهم منفرداً من وراء الستارة لتحية المشاهدين، وقف السيد عبد الرحمن ليعبر عن شكره للتصفيق معتقداً أنه كان مركز اجتذاب الجمهور، وقد أصبح كذلك بالفعل!

لا أذكر زيارتى الأولى إلى السودان التى كانت فى شتاء عام ١٩٢٠ عندما تم نقل والدى إلى الخرطوم حيث كان عمرى آنذاك سنتين، غير انى اذكر زيارتنا إلى ود مدنى فيما بعد عندما أصبح والدى نائباً لمدير مديرية النيل الأزرق. ولازالت تعلق بذهنى ذكريات (البيبى لاين) وخليج بسكاى الذى اكتسب سمعة سيئة عن جدارة، وبورسعيد، ورحلتنا بالقطار المصرى، ثم بالباخرة النهرية إلى وادى حلفا، وكنا بتعليمات من المربية ننظر شذراً من خلف نافذة القطارلنمنع الباعة المتجولين من مضايقتنا عند وقوف القطار بالمحطات، وزيارتنا إلى (ابوسمبل) فى موقعه الأصلى على ضفة النيل، ثم رحلتنا بالقطار مجدداً إلى الخرطوم، ثم ود مدنى حيث منزلنا الفخم الذى كان فى نظرى آنذاك أشبه بقصر، ثم تواضع فى نظرى إلى حجمه الطبيعى عندما رأيته مؤخراً بعد أكثر من خمس وعشرين سنة. كما لازلت أذكر كلبى أبى وأمى (بيبى وبمباس)، وجميع تلك الفراشات التى كنت أقوم بجمعها وحفظها (لا زالت لدى)، وتلك الخنافس والحشرات التى كان من بينها عقرب (تلقيت بشأنها تحذيراً مشدداً)، وذبابة التسيتسى (أهدانى إياها اختصاصى الحشرات)، وركوب الحمير، ومشاهدة مباريات البولو، والأزيار التى تحتفظ ببرودة الماء، والتحذيرات بأن الوقوف لأكثر من دقيقتين فى شمس الظهيرة دون وضع قبعة على الرأس يسبب ضربة شمس مؤكدة، والمساجين الذين كانوا يعملون فى حديقة المنزل وهم مقيدون بالسلاسل ولكنهم كانوا يبدون قانعين بما هم فيه،

وتلك القصة التى روتها لى الوالدة عن ذلك السجين الذى ذهب إلى حارسه فى القرندة يجرجر سلاسله المجلجلة، وعندما وجده يغط فى نوم عميق (استلف) منه المفتاح، ونقل قيده إلى رجلى الحارس قبل أن يستأنف عمله فى الحديقة، كما أذكر حضورنا الافتتاح الرسمى لخزان سنار فى أوائل عام ١٩٢٦، وأخيراً وليس آخراً لن أنسى عبدالمجيد السفرجى الذى كان يعمل لدينا، ذلك الشخص الطيب بروحه المرحة وسلوكه المستقيم.

كانت مثل هذه الذكريات، إضافة إلى إعجاب أبوىّ بالبلد وأهلها وحياتهما التى مارساها هناك، هى التى دفعتنى فى عام ١٩٣٩ إلى أن أقوم بتسجيل زيارة إلى مكتب وكالة السودان بلندن، وتسجيل طلبى للالتحاق بالخدمة السياسية السودانية عندما حصلت على الدرجة الجامعية من أوكسفورد فى العام التالى، ولكن نشبت الحرب فالحقت بمدفعية الخيالة الملكية بأوكسفورد، وبعد حصولى على الشهادة "ب" تم تعيينى وإرسالى إلى فرنسا كأحد الفرسان المقتدرين، ولا شئ فيما عدا ذلك إلا القليل، إذ لم تكن لدينا خيول مع المدافع! وفى صيف عام ١٩٤٥ ذهبت فى إجازة إلى الوطن من النمسا، وهناك تم استدعائى إلى وكالة السودان حيث أجريت لى مقابلة شخصية، وتم قبولى للالتحاق بالخدمة السياسية السودانية، ولكن كان علىّ أن أعود إلى النمسا، إلى حين حصولى على خلو الطرف "ب" وقد تم ذلك فى مطلع نوفمبر. ومع أننى كنت آمل أن استمتع بدورة فى اللغة العربية، وقضاء بضعة أشهر فى انجلترا، إلا أننى فى الواقع قد منحت عشرة أيام فقط لتجهيز نفسى والتبليغ للسفينة فى ليفربول.

عندما وصلت الخرطوم فى منتصف ديسمبر عام ١٩٤٥، نقلت إلى منطقة مروى - دنقلا، وكان مفتش المركز هناك هو جاك ماكريل (Jack Mackrell) ويساعده على نديم كاول سودانى يتقلد منصب مساعد مفتش مركز. وفى نهاية عام ١٩٤٦، وأنا أناضل من أجل الوصول إلى المستوى المطلوب لأداء

امتحان اللغة العربية - المستوى العالى، كتبت إلى الخرطوم ملتمساً إلحاقى بمركز الشرق الأوسط للدراسات العربية فى لبنان الذى سبق أن أرسل إليه بعض زملائى، ولكن لم يجد طلبى أذناً صاغية لدى السكرتارية. وبعد فترة قصيرة تم نقلى إلى مديرية أعالى النيل حيث أرسلت إلى مدينة (واط)، مركز وسط النوير، وقضيت هناك الثلاثة أعوام التالية حتى أواخر عام ١٩٤٩. كان منزلى فى واط عبارة عن قطية بدائية من القش، وأصبحت فيما بعد أول بيت زوجية لنا عندما اقترنت بـ (بيجى Peggy) فى عام ١٩٤٨. ربما ينطبق على هذا المكان تعبير ورد فى كتاب صدر مؤخراً عن السودان بأنه ليس بلداً للنساء (No Woman's Country). وبنهاية عام ١٩٤٩ نقلت إلى الخرطوم فى وظيفة مفتش مالى بفرع الحكم المحلى الذى تم إنشاؤه حديثاً بالسكرتارية الإدارية. كانت هناك بالمركزين اللذين سبق أن عملت بهما قواعد أساسية للحكم المحلى، حيث كانت توجد فى الأول "إدارتان محليتان"، وكان البمباشى عبد الله إدريس، وهو ضابط متقاعد، رئيساً للإدارة المحلية بمنطقة مروى، بينما كان الشيخ الزبير حمد الملك رئيساً للإدارة المحلية بمنطقة دنقلا. أما فى فرع مركز النوير، فلم يكن هناك زعيم واحد بصلاحيات عليا، وإنما خمسة زعماء متساوون يتولى كل منهم مسئولية أحد أقسام قبيلة النوير لاو. كانت الإدارات المحلية فى المنطقتين تتمتع بسلطات واسعة، وتعمل تحت قانون الحكم المحلى لعام ١٩٣٧، وقانون المحاكم الأهلية، ولكنها فى الأساس كانت إدارات قبلية تحت إشراف مفتش المركز، ومن خلاله مدير المديرية الذى كانت تؤول إليه كل المسئوليات. كانت الخطوة التالية هى القيام بتحديث هذا النظام وجعله أكثر تمثيلا للمواطنين.

فى عام ١٩٤٩ تمت الموافقة على التوصيات الرئيسية لما عرف آنذاك بـ (تقرير مارشال) من قبل المجلس التنفيذى الذى كانت غالبية أعضائه من السودانيين. وفى عام ١٩٥١ صدر قانون جديد للحكم المحلى ليحل محل

القانون القديم الصادر فى عام ١٩٣٧. وبعد موافقة المجلس التنفيذى تم تعيين دونالد كلارك (Donald Clarke) مساعداً للسكرتير الإدارى لشئون الحكم المحلى ليتولى تنظيم فرع الحكم المحلى، وكان علىّ أن اقضى بقية فترة خدمتى لحكومة السودان فى التعامل مع الحكم المحلى.

كان نظام الحكم المحلى الجديد مبنياً على وحدة واحدة تشرف على كل الأغراض. كان المجلس المحلى يتكون من عشرين إلى ثلاثين عضواً، ويتم ترشيح ثلثهم من قبل مدير المديرية، أما بقية الأعضاء فيأتون عن طريق الانتخاب. وكانت هذه المجالس تقدم مدى واسعا من الخدمات المحلية خاصة فى مجال الصحة العامة، والتعليم، والأسواق، وكانت فى حدود معينة تفرض بعض الضرائب المحلية مثل ضرائب القطعان، وعوائد الأراضى، وضريبة الدقنية، وعشور المحاصيل وبعض الإتاوات الأخرى، بالإضافة إلى وضع الميزانية السنوية وتنفيذها بعد إجازتها، مع الاحتفاظ ببند خاص للمصروفات الاحتياطية،علاوة على تنفيذ بعض المهام نيابة عن الحكومة المركزية نظير عمولة معينة. وكان بالمجلس موظفون دائمون هم الضابط التنفيذى (أو ضابط المجلس)، وأمين الخزينة، وعدد من الكتبة. وكان مدير المديرية يتولى، بالإضافة إلى تعيين الأعضاء المعينين، التصديق على الأوامر المحلية، وإذا لزم الأمر كان بإمكانه تعليق أى قرار صادر من المجلس لمقتضيات إدارية أو أمنية. كذلك كان مدير فرع الحكومة المحلية يتمتع بصلاحيات واسعة فيما يتعلق بالمسائل المالية والتدابير الخاصة بالمواطنين، والموازنة السنوية، وتدقيق الحسابات، والمصروفات الراسمالية، والرقابة، والتفتيش، وتعطيل المجالس المحلية.

فى نهاية ١٩٤٩ بدأ العمل فى إنشاء المجالس المحلية. كان فى الفرع آنذاك ثلاثة مفتشين سودانيين أكبرهم خليل عبد النبى فى الجانب المالى، إضافة إلى بعض الكتبة والمحاسبين والمراجعين. أما فى المديريات، فكانت مهمة توفير

المكاتب والموظفين، وانتخاب وتعيين أعضاء المجالس تقع ضمن سلطات المديرية، ويتولاها فى العادة مفتش المركز. وتعقب ذلك زيارة يقوم بها مندوب من فرع الحكم المحلى (كلارك أو شخصى) لوضع الميزانية السنوية الأولى والاتفاق عليها.

كان هناك تفاوت كبير فى الثروة ومصادر الدخل المحلى، بالإضافة إلى نقص حاد فى عدد الموظفين الملائمين للأعمال التنفيذية والكتابية، خاصة فى ذلك الوقت الذى كان يتطلب الإسراع فى ترقية وتدريب الموظفين السودانيين ليحلوا محل الموظفين الأجانب فى جميع المصالح بالحكومة المركزية. غير أن فصل نظام الحكم المحلى الديموقراطى الجديد، القائم على نواب يتم انتخابهم، من النظام الأتوقراطى القبلى القديم، كان فى حد ذاته يشكل معضلة عويصة الحل.

بحلول عام ١٩٥٠ تم استحداث مصلحة الحكم المحلى، وفى عام ١٩٥١ تم إنشاء ٤٢ مجلساً محلياً كل منها يتمتع بشخصيته الاعتبارية، وموازنته المستقلة، ودعم مالى من الحكومة المركزية. وكان مفتش المركز فى العادة هو الذى يتولى رئاسة المجلس المحلى، ولكن إذا وجد موظف سودانى متقاعد، أو شخصية محلية مرموقة، فكان هو من يتم تعيينه رئيساً للمجلس. وبحلول عام ١٩٥٢ ارتفع عدد المجالس إلى سبعين، خمسون منها فى المناطق الريفية، والبقية فى المدن. وكانت تعقد دورات لتدريب أعضاء المجلس بتركيز خاص على النواحى المالية وإعداد الموازنة، كما كان يرسل بعضهم إلى دورات تدريبية فى مدرسة الإدارة بكلية الخرطوم الجامعية، التى كان يتولى عمادتها آنذاك بول دانيال (Paul Daniell) الذى كان أيضاً عضواً فى الخدمة السياسية.

كان من حسن حظى أن وظيفتى كمفتش، وفيما بعد كمدير للحكم المحلى، قد مكنانى من رؤية العديد من المناطق فى السودان، هذا البلد المترامى

الأطراف الذى تبلغ مساحته مليون ميل مربع. كنت أحياناً أفكر ملياً وأنا أقارن بين خبرات مفتش المركز ومفتش الحكم المحلى. كان الأول يقضى ثلاث أو أربع سنوات فى منطقة واحدة تمكنه من معرفة الناس ومشاكل المنطقة بصورة جيدة، ويستطيع خلال فترة عمله فى السودان التى قد تمتد إلى خمسة وعشرين عاماً أو أكثر فى مجال العمل الإدارى بمختلف المديريات والمراكز أن يكتسب خبرة واسعة حول مختلف الناس والتضاريس، ولكن كان الواحد منهم يعمل فى عدد محدود من الوظائف. أما أنا فبالرغم من أن فترة عملى بالسودان كانت محدودة بعشر سنوات، إلا أنه لحسن الحظ أننى تمكنت من رؤية جزء كبير من البلاد وما كان يمكن تحقيق ذلك لو أننى كنت فى الخدمة السياسية خارج الخرطوم. ومع ذلك فإن ذكرياتى عن السودان تقتصر على أحداث محددة.

كنت مسافراً فى رحلة جوية صباحية بطائرة (الدوف) من الخرطوم إلى وادى حلفا. كانت الطائرة تتوقف فى كل من عطبرة، وكريمة، ودنقلا. وكان المسافر الوحيد معى هو المراقب الجديد الذى تم تعيينه لمطار وادى حلفا. وعندما كنا بين الخرطوم وعطبرة أخبرنى بأنه سعيد جداً بحصوله على هذه الوظيفة، وأنه يخطط ليجعل منها عملاً ناجحاً. وبين عطبرة ودنقلا عرض علىّ أن آخذ جرعة كبيرة من زجاجة الويسكى التى كانت معه ولكنى امتنعت، وعندما اقتربنا من دنقلا أوشك أن يفرغ الزجاجة لوحده، ثم قضى على ما تبقى عندما أقلعنا مرة أخرى، ولم يلبث أن غاب عن الوعى. وعندما اقتربنا من وادى حلفا صاح بى قبطان الطائرة لأوقظ المراقب ليأتى إلى كابينة القيادة ويشاهد هبوط الطائرة فى (مطاره). فشلت فى إيقاظه، وذهبت وحدى إلى كابينة القيادة لمشاهدة الهبوط. عند وصولنا، استقبلنا مفتش المركز إيريك بن (Eric Penn) بينما حُمل المراقب الجديد خارج الطائرة، وأرسل فى أول قطار إلى الخرطوم، ومنها إلى خارج البلاد. يا لمستقبله المهنى القصير!!

فى إحدى زياراتى إلى بورتسودان، كنت أقيم مع مفتش المركز بيل كلارك (Bill Clark) فأخبرنى عرضاً أنه يتوقع حضور ضيفين لتناول طعام العشاء معنا. اتضح أن هذين الضيفين هما هانز هاس (Hans Hass) ومساعدته لوتى (Lottie) التى أصبحت زوجته فيما بعد. كان هانز هاس، وجاك كوستو (Jacques Cousteau)اسمين لامعين فى فن التصوير تحت الماء الذى كان قد ظهر حديثاً فى ذلك الوقت. وكان هانز ولوتى يقومان بتصوير الشعب المرجانية خارج بورتسودان، وكما توضح الأفلام الرائعة التى عرضاها علينا فى ذلك المساء، فقد التقطا صوراً لكل شئ، ابتداء من الأسماك الملونه اللامعة داخل الشعب المرجانية، إلى أسماك (البركودة) والقرش التى كانت تسبح خارجها.

تشتهر مدينة (طوكر) بعواصفها الترابية حيث تحمل الرياح ذرات الطمى من دلتا طوكر، فتظل عالقة فى الجو وتنتشر مع الهواء فى شكل غبار كثيف، وقد أثر ذلك على أسلوب حياة مفتش المركز. أثناء إقامتى هناك مع جون دونالد (John Donald)، جلسنا مرة لتناول طعام العشاء حول تربيزة سفرة تبدو خالية من الطعام، وبدأ جون يشرح لى (الإتيكيت) المحلى الواجب اتباعه فقال: "الطعام موجود داخل الدرج فى نهاية التربيزة. خذ الطبق والشوكة والسكين من الدرج الذى أمامك، وأخدم نفسك من الدرج الأخير. ضع طبقك داخل درجك، واقفل الدرج بعد كل لقمة وأخرى"!

كنت فى العادة أقوم بزيارة مجلس واحد جديد فى كل مرة، ولكن فى إحدى المرات ذهبت أولاً إلى سنجة، وأقمت هناك مع أندرو بليكى (Andrew Blaikie) مفتش المركز، ثم اتجهت إلى الرصيرص التى كان يوجد فيها فاى بيز (Guy Pease) مساعداً لمفتش المركز. فى وقت الفراغ قمنا معاً برحلة نهرية قصيرة على النيل الأزرق لرؤية مناظر مضيق (الدمازين) الجذابة الموقع المقترح لخزان الرصيرص. كما تهيأت لى الفرصة لإشباع هوايتى فى صيد السمك التى كان يشاركنى فيها والدى وأخى بوضع الطعم على الصنارة على أمل أن نصطاد سمكة كبيرة، ذلك الأمل الذى لم يتحقق.

فى رحلة أخرى سافرت بالجو إلى جوبا، ومنها بالبر إلى توريت، وكان مفتش المركز هناك هو جون أوين (John Owen) . كنت أحسب أننى سأوفر يوما ونصف على الأقل بعد الانتهاء من أعمالى بالمجلس وقبل العودة إلى جوبا لأكون هناك فى الموعد المحدد لإقلاع السفرية الأسبوعية إلى الخرطوم، ولذلك أحضرت معى صنارة الصيد. خرجت بالسيارة عند العصر متجهاً إلى استراحة تقع عند سفح جبل (كينياتى) بالقرب من الحدود اليوغندية الذى يبلغ ارتفاعه أكثر من ١٠,٠٠٠ قدم. وفى صباح اليوم التالى خرجت مبكراً أحمل معى القضيب والصنارة والطعم والبكارة، وكان يرافقنى مرشد الطريق. كان هدفنا هو أن نصل إلى نهر فى الجبل على ارتفاع ٨,٠٠٠ قدم، وكنت أعلم أنه يعج بمجموعة متنوعة من أسماك السالمون المرقطة. وجدنا النهر، وتمكنت من اصطياد مجموعة من الأسماك احتفظت منها باثنتين من وزن نصف الرطل وأخذتهما معى إلى الإستراحة. وتعشيت فى ذلك المساء بسمك السالمون المرقط الطازج مع بعض الخضار من جنينة الاستراحة، ثم بعض الفراولة من الجنينة أيضاً، وزبدة من أبقار الجنايني. كان ذلك من الرفاهيات النادرة فى السودان!

تقع مدينة (يامبيو) بالقرب من حدود ما كان يسمى آنذاك بالكونغو البلجيكى الذى أصبح يسمى زائير فيما بعد. وكان بول دانيال (Paul Daniell) هو مفتش المركز هناك. وأثناء زيارتى للمدينة التى لا زلت أذكرها جيداً بذلك الأناناس المدهش المتوفر فيها، والذى وجدت واحدة منه كانت من أكبر ما رأيت فى حياتى، فأخذتها معى على الطائرة إلى الخرطوم، وهناك قمت بتسجيل وزنها، ولكن مع الأسف قد نسيته الآن.

وفى مدينة (الجنينة) على حدود أفريقيا الاستوائية الفرنسية (شاد حالياً)، دعيت إلى حفل شاى مع السلطان الذى كان يسكن فى منزل غير عادٍ من طابقين وربما ثلاثة. أبدى السلطان أثناء الحديث اهتماماً خاصاً بالعالم

الخارج، ووجه إلىّ العديد من الأسئلة التى تدل على معرفته بالسفر عن طريق الجو والبر، وربما ساعده على ذلك وجود مهبط صغير للطائرات فى الجنينة. غير أنه لا شئ من كل هذه المعارف المتطورة قد هيأه لتلقى ما رويته له عن (المصاعد) مستخدما اللغة العربية بأقصى ما استطيع، وكيف أنها من خلال الضغط على ذر واحد ترفعك إلى الطابق التالى. كان علىّ أن أهدئ من حماسه بأن شرحت له أن عدم وجود كهرباء فى الجنينة يجعل التفكير فى تركيب مصعد بمنزله أمراً مستبعداً.

لا زلت أذكر كذلك تلك الأشجار السامة فى جبال النوبة بأزهارها الحمراء اللامعة، وشجرة (التبلدى) فى كردفان وجزعها المجوف الذى يخزن فيه الماء؛ وتلك الحشائش الجافة الطويلة فى وسط الطريق المؤدى إلى مدينة (النهود) التى كانت تشتعل من ورائنا ونحن نقود السيارة من فوقها؛ وذلك الوادى بين الفاشر والأبيض الذى دخلنا فيه بإهمال وغفلة بنفس سرعة الطريق، والتصليحات التى وجه بها الخبير هيث روبنسون (Heath Robinson)، والتى قام بتنفيذها السائق لنواصل رحلتنا بعد ذلك؛ وتلك الرحلة الممتدة إلى ملكال، وبعدها إلى بور التى رافقتنى فيها زوجتى حيث أقمنا مع مدير المديرية وزوجته، جون ومارى لونغ (John and Mary Long) فى نفس المنزل الذى كان يسكن فيه والدى قبل عشرين عاما. وفى اليوم التالى، أقام حفل شاى بحديقته لتقديم "أحزمة شرف" إلى عدد من زعماء الشلك، والدينكا، والنوير، وآخرين من القبائل الأخرى. كان من بين هؤلاء صديق قديم لى هو الزعيم (ناياك كواك) من قبيلة النوير لاو. فى ذلك الأثناء كانت زوجتى تشاهد الحفل مع مارى لونغ من خلال المشربية، وأخبرتنى فيما بعد أن ناياك عندما خرج من المنزل وقف أمام المشربية دون اكتراث، وحل حزام الشرف، ثم خلع الجاكيته والبنطلون القصير اللذين كانا قد أعطيا له لحضور المناسبة، وعلقهما على كتفه، ثم واصل سيره بارتياح وهو عريان!

فى ملكال استأجرنا طباخاً ليكون معنا فى رحلتنا إلى بور، وفى الطريق بتنا ليلة فى منطقة (دوك فاديت)، ووصلنا إلى بور فى مساء اليوم التالى حيث تناولنا طعام العشاء مع جاك كمنج (Jack Cumming) الذى كنا نعرفه جداً منذ أيامنا فى واط. أمضينا الليل فى الاستراحة بعد أن طلبت من الطباخ ان يأتى إلينا مبكراً فى صباح اليوم التالى، ولكنه لم يصل فى الوقت المحدد، ولذلك خرجت لكى اتحرى عن الأسباب التى منعته من الحضور، فوجدته ملقى على الأرض فى المطبخ وسط بركة من الدماء. لقد قام بقطع عضلة فى ذراعه محاولاً الانتحار، وهو حادث ليس عادياً، إن لم يكن فريداً من نوعه فى ذلك الجزء من العالم، ولكن لحسن الحظ تم إنقاذه وشفى تماماً.

عندما كنت أقيم مع جيم ريفن (Jim Raven) فى رمبيك، أعارنى مضرب تنس لمساعدته. وقد تسلح هو أيضاً بمضرب آخر. فى التخلص من الخفافيش التى اتخذت من النملية المحيطة بالفرندة مسكناً لها. وفى مدينة واو التى قمت بزيارتها من رمبيك، تجولت فى المصنع الذى كان يصنع فيه الأثاث من مختلف أنواع الأخشاب بما فى ذلك نوع يسمى (بو Bu). ذكرنى ذلك بمناسبة أخرى فى عام ١٩٤٨ قبل أن أسافر إلى الوطن فى إجازة لإكمال زواجى، فقد أرسلت طلباً إلى ملكال لتوفير بعض الأثاث الذى كان يمكن أن يسمع فى التليفون هكذا: «يصنع فى وو من الخشب المسمى بو ويرسل إلى ما هو» (To be made in Wow! From the wood called Boo! and sent to What) ولكن لم يكن لدينا تلفون، وقد أرسل الطلب فى الواقع من خلال مذكرة وضعت فى عصاة مجوفة وحملها عداء ليسافر بها مسافة مائة ميل من واط إلى ملكال.

أما فى الخرطوم، وعندما كان يتوفر لى الوقت أيضاً للعب التنس والأسكواش بانتظام، كانت هناك زيارات متبادلة من الموظفين فى المديريات والمجلس، وكذلك كان يأتى زائرون من الخارج للوقوف على تطور الحكم المحلى

في السودان، وكان من بين هؤلاء الذين رافقتهم في جولة، الزعيم أولاو (Awolowo) وهو وزير من غرب نيجيريا، وآخر هو هيو باوستيد (Hugh Boustead) الذي كان سابقا عضواً في الخدمة السياسية السودانية، وأصبح فيما بعد الحاكم المقيم في المكلا باليمن الجنوبي حيث كان يعمل على إنشاء مجلس هناك وفقاً للنهج السوداني.

كان مجلس بلدي الخرطوم يحظى بأضخم ميزانية، وربما كانت مسئولياته من أضخم المسئوليات أيضاً، وكان كاتب المجلس آنذاك (الضابط التنفيذي) هو داؤود عبد اللطيف ذلك الرجل الصغير في حجمه، ولكنه كان من كبار المسئولين السودانيين، وقد تم انتدابه إلى المجلس من الخدمة السياسية. وكنت قد تفاوضت مع داؤود والمجلس حول العون الذي يمكن أن تمنحه الحكومة لإقامة مشروع للصرف الصحي بالمدينة بدلاً عن نظام الجردل والعربة التي يجرها الجمل (التاريخي). كذلك قام المجلس آنذاك بوضع برنامج لتطوير الطرق، وآخر شيء أتذكره عن الخرطوم، وأنا استعد للمغادرة، هو أن العمل كان يجري في سفلتة الطريق طوال مرورنا بالسيارة، وكانت هناك آلة حفر تقوم بعمل مجرى على طول الشارع لوضع أنابيب الصرف الصحي.

والآن، وتعديلا لقولة ماجنوس ماجنوسون[1] (Magnus Magnusson) المشهورة: "من حيث بدأت سوف انتهي"، فقد أشرت في البداية إلى علاقة الصداقة التي كانت قائمة بين والدي والسيد عبد الرحمن المهدي. كنت عندما أكون في الخرطوم اقوم بزيارته من وقت لآخر في سرايته بأمدرمان. وفي إحدى المناسبات روى لي سيادته (والذي ربما نسي عدد الأولاد الذين كان يشملهم بأبوته) حادثة كان يسر منها كثيراً.

---

(١) ماجنوس ماجنسون مقدم لبرنامج مسابقات تليفزيونية، وعندما يبدأ سؤالاً ويقاطعه أحد المتسابقين كان يقول: لقد بدأت ولذلك ساواصل (I have started, so I will finish)

قال لى: "زارنى مفتش مركز برفقة زوجته التى كانت تتحدث القليل من اللغة العربية، فسألتها كم طفلاً لديها، فأجابت خطأً بقولها: "عندك ثلاثة أولاد"، فقلت لها "كدا !". وفى زيارتى الأخيرة له كان قد دعانى لتناول الشاى معه، فأخذت معى زوجتى وطفلينا الصغيرين. وقف السيد عبد الرحمن فى أعلى الدرج لتحيتنا بشخصه المهيب وجلبابه ولحيته الجميلة، وعندما اقتربنا منه فزعت كارول ذات الأربع سنوات وصرخت: "ماما، أنا لا أحب بابانويل".

عندما تقاعد بيتر هوغ (Peter Hogg) آخر مدير بريطانى للحكم المحلى، تم تعيين خليل عبد النبى، المدير السودانى الآخر، فى الوظيفة، وفى ذلك الوقت تم أيضاً تعيين على عبد الرحمن، القاضى الشرعى، وزيراً للحكومات المحلية، ولكن مع الأسف لم يكن هو وخليل على وفاق، وفيما بعد منح خليل "إجازة مفتوحة". أما أنا فقد بدأت إجازتى النهائية، بموجب برنامج السودنة، فى منتصف يوليو عام ١٩٥٥ وكنت فى ذلك الوقت قد أصبحت عميداً للحكم المحلى فى السودان بعد أن ارتبطت به لست سنوات متواصلة. لقد طلب منى الوزير أن أعود للخدمة كمستشار، ولكنى اعتذرت، نظراً إلى أننى كنت أتطلع إلى مستقبل مهنى جديد.

فيليب بوسون (Philip Pawson)

■■■

17

حكاية محاضر الجامعة

Sudan Canterbury Tales

وصلت إلى السودان الإنجليزى المصرى فى أول يناير ١٩٤٨ فى سفرية عكس تيار النيل بصحبة بعض الموظفين الجدد الذين تم تعيينهم للعمل بالسودان، بالإضافة إلى موظف بالسكة الحديد ترك لدى انطباعاً بأنه يفهم كل كلمة عندما كنا نستمع معاً إلى جمهرة من الحمالين الذين كانوا يتجادلون حول كم ندفع ولمن منهم، مقابل حمل أمتعتنا من الباخرة النيلية إلى القطار بوادى حلفا. وكان أكثر المسافرين تجانساً معى فى تلك الرحلة الطويلة من الحدود إلى الخرطوم، شخص يدعى بيتر شينى (Peter Shinnie)،وهو خبير آثار إنجليزى يتميز بآرائه الراديكالية، فقد أعطانى صورة عن الوضع السياسى فى البلاد تختلف كثيراً عن الآراء الرسمية التى استمعت إليها فيما بعد من أولئك الذين يتعاملون مباشرة مع السلطات التقليدية والقبلية.

لقد جئت إلى السودان كمحاضر جديد بكلية غردون التذكارية التى كانت تعتبر فى طليعة المؤسسات التربوية باللغة الإنجليزية فى السودان منذ تأسيس الحكم الثنائى. وكان قد تقرر مؤخراً تطوير هذه الكلية لتمنح دبلوما للذين يكملون بنجاح ثلاث سنوات دراسية فى ثلاث مواد أدبية أو علمية بعد نيلهم الشهادة المدرسية. أما الحاصلون على إعفاء من امتحان القبول لجامعة لندن، فكان يمكن قيدهم لنيل شهادة الانتساب الخاصة من جامعة لندن. وبما أن الكلية ظلت توظف عدداً كبيراً من المدرسين المنتدبين من وظائف مستديمة بمصلحة المعارف، لذلك كان القصد من تعيينى وبعض المحاضرين الآخرين خصيصاً للكلية، هو تدريس الطلاب إلى مستوى الدرجة الجامعية. وبالرغم

من ذلك كان تعاقدنا لمدة سبع سنوات، بينما كان معظمنا يأمل أو يعتزم الاستمرار إلى ما بعد ذلك. كان رئيس شعبة الجغرافيا فى وظيفة محاضر أول يدعى إيمريس هاول (Emrys Howel) وهو من ويلز، وحاصل على الدكتوراه فى دراسات استثمار الأراضى تحت إشراف البروفسير المشهور ددلى استامب (Dudley Stamp) بكلية الإقتصاد بجامعة لندن. أما بقية أعضاء هيئة التدريس بالكلية، فكانوا من وجهة النظر الرسمية غير مدربين حيث لم يكن هناك العدد الكافى من الشباب والنساء المعدين إعدادا جيداً لشغل الوظائف التى كان يتم استحداثها خارج المملكة المتحدة فى افريقيا وغيرها.

كان لعدم وجود التدريب الرسمى آثار متباينة، إذ لم يكن لدى المحاضرين مفهوم واضح عن المستويات التى ينبغى على الطلاب تحقيقها، وكانت الكثير من الاجتماعات الساخنة التى تعقد بكلية الآداب تنتهى بالغضب من قبل لويس ويلشر (Louis Wilcher) عميدنا الأسترالى الذى كان دائماً يترأس الاجتماعات، لأنه كان يعتقد أن المحاضرين نتيجة لغباء أو حقد فى نفوسهم يحددون مستويات عالية؛ أضف إلى ذلك أن الكلية نفسها عندما أصبحت قادرة على تعيين بعض الأساتذة، وانتداب محاضرين من الجامعات الأخرى، لم يتردد بعض هؤلاء من إبلاغ طلابهم بأن الكثير من مدرسيهم غير مؤهلين بالمستوى المطلوب. وأخيراً استفاد المحاضرون الشباب الذين كانوا أكثر جدية وبعد نظر من ذلك العرض السخى المقدم من جامعة لندن الذى سمح للمحاضرين بكلية الخرطوم، مثلهم مثل رصفائهم فى جامعة لندن، بالتسجيل لنيل شهادة الدكتوراه عن طريق الاتصال والتشاور مع الأساتذة المشرفين بواسطة البريد أو عندما يكونوا فى إجازاتهم السنوية.

لربما يكون من المناسب أولاً أن أتحدث أكثر عن وضعى الخاص. بعد أربع سنوات من الخدمة الحربية مع سلاح البحرية الملكى، تزوجت وأنا صغير السن نوعاً ما، وعندما تم تعيينى فى كلية غردون بالخرطوم بعد حصولى على الدرجة

الجامعية الأولى، كانت معى زوجتى وطفلة صغيرة. لم يكن قد تم آنذاك بناء العدد الكافى من المساكن لهيئة التدريس، ولذلك حضرت إلى الخرطوم بمفردى تاركاً أسرتى الصغيرة لتلحق بى بعد ثمانية أشهر. عند وصولى الخرطوم استقبلنى عميد كلية الآداب، وبسرعة ملحوظة أصبحت عضواً فى نادى السودان (Sudan Club) الذى كان كل أعضائه من البريطانيين، حيث وفروا لى هناك غرفة مؤقتة. وبعد أن تأقلمت قليلاً، وجدت طريقى على طول واجهة النيل الأزرق إلى البيت ذى الطابق الواحد الذى كان سلاطين باشا يسكنه فى السابق، وفى ذلك الوقت كان صديقى القديم دونالد هولى (Donald Hawley) ، محرر هذا الكتاب، يستغل جزءاً منه، ومعه واحد أو أثنين من الشباب العازبين الذين كانوا يعملون بالخدمة السياسية. وجدت دونالد وبيل كاردين (Bill Carden) يتناولان الشاى ويناقشان بعض الأمور السياسية مع أحد رجال القبائل البارزين من غرب السودان. كان كل النقاش يدور باللغة العربية، ولذلك علق دونالد فيما بعد أنه لم يعرف عنى هذه القدرة على التزام الصمت لوقت طويل، وقال بيل إننى، حسب خبرته عنى، لم أكن كذلك فى السابق. خصصت لى فيما بعد غرفة بمنزل ت. هـ. ب. ماينورز (T. H. B. Mynors) أحد قدماء موظفى الخدمة السياسية، الذى لم تكن معه زوجته وأفراد أسرته. لقد تعلمت منه الكثير عن السودان وشخصياته المهمة، كما ساعدنى فى تعيين الطباخ محمود الذى تولى خدمتى بامتياز خاصة أثناء جولتى التى قمت بها إلى غرب السودان، غير أن لهجته الآمرة لم ترض جين وروزالند عندما لحقتا بى فى الخرطوم.

كان يتوقع منى فى كلية غردون التذكارية أن أحاضر عن المناخ والطقس والجغرافية الإقليمية لأوروبا والشرق الأوسط، إلى جانب الجغرافيا العملية بما فى ذلك رسم وإسقاط الخرائط، إضافة إلى العديد من المفاهيم التى كان طلابى أقل إلماماً بها. كذلك كان عميد كلية الآداب يريد منى أن أقدم محاضرات عن بعض مجالات العالم القديم ليس لأننى فى وقت ما كنت قد

تلقيت بعض الدراسات الكلاسيكية، وإنما لأن رئيس شعبتى لم يكن متحمسا لذلك. وهكذا وجدت أنه لم يكن هناك داعياً لشرائى مجلدى The Glory that) (was Greece و (The Grandeur that was Rome) . عند وصولى كان قد انقضى ثلثا العام الدراسى، وكان من ميزات الترشيد، والذى كان يسميه البعض شح الاعتمادات المالية المخصصة من الحكومة للكلية، أنه لم يتم استيعابى فى الخدمة حتى أول يناير ١٩٤٨ عندما تم إيجاد وظيفة لى كواحد من ثلاثة جغرافيين بالكلية. كان من دلالات مرحلة ما قبل الجامعة بالكلية أنه لم تكن لدينا غرف معتمة، أو مدرج للمحاضرات، أو أية تسهيلات للعمل، أو أية إمكانية لاستخدام الشرائح كوسيلة تعليمية، كما كنا نعتمد فقط على المراوح والرياح السائدة لترطيب حجرات الدراسة. وفى إحدى المناسبات كان عميد الكلية يتجول بالممر بينما كنت أحاضر بصوت مرتفع، فروى عنه أنه قد علق شاكياً أنه كان يعتقد أنه هو الشخص الوحيد المسموح له بمخاطبة الكلية فى وقت واحد!

كان جميع الطلاب تقريباً الذين نقوم بتدريسهم يأتون من المدن الثلاث، ومنطقة الجزيرة، وبورتسودان، أو من المديرية الشمالية. وكان أغلبهم من الشباب الذين أحرزوا مستوى جيداً فى المدارس (الذين يحرزون درجة الامتياز كانوا يختارون الالتحاق بكلية كتشنر الطبية، أو يفضلون دراسة القانون بكلية غردون التذكارية). كان هناك القليل من الطلبة الجنوبيين الذين تخرجوا من مدارس الإرساليات، ونظرا لعدم طلاقتهم فى اللغة العربية، فكانوا يستخدمون اللغة الإنجليزية عندما يتجمعون معاً، مما كان يؤذن بغياب الإحساس بوجود هوية مشتركة الذى ابتليت به العلاقات بين الشمال والجنوب فى السودان منذ الاستقلال. كانت الطالبات القلائل بالكلية يرتدين الثوب السودانى، ويجلسن بكل رزانة واحتشام فى الصف الأمامى بحجرة الدراسة، وكان جمالهن يمكن أن يكون أقل إلهاء للمحاضر إذا امتنعن عن خلع (الشباشب) وعرض أقدامهن الصغيرة الوردية اللون أمام عينيه!

كنت لزمن طويل أعتقد أن طلابى جميعاً أغبياء أو بطيئون بعض الشىء فى تفكيرهم عندما حاولت مرة أن أشرح لهم نسبة هبوط الثابت الحرارى، أو كيفية إنشاء الإسقاط الميركاتورى، ولكن عندما ذهبت إليهم فى النادى ذات يوم وشرحوا لى لعبة (الطاولة) اكتشفت أننى أنا البطىء فى التعلم، وهم الأسرع فى التفكير عندما تثار رغباتهم.

عندما انتهت الفترة الأولى، كان جميع زملائى البريطانيين يستحقون إجازة مدفوعة الأجر قدرها ٨٥ يوما يقضونها فى المملكة المتحدة، أما بالنسبة لى فلم اكن مستحقاً لتذاكر سفر مجانية إلى الوطن، وشجعنى ذلك على أن "أغتنم هذه الفرصة لمعرفة شىء عن هذه البلاد". مما كان له تأثير كبير على اهتماماتى البحثية اللاحقة. لقد قررت أن أذهب بصحبة اثنين من أفضل تلاميذى لزيارة جبال النوبة بجنوب كردفان، ومن هناك أواصل رحلتى منفرداً (مع محمود الطباخ، وفراش، وسرير خلوى، وكرسى، وصحن غسيل، وصندوق مطبخ كبير) لزيارة جنوب دارفور. بدأت رحلتنا بالقطار إلى الأبيض، وبعد ذلك أصبحت كل أسفارنا باللوارى الفورد المجهزة بعجلات وإطارات ضخمة لتمكنها من السير فى منطقة (القيزان) شبه الصحراوية. لا اعتقد أننى قد تعلمت كثيراً من تلك الجولة الأولى، ولكنى كنت على الأقل قد تعلمت من جغرافية أوكسفورد كيف اكتب وصفا لمنطقة ما، مدعوماً إذا أمكن بالخرائط والصور الفوتوغرافية، ولذلك قررت أن أختار بعض المناطق كنموذج للبلد، وأكتب وصفاً لسكانها، وسبل كسب العيش فيها. وحتى أتمكن من تحديد الجهة التى أذهب إليها، فقد كان لدى مصدران أساسيان للمعلومات: خرائط البلاد الطبوغرافية بمقياس رسم) ١: ٢٥٠,٠٠٠)[1] إلى جانب تغطية كاملة بالصور الفوتوغرافية الجوية التى تم التقاطها بواسطة الأمريكان أثناء الحرب العالمية الثانية. وقد وفرت هذه الصور

---

(١) تطبع على القماش لتكون قابلة للتحمل، وكان يشار إليها باسم (الخرائط المنديلية).

شرائط بعرض خمسة أميال من التغطية الراسية بمقياس رسم أكثر فائدة قدره ١: ٤٠,٠٠٠ ، بينما تمتد من بينها ميلانات على الجانبين كانت تستخدم فى إنتاج خرائط قابلة للتحمل لأغراض الملاحة الجوية، تعرف رسمياً باسم (التصوير الجوى الثلاثى Trimetrogon Air Photographs). ومن خلال التخطيط المسبق، تمكنت من اختيار بعض القرى، أو مجموعات من القرى كانت تقع مباشرة تحت خط مرور الطائرة، لأتوصل بذلك إلى الموقع الذى يمكننى من دراسة نوعية الأراضى واستخداماتها، مع خريطة مناسبة لها يتم رسمها من الصورة الفوتوغرافية الموجودة لدى سلفاً. وأخيراً، وبعد مضى بضعة سنوات عندما كنت أستفيد من عطلات الكلية فى زيارة مواقع متباينة الأحوال من حيث التربة، والتضاريس، وامدادات المياه، شعرت أننى قد جمعت المادة الكافية التى تمكننى من تقديم رسالتى لنيل بكالوريوس الآداب من جامعة أوكسفورد، مع أننى أشعر الآن أن غيابى فى جولاتى المتكررة كان يسبب توتراً شديداً لزوجتى التى قد أنجبت لنا بحلول عام ١٩٥٢ طفلين آخرين هما مارجريت وديفيد.

سوف أذكر المزيد عن ذلك فى مكان آخر، ولكن ربما يكون مفيداً أن ألفت الانتباه إلى الفرق الكبير بين ذلك العمل الضخم الذى قام به جميع المساهمين الآخرين فى هذا الكتاب، وبين العمل الأكاديمى. كان يتوجب علىّ أن أواصل العمل فى مادتى العلمية دون انقطاع، خاصة فى تلك المجالات التى كنت أقوم بتدريسها، ولكن كنت أيضاً أتولى مسئولية إجراء البحوث، وما لم أكن قد التزمت بالمشاركة فى مشروع مشترك، فكنت أختار الموضوع الذى أقوم بدراسته، ونشر ما أتوصل إليه من نتائج. كان عنوان رسالتى هو (الزراعة الريفية فى حزام السافنا بالسودان الإنجليزى المصرى) وكنت دائماً أفكر فى متابعة الرسالة بتأليف كتاب حول جغرافية البلاد بأكملها.

غير أنه فى أغسطس عام ١٩٥٢ طرأ حادث كان له أثر أليم على شعبة الجغرافيا بكلية غردون التذكارية. لقد علم إيريس هاول، رئيس الشعبة،

بالخطط التى تم وضعها لإجراء أول إحصاء سكانى بالسودان، وأبدى استعداده للتعاون مع مصلحة الإحصاء فى رسم خريطة توضح التوزيع التقريبى لسكان البلاد وفقا لرؤية جهات الاختصاص بالمديريات، ثم حصل على الموافقة والاعتماد المالى اللازم لأخذ خريطته المؤقتة إلى واشنطون لعرضها على مؤتمر اتحاد الجغرافيين الدولى، حيث كانت هناك لجنة تختص بالنظر فى محاولات رسم خرائط سكانية تفصيلية لكل بلاد العالم. وبعد انتهاء المؤتمر حجز للسفر جواً إلى السودان بعد بضعة أيام من بدء العام الدراسى، وكانت ترافقه زوجته وأطفاله الذين كان أصغرهم طفلاً رضيعاً. وبالصدفة كان قد حجز بنفس الطائرة لزوجتى (كانت حاملاً فى شهرها الخامس) وطفلينا الاثنين. وفى الساعات الأولى من صباح يوم ٢٥ أغسطس سقطت الطائرة المستأجرة من شركة أيرويرك (Airwork) فى البحر الأبيض المتوسط قبالة ساحل صقلية بالقرب من (ترابنى)، وتوفى نتيجة للحادث سبعة من المسافرين من بينهم أطفال هاول الثلاثة جميعهم، ونجت زوجتى جين وطفلاها. وعندما حجزت هى ومارجريت بالمستشفى لتلقى العلاج من بعض الحروق الكيماوية التى أصيبتا بها أثناء وجودهما فى البحر من جراء اختلاط الوقود بالماء المالح، تكرمت الكلية بالسماح لى بالسفر إلى مالطا للاطمئنان عليهما. فى هذا الأثناء تمت إعادة جميع الناجين إلى المملكة المتحدة، وبعد انقضاء فترة النقاهة التى استغرقت شهرين، عادت جين إلى الخرطوم عن طريق البحر بصحبة بنتينا، وفى ديسمبر وضعت مولوداً ذكراً بصحة جيدة. كذلك عاد إيمريس وميريام هاول إلى الخرطوم، ولكنهما لسبب مفهوم غادرا السودان فى نهاية العام الدراسى، وتم تعيين جون ليبون (John Lebon) فى مكانه أستاذاً للجغرافيا. كانت الشعبة قد نمت فى ذلك الوقت، فأصبح لدينا محاضران سودانيان تخرجا من جامعتى بيرمنجهام ودرم، اللتين كان يوجد بهما مركزان مرموقان للتدريب الجغرافى. أما بالنسبة لى فلم تكن مغادرة د.

هاول محزنة لى فحسب، وإنما كانت هامة أيضاً. فقد أسندت إلىّ مهمة التعاون مع جهة الاختصاص بمصلحة الإحصاء السكانى، الأمر الذى أدى إلى قيامى بكتابة العديد من المقالات، ورسم عدد من الخرائط الأصلية التى قامت مصلحة المساحة السودانية بنشرها، بالإضافة إلى تحرير كتاب مقالات عن السكان فى أفريقيا.

لا أريد أن أترك انطباعاً بأن الحياة فى الخرطوم آنذاك كانت كلها عملاً، ولم يكن فيها مجال للهو والتسلية، فمع وجود الخدم فى المنزل أو على الأقل فى جناحهم المجاور، كان بإمكاننا الترفيه عن أنفسنا، والذهاب إلى المناسبات الاجتماعية بكل سهولة ويسر. أضف إلى ذلك أنه مع وجود ميدان معشوشب فى الحديقة، كان بوسعنا أيضا أن نلعب التنس فى ملعبنا الخاص مرتين أو ثلاثة فى الأسبوع، ويتوقف ذلك على جدول الرى. أما جين فعند وصولنا للخرطوم أول مرة، قد عملت موظفة لبعض الوقت فى قسم التنبؤ بالأحوال الجوية بمكتب الإرصاد الجوى بالخرطوم، ثم برهنت على قدراتها المتعددة الجوانب حيث تم تعيينها معلمة بمدرسة أم درمان الوسطى للبنات، كما عملت أيضاً قائداً بجمعية المرشدات. ونظراً إلى أن والدها كان أستاذاً بكلية (باليول Balliol) فقد اعتاد لويس ويلشر (Louis Wilcher) وهو أحد خريجى تلك الكلية بمنحة من مؤسسة (رودس) العلمية، كنوع من التقدير والاحترام لكليته القديمة، أن يستخدمنا من وقت لآخر لاستضافة بعض الزوار المهمين أمثال شارلز موريس (Charles Morris) أو الليدى ليليان بنسون (Dame Lilian Penson) اللذين نزلا ضيفين عليه لمدة طويلة مما سبب له ولهما حرجا شديداً. كما استضفنا مختلف الجغرافيين العابرين من بينهم دادلى ستامب (Dudley Stamp)و ديرونت ويتليسلى (Derwent Whittlesely) من جامعة هارفارد. ليتنا احتفظنا بسجل لهؤلاء الزوار، ولكنا لم نكن من هذا النوع من العائلات. كذلك كنا نشارك من وقت لآخر فى بطولة نادى السودان للتنس

ولكن دون أن نحرز نجاحا. وفى ذات مرة وجهت لى الدعوة بوقت قصير للمشاركة مع فريق رباعى بالقصر، وكلما أذكره عن تلك المباراة أن الياور أخبرنى بأنه "لا يحب الضربات العالية".

هكذا كنا نعيش حياة سعيدة، غير أننا فى الكلية كنا جميعاً نعلم أنه لا ضمان لتثبيتنا فى الخدمة، ولم نكن نتوقع أن تكون لنا معاشات تقاعدية، ولا حتى أية مساعدة سواء من الحكومة السودانية أو البريطانية لرعاية مصالحنا على المدى الطويل. ولحسن الحظ كانت أسعار القطن وعائداته جيدة فى مطلع الخمسينات، ولذلك كان الأجانب يتقاضون مرتبات عالية. أضف إلى ذلك أننا كنا نقضى إجازاتنا السنوية بالمملكة المتحدة عندما تشتد حرارة الطقس، وفى أول إجازة لنا فى صيف عام ١٩٤٩ قمنا، دون تفكير، بشراء منزل فى إحدى مناطق (ويلز) النائية لنقضى فيه إجازاتنا، ولكن بعد عامين استبدلناه بمنزل صغير شبه مستقل فى مدينة أوكسفورد كان ملائما لنا أكثر. كذلك استفدنا لمرتين من استحقاقنا فى الإجازة للقيام برحلات مثيرة، ففى عام ١٩٥٣ سافرنا بالقطار والباخرة لزيارة الأقصر والقاهرة، ثم عبرنا البحر المتوسط إلى البندقية التى قضينا بها ثلاثة أيام قبل أن نواصل رحلتنا مستقلين (إكسبريس الشرق) إلى باريس ولندن. وفى الصيف التالى، وبصحبة جين التى لم تزل كارهة للسفر بالجو طالما توفر على الأرض والماء، اغتنما فرصة لزيارة جنوب أفريقيا مبحرين بالسفينة (نيو كاسل) من بورتسودان إلى كيب تاون، مع توقف فى عدة محطات جذابة. عدت من هناك مستخدماً السيارة، والطائرة، والسفينة، والقطار لإقناع نفسى بأننى بذلك إنما أقوم بتحسين معارفى كمتخصص فى جغرافية أفريقيا، بعد أن قمت برحلة سابقة فى عام ١٩٥٢ فى طريق العودة من الإجازة عبر المغرب، والجزائر، ثم شمال نيجيريا، والكمرون، وشاد. كان لقائى بمفتش مركز الجنينة مفعماً بنوع من الحيوية، وهو يخاطبنى متلعثماً بعبارة (Monsieur Bonjour صباح الخير يا

سيدى) مما يدل على أنه قد خلط بينى وبين ضابط البيطرى الفرنسى الذى كان قد حدد له موعداً لمقابلته، وأنه مثل الكثيرين من الإنجليز يصعب عليه التمييز بين كلمتى (Mercredi و Vendredi الأربعاء والجمعة). بقيت جين فى الشقة الصغيرة التى استأجرناها لبعض الوقت فى (جراهامستاون)، ثم عادت مع الأولاد عن طريق البحر من بورت اليزابيث.

كما ذكرت آنفاً، كان نادى السودان يلعب دوراً هاماً فى حياتنا بالخرطوم، ولكن كانت الكلية أقل مشاركة فيه من معظم المصالح الحكومية، وذلك لأنه منذ البداية كان عدد كبير من موظفينا من غير البريطانيين، فقد كان من بينهم سودانيون، ومصريون، وبولنديون، وهنود، إلى جانب بعض الجنسيات الأخرى، ولذلك أصبح نادى الأساتذة فيما بعد هو نقطتنا المركزية. فى عام ١٩٥٥ عندما استبدل السير روبرت هاو بالسير نوكس هيلم الذى كان أكثر قربا من الناس كحاكم عام، وعندما أصبحت نهاية الحكم البريطانى واضحة للعيان، قرر نادى الكلية إقامة حفل، والتزم رئيس النادى بتوجيه الدعوة إلى كل من سعادته، ورئيس الوزراء السودانى المنتخب حديثاً دون إبلاغ الآخر، أو حتى عميد الكلية بذلك. كنت أنا وقتها سكرتير شرف للنادى، ولكن نظراً لأننى كنت غائباً فى جولة أثناء توزيع الدعوات، فقد علمت بالأمر لأول مرة عندما اقتحم العميد مكتبى غاضباً ذات يوم بينما كنت أستمتع بإغفاءة ما بعد الظهيرة ليبلغنى باحتجاجه على تجاهلى للبروتوكول، وقال إنه قد علم بهذا السلوك المشين أثناء حضوره حفل عشاء بالقصر (ولو أنه فيما بعد قدم لى اعتذاراً رقيقاً). لم ينته الأمر عند هذا الحد، ذلك أنه عندما أقيم الحفل، وصل رئيس الوزراء إسماعيل الأزهرى متأخراً قليلاً، وشعر بحرج شديد عندما رأى سيارة (الرولز رويس) منتظرة بالخارج، فقد وصل الحاكم العام قبله.

لربما كان يتعين علىّ أن أذكر من قبل أن شعبة الجغرافيا بالكلية كانت فى كل الأوقات تتبنى سياسة واضحة بأخذ الطلاب فى زيارات لمختلف أجزاء

البلاد. وفى عام ١٩٥٠ قمت بصحبة إيمريس هاول مع مجموعة صغيرة من طلبة السنة النهائية بزيارة إلى(محطة التل) التى تم بناؤها أثناء الحرب العالمية الثانية فى أركويت على تلال البحر الأحمر. وهناك شاهدنا نماذج جيدة للجيولوجيا وبعض النباتات الغريبة على المنطقة، كما تمكنا من إجراء دراسة عن كيف يؤدى الرعى الجائر إلى تعرية جذور الأشجار والنباتات وامتلاء مجارى المياه بالطمى. غير أن أفضل الدروس القيمة التى تلقيناها هى أن المواصلات لم تزل تعتمد على أحوال الطقس العادية، خاصة أن تلك السنة كانت ممطرة بصورة غير عادية، واقتربت فيها مناسيب النيل من مستويات عام ١٩٤٦، لذلك استغرقت رحلة عودتنا بالقطار إلى الخرطوم ستة أيام، بينما كان يفترض ألا تتعدى أربعة وعشرين ساعة، وذلك بسبب تحويل سفريتنا إلى خط كسلا والقضارف. وفى العام التالى ازداد طموحنا، فقمنا إيمريس وأنا برحلة إلى الاستوائية رافقنا فيها الطلاب الأربعة الذين كانوا مؤهلين للامتحان النهائى لنيل شهادة جامعة لندن.

استأجرنا (لورى) من تاجر إغريقى صديق لنا بمبلغ مناسب، وسافرنا به إلى توريت عن طريق الضفة الشرقية للنيل، ومنها إلى جبال (الأماتونج) على الحدود اليوغندية، ثم إلى (ليتى)، وهى المنطقة السودانية المنخفضة الوحيدة التى توجد بها غابات مطرية حقيقية. كان لا بد لنا من عبور النيل لزيارة الضفة الغربية، وكان من دواعى إثارة الطلاب أننا اتجهنا جنوباً إلى نمولى حيث عبرنا الحدود السودانية، ودخلنا يوغندا إلى أن وصلنا مدينة (باكواش)، ومن هناك عبرنا النهر بالعبارة إلى مديرية غرب النيل. وفى الطريق إلى هناك مررنا بمعسكر لعمال الطرق تابع لمصلحة الأشغال العامة مما أثار استغراب الطلبة الذين لم يستطيعوا أن يفهموا كيف يعمل فرع لجهة تابعة لحكومة السودان خارج حدود البلاد. ولا أدرى إذا كان تأكيدى لهم بأنهم سيجدون مصلحة الأشغال العامة تعمل على

طول الطريق من وادى حلفا إلى كيب تاون، قد هدأ من مخاوفهم. بعد أن قضينا الليل فى (أروا) عدنا إلى السودان، ثم سلكنا الطريق المؤدى إلى مدينة يامبيو، موقع مشروع الزاندى، الذى كان يعلن عنه كثيراً فى تلك الأيام، وكان المشروع تجربة مفرطة فى التفاؤل للتصنيع والإنتاج والتصدير إلى أجزاء البلاد النائية. فى طريقنا إلى جوبا هطلت بعض الأمطار، وأثار إعجابنا أن الطرق المحلية المغطاة بصخور سامية حمراء تصرف المياه بصورة جيدة، ويمكن استخدامها فى أشد العواصف الرعدية عنفاً. قضينا أنا وإيمريس ليلة واحدة فى مندرى حيث توجد كلية إنجليكية لتدريب المعلمين، وكان أحد أقربائى البعيدين يعمل معلماً بها. لقد أحزننا كثيراً أن علمنا منه أنه وزوجته يعانيان من سوء الأحوال المعيشية، ومن عميد الكلية أيضاً. وفى اليوم التالى قمنا بزيارة رئاسة مركز أمادى حيث كان مفتش المركز أحد أصدقائنا من الخرطوم، مع زوجته المرحة وطفلتهما الصغيرة، وبالمقارنة مع ما شاهدناه فى الليلة السابقة، فقد بدا لنا أنهما أسعد زوجين فى العالم.

أثناء سنواتى الأخيرة بالخرطوم، كان للتغييرات السياسية الوشيكة تأثيرها بصور مختلفة على الأحوال فى الكلية. كان الطلاب يتوقون إلى إحداث إصلاحات عاجلة فى الحكومة المركزية، وكثيراً ما كانت تلغى خطط الزيارات التى كان يجب أن يقوم بها طلابنا تحت التخرج إلى بعض المناطق، وذلك بسبب المظاهرات التى كان يعقبها إغلاق الكلية لشهر أو أكثر. كما أن المطالبة بالسودنة لم تقتصر على الوظائف السياسية فحسب، بل امتدت فى النهاية إلى جميع عناصر الخدمة المدنية من البريطانيين والمصريين، مما أدى إلى مغادرة الكثير من الأصدقاء والمعارف، وأصبحت مزادات بيع أملاك المغادرين من السمات العادية فى صباحيات أيام الجمع. غير أن هذه التغييرات لم تؤثر فوراً على كلية غردون التذكارية التى أصبحت الآن تعرف بكلية الخرطوم الجامعية، فمن ناحية

امكن التغلب جزئياً على ما كان يمكن ان يؤدى إلى أزمة منافسة بين الشبان السودانيين العائدين من البعثات الدراسية بالخارج، والأجانب الذين لم يكن بالإمكان إيجاد عمل لهم فى مكان آخر من خلال توسيع المصالح الحكومية فى الخرطوم، أو عن طريق التوسع الأكاديمى فى المملكة المتحدة وغيرها من البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية. كنت خلال هذه التحركات من المحظوظين، حيث قررت شعبة الجغرافيا بجامعة لندن فى عام ١٩٥٥ أنها بحاجة إلى متخصص فى جغرافية أفريقيا، وتم تعيينى فى الوظيفة اعتباراً من أول يناير ١٩٥٦، وكنت وقتها قد فرغت تقريباً من جميع أعمال البحث الخاصة بكتابى الذى قمت بإصداره فيما بعد بعنوان (جمهورية السودان The Republic of the Sudan). كما أعددت العدة لتحليل نتائج ورسم خريطة أول إحصاء للسكان بالسودان، وقمت أيضاً بإجراء بعض الدراسات التى تمكنت من كتابتها وإصدارها بل وإذاعتها حول توزيع مياه النيل بين مصر والسودان، وإمكانيات تطوير وسائل الرى فى السودان.

وفى الختام، أستطيع أن أقول بكل ثقة إننى كنت محظوظاً بأن يكون أول عمل لى بالتعليم العالى بكلية غردون التذكارية فى السودان. وبالرغم من أنه كانت توجد مؤسسات أخرى مماثلة فى نيجيريا وجنوب أفريقيا أكثر أكاديمية فى أساليب التدريس والبحوث والنشر، وهى فى بلاد كان السفر إليها بالتأكيد أسهل بكثير، إلا أن السودان بالنسبة لى كان يتميز بوجود إدارة مركزية لها مؤسسات تابعة لها مثل مصلحة المساحة السودانية، ومصلحة الجيولوجيا، ومصلحة الزراعة، ومتحف الآثار، وكانت كل هذه المؤسسات تقع على شارع كتشنر، ولا تبعد عن الكلية، ويمكن الوصول إليها بالدراجة بكل سهولة. لذلك كنت فى الغالب أقسم ساعات العمل اليومى بين التدريس والبحوث، ومع ذلك كان يتوفر لى الزمن الكافى للسباحة، أو لعب التنس بنادى السودان فى العصريات. كان يوجد بالتحديد القليل من المؤلفات الجغرافية حول السودان، ولكن بصرف النظر عن كتاب (جغرافية السودان) لروبن هودجكن، وآخر باللغة

العربية من مطبوعات معهد التربية اللذين قد أعدا خصيصاً لتلاميذ المدارس، فقد كان الطريق ممهداً لتاليف كتاب يتم تصميمه بحيث يمكن استخدامه من قبل طلبة الجامعة وعامة الجمهور.

بالإضافة إلى ذلك كان لحكومة السودان موقف مستنير تجاه النشر كما ظهر فيما بعد فى (تقرير لجنة حماية التربة Soil Conservation Committee's Report) وكتاب (الزراعة فى السودان Agriculture in the Sudan) لمحرره جون توتهيل (John Tothill) ، وفى السلسلة الكاملة لنشرات وزارة الزراعة ومن بينها الدراسة التى أجراها جون سميث (John Smith) بعنوان (The Distribution of Tree Species in the Sudan توزيع الأنواع النباتية فى السودان) والدراسة التى أعدها جاكسون وهاريسون بعنوان (Map and Ecological Classification of Vegetation in the Sudan الخريطة والتصنيف البيئى للنباتات فى السودان). كما كان هناك الكتاب الذى حرره بول هاول Howell Paul بعنوان (The Equatorial Nile Project مشروع النيل الاستوائى) وتقرير لجنة دراسة تنمية الجنوب، ومجلد بعنوان (سكان السودان) كان مصاحباً لنتائج الإحصاء السكانى الأول، إلى جانب مختلف المقالات التى نشرت فى (مجلة السودان فى رسائل ومدونات Sudan Notes and Records). كما استفدت أيضاً من سلسلة منشورات (مصلحة الفيزياء المصرية) التى قام بتحريرها إتش. إى هيرست H.E. Hurst بعنوان (The Nile Basin حوض النيل). وكنت أتمنى فقط أن تظهر سريعا تلك الدراسة التى قمت بإعدادها عن جغرافية البلاد، لأنه قد اتضح لى عندما وصلت إلى كلية لندن الجامعية، أن القليل من الجغرافيين الأكاديميين بالمملكة المتحدة، إن وجدوا، قد أتيحت لهم فرصة العمل بالاتصال اللصيق مع الحكومة بمثل ما أتيحت لى أثناء سنوات خدمتى فى السودان الإنجليزى المصرى.

مايكل باربر (Michael Barbour)

■■■

18

حكاية

مفتش البيطرى

Sudan Canterbury Tales

عندما أقلنى القطار من القاهرة فى شهر مارس عام ١٩٤٦ كنقيب حربى (أساسى) فى السلاح البيطرى بالجيش الملكى، كانت مخصصة لى بالطبع (قمرة) فى الدرجة الأولى. كنت متوجهاً إلى الشلال، الميناء النهرى الواقع على الحدود المصرية/السودانية لأنتقل من هناك إلى الباخرة، ومن ثم إلى السودان، ذلك البلد الذى كان يكتنفه الكثير من الغموض. كانت الرحلة الليلية أقل من مريحة لكثرة وقوف القطار، بل وأسوأ من ذلك كثرة الغبار والروائح الكريهة. غير أننى فى الشلال، عندما انتقلت إلى باخرة سكك حديد السودان المزودة بدولاب للتجديف، وجدت أننى قد انتقلت إلى عالم مختلف. كان كل شيء نظيفاً؛ تلك الأوانى المعدنية اللامعة، والقمرات المريحة الخالية من الذباب، والسفرجية الجاهزون لتلبية كل الطلبات وهم يرتدون (قفاطينهم) الناصعة البياض، ويضعون على رؤوسهم عمائمهم الأنيقة.

فى الطريق إلى وادى حلفا، رست الباخرة عند معبد (أبو سمبل)، وأصبحت مصدراً لإنارة كهربائية أضاءت لنا تلك الآثار الهيروغلوفية العظيمة التى لم يؤثر عليها تعاقب العصور وجفاف الطقس، وهى ترقد فى أعماق ذلك الجبل الذى يحميها من الرياح، والتى تم نقلها مؤخراً قطعة فقطعة إلى قمة الجبل لإنقاذها من الغرق فى مياه النيل عند بناء سد أسوان.

كانت الرحلة من وادى حلفا إلى الخرطوم تغلب عليها الرتابة لولا محطات التزويد بالمياه الموزعة على الخط بانتظام. وكانت الرحلة مدخلاً للصحراء،

والجمال، والأشجار الشوكية، وبعض أهرامات العصور القديمة. وفى كل محطة يتوقف فيها القطار، كان الباعة المتجولون يعرضون نوعاً من بيض الدجاج صغير الحجم، ومن الكمثرى الشوكية، مما كان يعكس الفارق مقارنة بما هو متوفر فى عربة (البوفيه) بالقطار المريحة الأنيقة. كنت قد قرأت فى كتابى الزراعى أن الفول السودانى يطلق على فستق الأرض، ولكن فيما بعد علمت أنه يدل على معانى أخرى: شوربة، أو قد يعنى أحياناً أحد الأعضاء البريطانيين فى الخدمة السودانية!! (كلمة "فول" العربية تعنى بالإنجليزية "المغفل" - المترجم).

لقد سعدت بزواجى فى جنوب أفريقيا قبل ثلاثة وأربعين عاماً، أى منذ مغادرتى للسودان عبر مدينة جوبا فى عام ١٩٥٥، ولذلك فإن ذكرياتى عن مصلحة الخدمات البيطرية السودانية التى كان لى شرف العمل بها لا تعدو أن تكون سطحية، ولا ترقى إلى أن تكون تسجيلاً تاريخياً دقيقاً.

كان على رأس مصلحة الخدمات البيطرية مدير، مع خمسة موظفين بالقسم الميدانى بدرجة باشمفتش بيطرى، وثمانية بدرجة مفتش بيطرى، إضافة إلى قسم للبحوث به ضابط بحوث أول، وثلاثة ضباط. وكان فى كل مديرية باشمفتش أومفتش بيطرى واحد، ولربما اثنان فى بعض المديريات، ويتوقف ذلك على حجم الثروة الحيوانية بالمديرية. وكان يدعم هؤلاء مساعدون بيطريون تلقوا تدريبهم بمدرسة الخرطوم البيطرية، ويرقون فى الوقت المناسب إلى جميع الوظائف القيادية، بالإضافة إلى مربين بيطريين يتم تعيينهم محلياً، ثم يتلقون تدريباً على تشخيص الأمراض الرئيسية، وإدارة العقاقير واللقاحات البيطرية تحت إشراف الباشمفتش أو المفتش البيطرى. لقد كانت مصلحة صغيرة ولكنها تغطى مساحة ضخمة من الأرض، وتشتهر بخدماتها الموثوق بها.

قبل إنشاء كلية البيطرة بجامعة الخرطوم، كان يشغل جميع الوظائف المهنية بالمصلحة خريجون بيطريون أجانب (بريطانيون)، وبمرور الزمن أصبح خريجو

مدرسة الخرطوم البيطرية يحتلون هذه الوظائف فى كل من قسمى الخدمات الميدانية والبحوث، بل وأصبحوا فى النهاية يتولون إدارة المصلحة برمتها.

كان آرشى شالمرز (Archie Chalmers) عميد مدرسة الخرطوم البيطرية، وزوجته مارجريت قد استضافانى فى الخرطوم بكل الكرم والحفاوة اللذين كان لا بد أن أعتاد عليهما فى السودان. كان كل الموظفين، سواء كانوا فى المدينة، أو فى جبال النوبة، أو فى صحارى كردفان، أو فى المستنقعات، يتعاملون مع بعضهم البعض كأخوة، وكانوا يلتزمون بمقاييس أكثر إلزاما لهم من أية قوانين أو لوائح مكتوبة. لقد تم تسريحى من الخدمة العسكرية فى الخرطوم على يد جون يومانز (John Yeomans). ولم تكن لدى ملابس مدنية، ولذلك تولى جونى جاك مفتش بيطرى الخرطوم مهمة التأكد من قيام الترزى على بوك بتفصيل بدلتى الجبردين بالشكل الذى يناسب ضابطاً فى سلاح الفرسان، ويتماشى مع المستوى المطلوب لحضور مادبة الغداء الإلزامية التى كانت تقام على شرف الموظفين الجدد بالسراى، مقر الحاكم العام السير هيوبرت هدلستون (Hubert Huddleston).

أما فيما يتعلق بمسئوليتى المهنية، فقد شرحها لى ببساطة مدير مصلحة الخدمات البيطرية والدو جلانفيل (Waldo Glanville) وهو آيرلندى الأصل ويتصف بالهدوء والوقار والحزم والكفاءة، ومحبوب من الجميع. لقد قال لى: "إن إسهامك لهذا البلد لن يقاس بما تقوم به من عمل، وإنما بمدى تمكينك للآخرين من القيام بالعمل". كلمات تنضح بالحكمة فعلاً، وهى مثال للروح التى كانت سائدة فى حكومة السودان فى ذلك الوقت، والتى بدد جهودها، مع الأسف، ذلك السعى المحموم لنيل الحرية السياسية.

كان أول موقع عمل لى هو مديرية كردفان حيث كان توم مينزيس (Tom Menzies)، أقدم المفتشين البريطانيين بالمديرية، يتأهب للسفر فى إجازته

السنوية. كان توم وزوجته فيرا (Vera) مضيفين ممتازين قدمانى بسرعة إلى زملاء العمل بالحكومة، والأعيان والشخصيات البارزة بمدينة الأبيض، وفى رئاسة المراكز بالنهود، وبارا، وجبال النوبة. كان الهدف الرئيس للخدمات البيطرية هو السيطرة على انتشار مرض المثقبيات الوبائى (Trypanosomia-sis) وجرب الجمال، والطاعون البقرى، والإلتهاب الرئوى البقرى المعدى الذى كان ينتشر بين قطعان الماشية فى تلك السهول الشاسعة الممتدة إلى غرب أفريقيا.

نصحنى توم بأن أجعل أسبقيتى الأولى تعلم اللغة العربية بالقدر الذى يكفى للتخاطب مع أصحاب المواشى بالمديرية، وإرضاء الممتحنين الحكوميين بكفاءتى اللغوية تحدثاً وكتابة مطبوعة كانت أو بخط اليد. وبالفعل استطعت بمساعدة أحد معلمى المدرسة الثانوية الموجودة محلياً، ومن خلال التطبيق المكثف أن أحقق المستوى المطلوب فى خلال تسعة أشهر فقط. بعد ذلك تم نقلى إلى مديرية أعالى النيل بالجنوب، ولكن يبدو أننى قد استبقت نفسى.

كان روتين الحياة البيطرية فى الأبيض لا ينفصل عن هدير الإبل الباركة حول سور المصلحة فى انتظار تلقى العلاج. وكانت الحاجة تدعو إلى القيام برحلات دورية إلى المحطات الخارجية (النهود، الدلنج، كادوقلى، أم روابة) للتأكد من سير العمل فيما يتعلق بالسيطرة على انتشار الأمراض، وعمليات التطعيم، والمستوى الصحى للحيوانات عموماً. غير أن أكبر حدث فى حياتى كان البدء فى إعادة تجارة تصدير الماشية من الأبيض، نهاية الخط الحديدى، إلى مصر التى كانت قد توقفت بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية. كان البقارة يسرحون بمواشيهم حتى حدود تشاد فى أقصى الغرب، مستفيدين فى طريقهم من المياه السطحية، والحشائش المغنية الجديدة التى تنمو أثناء فصل الأمطار، وكان الكثيرون منهم يواصلون رحلتهم سيراً على الأقدام إلى شواطئ

النيل، والخرطوم، وأم درمان، ولكن كان تجار الأبيض يحرصون على إعادة فتح هذه التجارة عن طريق السكة حديد إلى مصر.

كانت مدينة الأبيض هى المحطة النهائية لخط السكة حديد الفردي من العاصمة مروراً بمدينة كوستى على النيل الأبيض. وكان يسير على هذا الخط قطار واحد فى الأسبوع. وأذكر أن الحمولة القصوى للقطار لم تكن تتجاوز ٤٠٠ رأساً، وكانت توزع بنظام (الكوتات) على التجار - حوالى ٢٠ تاجراً - وكان ذلك يشكل مشكلة كبرى. وفى النهاية بدأنا نطلب من كل تاجر أن يسوق ماشيته بواسطة الخيول ليجمعها بمحاذاة خط السكة الحديد. ثم يبدأ عد الماشية بالرأس بمساعدة مفتش المركز، وشرطة الخيالة، ومن كان يرغب من الموظفين الآخرين، وبعد ذلك يتم توزيع الحصص لكل قطار بالنسبة المئوية. واستطيع أن أؤكد أن مثل ذلك السوق العجيب لن يتكرر مرة أخرى، كما أؤكد أيضاً أنه لا يزال يوجد بعض ظرفاء السوق العجائز الذين ما زالوا يذكرون كيف كانوا يتخطون صفوف القطعان لتعزيز العدد المختار من ماشيتهم.

كانت رياضة البولو بالطبع جزءاً مهماً من حياتنا فى الأبيض، وكان يستمتع بها الأغاريق، والأرمن، والسودانيون، والبريطانيون على حد سواء. وكانت الخيول السودانية لا يزيد طولها عن ١٢-١٣ شبراً، ولكنها كانت سريعة جداً ورشيقة، ومن القوة بدرجة تمكنها من حمل باشصراف المديرية، ذلك الرجل الضخم!

وصلت إلينا رسالة مزعجة من (التمرجى) البيطرى بالمجلد فى جنوب المديرية تفيد بأن مرضاً غريبا قد انتشر بين الماشية وتسبب فى نفوق العديد من الأبقار. كان الوصول إلى المجلد، فى غياب الطرق الممهدة، وخلال موسم الأمطار، يتطلب نوعا من البراعة والحذر، ولكن استطعنا أن نصل إلى هناك بعربتنا (حمولة ثلاثة أرباع طن) حيث وفر لنا ناظر القبيلة (حملة) من الثيران لنقل صناديقى

الحديدية بعد وضعها على جانبى إطار مبطن يُحمل على ظهر الثور. كما وفرت لنا الشرطة ركوباً مناسباً لشخصى ومرافقى، ورافقنا كمرشد ابن أخ الناظر، ذلك الشاب الذى كان يركب فرساً عربياً جميلاً يميل لونه إلى البياض. كانت مياه الأمطار، التى هطلت مؤخراً، تغمر أجزاء كبيرة من الصحراء، وكنا نرى على مد البصر مئات الألوف من البط، والإوز، وطيور الكركى، بحيث يستطيع المرء بواسطة بندقية صغيرة اصطياد ما يكفى لـ (الحِلّة)، مع أن كرم الأهالى كان يكفى لسد احتياجاتنا الأساسية من الطعام.

أثناء تجوالنا من معسكر إلى معسكر ونحن نقوم بتسجيل تاريخ المرض، وفحص عينات الدم بالمجهر المتنقل، استطعت أن أشخص الداء بأنه (مرض النوم) الذى يحتمل أن يكون قد انتقل إلى الحيوانات أثناء تحركها إلى بحر العرب فى فصل الجفاف. لم يكن العلاج سهلاً فى ذلك الوقت، فقد كان يتطلب أخذ حقن أسبوعية لم تكن فى الحقيقة مناسبة للاستعمال على نطاق واسع بالنسبة إلى قطعان الماشية شبه المتنقلة.

كان التجوال بالخيول، وحمل الأمتعة على ظهور الثيران تجربة ممتعة تبعث على النشاط والحيوية، وكانت تذكرنى بتفاصيل سجل الأنساب العائلية المذكورة فى الإنجيل حيث كانت القبائل الرعوية تحفظ أنسابها عن ظهر قلب حتى الجد الثانى عشر بكل سهولة ويسر. كم يؤسفنى أننى لم استطع أن أخرج فى جولة بالجمال قبل نقلى إلى الجنوب، بعد قضاء عام واحد فى مديرية كردفان. ولا يفوتنى أن أذكر من بين ذكرياتى الخالدة نادي الأبيض، وفرانك لوريمر (Frank Lorimer) الذى كان يشنف آذاننا بموسيقى القرب، وذلك الفتى الاسكتلندى الذى كان يؤدى رقصة السيف.

كانت مدينة ملكال مختلفة تماماً. غادرت الأبيض بالقطار ومعى أمتعتى المنزلية، وطباخ، وسفرجى، وحصانين وسايس. وفى مدينة كوستى انتقلنا إلى

الباخرة النهرية التى كانت تبحر كل أسبوعين وتصل إلى ملكال بعد بضعة أيام. كان نقلى فوق العادة، وذلك لأننى كنت منتدباً للعمل ضمن فريق دراسة مشروع جونقلى، وكانت المهمة تتلخص فى "دراسة ووضع تقرير عن مشروع مقترح من قبل مصلحة الرى المصرية للسيطرة على تدفق مياه النيل من بحيرة فكتوريا إلى البحر الأبيض المتوسط". وقد تم إشراك مصلحة الخدمات البيطرية فى هذا العمل نظراً إلى أن تعديل مجرى النيل بفيضانه السنوى سوف يلحق أضراراً ليس بحياة البشر فحسب، وإنما بأعداد هائلة من الحيوانات الأليفة والمتوحشة. لا أريد أن أقف كثيراً عند تفاصيل هذا المشروع سوى أن أقول إننا وجدنا أنه يمكن أن يكون ذا جدوى اقتصادية متى توافرت للمتضررين سبل كسب العيش البديلة.

كان أحد الأعباء المناطة بفريق جونقلى هو جمع وفحص معلومات دقيقة حول كافة نواحى الحياة فى منطقة شاسعة تقطنها قبائل بدائية، ويمكن الوصول إليها جزئياً فقط عن طريق البر حتى فى موسم الجفاف. كان الدينكا والنوير والشلك يملكون أعداداً هائلة من الماشية، ولكن لم تكن تتوافر إحصائيات حولها. وقد حدث فى ذلك الوقت بالذات أن وافقت مصلحة الخدمات البيطرية السودانية على القيام بتجربة ميدانية لعقار جديد (بروميد الديميديم dimidium bromide) موثوق به فى علاج مرض النوم، وذلك بتناول جرعة واحدة منه.

تمّ توريد ستة عشر ألف جرعة من هذا العقار، وأسندت إلىّ مسئولية القيام بالتجربة فى مركز بور بمديرية أعالى النيل. أثناء هذا العمل، شعرت بالامتنان والعرفان عدة مرات لمفتش المركز الميجر جاك كمنجز (Jack Cummings) الضابط السابق المساعد للقائد فى فرقة (هايلاندرز غردون الثانية). وكان يتمتع بكامل ثقة رؤسائه وتعاونهم حيث قام بوضع نظام معادل لمجالس المراكز الريفية.

وقد أمكن عن طريق هذه المجالس جمع المواشى فى معسكرات يحتوى كل منها على ٥٠٠٠ رأساً، وكانت تربط إلى أوتاد فى مجموعات عائلية حول نار المعسكر المركزية، مع العجول فى وسط الدائرة، والأبقار وصغارها فى الدائرة التالية، والثيران والعجول الكبيرة فى الدائرة الخارجية.

لقد زرت هذه المعسكرات يصحبنى فريق من عمال التطعيم، مع كمية من مسحوق العقار الذى يتم تحويله إلى محلول عند الاستعمال، وبضعة أطباق من إبر الحقن التى تعطى تحت الجلد، بعد أن يتم وضعها فى صفائح بنزين فارغة تعبأ بماء يغلى من نار المعسكر، إضافة إلى عدد من الخرامات لوسم اذن الحيوان الذى يتم تطعيمه. وبما أن الجرعة تتوقف على وزن الحيوان، فكنت أقوم بتقدير وزن كل حيوان بالنظر إليه، ثم أنادى بإعطائه الجرعة المناسبة، وهنا يقوم عامل التطعيم بملء المحقنة بالكمية المطلوبة من اللقاح، ويركض بها لحقنها فى جسم الحيوان الذى يكون قد تم تقييده بواسطة عدد من الشبان الأقوياء، وبعد ذلك توسم أذنه، وهكذا تكرر نفس العملية مع الحيوان التالى. لقد تم تدريب أحد الأشخاص لتسجيل عدد الحيوانات فى كل وحدة عائلية، ولذلك أمكن جمع معلومات دقيقة عن إجمالى أعداد المواشى، مع التفاصيل الأخرى الخاصة بسن وجنس الحيوانات التى تم تطعيمها.

كنا قد أكملنا للتو ٧٠,٠٠٠ عملية تطعيم، ونحن لم نزل فى منتصف المسافة إلى مركز بور، إذ وردت إلينا تقارير بموت بعض الحيوانات التى سبق تطعيمها قبل شهر. لذلك توقف العمل، وعدت إلى المعسكرات الأصلية حيث وجدت أن العديد من الحيوانات يعانى من الحساسية الضوئية (Photosensiti-zation)، وكان جلدها الأبيض يموت ويجف كورق البرشمان، خاصة وأن أبقار الدينكا يغلب عليها بياض اللون. كان ذلك عائقا مؤسفاً لعملنا، ولكنا لاحظنا عدم تأثير المرض على الأبقار التى تعيش على العشب الأخضر، وإنما على تلك التى تأكل العشب الخشن الجاف.

وبالرغم من هذا العائق، استمرت عمليات التطعيم لمدة عامين فى مركز بور، ومركزى وسط وغرب النوير حيث يمكن وصول الماشية إلى العشب الأخضر، ولكن تم تغيير اللقاح بآخر ليست له تلك التأثيرات الجانبية التشويهية والمميتة. وأصبح لدينا حسب وجهة نظر فريق جونقلى إحصاء ممتاز يوضح أنه قد تم تطعيم ٥٠٠,٠٠٠ ألف رأس من الماشية فى ذلك الجزء من المنطقة التى كنا نعمل فيها.

أثناء فصل الجفاف (أكتوبر إلى إبريل) تمكنا من الوصول إلى أغلب المحطات الخارجية بالطرق البرية التى تربطها بمدينة ملكال. كانت مئات الأميال من هذه الطرق قد تم بناؤها يدوياً باستخدام التربة القطنية السوداء المبتلة لرفع مستوى الطريق إلى عدة بوصات أو أقدام حسب ما هو مطلوب، ولكن فى الأشهر الستة المتبقية من العام كان البديل لهذه الطرق هو استعمال البواخر النهرية إلى المحطات الواقعة على الأنهار، أو سيراً على الأقدام مع الحمالين إلى غيرها من المحطات. كانت اللوائح الحكومية تسمح بثلاثين حمالاً على أن يكون أقصى حمل للحمال الواحد ٤٠ رطلاً. ولذلك كان لابد لنا مع وجود الخدم، والمربيين البيطريين، ورجال الشرطة المرافقين لنا، أن ينظر إلينا كمجموعة مثيرة للإعجاب ونحن نتنقل من قرية إلى أخرى.

بعد الفراغ من إحدى هذه الحملات، أقلتنا الباخرة (طمل) التابعة لسكك حديد السودان من مكان بالقرب من أدوك على بحر الجبل. وفى تلك الليلة اصطدمت الباخرة بفيل كان فى وسط النهر محاطاً بمستنقع من نبات البردى، وشوهد بواسطة ضوء (الطورشات) وهو يمسك الصندل الأمامى بخرطومه، ثم بدأ يتحرك تدريجياً تجاه الباخرة نفسها. وعندما أصبحت أنابيب الماكينة معرضة للخطر أذن مهندس الباخرة لحرس الشرطة المرافق بإطلاق النار. صادفت الطلقة القاتلة فم الفيل الذى كان مفتوحاً عندما رفع خرطومه لتشديد قبضته، وتم إخراج جثته فى محطة للأخشاب أسفل النهر، وأبلغ الحادث إلى حرس الصيد، ومفتش مركز فنجاك.

كان موظفو البيطرى الميدانيون بالجنوب يكرسون معظم جهودهم للسيطرة على أمراض المواشى الوبائية الرئيسية وهى: مرض النوم، والطاعون البقرى، والـ CBPP . بالنسبة للأول، فقد أمكن التعامل معه بفعالية على المستوى العلاجى، ولكن لم يكن بالإمكان استئصاله بصورة نهائية إلا بالقضاء على ذبابة التسى تسى. ولأجل هذا الغرض تم وضع فريق لإبادة التسى التسى فى مديرية بحر الغزال لدراسة وتطبيق الطرق الكفيلة بالقضاء على الذبابة داخل الغابة التى تغزوها بأعداد كبيرة. أما بالنسبة للطاعون البقرى والـ CBPP فقد أمكن السيطرة عليهما من خلال برامج التطعيم الحازمة المنتظمة، وقد أصبح فى إمكان المختبر البيطرى بالخرطوم وفرعه فى ملكال، توفير احتياجات السودان، بل وإمدادها إلى خارج الحدود.

بالإضافة إلى برامج التطعيم على مستوى القطر، كانت مصلحة الخدمات البيطرية تُعنى أيضاً بكافة مجالات الرعاية الحيوانية والصحة العامة. كانت الخيول والحمير تستخدم بكثرة فى حراثة الأرض، ودرس الحبوب، وسحب الماء للرى، أو لحمل أوجر المتاع من وإلى الأسواق. كما كانت بعض الرعاية تقدم فى الغالب عندما يتطلب الأمر موازنة احتياجات الحيوان مع احتياجات صاحبه وأسرته. أما فى مجال الذبيح للاستهلاك الآدمى، فكان العمل يجرى باستمرار لتحسين الوسائل والإمكانات اللازمة لذلك مع مراعاة الممارسات الدينية. لم تكن هناك بخلاف مدرسة الخرطوم البيطرية عيادات بيطرية متطورة لعلاج الحيوانات على المستوى الفردى، ولكن كانت تتم تلبية بعض الطلبات المحلية بما فى ذلك حيوانات الصيد، سواء كانت مصابة أو صغيرة قد فقدت أمهاتها. كما تم إنشاء فرقة من شرطة الخيالة، وكانت مصلحة الخدمات البيطرية تتولى مسئولية الإشراف عليها، وشراء خيول بديلة لها سنوياً.

بعد الحرب بدأت مصلحة الخدمات البيطرية فى تنفيذ بعض الخطط

الخاصة بتطوير الصناعة الحيوانية، فقد تم تعيين البروفسير بيسكوف (Biss- choff) من أوندرستبورت بجنوب أفريقيا لوضع تقرير حول نسل المواشى فى السودان وتقديم المشورة اللازمة لتحسين نسلها. كما تم انتداب إيرنى نيو (Er- nie Knew) الخبير فى دباغة الجلود من انجلترا لتحسين المسالخ، والتجفيف الهوائى، وتمليح وتخزين الجلود وتصديرها. كذلك تم تعيين اثنين من خبراء البحوث الباستورية هما مايكل هاريسون (Michael Harrison) وهاوارد ديفيز (Haward Davis) لدراسة إمكانات المراعى، ولكن للأسف لا أدرى مدى ما أحرز من تقدم فى هذه المجالات خلال السنوات الأربعين الماضية. غير أن حياتى قد ازدادت ثراء من خلال ارتباطى مع زملائى فى جميع المصالح الحكومية، ومع جميع أهل السودان على جميع مستوياتهم الاجتماعية، وأرجو فى يوم من الأيام أن يعرفوا بلادهم كما عرفتها أنا. بلاد مسالمة، عامرة بالود، ومليئة بتوقعات وآفاق واسعة لا تحدها حدود.

غوردون كلاو (Gordon Clow)

■■■

ذهبت إلى السودان أول مرة مع زوجى فيليب بعد حوالى أسبوعين من زواجنا. سافرنا عن طريق البحر إلى بورتسودان، حيث رست بنا السفينة فى جو غائظ شديد الحرارة لم أنساه حتى اليوم، وتمنيت فى تلك اللحظات أننى لم أغادر إنجلترا، ولكن كنت آمل أن الطقس لن يكون هكذا دائماً. تمالكت نفسى بالرغم من ذلك، وظللت أطمئن زوجى بأننى مستمتعة بالحياة.

استغرقت الرحلة من بورتسودان إلى الخرطوم، عاصمة السودان، ستاً وثلاثين ساعة بالقطار. كانت محطتنا النهائية مدينة (الجنينة) فى أقصى غرب البلاد على حدود ما كانت تسمى آنذاك بأفريقيا الاستوائية الفرنسية. كان علينا أن نسافر أولاً بالقطار مسافة أربع وعشرين ساعة أخرى من الخرطوم إلى نهاية خط السكة الحديد فى مدينة الأبيض، ومن هناك باللورى لنقطع مسافة أربعمائة ميل إلى مدينة الفاشر، رئاسة مديرية دارفور. لقد بدا لى أن هذا الطريق لابد أن يكون هو الأسوأ فى أفريقيا ـ مجرد مجرى بين الكثبان الرملية يشق منطقة شبه خالية من الماء، ولذلك كان الأعراب يخزنون مياه الشرب فى جذوع أشجار التبلدى المجوفة عند محطات توقفهم. لقد أدهشنى سائق العربة الذى، بسبب ندرة الماء، وضع بيضة فى الجزء العلوى من مبرد محرك السيارة (الرادييتر) ليفطر بها.

كنا نقضى الليل فى استراحات مسقوفة بالقش، وأصبح معظمها آيل للسقوط بعد هطول الأمطار الأخيرة. وفى أم كدادة، محطتنا الأخيرة قبل

الفاشر، لفت أحدهم نظرى لمشاهدة لوحة مثبتة على الباب تخليداً لذكرى شخص كان يقيم فى هذا المكان، وأطلق النار على نفسه بسبب العزلة والملل. كان المكان بالفعل يبدو غريباً، وربما تكون فيه عظة للناس بضرورة الاهتمام بما لديهم من عمل. أما الغرفة التى أقمنا فيها فكان يميزها عيب آخر يتمثل فى تلك الرائحة الكريهة التى كانت تنبعث من كتل الوطاويط المتدلية من سقف الغرفة. لذلك شعرنا بالارتياح عندما وصلنا إلى الفاشر فى اليوم التالى.

كانت مديرية دارفور حتى عام ١٩١٦ سلطنة شبه مستقلة يحكمها السلطان الطاغية على دينار. فى ذلك العام قامت حكومة السودان بتجريد حملة ضده من الجنود السودانيين عندما أعلن تحالفه مع الأتراك الذين دخلوا الحرب العالمية إلى جانب ألمانيا. اشتهر السلطان على دينار بأنه كان يملك عدداً كبيراً من الحريم بما فى ذلك عدد لا يستهان به من السرارى. وقيل أيضاً إنه كان يلبس فى أيام معينة عمامة حمراء كإشارة إلى أنه سيعدم شخصاً ما. وكان إذا رأى شخصاً يخاطب حريم القصر وهن فى طريقهن لجلب الماء من الآبار، فإنه يطلق عليه النار من سطوح القصر، ولذلك كان موته فى النهاية خلاصاً جيداً للمواطنين.

بعد الفاشر كانت لا تزال تتبقى أمامنا مسافة ٢٥٠ ميلاً لنصل إلى الجنينة، وقد استغرق ذلك يومين بعربة الفورد. كنا فى هذا الجزء من الرحلة ننام فى الهواء الطلق، وعندما سمعت زئير الأسود لأول مرة لم أستطع النوم جيداً. يقول بعض الناس إن الخوف يجعل الإنسان يتصبب عرقاً، لذا أعتقد أننى قد فقدت أرطالاً من وزنى فى تلك الليلة.

كان زوجى هو ممثل الحكومة المقيم فى دار مساليت، وهى منطقة أخرى يحكمها سلطان أيضاً، ولكنها تقع ضمن سلطات حكومة السودان. كان وصولنا إلى مقر السلطان بهيجاً ورائعاً، فقد أحضرت خيول زوجى لمقابلتنا

خارج المدينة، وركبنا من هناك ترافقنا ثلة من خيالة كتيبة المشاة بقيادة ضابط بريطانى ممتطياً صهوة جواده. أما السلطان فقد كان هناك بنفسه، وقد اصطف فرسانه على جانبى الطريق مدججين بالرماح، وتبدو على وجوههم شدة وصرامة. لقد أقيم كل ذلك على شرف العروسة! كنت أمتطى حصانا فحلاً، وكان مصراً على مشاكسة الخيول الأخرى.

كانت حياتنا فى الجنينة شديدة العزلة. لم أر سوى امرأة أوروبية واحدة طوال فترة الستة أشهر التى قضيتها هناك. وكنت فى تلك المرحلة لا أجيد التحدث باللغة العربية، ولذلك كان الخدم السودانيون يؤدون لى جميع الأعمال بما فى ذلك شراء احتياجاتنا من السوق. تعنى كلمة "الجنينة" فى اللغة العربية "الحديقة"، وهى فعلاً اسم على مسمى، ولكن بالنسبة لنا فقد كانت لدينا حديقة خاصة بهيجة. غير أن أول مغامراتى فيها قد أفسدت، ذلك أن حبة الجوز التى أهدانى إياها (الجناينى) تحولت إلى مثير للقىء عنيف. وبالرغم من هذه العزلة، كانت هناك أشياء كثيرة مثيرة للاهتمام، من بينها النعام، والعديد من أنواع الحيوانات المتوحشة، وكان السلطان نفسه يملك قطيعاً أليفاً من الزراف. غير أن كل الأشياء الخاصة برعايا السلطان كانت بدائية. كانت أكواز الملح وقطع القماش المنسوج منزلياً تستخدم كعملة محلية، وكانت نقطة الغيار الصغيرة بالمدينة يديرها رجل يحمل مسمى "الحلاق الصحى". وهو مسمى مغلوط لأنه لا كان حلاقاً، ولا كان صحياً! أقول ذلك وقد ألجمتنى الدهشة أيضا عندما زرت المستشفى المحلى لأول مرة فوجدت بجواره مجمعاً يعج بالمجزومين، وقد فجر ذلك فى نفسى تلك الفكرة القديمة عندما كان يطلب من المجزومين تغطية رؤوسهم، وحمل جرس أثناء سيرهم فى الطرقات. عندما استقبلت مدينة الجنينة أول قابلتين حكوميتين، كادت نساء السلطان الغيورات اللاتى أثيرت شكوكهن أن يمزقنهما إرباً إربا عندما شاهدن المرأتين الغريبتين فى ملابسهما البيضاء النظيفة وهما تقتربان من قصر سيدهن!

كان المساليت يحترمون ويجلون سلطانهم وحكامهم، وكانت طريقتهم لتحيتهم هى الجلوس على الأرض، والالتفات برؤوسهم بعيدا، ثم التصفيق بهدوء.[1] أما فى دار قِمر، وهى سلطنة أخرى على بعد ثمانية أميال إلى الشمال، فكان الناس يحيون سلطانهم حبواً عندما يقتربون منه - ذلك الحاكم المطلق العجوز ذو اللحية البيضاء الذى تجاوز عمره التسعين عاما وله عائلة كبيرة تشمل أبناءه الذين تربو أعمارهم على الستين.

وبما أننا كنا قريبين من الحدود الفرنسية الاستوائية، فكنا نقوم بزيارة زملائنا الفرنسيين من وقت إلى آخر، وكان الضباط الفرنسيون يستقبلوننا بكل حفاوة وترحيب لدرجة أن وجبة الغداء التى تبدأ فى العادة عند الظهر كانت قد تمتد أحياناً إلى حوالى الساعة الرابعة والنصف مساء. وفى إحدى المناسبات قُدِّمت لنا ثلاثة عشر صنفاً متتالياً من الطعام، بدون القهوة. وفى مدينة أبشى، التى توجد بها رئاسة المديرية المحلية، كنا نرى نساء (الطوارق) الصحراويات الجميلات ببشرتهن البيضاء، وهن يسرن فى الطرقات دون قناع، ومن ناحية أخرى كان رجال الطوارق (غزاة الرمال) يحرصون على ارتداء القناع، والأعجب من ذلك أنهم كانوا يعلقون صليباً على صدورهم رغم أنهم مسلمون.

بعد أشهر قلائل خرجنا فى جولة طويلة بالخيول مستخدمين الجمال لحمل الأمتعة. وبعد أسبوع من مغادرتنا، وصل إلينا أحد العدائين حاملاً ورقة فى عصاته المجوفة، وكانت تلك هى المرة الوحيدة التى أرى فيها بريدا يستلم بهذه الطريقة. كان البريد فى الجنينة يصل بالجمال مرتين فى الشهر، وعندما نقلنا إلى جبال النوبة فيما بعد، كان ساعى البريد يصل إلينا على ظهر ثور.

كانت الرسالة الخطية التى حملتها العصاة المجوفة عبارة عن برقية تتضمن نقل فيليب إلى وظيفة جديدة فى الخرطوم، تلك المدينة البهيجة التى عشنا

---

(١) أنظر أيضاً آر. جى. دينجوول فى الملحق (ج).

فيها عام زواجنا الثانى. وهناك تعرفت أكثر على زوجات الموظفين والأعيان السودانيين. كنت لا زلت أتحدث القليل من اللغة العربية، ولذلك كنت أكتفى فى البداية بتبادل الابتسامات مع الآخرين بنوع من الاستحياء. وشعرت بالخجل أكثر عندما اضطررت إلى الاعتراف بأنه لا أولاد لى، ذلك أن إنجاب الأطفال كان موضع الاهتمام الرئيسى للنساء السودانيات. كن يفحصن بأصابعهن ما أرتديه من ملابس، وكنت بدورى استفسر عن أسعار ملابسهن، وهو استفسار مقبول، بل هو تعبير عن التحية والمجاملة فى تلك البلاد. كانت النساء السودانيات لطيفات بصفة عامة، وشغوفات بتبادل النكات.

كما كانت النساء يتباهين بشعرهن الذى كان يجدل بمئات الضفائر الرقيقة التى يمكن أن يزاد طولها أكثر بضفائر من الصوف أو شعر الماعز. وكانت المرأة المتيسرة الحال تزين يديها بالحناء، وبعضهن يوشم الشفتين بلون أزرق، ويضعن كحلاً أسود حول العينين. وكان البعض (يشلخن) خدودهن كما يفعل الرجال، وتختلف (الشلوخ) وفقاً لعادات كل قبيلة، وتتم هذه العملية فى سن الثانية عشر، وتعتبر نوعاً من الجمال ربما عملاً بالقول المأثور لألفريد ماوسيت (Alfred Mousset) أنه «لابد من المعاناة لتصبح جميلاً»، علاوة على مدلولها القبلى. بالإضافة إلى ذلك، كان السودانيون عموما يحبون الأطفال الذين رغم أنهم فى نظر الكثير من الغربيين يعتبرون مدللين أكثر من اللازم، إلا أنهم كانوا يتمتعون بطباع مرحة.

كنت أقوم من وقت لآخر بزيارة إلى مدرسة البنات، ونقطة الغيار فى أم درمان اللتين كانتا تديرهما (جمعية الإرساليات الكنسية)، وكانت المسئولة عنهما امرأة مدهشة تدعى مس نورتون (Miss Norton). كان عدد كبير من الأطفال المسلمين يلتحقون بهذه المدرسة تقديراً لمستواها العالى تربوياً وتعليمياً. ولكى يصل المرء إلى مركز جمعية الإرساليات الكنسية، كان عليه أن يسلك أزقة ضيقة

بين بيوت وحوائط مبنية من الطين، ليدخل فى النهاية من خلال باب لا يختلف عن أبواب البيوت العادية. وفى الداخل كانت كل المبانى طينية بلا زجاج على النوافذ أو إضاءة كهربائية، وبلا ماء نظيف، وحتى الأرضيات كانت من طين النيل. وجدت غرفة الانتظار فى عيادة رعاية الأطفال مليئة بأطفال يبكون ونساء يصرخن. يبدو أن النساء السودانيات تعودن على الصراخ مع بعضهن البعض بالرغم مما يتمتعن به من روح الدعابة والمرح. كانت مس نورتون، فى هذا الجو الشبيه بمستشفى المجاذيب، تحتفظ بهدوء شديد، وتعيش وتعمل؛ تزن الأطفال، وتعالج العيون والأوجاع، وبصفة عامة تقوم بصرف الدواء.

بعد هذه الفترة التى قضيناها فى الخرطوم، تقرر نقل فيليب إلى الدلنج بجبال النوبة، وكانت هى الأخرى محطة موحشة لا يوجد بها زوجات بريطانيات. كان هناك شرطى يتولى حراسة منزلنا فى الليل عندما يخرج فيليب فى إحدى جولاته، ولكنهم قد أكدوا لى أن هذا مجرد "إجراء رسمى". وفى إحدى الليالى استيقظت على صوت صراخ مرتفع وصوت ارتطام حول الحديقة، وعندما خرجت مندفعة إلى الخارج، تمكنت من رؤية (حارسنا الشرطى) وهو يتأهب للمشاركة فى مطاردة أحد المجرمين، قلت له: "لا يمكنك أن تخرج. عليك أن تبقى هنا لحراستى". وضح فى اليوم التالى أن عابر سبيل فى الجوار قد طعن بسكين حتى الموت وهو نائم على قارعة الطريق، ولذلك بدأت تلك المطاردة للقبض على القاتل.

كنت أقوم، تزجية للوقت، بتعليم الحياكة، واكتشفت لدهشتى أن صبية المدارس كانوا أحرص على التعلم من البنات اللاتى كن يبدين اهتماماً أكثر بتعلم الخياطة. ونظراً لعدم وجود إبر للحياكة، فكنا نستعمل أعواداً أو شوكاً طويلاً إلى أن تكرم أحد الأصدقاء، وأرسل لى بعض إبر الحياكة من أرض الوطن. كان الصبية يفخرون بما ينجزونه من عمل، ويتباهون بالفانلات (بلوفرات) الصوفية المختلفة التى قاموا بحياكتها بغرزات خيوط دقيقة مختلفة الألوان.

كت من وقت إلى آخر أصحب فيليب فى جولاته، وفى إحدى المرات ذهبت معه إلى (سلارا). كان الناس هناك يسكنون الجبال، وبالرغم من أنهم محاطون بالمسلمين العرب، إلا أنهم كانوا متمسكين بديانتهم الوثنية ويعبدون إلهاً يمكن التقرب إليه من خلال أرواح أسلافهم، التى بدورها يتم استحضارها بواسطة كاهن يسمى (الكجور)، وذلك بعد التضحية بمعزة أو دجاجة قرباناً للإله. ثم يذهب الكجور فى غشوة يتكلم خلالها بلغة غير لغته، فيقوم كجور آخر بترجمتها ناقلاً الرسالة المستمدة من أرواح الأسلاف. لقد شاهدت ذلك بنفسى، وكان بالنسبة لى غريباً جداً. كان أهل سلارا من عنصر مرح مكتمل الرجولة يسمى (نايمانج)، ويعيشون فى عزلة، ولكن كان يخرج منهم جنود ممتازون. وبالرغم من أن كبار السن منهم كانوا يرتدون ملابساً، إلا أن الفتيان والفتيات كانوا عراة، ويبقون كذلك حتى يتم تزويجهم، وعندها يرتدون حزاماً مصنوعاً من حوالى ثمانية خيوط من الخرز الأزرق، ويضعون فى الأمام غطاء من الخرز الأزرق أيضاً، وذيل مصنوع من الجلد فى الخلف يخيطون عليه خرز من النحاس. وإذا شوهدت إحدى النساء بدون هذا الذيل، فإنها تُعرّض نفسها إلى ذات الحرج الذى كنت سأتعرض إليه فيما لو سرت فى شارع (التايمز) العام دون (إزار)![1]

كانت توجد فى سلارا إرسالية تعمل فى المجالين التعليمى والطبى. وكانت طبيبة الإرسالية، التى تزوجت فيما بعد بأسقف إنجليزى، خير عزاء وسلوى لى قبل وبعد ولادة ابنتى. لقد تم تعميد ابنتى جوديث (Judith) فى كنيسة الإرسالية المحلية، وحضر الصلاة حوالى مائة من تلاميذ المدرسة النوبيين. كان من النادر وجود أطباء بريطانيين حيث أن غالبية أطباء حكومة السودان كانوا سودانيين – وكانوا دائماً محل ثقتنا.

فى هذا الوقت بدأت اتحدث اللغة العربية بقدر من الطلاقة، وبطبيعة الحال لم يكن هناك مناص من ذلك، وإلا كنت سأظل صامتة. لم تكن هناك

زوجات بريطانيات، وبوصول ابنتى جوديث لم أعد أستطيع الخروج مع فيليب فى جولاته، وكان علىّ أن أبقى وحيدة فى المنزل.

كانت النساء فى غرب السودان يصنعن من الدخن نوعاً من البيرة يسمى (المريسة) وهى مشروب سميك كالعصيدة له قيمة غذائية، ولكن لا يشبه البيرة الإنجليزية. كان الأهالى يشربون منها كميات كبيرة، ويدعى كبار السن أنهم يعيشون عليها وحدها. وكان الناس فى جبال النوبة يشيرون إلى جوالات الدخن المكدسة ويتفاخرون بقولهم: "هذه ليست للأكل، ولكن للمريسة". وعندما يأتى زمن الحصاد لم يكونوا يجلسون ويشربون المريسة بهدوء، وإنما كانوا يقيمون حفلات يحضرها ما بين مائتى و ثلاثمائة شخص، وتقوم الفتيات العاريات عادة بارتداء أجمل ما لديهن من الثياب لحضور مثل هذه المناسبات. أما الفتيان فلم يكونوا يرقصون وحسب، وإنما يقيمون كذلك مباريات فى المصارعة. وفى النهاية يعلن أحد الكبار نهاية الحفل بالنفخ فى صافرة شرطة قبل أن يحمى الوطيس ويهتاج الجميع.

كان السودانيون عموماً مولعين بالسكريات، وكان الشاى الذى يشربونه يعتبر حلواً جداً بالنسبة إلى معظم الأوروبيين. كانوا يضعون الشاى والسكر وغيره فى إناء مصقول يضعونه على فحم مشتعل، وعندما يصبح جاهزاً ومركّزاً، يقدم فى أكواب زجاجية صغيرة. وكان الشاى عند قبائل البقارة الرحل فى غرب السودان يشرب بكميات كبيرة، ولكن من الناحية الأخرى، كانت القهوة (البن) تشرب بكميات قليلة، بينما كانت تشرب بكثرة فى شرق وشمال السودان، وفى المدن. غير أنه يبدو أن النساء المتزوجات كن محرومات من شرب القهوة ، وكذلك من شرب اللبن الحليب، بل كان من المستحيل رؤية امرأة تشرب حليباً فى غرب السودان. لقد وجدت ذلك عذراً مناسباً لى فى إحدى المناسبات عندما كنت اصطحب فيليب فى زيارة إلى بعض مخيمات الأعراب حيث كانت تقدم لنا

سلطانية ملئت حليباً برغوته مباشرة من بقرة، أو ناقة، أو معزة، أو مهرة، وهو شيء لم أكن أرغب فى شرابه إطلاقاً.

كانت النساء يتناولن الطعام بمفردهن وليس مع الرجال، وهو نفس طعام الرجال المكون من الكسرة التى هى عبارة عن فطائر مفلطحة مصنوعة من دقيق الدخن، وبعض اللحم المقلى بزيت السمسم، والبامية الناشفة، والطماطم، وكل هذه تتبل بالملح والشطة.

كنت لبعض الوقت أشعر بأننى يجب أن أقدم المزيد من المساعدة للنساء السودانيات لتكون لهن اهتمامات أخرى إلى جانب الطبخ، ولكن لم تواتنى هذه الفرصة إلا بعد أن نقلنا إلى كوستى، وهى مدينة متطورة نسبياً تقع على النيل الأبيض. وهناك استعدت ما استطعت تذكره من مناشط المعاهد النسوية فى إنجلترا على أمل أن تهتم بها الفتيات اللاتى تركن المدرسة، وكذلك النساء المتزوجات. غير أن فكرة إنشاء نادٍ للسيدات قد أثارت مخاوف الرجال الذين اشتموا فيها نوعاً من الحرية المفرطة. ولذلك ناقشت هذه المعضلة مع الدكتور عتبانى، الطبيب السودانى الذى أسعفنا بكلمة سحرية أدت الغرض وأزالت حساسيتهم، وذلك بتسمية المؤسسة (معهد السيدات). وحيث أن لغتى العربية كانت لا تزال مضطربة فى بعض الأحوال، فقد سألت رجلاً مسناً عما إذا كان سيسمح لزوجته بالانتماء إلى مؤسسة تسمى "معرض السيدات"، وإذا بى بسبب الاستعجال فى الكلام قد حولت ببساطة حرف (الهاء) إلى (راء) فتغير المعنى إلى معرض للسيدات. ورغم أنها كانت زلة لسان مؤسفة، إلا أننى قد ضمنت موافقة جميع الرجال القياديين فى المدينة بمن فيهم القاضى المدنى، والطبيب، والقاضى الشرعى.

كنا نجتمع فى مدرسة البنات بمعاونة ناظرة المدرسة ومساعدتها، وكانت جدران المدرسة عالية بالشكل المناسب الذى يمنع الرؤية من الخارج. كان

الاجتماع يبدأ فى الساعة السادسة مساء بعد حلول الظلام من أجل أن تصل السيدات دون ملاحظة أحد. لقد استلفنا عدداً من مصابيح الجاز (الرتاين) من مصلحة سكك حديد السودان، وتم فرض رسوم قدرها قرش واحد (يعادل ٥.٢ بنس فى تلك الأيام) لحضور كل اجتماع، وذلك لتغطية تكاليف الشاى، والسكر، والجاز، مع هامش وفر صغير اشترينا منه إبريق شاى صغير وأكواب. سارت الأمور على أحسن ما يرام، وكان الحضور يقارب الثلاثين امرأة فى كل أسبوع. كان الاجتماع يبدأ بتخصيص ساعة للتواصل الاجتماعى نتناول خلالها الشاى، ثم يلى ذلك محاضرة تلقيها الناظرة. وكان يتم الحصول على هذه المحاضرات من بعض المسئولين كالطبيب وضابط الصحة العامة فيما يتعلق برعاية الطفل، والتغذية وغيرها، وغالباً ما ينتهى اللقاء بعرض لبعض أعمال الخياطة، أو القبالة، أو كيفية استحمام الطفل، أو خياطة الملابس النسائية.

كانت محطتنا التالية بعد كوستى هى كسلا فى شرق السودان حيث أصبح فيليب النائب الأول لمدير المديرية، ثم أصبح مديراً للمديرية فيما بعد. وأثناء وجودى هناك عرفت شيئاً عن مديرية كسلا الشاسعة التى تبلغ مساحتها ١٤٠ ميلاً مربعاً، وعن مدينة كسلا بالذات. كان الخط الساحلى على وجه الخصوص مثيراً للعجب، إذ يبلغ طوله حوالى ٣٠٠ ميلاً بمحاذاة تلال البحر الأحمر التى ترتفع من السهل الساحلى فى أقصى الشرق، ثم تمتد بعدها سهول واسعة إلى أن تقترب من النيل حيث يرعى فيها حوالى نصف مليون رأس من الإبل.

كان سكان تلال البحر الأحمر - الهدندوة، والبشاريون، والأمرار - مميزين فى نوعهم العرقى، وعاداتهم. إنهم أولئك القوم الذين وردوا فى أشعار كبلنج باسم فزى وزيز (fuzzy wuzzies) والذين ينتمون إلى الجنس الحامى، ولهم لهجتهم الخاصة أكثر من كونهم عرباً يتكلمون اللغة العربية. إنهم قبيلة ممتدة

من البدو الرحل الذين يعتزون بكبريائهم، ويتميزون بوجوههم الصقرية، وكان أولادهم يتميزون بالوسامة ولكنهم ليسوا نظيفين، أما نساؤهم فينفردن فى السودان بارتداء ثوب بلون أحمر يختلف عن ذلك الثوب الأزرق أو الأبيض الذى كانت ترتديه جميع النساء تقريباً فى كافة بقاع السودان الأخرى.

لقد تحقق طموحى فى كسلا بإنشاء معهد نسوى منتظم. كنا نجتمع كل أسبوعين، وكانت أنشطتنا تشمل القراءة ودروس اللغة العربية. كان الوضع هنا يختلف عن كوستى، فقد وجدنا عوناً من بعض السيدات البريطانيات، ومن بعض زوجات السودانيين المتعلمات. وعندما غادرنا للتقاعد، سلمت المعهد إلى لجنة ترأسها سيدة سودانية.

من السمات البارزة فى السودان أن العلاقات العرقية كانت جيدة دائماً، ذلك أن سياسة الحكومة المعلنة منذ البداية هى أن "السودان للسودانيين". كما أنه لم يكن هناك مستوطنون بيض يعكرون صفو العلاقات بين الإداريين وزوجاتهم من جهة، وبين السكان المحليين من الجهة الأخرى. وأثناء وجودنا فى كسلا كانت قد تمت سودنة ٩٠% من وظائف الخدمة المدنية، وفى مديرية كسلا بالذات كان مفتش طبى المديرية ومعاونوه من الأطباء، وقاضى المحكمة العليا، وقمندان الشرطة، وعدد من مفتشى المراكز كلهم من السودانيين. لم يكن هناك تمييز عنصرى فى السودان، ولا عزل عرقى فى القطارات، أو الفنادق، أو المدن. وكنا نقوم باستضافة الموظفين السودانيين فى منازلنا، وفى الواقع كانت أعظم صديقات ابنتى الصغيرة فتاة سودانية.

ميرى برودبنت (Mary Broadbent)

■■■

20

حكاية

عالم الحيوان

(كما روتها أرملته ليزلى لويس)

Sudan Canterbury Tales

نشأ ديفيد جيمز لويس (David James Lewis) ١٩٠٩ـ ١٩٨٦ فى بيت قسيس بمقاطعة إسكس (Essex)، وبدون أية خلفية علمية كان مولعاً بالحشرات منذ طفولته المبكرة. كان منزلنا بالقرب من منزله، وكنت قد التقيت به لأول مرة ونحن فى سن الحادية عشرة بجانب بحيرة عندما جاء هو وشقيقه لتناول الشاى. كان واضحاً آنذاك أن اهتماماته كانت تتعدى بكثير مطارداتنا الصبيانية للسحالى، والكريات، أو تفقيس فراخ الضفادع دون ترتيب وهى لا زالت فى طور الحضانة. بعد ذلك درس ديفيد علم الحيوان فى جامعة كيمبردج، ثم تخصص فى علم الحشرات بتركيز خاص على الحشرات الناقلة للأمراض البشرية. وبعد حصوله على منحة دراسية فى كلية لندن لطب المناطق الحارة، عمل لدى مؤسسة روكفلر فى ألبانيا التى كانت فى ذلك الوقت بلداً بدائية تحت حكم الملك زوغ (Zog) بمساعدة موظفين أجانب غريبى الأطوار، وكان ديفيد يتولى مسئولية إحدى المحطات الخارجية التابعة لمركز المؤسسة فى روما التى تكرس عملها لاستئصال ملاريا البحر الأبيض المتوسط.

وفى عام ١٩٣٥ تم تعيين ديفيد لدى حكومة السودان للعمل فى مشروع مكافحة الملاريا بمنطقة زراعة القطن المروية من خزان سنار على النيل الأزرق التى كانت المورد الاقتصادى الرئيسى لحكومة السودان. كان مقر عمله فى مزرعة أبحاث الجزيرة ، وبالرغم من أنها كانت مؤسسة تعنى بالزراعة، إلا أنه كانت تتوفر بها المكتبات والإمكانات المختبرية التى استفاد منها كثيراً. وفى ظل السياسات بعيدة النظر التى وضعها السير إريك برايدى Sir Eric Pridie مدير

مصلحة الخدمات الطبية آنذاك، وبالتعاون مع الدكتور روبرت كيرك (Robert Kirk) بمعمل استاك بالخرطوم، امتدت أبحاث ديفيد لتشمل الأمراض الأخرى التى تنقلها الحشرات بغرض السيطرة عليها، ومنها الحمى الصفراء (الباعوض)، ومرض النوم (ذبابة التسى تسى)، وداء الكلب (يسبب أحياناً عمى الأنهار) الذى تنقله ذبابة (الذلفاء) المعروفة بلسعتها الشديدة، والكلازار (الذبابة الرملية). كانت هذه الأمراض تنتشر فى عدة مناطق بالسودان، ولذلك كان العمل يقتضى القيام بجولاتٍ إلى بعض الأماكن النائية. أثناء تفشى مرض الحمى الصفراء فى جبال النوبة، أُرسل ديفيد بالطائرة إلى معهد للأبحاث بمدينة عنتبى بيوغندا من أجل تحديد نوع الحشرة التى يشتبه فى أنها ناقلة للمرض، ولحسن الحظ تأكدت إمكانية السيطرة عليها بسهولة. كان ذلك أثناء الحرب حيث كان مرور القوات عبر السودان يجعل من احتمال انتشار أى وباء أمراً خطيراً.

وفى عام ١٩٤٤، وأثناء أول إجازة لديفيد بعد الحرب، تم زواجنا وسط تساقط القنابل من الطائرات. وبعد غزو فرنسا، وعلى وشك انتهاء خطر الغواصات، سمح لنا بالسفر سوياً إلى السودان عن طريق البحر. وصلنا إلى بورتسودان فى أكتوبر بعد رحلة، ضمن قافلة بطيئة، استغرقت خمسة أسابيع، وفى سفينة شحن أجريت عليها بعض التعديلات لتصبح سفينة ركاب. تم إيجاد وظيفة لى كأمينة مكتبة وكاتبة مراسلات سرية بمزرعة أبحاث الجزيرة، وخصص لنا منزل فى ود مدنى، وهى مدينة جميلة تقع على النيل الأزرق، وبها كنيسة صغيرة، ونادٍ للجالية البريطانية التى كانت كبيرة نسبياً، حيث بلغ عدد أفرادها حوالى المائة موزعين على وظائف حكومية، أو أعضاء فى الشركة الزراعية السودانية (لزراعة القطن)، بالإضافة إلى قسيس، وبعض المشتغلين بالتجارة. كان مدير المديرية، وموظفو الخدمة السياسية يستبدلون كل بضعة سنوات، أما موظفو مزرعة الأبحاث، والمسئولون بمصلحة الرى، والشركة الزراعية، فكانوا شبه مستديمين، وبالتالى أكثر استقراراً.

كان المناخ الاستوائى الملتهب، بطبيعة الحال، يملى علينا أسلوب حياتنا، إذ كان العمل يبدأ فى السادسة والنصف صباحاً، وينتهى عند الثانية والنصف بعد الظهر، وتليه وجبة غداء سريعة، ثم قيلولة بعد الظهر، فبعض التمارين الرياضية فى شكل سباحة، أو لعب (التنس)، أو العمل فى الحديقة، أو ركوب الخيل (رياضة البولو للبعض). وعندما يحل الظلام فى حوالى السادسة مساء، وبعد الاستحمام، وارتداء ملابس المساء: للرجال، قميص أبيض وحزام أسود، وبنطلون أبيض أو أسود. وللسيدات، فستان طويل، يفضل أن يكون من القطن، بحيث يغطى جزئياً فقط حذاء البعوض الذى يصل طوله إلى الفخذين. وعندما يكون الطقس بارداً كنا نجلس لمدة ساعة أو ساعتين فى الفرندة المحمية بشبكة سلكية (النملية)، وغالباً ما يكون ذلك بمعية بعض الأصدقاء. ثم نتناول طعام العشاء الذى كان يطبخ بمستوى جيد، ويتولى الخدم تقديمه إلينا بالطريقة الرسمية، وفى حوالى الساعة العاشرة مساء نذهب إلى النوم على السطوح داخل الناموسيات.

لقد تأقلمت بسهولة على هذه الحياة، ذلك أننى سبق أن عشت حياة مماثلة فى الهند. وبما أننى كنت خالية من أية أعباء منزلية، فقد كنت أشغل وقتى فى توافق تام، وأصبحت فيما بعد سكرتيرة لجمعية الكنيسة المحلية، وجمعية المرأة الناطقة باللغة الإنجليزية التى كانت قد بدأتها 'دوتس' بريدين (Dots Bredin) زوجة مدير المديرية. كانت هذه الجمعية أشبه بمعهد نسائى فى طور التكوين، وكنا فى كل شتاء نقوم بعقد عدد من الاجتماعات فى حدائق بعضنا البعض، ونمارس خلالها التمثيل، والألعاب، ونتجاذب أطراف الحديث أثناء تناول الشاى. لقد ساعد هذا الجهد المتواضع عند بداية الاستقلال حيث أدى هذا التعارف الشخصى بين الزوجات السودانيات والبريطانيات وبعض نساء التجار، إلى خلق جو من الود والصداقة فى تلك الظروف الصعبة.

بعد عامين تم إعفائى من وظيفتى فى مزرعة الأبحاث، وأصبح بإمكانى فى النهاية أن أذهب مع ديفيد فى جولاته. كنا فى شمال السودان نسافر بالقطار أو اللوارى، ونبقى فى الجولة لمدة أسبوع أو أسبوعين حيث نحل ضيوفاً على الزملاء، أو نقيم فى استراحات الحكومة المزودة بقطع من الأثاث الأساسى، وبإمداد جيد للماء، مع (النمليات) والناموسيات، والخدم الأكفاء. غير أن الوضع كان يختلف تماماً فى جنوب السودان، ولذلك سوف تركز هذه الحكاية على تجربتنا هناك.

بدأت رحلتنا إلى الجنوب على ظهر إحدى بواخر النيل الأبيض التى تسيرها سكك حديد السودان كل أسبوعين من كوستى إلى جوبا - اثنا عشر يوما ضد التيار، وثمانية أيام مع التيار. كان النهر ضحلاً مع قناة صالحة للملاحة بصورة متغيرة بقيادة ربان سودانى يرافقه فى العادة مهندس اسكتلندى يتولى مسئولية كافة الأشياء الأخرى. كانت هذه البواخر مزودة بعجلات تجديف فى مؤخرتها تقذف بصورة مستمرة ما يشبه الذيل الملون القذر. وفى أغلب المنعطفات الممتدة أسفل النهر، كان يتم توجيه الباخرة لترتطم عمداً بإحدى الضفتين، ثم يدفعها التيار حول المنعطف، مما يؤدى أحياناً إلى أعطال بسيطة، وتحطيم لأوانى الصينى وهكذا. وتربط على جانبى الباخرة ومؤخرتها صنادل لحمل البضائع والركاب الذين هم أضعف حالاً من أولئك المسافرين على (كابينات) الباخرة الاثنى عشر، وتساعد هذه الصنادل على تثبيت الباخرة التى مع ضحالة غاطسها كما هو مطلوب يمكن أن تنقلب فى الماء.

كان المنظر بأكمله شبيهاً بقرية عائمة. لم أكن أعرف عن ماذا كان ديفيد يتحدث عندما أشار بأن الباخرة تنتظرنا فى كوستى. لقد قمت بهذه الرحلة ثمانية مرات، ولكن لم تكن اثنتان منها متشابهتين. كان الموسم هو الذى يحدد نوع الحياة البرية التى يمكن مشاهدتها على ضفتى النيل مع تنوع المسافرين.

كان هناك الكثير من الرسميين ورجال الإرساليات الذين يستغلون الباخرة فى نزهات ترويحية قصيرة، ويختفون أحياناً فى أماكن غير مأهولة، كما كان هناك نوع من السواح يأتون من وقت إلى آخر، إلى جانب بعض الأشخاص الغربيين الذين كانوا يأتون إلى أفريقيا بحثاً عن حياة جديدة بعد انتهاء الحرب. كانت لعبة (البريدج) مفيدة لتزجية الوقت، حيث يتم تكوين رباعيات مرحة متعددة اللغات، بالإضافة إلى أخرى أعلى من مستوانا بكثير مع الزملاء الحكوميين.

كان لدينا كمية كبيرة من الأمتعة (انظر الملحق فى نهاية هذه الحكاية) فقد كان ديفيد يحتاج إلى مجاهر، وطاولات للعمل، وبعض المعدات الأخرى. كذلك كان علينا أن نحمل معنا فراشنا، وحمام المشمع، والناموسيات، وأوانى المطبخ، وبعض قطع الأثاث الضرورية. وإلى جانب ملابس العمل اليومية - القميص الكاكى والبنطلون القصير لديفيد، والفستان القطنى الخشن (أو ما كان يسميه ديفيد بمريلة لعب الأطفال) الذى كنت أرتديه أنا - كان يجب أن تكون معنا بعض الملابس المحترمة التى نقابل بها زملاءنا فى رئاسة المديرية، أو فى المراكز، الذين عندما يكونون داخل بيوتهم يعيشون بنفس طريقتنا عندما كنا فى ود مدنى. كان يرافقنا فى السفرية خادمان، واثنان من فنيى المختبر، ولكنهم كانوا ضمن ركاب الصنادل، وقد حملوا معهم أيضاً أمتعتهم بما فيها أسرتهم، وتم فيما بعد شحن كل هذا العفش على ظهر ذلك اللورى البدفورد حمولة ثلاثة طن الذى أقلنا من جوبا.

كنا، إذا لم نسكن مع زملائنا أو نستلف منازلهم عندما يكونون فى إجازة، نقيم لمدة أسابيع بأكملها فى الاستراحات الحكومية المكونة من سقف مرتفع من القش ليحمى حوائط الطين المنخفضة التى تتألف منها الاستراحة. كان ارتفاع هذه الحوائط حوالى ثلاثة أقدام فيما عدا قسم منفصل أكثر ارتفاعاً

يستخدم للاستحمام وتغيير الملابس. لقد كانت حياة شبيهة بالإقامة فى معسكر خلوى. كنا كنوع من البذخ ننعم بشىء من الرفاهية يتمثل فى ناموسية من الشاش فى شكل غرفة مضادة للباعوض تتدلى من السقف ونستخدمها عند النوم وعندما نتناول الطعام، وكانت تحمينا أيضاً من تلك الوطاويط الصغيرة بلونها البنى والأبيض التى كانت معلقة على العارضة الخشبية للسقف خوفاً من أن تسقط على طبق الشورية أثناء تناولنا لوجباتنا. كذلك من بين وسائل الترف الأخرى كنا نضع على الأرضية بساطاً أو اثنين من النوع الخشن الذى سرعان ما يتحول إلى كتلة من الطين حالما ابتل بالماء.

كان طباخنا يصنع لنا العجائب مستخدماً (وابور الجاز)، وصينية،وسطح حديدى، ومشواة، وعلبة بسكويت فارغة كفرن. غير أننا كنا نواجه بعض الصعوبات فى التزود بالمؤن، خاصة اللحوم فى مناطق ذبابة التسى تسى، والخضروات الطازجة. ولذلك كنا نحمل معنا الأطعمة المعلبة المركزة، أو الفواكه والخضروات المجففة، إذ لا شىء غيرها يمكن الاحتفاظ به لأكثر من يوم واحد. وكان ديفيد فى بعض الأحيان يصطاد بعض دجاج الوادى المعروف بلحمه اللذيذ، وكنت أقوم بزراعة الخردل والرشاد إذا مكثنا فى مكان لأكثر من أسبوع. وكان الخدم والموظفون يحصلون على احتياجاتهم فى الأسواق المحلية، ويربون الدجاج الذى كانوا ينزلونه ليلتقط الحب فى كل مكان نتوقف فيه، وكانوا أحياناً يحصلون منه على البيض الذى مع أنه كان عسير المضغ ولكن بالرغم من ذلك كان من بين وجباتنا الممتعة. أما إذا توقعنا لقاء مع بعض الزملاء، فكنا نشترى خروفاً أو تيساً نحمله معنا ونطعمه إلى أن يحين وقت الحاجة إليه. وكانت ذروة كرم الضيافة تتجلى حينما نقوم بإعداد وجبة للجميع بمن فى ذلك الموظفين، حيث يؤكل الطعام بأكمله مرة واحدة مثلما يحدث فى مأدبة عيد الفصح. إن الشمبانيا مع الذ الأطعمة ما كان يمكن أن توفر لنا وضيوفنا أكثر من ذلك الجو الملىء بالمرح والسرور.

كان الكثير من عمل ديفيد يشتمل على جمع، وفحص، وتصنيف الحشرات التى يحتمل أن تكون ناقلة للأمراض، وكان عليه أن يستفيد من ضوء النهار القصير. وحيث أننا لم نكن نستمتع بقيلولة بعد الظهر، فكنا نتشوق إلى النوم فى حوالى الثامنة مساء، ولكن كنا نفضل البقاء مستيقظين إلى وقت متأخر حتى ننام جيدا طوال ما تبقى من الليل. كانت معنا بعض الكتب من بينها (الأعمال الكاملة لشكسبير) التى قرأناها خطبة خطبة بالتثاوب، وكنا نفاجئ بعضنا بقراءة بعض المقاطع البالغة البذاءة التى ربما تكون قد حذفت من المقرر الدراسى. وبما أنه لم تكن لى معرفة بمادة العلوم، فكنت نادراً ما أساعد فى أعمال المختبر، ونظراً لرداءة المناخ، وتأثيره على كل شىء فكان علىّ القيام دوماً بتصليح الملابس والمعدات أو اختراع بدائل لها.

بعد أيام قلائل، ونحن على بعد أميال من المستشفيات والأطباء، أصبحت لدينا شفخانة بدائية. كانت معرفتى القليلة بالإسعافات الأولية، وبعض المعلومات عن التمريض المنزلى العالقة فى ذاكرتى منذ أيام جمعيات المرشدات والصليب الأحمر، مع بعض الأدوية البسيطة لعلاج الإمساك أو العكس، والصداع، والتقيحات الناجمة عن طعنات الشوك، وبمساعدة الحظ، قد أفادتنا كثيراً فى مواجهة معظم هذه الحالات. أما الحالات السيئة فكنا نقوم بتحويلها إلى المستشفى، أو نكمن لطبيب فى جولة لنعرضها عليه. كانت معرفتى بالنواحى العلمية محدودة جداً إلا فيما يخصنى مباشرة.

شرحت لديفيد كيف يمكن ضرب الذبابة المنزلية من الخلف، لأنها فى العادة تقلع متجهة إلى الخلف، ولكن لم يكن مسموحاً لى فى الأيام العادية أن أضرب أى شىء. أما أنواع الحشرات الجديدة أو غير المألوفة التى قد تظهر فى أى مكان، فكنت قد تلقيت تدريباً جيداً على كيفية التعامل معها، فإذا لسعتنى حشرة فى الجزء الأسفل من جسمى عند النوم، كنت أغطيها بيدى وأصرخ منادية ديفيد الذى بدوره يقوم بوضعها فى أنبوبة اختبار ثم يرفعها إلى

الضوء ويقول: "عجباً، إنها من النوع الذى يمتص النبات؛ كان الأفضل لها أن تحل على نبتة" دون أن يقول شيئاً عن كونها قد ضلت طريقها معتبرة أننى زهرة جميلة أو أى شىء من هذا القبيل. وهكذا تصبح الضحية عينة، وينتهى بها المطاف فى متحف التاريخ الطبيعى وعليها ديباجة تقول: (وُجدت وهى تلسع "رجلا" "Man" Found biting) والرجل فى السودان هو العنصر المسيطر بلا جدال!!

كانت أغلب جولات ديفيد إلى جنوب السودان فى زمنى تتعلق بالذبابة الذلفاء (أو السوداء) التى تنقل داء كلابيات الذنب، وكان هذا المرض ينتشر بالقرب من الأنهار سريعة الجريان التى كانت قليلة هناك، ويسبب للناس تعاسة شديدة. وكانت لسعة هذه الذبابة مؤلمة جداً لمن يرتدون القليل من الملابس ويقضون كل اليوم خارج المنازل، كما أنها قد تودع فى جسم الإنسان بعض الطفيليات التى تستمر فى التكاثر، مما يسبب حكة وأضرار جلدية تؤدى إلى الإصابة بالمرض، ولربما فى حالات وأماكن معينة إلى مرض (عمى الأنهار). وبما أن الذباب الأسود يطير بسرعة وبعيداً عن أماكن توالده الأصلية، فلا أعتقد أن أبحاث ديفيد وغيره من العلماء فى مختلف الدول قد توصلت إلى أية تدابير للسيطرة عليه. لقد ذهبنا إلى أماكن المياه الجارية التى يمكن أن تكون موطناً للطيور والأزهار الجميلة، وهناك كنا نقى أنفسنا بارتداء البناطلين والأكمام الطويلة، ونمسح الأجزاء المكشوفة من أجسادنا بدهان طارد للحشرات، وفى العادة كان البعوض والذباب الرملى أكثر ما يزعجنا فى الليل، أما الذباب الأسود (الأذلف) والتسى تسى، فكان يقوم بأداء خدمة اللسع طوال الأربع وعشرين ساعة!

كانت أول جولة لى فى الجنوب من أشق الجولات التى قمت بها أبداً، فقد سلكنا ذلك الطريق الوعر المشهور المؤدى من واو إلى راجا التى تقع بالقرب من حدود أفريقيا الاستوائية والذى يعبر العديد من الأنهار، بعضها موسمى

شيدت عليه جسور كانت تنهار أحياناً. كان لورى (الفورد) الذى أقلنا يفعل بنا أشياء أؤكد أنها لم تكن تدور فى خلد من قاموا بصناعته، منها أنه يستطيع أن يسير فى اتجاه لا يوجد به أى طريق، أو يزحف داخلاً و خارجاً من الخيران الجافة. كان أغلب السكان المحليين التعساء من بقايا تلك القبائل التى عانت كثيراً من تجارة الرقيق فى القرن الماضى، وكان ينقصها التنظيم الذى مكن زعماء القبائل فى الأماكن الأخرى من المحافظة على مواردهم الطبيعية. وبالرغم من أنه كانت هناك بعثة إرسالية من القساوسة الإيطاليين تقدم لهم بعض الخدمات، إلا أنهم كانوا فى مثل فقر القوم الذين جاءوا لخدمتهم. وصلنا إلى راجا على أى حال، وعدنا منها ونحن فى أسوأ حالة من التعب والإعياء، ولكن انتهى بنا الأمر بالإقامة مع مفتش المركز الكريم المضياف. وعندما غادرنا وابتعد بنا اللورى مسافة، صاح فينا المفتش قائلاً: "إحذروا الفيلة"، فتوقفنا وطلبنا منه أن يشرح لنا ما كان يقصد، فأوضح لنا أن الأفيال فى بعض الأوقات تغير أماكن شربها، وتتجه إلى (نيام ليل) وهى البلدة التى كنا نقصدها، و لكنه أضاف بارتياح أنها لن تصل إلى هناك قبل أسبوعين، ثم قال: "تسلقوا الشجر، وسوف ترون المسامير". كان هذا هو أول شىء بدأنا البحث عنه عندما وصلنا، وبالفعل وجدنا سلماً من المسامير التى دقت على جذع شجرة، ومع أن تسلق هذا السلم كان يبدو صعباً، لكن من المؤكد أننا كنا سنقدر عليه إذا لزم الأمر.

كانت تحكى فى السودان الكثير من القصص عن الرجال الذين قاموا بإمداد أسلاك التلغراف عبر الغابات التى لم يطرقها أحد من قبل، والذين لم يصدقوا فيما بعد ما كانوا يتسلقونه للنجاة من حيواناتها المفترسة. كانت الحيوانات فى العادة تحرص على تجنبنا، كما كنا أيضاً نبتعد عن طريقها، والمرة الوحيدة التى اضطررنا فيها لبناء (زريبة) من الأشواك كانت بالليل فى مكان موحش يسمى (كبويتا)، وذلك لنحمى أنفسنا من الضباع. أما فى نيام ليل، فكانت الأحوال هادئة، فيما عدا بعض القرود التى كانت تتحرك من أكواخ

الاستراحة وهى تثرثر، بينما كنا نجلس على ضفة نهر جميلة، وكان أحد طيور (الرفراف) العملاقة بلونه البنى، وهو الوحيد الذى رأيته فى حياتى، يغوص باستمرار بحثاً عن سمكة يقتات بها. لقد استطاع الطباخ أن يعد لنا بمعجزة وجبة عشاء طيبة من ما تبقى لدينا من مؤن، حيث احتفلنا فى تلك الليلة بعيد ميلادى ونحن نحتسى آخر كاس تبقى لنا من زجاجة الجن.

هناك حدث عارض جعلنى أشعر بجهلى العميق لعملى الطبى الجانبى. كنا ذات يوم نسير بالعربة فى منطقة الزاندى بالاستوائية، ومررنا برجل صغير الحجم يحمل عل ظهره رجلاً آخر اكبر منه حجما بكثير. وعندما توقفنا رأينا الرجل الكبير ملطخاً بالدم بينما كان الرجل الآخر يحمله فى الطريق إلى المستشفى. كان الرجل مصاباً بجرح عميق بالقرب من الشريان الفخذي، مع خدش عميق يمتد من أربية الفخذ إلى الكتف. لذلك حملناه معنا على العربة، وطلبنا من مرافقينا أن يمنعوه من الحركة والكلام. ياله كان من أمل! لقد علمنا من خلال ما كان يدور من حديث صاخب أن الرجل كان ذاهباً إلى المستشفى بشكوى بسيطة، وفى الطريق فكر فى تناول بعض الفاكهة، فغرز رمحه فى الأرض تحت شجرة الفاكهة ثم سقط عليه. وحيث أنه كانت للزاندى طقوس دينية تستلزم ذبح دجاجة وفحص أمعائها للتكهن بأسباب المرض، فقد كان المريض يحمل معه دجاجة لهذا الغرض. غير أن نقله إلى المستشفى الذى تم بهذه الطريقة الفخمة جعله يفكر فى حصيلة ينتفع بها بأى حال من الأحوال، ولذلك قرر أن يبيع لنا الدجاجة ودخل معنا فى مساومة استغرقت وقتاً طويلاً. وصلنا إلى المستشفى بعد الظهر، ووجدنا الجميع نائمين، فأيقظنا بعضهم، وطلبنا منهم إحضار نقالة. حملوا المريض على النقالة، ولكنهم أسقطوها فوراً، وأخذوا يضحكون بصوت عال لم أسمع مثله من قبل، والعجيب فى الأمر أن مريضنا كان يشاركهم الضحك بحماس شديد. أدرت رأسى من فرط اليأس، ولكن لم يكن هناك ما يدعو إلى القلق، ذلك أن بيتر أبوت،

الطبيب المسئول عن المستشفى، قرر أن الرجل بحالة صحية جيدة حيث غادر المستشفى بعد أيام قلائل. (أما نحن فوجدنا أننا قد اشترينا الدجاجة!!).

لا جدال أن روح المرح والدعابة لدى السودانيين كانت تتسم بنوع من الفجاجة، ولكنى سأظل أذكر ببالغ الغبطة والسرور ما كنت أسمعه حولى من الضحكات المدوية. كانت تحدث بعض الإخفاقات المنزلية الغريبة والمدهشة، خاصة إذا قام المرء بمجهود اجتماعى غير عادي. لم نعد نهتم بما يحدث من تصرفات كإحضار فطيرة مع بطاطس مهروس ملون بالقرمز، فقد تعلمنا أنه لا بد من حدوث مثل هذا الارتباك إذا ما أريد لأى حفل أن يستمر، ولا بد أن يأتى اليوم الذى سنعود فيه إلى وطننا فننسى كل تلك الزلات السلوكية. وفى هذا الأثناء فإن الضحكات الصادقة بكل ما فيها من شفاء للنفوس لن تجد من التقدير والعرفان بأكثر مما لقيته منا فى السودان.

أذكر أننى فى إحدى المرات قد أصبت برعب مطبق، واعتقد أن ديفيد قد شاركنى فى ذلك أيضاً. كنا فى مدينة طمبرة ننزل فى إحدى استراحات الغابة من النوع الذى وصفته آنفاً. وبينما كنا نتناول بعض المشروبات فى المساء حول المصباح، إذا بنا نسمع صوت انزلاق ثم هدير خافت. نظرنا إلى بعضنا ولكن دون أن ننطق بكلمة، حيث اتضح فيما بعد أن كلاً منا كان لديه نفس الاعتقاد بأنه يوجد فهد على السطح يرانا ولا نراه. أطفأ ديفيد المصباح، وأحضر بندقيته التى رغم أنها كانت من عيار ٢٢.٠، إلا أن تأثيرها كان مخيفاً. جلسنا نسترق السمع، فجاءنا صوت الانزلاق والهدير مرة أخرى. بدأت أتصبب عرقاً وأنا ملتصقة بالمكان الذى كنت أجلس فيه، وقد شلّنى الخوف والرعب تماماً. ثم سمعنا صوت هدير آخر، ولكن فى هذه المرة كان يبدو مختلفاً. تكلمنا إلى بعضنا لأول مرة منذ أن بدأنا نسمع الصوت مما شجعنا للبحث عن مصدره. كان مشمع الاستحمام مسنداً على الجدار ليجف، ولكنه بدأ ينزلق عدة بوصات إلى الأسفل مصدراً ذلك (الهدير). لم ينتابنى فى حياتى مثل ذلك الشعور

بالارتياح، ليس لأن الخطر كان مجرد خيال فحسب، وإنما كيف كانت ستبدو القصة فيما لو أطلق ديفيد رصاصة من بندقيته؟! إن القصص فى السودان تعيش طويلاً، ولذلك كنا سنظل إلى الأبد (أولئك الناس الذين استبد بهم الخوف فأطلقوا النار على "حمّامهم" معتقدين أنه فهد!).

عندما جاء الاستقلال فى عام ١٩٥٥، ذهب ديفيد أولاً إلى سيراليون لبضعة أشهر قضاها لوحده فى الجزء الداخلى من البلاد لأنه لم يجد سكناً لى. كانت شركة للحديد تنقب هناك، وطلبت من معهد روس (Ross Inistitute) إجراء دراسة لبحث إمكانية وجود أى نوع من أمراض المناطق الحارة التى تنقلها الحشرات فى نطاق المنطقة الصغيرة التى تم التنقيب فيها. لم يكن هناك طريق معبد إلى الداخل، ولذلك كان عليه أن يذهب مسافة اثنى عشر ميلاً سيراً على الأقدام حتى يصل إلى القاعدة. كنت أخشى عليه أن يتوه أثناء إجرائه لأبحاثه، ولذلك أعطيته بوصلة، ولكنه لم يستفد منها لوجود كميات كبيرة من الحديد فى المنطقة. غير أنه عاد من هناك بسلام، وتم تعيينه فى وظيفة مستديمة لدى مجلس البحوث الطبية لينضم إلى المجموعات التى كانت تعمل فى جميع أنحاء المناطق الحارة بالعالم، كما كان أحياناً يعمل بالإعارة لدى منظمة الصحة العالمية.

كان مركزنا فى لندن، حيث منح ديفيد تسهيلات للعمل فى متحف التاريخ الطبيعى. كنت أذهب معه، متى ما تيسر لى ذلك، إلى الأماكن الساحرة فى كل من الهند، وإيران، وماليزيا، وأمريكا الجنوبية والوسطى، وبعض الأجزاء فى أفريقيا، وإلى بعض المدن مثل نيويورك، وواشنطون، وكانبيرا، وجنيف، ومونتوبيليه لحضور بعض المؤتمرات. وكان آخر عمل قام به خارج البلاد فى بورنيو مع فريق من مجلس البحوث الطبية لفحص طفيليات الملاريا لدى نوع من القرود من الفصيلة العليا التى يحتمل أن تساعد فى تشخيص الأمراض البشرية. غير أنه بالنسبة لكلينا معاً، لم نجد مكاناً أفضل من السودان، حيث

كان لدى ديفيد فريقه الخاص الذى ارتبط به من خلال علاقة طويلة. لقد افتقدنا صداقة ورفقة العمل فى حكومة السودان، ذلك المجتمع الذى ربما تم اختيار أفراده بعناية فائقة، ووفقاً لقناعاتهم الذاتية، ولذلك جاء متجانساً روحاً وطبعاً. كذلك افتقدنا المساعدين السودانيين الذين كانوا يعملون معنا بروح الفريق، والذين كنا نعرفهم معرفة جيدة، ولا أظن أننا كنا الوحيدين الذين نعتقد أن السنوات التى قضيناها فى السودان كانت من أفضل سنوات حياتنا.

ليزلى لويس (Lseley Lewis)

■■■

ملحق

نسخة من القائمة التي كنت استخدمها دائماً لتجميع ما نحتاجه عند القيام بجولة

أسرة خلوية - آنية فخارية وأكواب زجاجية - ويسكى - مراتب - ملاعق وسكاكين وشوك - جن - ناموسيات مع أعوادها - فوطة طاولة - غرفة بعوض - أغطية وقاية من الذباب - عصير ليمون - حمام مشمع - زمزميات - آلة تصوير وأفلام - بشاكير وممسحة أرجل - جردل مشمع - مخدات - صابون - حبل - نظارات سوداء - طاولات قابلة للطى - تنك ماء - صندوق إسعافات أولية - كراسى - مطرقة ومسامير - مضرب ذباب - حصير - بطاطس - فليت - علاقات ملابس - دقيق - أحذية بعوض - صينية - أرز - ورق تواليت - رتينة بتروماكس مع قطع الغيار - شاى - ورق للكتابة - سكر - أقلام وحبر - مصابيح هوريكين - ملح وفلفل وخردل - لماع أحذية - شمع - زبدة معلبة - كتشينة - طورشى وحجارة بطارية - حليب معلب - كتب - وأبور جاز وإبرة - دقيق ذرة شامى - نشاء - بكرة خيط - سبيرتو - مسحوق كرى - أمتعة شخصية - جاز - فواكه مجففة وبسلة وعدس - أدوات مكتبية - كبريت - بصل - سجائر - فأس - فواكه معلبة - حلويات - عدة مطبخ حسب ذوق الطباخ - مرية ومرمليد - مجهر وشرائح وإبرة - مكواة وقطعة قماش لكى الملابس - لحم بقرى مملح - حذاء للوحل.

••

21

حكاية الحفيــــدة

Sudan Canterbury Tales

حاشيـة

نُشرت الحكاية التالية فى صحيفة الاسبكتيتور الصادرة بتاريخ ٢١ سبتمبر ١٩٩٧، وقد كتبتها لوسيندا بريدن Lucinda Bredin حفيدة جورج ودوتس بريدن. ذهب جورج بريدن إلى السودان بعد تخرجه من كلية أوريل (Oriel College) بجامعة أوكسفورد فى عام ١٩٢٢ بعد نهاية الحرب العالمية الأولى التى التحق خلالها بسلاح المهندسين الملكى، وفى السودان عمل بمديريات النيل الأبيض، وكردفان، ودارفور قبل أن يصبح مديراً لمديرية النيل الأزرق من عام ١٩٤١ إلى عام ١٩٤٨. وبعد أن تقاعد من السودان عمل مسجلاً لكلية بمبروك (Pembroke College) بأكسفورد حتى وفاته فى عام ١٩٨٣ التى حدثت فور إلقائه خطاباً رائعاً أمام حفل عشاء بالكلية. أما زوجته دوتس، فقد وصفها ابنها هيو (Hugh) فى خطابه التذكارى الذى ألقاه فى أغسطس عام ١٩٩٧ بأنها "غريبة الأطوار حقاً". رافقت زوجها طوال فترة عمله بالسودان، وكانت شريكه حياته فى رئاسات المراكز، والمديريات، وفى الخرطوم.

ولدت دوتس فى جالفستون بولاية تكساس، وكان والدها توماس إيليسون Thomas Ellison يعمل فى بورصة القطن بمدينة ليفربول، ويتنقل فى شكل مثلث بين جالفستون، ونيويورك، وليفربول، ولكن سرعان ما ارتحلت عائلة إيليسون إلى ويست كيربى (West Kirby) بمقاطعة ويرال (Wirral) وفى مدرسة (وايكومب آبى Wycombe Abbey) نجحت دوتس فى بناء العديد من

الصداقات السريعة، وبصفة خاصة مع فتاة خجولة ذكية هادئة الطبع تسمى إيلين بريدن Eileen Bredin . كانت دوتس بطلة فى لعبة (اللكروس)، وهى التى سببت حرجاً لناظرة المدرسة، مس وايتهيد، (Miss Whitehead) عندما كانت تقطع شريحة جعدة من لحم الخنزير مما تسبب فى طيران نصفها ليسقط فى طبق رئيس مجلس العموم، الشخصية المشهوره التى دعتها المدرسة لحضور حفل اختتام الفترة الدراسية.

فى عام ١٩١٤ استسلمت وايكومب لظروف الحرب، فاتجهت دوتس وابنة عمها هيلين إلى تلقى دروس فى قيادة السيارات وصيانتها، بما فى ذلك فك وربط (الكاربوريتر) وهى مهارة لا أحد يذكر أن دوتس كانت تمارسها فى أواخر عمرها، بل بالعكس كانت علاقتها بأى شىء آلى يشوبها نوع من التوتر إن لم نقل المقاومة، فكانت سحانة البن مثلاً تبطئ فى العمل إلى أن تعطلت تماماً، وكان جهاز نقل السرعة فى السيارة يصرخ طالباً الرحمة، وغسالة الأوانى الهالكة تسحق صحون الصينى وتحولها إلى شظايا صغيرة. كانت الحرب، بالنسبة لدوتس، تعنى من بين أشياء أخرى كثيرة، قيادة سيارة أحد أطباء ليفربول، أثناء مروره على مرضاه، وانتزاع قطع خيوط طويلة من رغيف ذى نوعية رديئة، وفوق ذلك كله قلق شديد على شقيقها فرويز (Froize) الحاصل على النيشان العسكرى فى الجبهة الغربية.

بالرغم من رداءة المناخ فى السودان، وما ينتشر فيه من أمراض ، خاصة الملاريا، التى أصابت كل من عمل هناك تقريباً، إلا أن طول العمر كان هو السمة البارزة لعدد مدهش من الأشخاص الذين قضوا فترة طويلة من حياتهم هناك، وكانت دوتس بريدن واحدة من مجموعة أشخاص تجاوزوا المائة من العمر.

••

حكاية الحفيدة

عندما اقترب العيد المئوى لميلاد جدتى، أصبح مثار أهمية قصوى أثناء محادثة مع والدى الذى قال لى: "لقد وضعت جدولاً زمنياً يغطى خمسة وأربعين شخصاً موزعين على ثلاثة أيام، بحيث يسمح لكل منهم بقضاء ساعتين معها، ثم يتعين عليهم أن يغادروا بعد ذلك". كانت جدتى تعيش لوحدها فى الريف، وهى من النوع الذى لا يحب الحفلات، خاصة إذا تعارضت مع مواعيد سباق الخيل، ولكن نسبة إلى اقتراب عيد ميلادها المئوى، فكان لا بد من عمل شىء ما.

تلى ذلك مناقشات لا نهاية لها: حول الطعام، والمدعوين، والتوقيت، وباقات الورد، "ثم هناك البرقية"، قال الوالد، "البرقية الرسمية من الملكة". "البرقية؟"، سألت الوالد لاهثة. كان البريد يأتينا بتهانى عيد ميلاد غير مرغوب فيها من ماكدونالدز، وريدرز دايجست، ومن أحد الفنادق باليونان له اسم مرعب، وكنا نفترض أن القصر يُعطى نسخة من تهانى الميلاد المئوية التى تقوم بإعدادها دار سانت كاترين. "آه، ليس ذلك صحيحاً"، قال أبى، ثم أضاف: "فى الواقع أننى للتو اتصلت هاتفياً بالمكتب الصحفى للملكة".

جاء اهتمام والدى بمشكلة البرقية بعد أن نبهته إلى ذلك ابنة عمه التى سبق أن طلبت برقية مماثلة لوالدتها، العمة (دوت) التى يناهز عمرها الآن ١٠٢ سنة حيث قالت للوالد بغرور: "طلبنا البرقية بواسطة اللورد الملازم الأول قبل ثلاثة أشهر. كان ذلك قبل ثلاث سنوات، ولكن يبدو أن الإجراءات قد تغيرت الآن". لذلك نُصح الوالد بالاتصال بمكتب الاحتفالات السنوية بقصر بكنجهام، وهناك أكدوا له ضرورة أن يطلب (رسالة تلغرافية)، وكان بإمكاننا أن نطلبها بواسطة هذا المكتب، ولكنهم طلبوا أن يصلهم إخطار قبل ثلاثة أسابيع، كما طلبوا نسخة من شهادة الميلاد. غير أن الإجراء الصحيح هو تقديم الطلب

بواسطة وزارة الضمان الاجتماعى لأن كافة المعلومات موجودة لديهم فى ملفاتهم، ولا بد من قيام مكتب الإعانات المحلى بإجراء مقابلة مع (المعمرة) للتأكد من رغبتها فى إرسال برقية لها".

يبدو أن هذه الإيماءة العفوية قد تلاشت بأسرع من حافظة استثمارية مودعة لدى بنك مورجان جرينفيل. ثم كانت هناك مشكلة أخرى. كان لجدتى موقف ربما يكون تقليدياً، بصفتها أرملة لمدير مديرية كان يعمل فى مستعمرة أفريقية، تجاه بعض الكلمات مثل "الإعانات" و"الضمان الاجتماعى". وقد طرأت فى الواقع حادثة مع وزارة الضمان الاجتماعى عندما عرضت عليها خدماتها بتقديم بعض المساعدات المنزلية، فقد عالجت هذا الأمر بطريقة غير مهذبة عندما أعلنت لهم عبر الباب الذى كان مفتوحاً أنها لا تريد أن يأتى أحد من المجلس ليحشر نفسه فى شؤونها الخاصة. كان كل ذلك واضحاً فى ذهن الوالد، ولكن كيف يستطيع مندوب المجلس دخول المنزل، ناهيك عن أن يعرف ما إذا كانت ترغب فى البرقية أم لا؟ قال الوالد بنبرة استسلامية: "ستقول لا ... إنها تقول لا لجميع الأشياء الأخرى".

لقد أبدت السيدة التى كانت تعمل بالفرع المحلى لوزارة الضمان الاجتماعى - كان بيتر ليلى (Peter Lilley) وزير دولة بهذه الوزارة بمقر الحكومة فى وايتهول - تعاطفها تجاه الموضوع قائلة: " نحن نتفهم المشكلة. إن كبار السن لا يبالون بالقانون، ولكن للأسف لا بد من إجراء المقابلة مع السيدة العجوز لأجل ... مراجعة أوراقها الثبوتية، وأخشى أننا بحاجة إلى دليل. كانت هناك حالات سابقة .. " قالتها وهى تتمتم، ثم أضافت: " والشىء الآخر أننا يجب أن نسألها عما إذا كانت تريد البرقية، خاصة أن كبار السن قد يخدعوك فيما يتعلق بأعمارهم". وهكذا اتضح أنه لا مجال لأن تكون البرقية مفاجأة.

كانت المرة الأولى التى علمت فيها أن وزارة الضمان الاجتماعى قد قامت بزيارة جدتى عندما اتصلت جدتى بنا هاتفياً. كان صوتها يدل على أنها غير مسرورة عندما قالت: "جاء رجل من المجلس يطلب الكثير من الأشياء، ولم أجد منها أى شىء. إننى مشوشة الذهن". لقد سمحت له جدتى بالدخول، ولكنها مع الأسف لم تكن تلبس سماعة الأذن، ولذلك فإن التشاور المسبق بشأن البرقية قد تلقته فى الواقع آذان صماء. تقابلنا مع مندوب الضمان الاجتماعى فى زيارته الثانية. كان رجلاً ضخماً من يوركشير يحمل حقيبة أوراق منتفخة تبدو كأنها تحتوى على (سندوتشات) بائتة. ابتدرنا بالحديث قائلاً: "هناك معضلة؛ ليس لوالدتكم شهادة ميلاد". أردنا أن نقول له: "طبعاً ليس لديها شهادة ميلاد وهى فى عمر المئة". من يستطيع أن يحتفظ بقطعة من الورق قد كتبت عندما كانت الملكة فكتوريا لا تزال على العرش؟ ثم كانت هناك معضلة أخرى أشد وأنكى، فلقد شاء القدر أن تولد جدتى فى جالفستون بتكساس، ومعنى ذلك أننا لا نستطيع حتى أن نهرع إلى مكتب السجلات لنستخرج لها شهادة ميلاد جديدة.

وهكذا بدأت البرقية تسبب لنا مشاكل أكثر بكثير من أى شىء أرسله زيمرمان[1] (Zimmermann)، ولكن مندوب الضمان الاجتماعى تدخل فى الحديث وقال ببجاحة: "انظروا؛ يمكن أن نكتفى بجواز السفر، أو شهادة الزواج، وحتى بدون هاتين الوثيقتين أرى أن لديها حجة قوية، ولكن هل يمكن إفادتنا إذا لم يعد هناك سبب للاحتفال؟". فهمنا من ذلك أنه يعنى إذا سقطت جدتى عند الحاجز الأخير. ثم أردف قائلاً: "كانت هناك حالات سابقة مؤسفة جداً حيث تم تسليم برقيات التهانى أثناء الجنازة".

---

(١) زيمرمان هو وزير خارجية ألمانيا عام ١٩١٧ والذى أرسل برقية إلى حكومة المكسيك يطلب تعاونها مع ألمانيا نظير إعطائهم ولايات نيو مكسكو، وأريزونا الأمريكية. وقعت البرقية فى أيدى الأمريكان الذين أعلنوها، وكانت السبب المباشر لدخول أمريكا الحرب لصالح الحلفاء وضد ألمانيا. (المترجم).

واخيراً جاء اليوم الموعود، وكذلك جاءت جدتى. قام بيريز، ابن عمى، بإعداد جهاز الفيديو المسجل، وضغط على زر الصمت، بينما ظل أجيال العائلة الأربعة ينتظرون. فى الساعة التاسعة والنصف تم تنظيف مائدة الإفطار وهى المكان المعتاد لفتح الرسائل، ولكن لم يكن هناك ما يشير إلى وصول البريد. الساعة العاشرة، الحادية عشرة، الظهر، ولم يأت البريد. أى نوع من البرقيات هذه - أو الرسائل التلغرافية - التى تصل بعد الغداء؟ لم يستطع والدى أن يتحمل أكثر من ذلك، وفكر فى الاتصال هاتفياً لمعرفة ما إذا كان قد حدث إضراب مفاجئ، خاصة وأنه كان هناك شىء من هذا فى اليوم السابق.

ثم سمعنا جلبة على الطريق الخاص المغطى بالحصى والمؤدى إلى المنزل. كانت عربة البريد الحمراء تشق طريقها إلى الباب الأمامى. جاء ساعى البريد بشعره الطويل غير المنتظم يحمل حزمة كبيرة، ويمسك فى يده برسالة تلغرافية "مطبوعة على ورق منتج من غابات محمية بالكامل". فتحنا البرقية التى كانت تقول:

"تهانى حارة بمناسبة عيد ميلادكم المئوى

مع أطيب أمنياتى لكم بيوم ممتع"

(توقيع) بيتر ليلى

●●

"بيتر ليلى؟ لا أعرفه"، قالت جدتى. "هل كان فى السودان؟" كانت لحظة لا تحتمل. لقد وصلت أكثر من ستين بطاقة تهنئة من أماكن نائية مثل مونتريال، ونيو ساوث ويلز، وهاوستون، ولكن لم يصل أى شىء من الملكة. لا شك إذن أن الملكة فى مشكلة. يبدو أن ساعى البريد أراد أن يستغل المناسبة ليجعل منها نوعاً من الدراما، فأخذ يلوح بمغلف آخر منتج أيضاً من غابات صحيحة من الناحية السياسية، ويكشف عن صورة لقلعة ويندسور رسمها بول هوجارث (Paul Hogarth) بألوان مائية، ويبدو كأنه قد قذف به بعنف من موقف حافلة

سياحية لا زالت ماكينتها تدور، وكان على جانبه الآخر الشارة الملكية منقوشة بالذهب، وورد فيه شيء من هذا القبيل:

"يسرني أن أبعث إليك بتهاني الحارة بمناسبة عيد ميلادك المئوي، مع أطيب أمنياتي لك بحفل ممتع في يوم الخميس ٨ أغسطس"

إليزابيث

رفعت جدتي البرقية إلى أنفها لتنظر إليها عن قرب ثم قالت: "من أخبرها؟".

لوسيندا بريدن (*Lucinda Bredin*)

■■■

ملحق (أ)

لقد تم من خلال هذه الحكاوى تغطية جميع المجالات التى عمل فيها الموظفون البريطانيون بالسودان بمختلف تنوعها، وكان من المستحيل فى هذه المرحلة تغطيتها بصورة أوسع من ذلك.

غير أنه يمكن الحصول على المزيد من المعلومات حول أعمال الأشخاص الآخرين فى المجالات الموضحة أدناه بالرجوع إلى المرشد الموجز لأرشيف السودان بمكتبة جامعة درم (Durham University Library Summary Guide To Sudan Archive) :

* الإدارة
* البحوث الزراعية
* الأنثروبولجيا (علم الإنسان)
* الآثار
* التدقيق المحاسبى
* الكنائس والبعثات التبشيرية
* الجمارك
* الاقتصاد والتجارة
* التربية والتعليم بما فى ذلك تعليم البنات
* الجيش المصرى
* الحشرات
* المالية
* الأسماك
* الغابات
* الصيد

* الجيولوجيا
* مشروع الجزيرة
* كلية غردون
* البستنة
* الري: مصلحة الرى السودانى ومصلحة الرى المصرى
* الأراضى وسياسة الأراضى
* القانون والقضاء
* الحكومة المحلية
* الطب
* التغذية
* الشرطة
* الخدمة السياسية
* البريد والبرق
* الصحة العامة
* الأشغال العامة
* السكة الحديد والبواخر
* مكافحة تجارة الرقيق
* صيانة التربة
* المخازن والمهمات
* وكالات السودان فى لندن والقاهرة
* قوة دفاع السودان
* الشركة الزراعية السودانية وشركة كسلا للأقطان
* الجامعة
* البيطرة
* مختبرات (ولكم) لأبحاث المناطق الحارة

■■■

ملحق (ب)

كتب كثبيرت سكوت، (Cuthbert Scott) الذى كان قد تحول من الخدمة السياسية إلى مصلحة المعارف، هذه القصيدة الذكية بعد أن قرأ منشوراً حول أنشطة دار الإكلريوس بالخرطوم. يقول المنشور:

"سيقدم المستر بار، مدير المديرية الاستوائية، فى يوم الجمعة القادم ورقة أمام جماعة النقاش بدار الإكليروس، وسيكون موضوع الورقة "كيف يكون الإله وكيف يعمل؟".

"ما شكله الإله بل كيف يعمل؟

أواه من سؤال يكتمه تحاشياً

موظفون دوننا رفعة ودرجة

أما نحن موظفى السلك السياسى

فهاماتنا يا صاح بنور المعرفة تأتلق

لأن الإله هو من يرعانا (بالاحترام موقر)

فدعنا نقولها تواضعاً مترعاً

إنه يعمل معنا بجهد لا يدخر

إذن كن شاكراً وأنت تؤمها

محاضرة بها الآذان تشنف

بليغها مدير مستنير يسوقها إليك

حديثاً شائقاً محوره (الإله، السلك السياسى السودانى)

■■■

ملحق (ج)

من ضمن العمل اليومى

فى منتصف الثلاثينات، وفى صباح يوم باكر، كنت مسافراً بالجمل من كتم إلى كبكابية، وهى مسافة تقرب من خمسين ميلاً، وكان يحرسنى رجل شرطة بمفرده، وقد سبقنا متاعنا إلى هناك. كنا قد وصلنا إلى طريق ضيق متعرج عندما ظهرت من بين الأشجار امرأة ربما يتراوح عمرها بين الثلاثين والخامسة والثلاثين، وهى تسير فى الاتجاه المعاكس. عند رؤيتنا جثت على رقعة معشوشبة من الأرض، ولدهشتى بدأت تربت على العشب الموجود أمامها.

تبادلنا التحية باللغة العربية التى كانت تعرف منها بعض الكلمات، ثم تولى رجل الشرطة ترجمة لغتها (الفوراوية) إلى العربية فأمكننا أن نتفاهم. سألتها ماذا تفعل هنا، فأجابت أنها فى طريقها إلى كتم فى شأن خاص.

قلت لها: "هل تحتاجين إلى مساعدة؟"، فأجابت: "لا، أريد فقط أن أقول شكراً لكم". قلت لها: عماذا؟ لم أقم تجاهك بأى عمل."

جاءت إجابتها دافئة من القلب.

قالت : أنظر، إننى الآن أقوم بمسيرة يومين إلى كتم، وقبل مجيئكم ما كنت أستطيع أن أخرج بمفردى من بيتى وأسير بأمان لمدة ساعتين. إننى لم أشاهد "انجليزى" من قبل. شكراً لكم".

قلت لها مرة أخرى: هل تريدين أى شيء؟ أجابت: "لا، أريد أن أقول فقط (شكراً لكم)، ويسرنى أننى قد قابلتك".

واصل كل منا رحلته، وآمل أنها قد شعرت بنوع من النشوة كما شعرت بها آنذاك، وفى مناسبات أخرى فيما بعد عندما أصبح العمل فى السودان صعباً، وأنا أسمع صوتها وهى تقول لى: (شكراً لكم).

ريجينالد دينجوول[1] (Reginald Dingwall)

■■■

---

(١) ريجنالد دينجوول عمل مفتشاً لمركز سنكات بمديرية كسلا فى أواخر الأربعينيات. كنت وقتها تلميذاً بالسنة الثانية بمدرسة هيا الأولية، ولن أنسى ذلك اليوم الذى زار فيه المدرسة، وجاء إلى فصلنا لحضور حصة الحساب مع الناظر. كان يضع نظارة سوداء على عينيه، ويرتدى قميصاً أبيض و(رداء) كاكى مع جوارب طويلة. جلس على كرسى بالقرب منى. كانت هذه أول مرة أرى فيها (خواجة) عن قرب، وبهرنى شكله ونظارته السوداء التى كانت تنعكس عليها صورتى. لا أدرى ما الذى جعلنى أعتقد أنه لا يرانى، فكنت كلما اتجه الناظر إلى السبورة أقوم بأداء حركات صبيانية؛ فتارة أخرج لسانى، وتارة أخرى أمد أصابعى حتى توشك أن تلامس النظارة، وأشهد كل ذلك منعكساً على النظارة فابتسم ابتسامة عريضة انبهاراً وإعجاباً. الغريب فى الأمر أن سعادة المفتش لم يأبه بذلك، ولم يحرك ساكناً. وعندما انتهى زمن الحصة إذا به يمسك بيدى ويأخذنى معه إلى مكتب الناظر وأنا ارتجف من الخوف. وهناك خلع النظارة وألبسنى إياها، وبدأ يأتى بنفس الحركات التى كنت أؤديها فى الفصل. يا للهول! ما كان منى إلا أن رميت بالنظارة وأطلقت ساقىّ إلى الريح. غبت عن المدرسة يومين متصنعاً المرض، إلى أن علم والدى بالأمر فأخذنى إلى المدرسة بعد (علقة) ساخنة، وما كان يعلم - لسوء حظى - أن مستر دينجوول قد ترك تعليمات مشددة بعدم عقابى مكتفياً بذلك الدرس العملى البليغ، وياله من درس!! (المترجم).

المصادر

- المصدر: الموسوعة العربية العالمية.
- جزر من النباتات الطافية تسد مجرى النهر
- عواصف محملة بغبار كثيف.
- سير ويليام أوبرين ليندساي (Sir William O'Brien Lindsay, KBE "Wob")
- سيريل ليونيل آرمسترونج "Cyril Lionel Armstrong, DSO MC, "Stuffy
- جورج أوريسا ماكسويل تايلور(George Orissa Maxwell Taylor)
- إدارة قبلية مستقلة.

- Observations on Leprosy among the Azande of Southern Sudan' (East African Medical journal, 1951,28, p.503)
- A Survey of Signs of Nutritional Ill-Health among the Azande of the Southern Sudan' (Transactions R.Soc. Trop Med. Hyg. 1950, 43, p 477
- A Survey of Signs of Nutritional Health - III among the Azandi of the Southern Sudan Transactions R Soc.Trop. Med. Hyg. 195, 43, p.477)
- Transactions R.Soc. Trop.Med. Hyg. 1953, 47,p.221
- Proceedings of VITH Internat. Congress Trop.Med. and Malaria, 4,565
- Transactions R. Trop. Med. Hyg. 1956,50, pp 11-30

- أنظر الملحق "ب"
- أنظر سيرته الذاتية التى كتبها فى مجلدين، وقام بترجمتها جى. سى. سكوت وبيتر هوج. المجلد الثانى يحتوى على مقالة نقدية مفيدة حول سياسة التعليم البريطانية كتبها جى. إن ساندرسون.
- أصبح نميرى رئيسا للجمهورية ودكتاتوراً (يساريا) خلال سبعينات القرن الماضى. دعينا، براون وأنا، لحضور العيد الأول لانقلابه العسكرى (١٩٧٠). كان القذافى (الذى استمر مدة أطول فى الحكم) يجلس فى الصف الأمامى ويشاهد عرض الدبابات الروسية، بينما كان لويس براون يتهامس مع نميرى.

• لقد تسلقنا جبل كسلا فى ديسمبر ١٩٤١ ، وكان تسلقا شاقاً استغرق زمنا طويلا. ثم كررنا التجربة فى عام ١٩٤٢ مع اثنين من طلبة الثانوى، ولا أعرف بعد ذلك غير تسلق واحد تم فى السبعينات. لم تكن شجرة الاكسير لذيذة الطعم.

• خير مثال على ذلك – فى رأيى – هو كتاب "سبل كسب العيش فى السودان" الذى يصاحبه دليل للمعلم ملئ بتفاصيل مفيدة عن تسع عائلات ريفية وثلاث حضرية، مع الرسومات والخرائط لتلاميذ السنة الثالثة بالمدارس الأولية. وضع الكتاب فريق من الأساتذة، وصمم الرسومات باتقان جرينلو (Greenlaw).

• توجد قائمة كاملة باللغتين العربية والإنجليزية وتتوفر كذلك مجموعة مختارة بالمصادفة، لربما من ربع عناوين الهدايا التذكارية الخاصة بجريفس وشخصى، فى أرشيف درم (Durham Archives) ولكن أشك فى وجود أى منها فى الخرطوم أو بخت الرضا.

• كان الجنيه المصرى فى ذلك الوقت يعادل واحد جنيها استرلينى وستة بنسات.

• إحدى قبائل البجا الرئيسية الثلاث فى شرق السودان، ويسكنون فى تلال البحر الأحمر، وهم الذين أوحوا للشاعر كبلنج بقصيدته المشهورة (Fuzzy Wuzzies).

• تجويف فى الأرض يتم حفره آليا أو يدويا ليصبح خزانا لمياه الأمطار.

• جميعهم كانوا بريطانيين حتى عام ١٩٥٥.

• سلسلة من الجزر الطافية التى تغطى مساحة كبيرة من النيل الأبيض، وتحتوى على مختلف النباتات الطافية مثل نبات البردى والحشائش الخ .

• حسب عادات النوير يكون الشخص مسئولاً عن القتل إذا كان هو أول من سدد للميت طعنة برمحه بصرف النظر عن اى رأى آخر يبديه الطبيب حول احتمال أن يكون قد أعقب ذلك طعنة أخرى من شخص آخر وتكون هى سبب الوفاة. وقد أدى قبول هذا المبدأ إلى تسهيل عملية تحديد الجناة وعقابهم، ولم يحدث أن ترددت فى تطبيق هذا المبدأ طوال فترة عملى بين النوير.

• شجر دائم الخضرة أصله من الهند، واستورد إلى السودان فى عهد الحكم الإنجليزى.

• ساحة كبيرة مفتوحة تمتد إلى مئات الياردات، وتتناثر فيها أشجار السنط والنيم.

• يوم ٢٦ ديسمبر التالى لعيد الميلاد الذى تقدم فيه الهدايا إلى سعاة البريد وغيرهم من المستخدمين الآخرين.(المترجم)

• كان لقب "أفندى" يطلق على الموظف المصرى أو السودانى، فمثلا إذا موظف فى السكة الحديد اسمه محمد حسن عبد الله، فإنه يصبح محمد أفندى حسن عبد الله.

• تدعى الأسرة أنها من سلالة جاى هوكز المشهور.

• الأميرلاى رتبة عسكرية كان يرقى لها الضباط فى ق. د. س. أو (الجيش المصرى)، وهى تعادل رتبة الكولونيل أو الليفتنانت كولونيل لدى الجيش البريطانى، ويمكن أن تسند إليه قيادة فرقة كاملة مثل فرقة العرب الشرقية، وكانت الفرقة فى ق. د. س. تعادل باتليون (Battalion) لدى الجيش البريطانى.

• استحكامات دفاعية تبنى من الحجر وتخدم نفس أغراض الخنادق.

• آر. سى. ويكفيلد، شقيق اللورد ويكفيلد، وقد اشتهر ضمن أشياء أخرى كلاعب رجبى عالمى، ورئيس إتحاد الرجبى.

• لم يكن ذلك بغرض وضع أطار عمل وإنما لأجل تسجيل التفاصيل.

• يتميز أيضاً بأنه أكثر دقة لأن حرارة الشمس تؤثر فى طول الشريط.

• موظف بمكتب السكرتير الإدارى آنذاك.

• مع بداية الحرب الباردة فى عام ١٩٥٠ تم منع الصور الأخرى من التداول بحيث لا يمكن رؤيتها فى الوقت الحاضر، ولكن إذا تغير ذلك فإنه سيوفر سجلاً فريداً للصحراء عبر شمال أفريقيا عن الفترة ١٩٤١- ١٩٤٢.

• ما جنوس ماجنسون مقدم لبرنامج مسابقات تلفزيونية، وعندما يبدأ سؤالاً ويقاطعه أحد المتسابقين كان يقول: لقد بدأت ولذلك سأواصل (I have started, so I will finish

• تطبع على القماش لتكون قابلة للتحمل، وكان يشار إليها باسم (الخرائط المنديلية)

• أنظر أيضاً آر. جى. دينجوول فى الملحق (ج).

• زيمرمان هو وزير خارجية ألمانيا عام ١٩١٧ والذى أرسل برقية إلى حكومة المكسيك يطلب تعاونها مع ألمانيا نظير إعطائهم ولايات نيو مكسكو، وتكساس، وأريزونا الأمريكية. وقعت البرقية فى أيدى الأمريكان الذين أعلنوها، وكانت السبب المباشر لدخول أمريكا الحرب لصالح الحلفاء وضد ألمانيا. (المترجم).

• ريجنالد دينجوول عمل مفتشاً لمركز سنكات بمديرية كسلا فى أواخر الأربعينات. كنت وقتها تلميذاً بالسنة الثانية بمدرسة هيا الأولية، ولن أنسى ذلك اليوم الذى زار فيه المدرسة، وجاء إلى فصلنا لحضور حصة الحساب مع الناظر.

الفهرس

■ حكاية الضابط الإدارى يوم الانتخابات فى أم بطيخ ١٣

■ حكاية مفتش الزراعة........ ٢٧

■ حكاية الطفل ٥٥

■ حكاية مفتش المركز ٦٥

■ حكاية الطبيب ١٤٥

■ حكاية التربوى ٢٠١

■ حكاية مهندسة الجيولوجيا ٢١٥

■ حكاية القاضى ٢٢٧

■ حكاية الراهبة ٢٤١

■ حكاية مفتش مركز النوير ٢٦١

■ حكاية الممرضة ٢٧٣

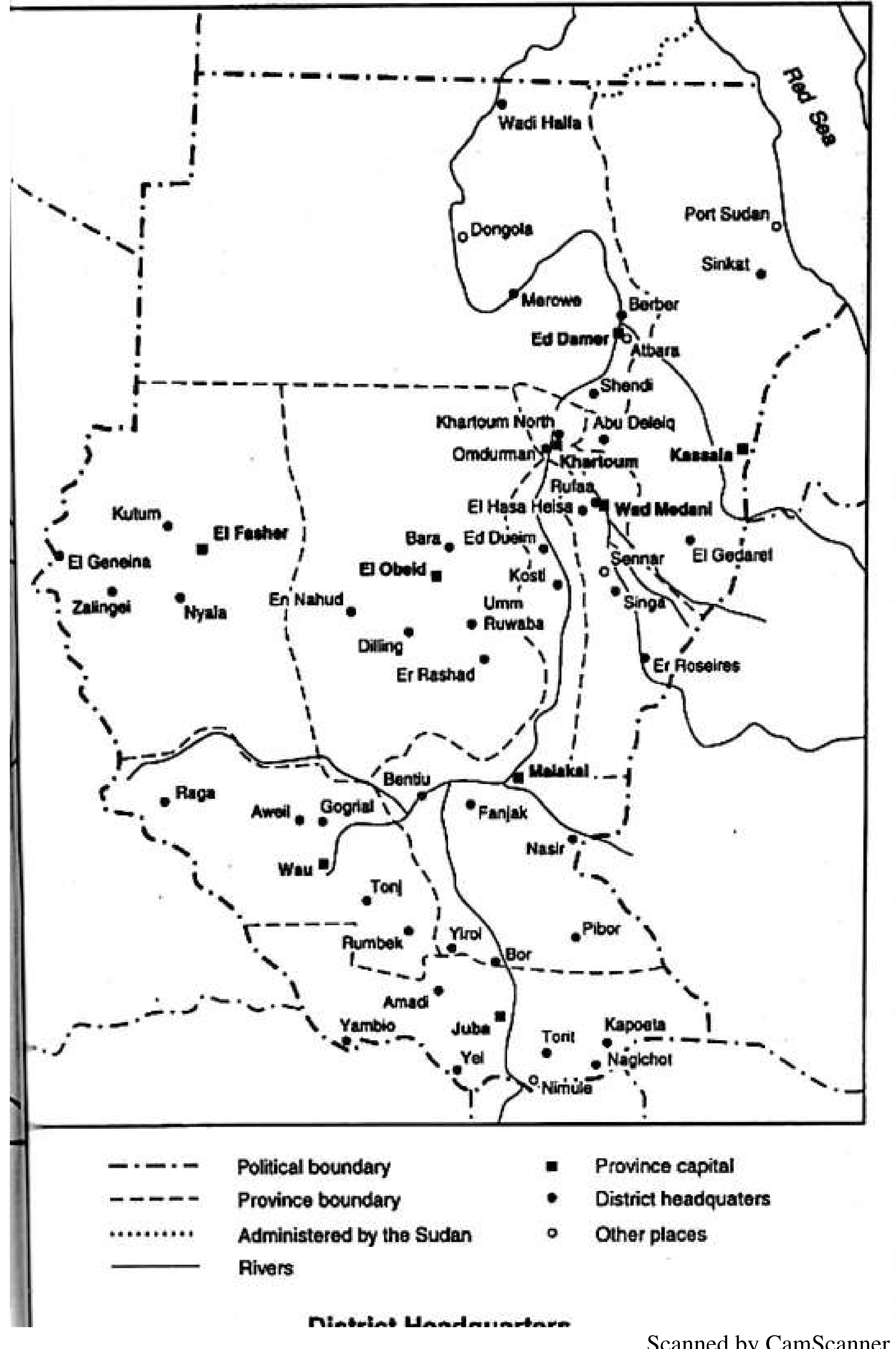
■ حكاية موظف السكة حديد ٢٩٥

■ حكاية الطالبة ٣١٥

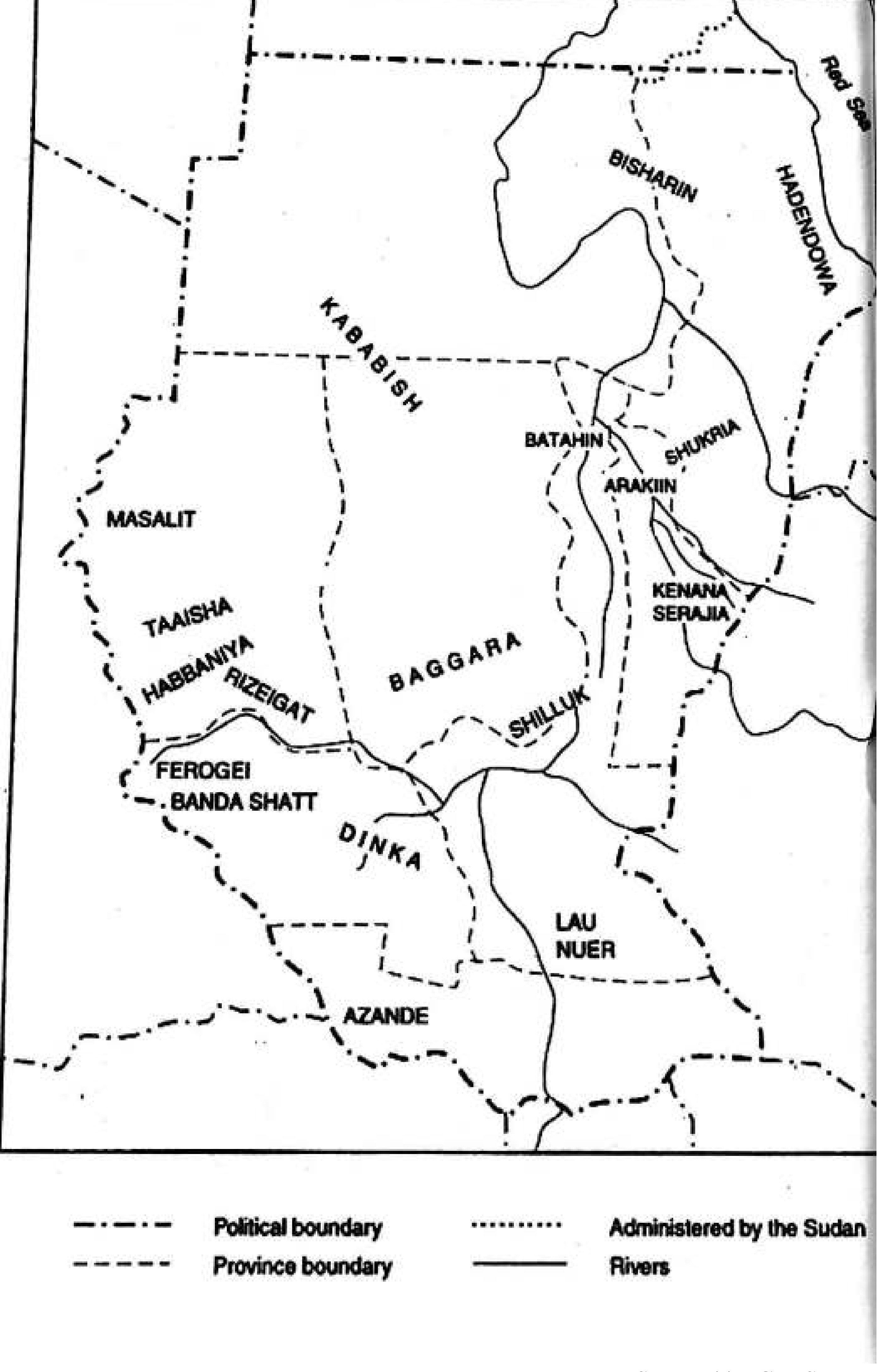
■ حكاية الجندى........ ٣٢٥

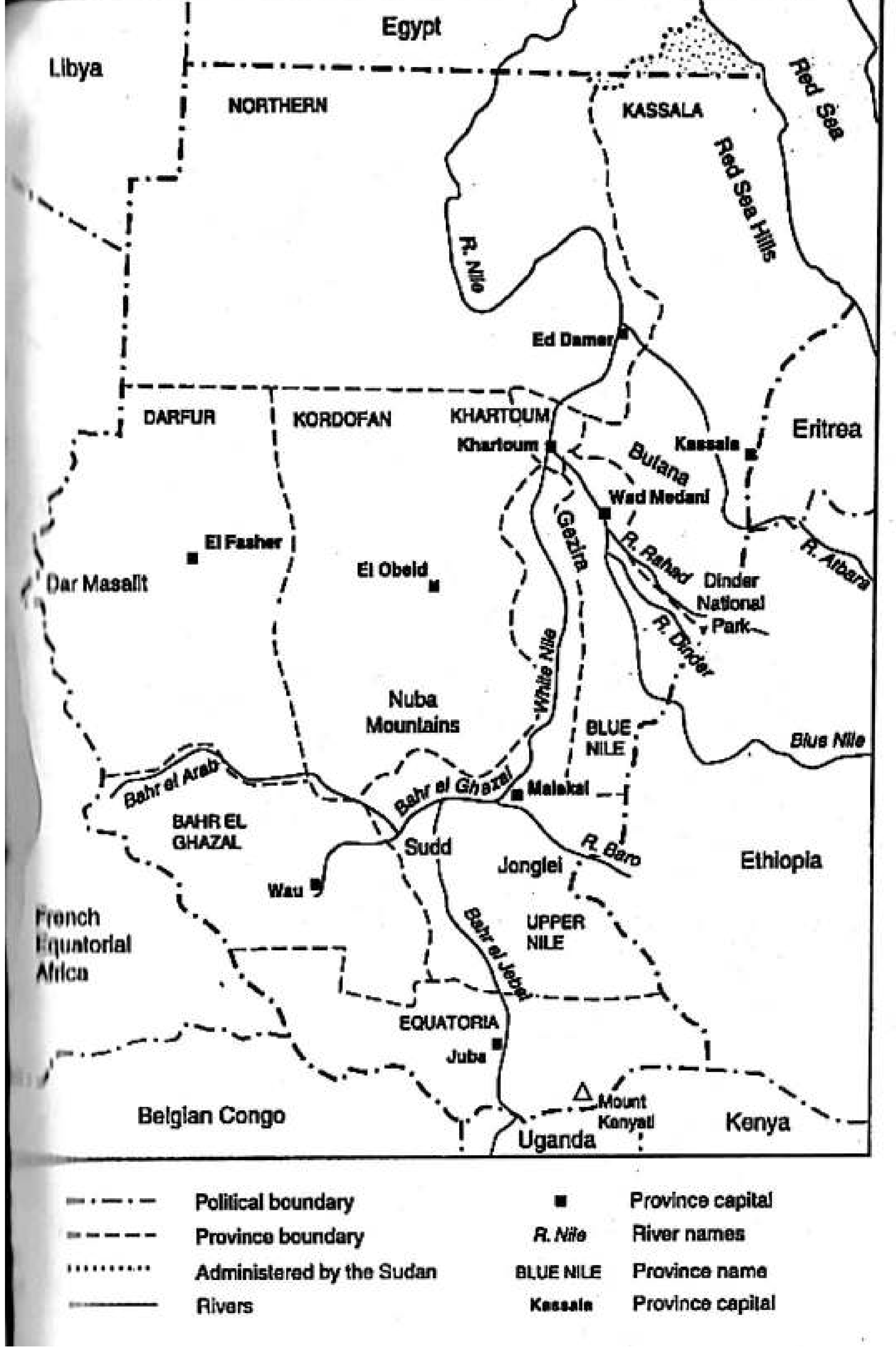
■ حكاية مهندس المساحة ٣٥٣

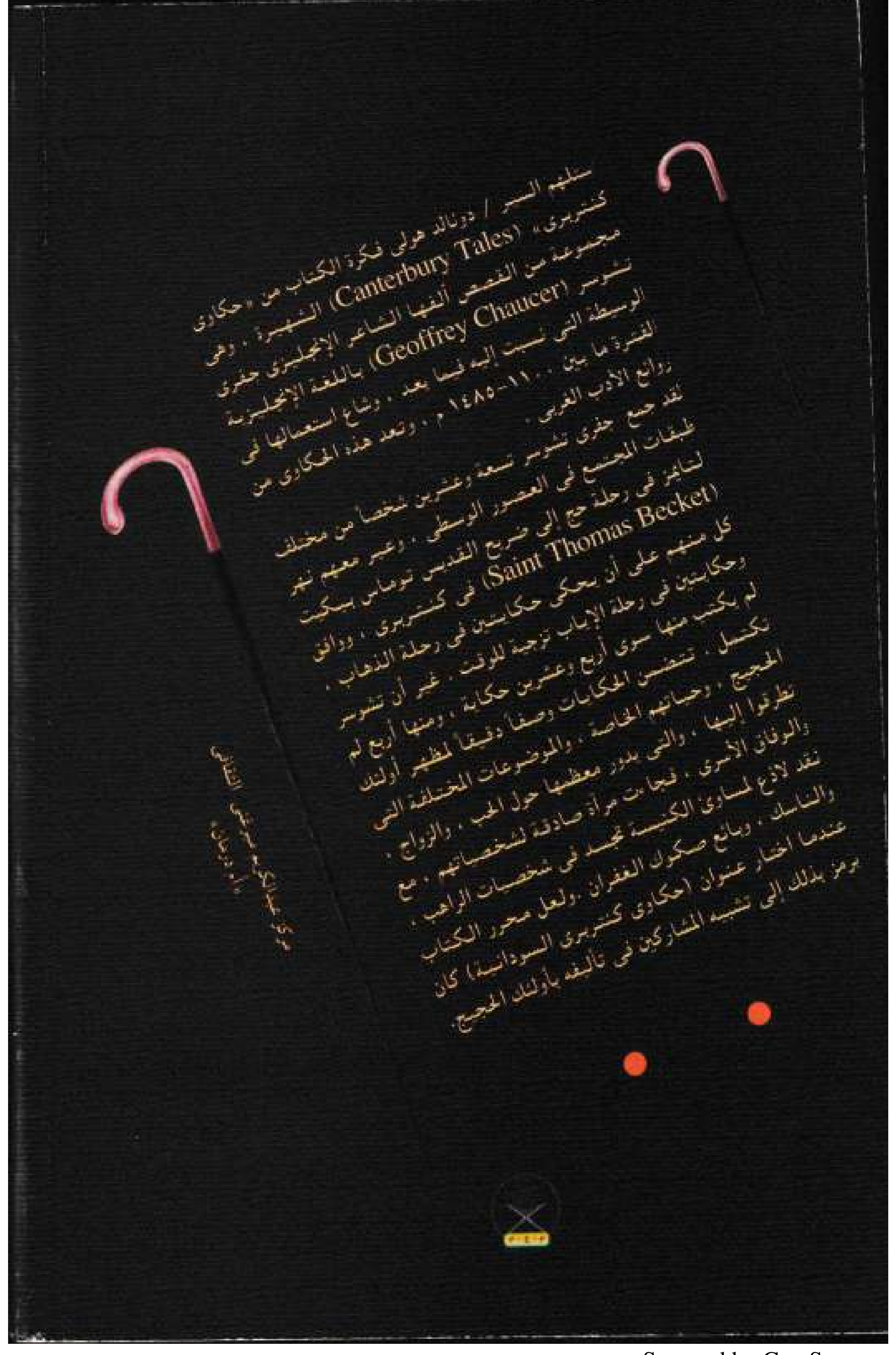
■ حكاية جيلين ٣٨١
■ حكاية محاضر الجامعة ٣٩٧
■ حكاية مفتش البيطرى ٤١٣
■ حكاية الزوجة ٤٢٧
■ حكاية عالم الحيوان (كما روتها أرملته ليزلى لويس) ٤٤١
■ حكاية الحفيدة ٤٥٩



District Headquarters


Red Sea
BISHARIN
HADENDOWA
KABABISH
BATAHIN
SHUKRIA
ARAKIIN
MASALIT
KENANA
SERAJIA
TAAISHA
HABBANIYA
RIZEIGAT
BAGGARA
SHILLUK
FEROGEI
BANDA SHATT
DINKA
LAU
NUER
AZANDE
Political boundary
Province boundary
Administered by the Sudan
Rivers


Egypt
Libya
Red Sea
NORTHERN
KASSALA
Red Sea Hills
R. Nile
Ed Damer
DARFUR
KORDOFAN
KHARTOUM
Eritrea
Khartoum
Kassala
Butana
Wad Medani
El Fasher
Gezira
R. Rahad
R. Atbara
El Obeid
Dar Masalit
Dinder National Park
R. Dinder
White Nile
Nuba Mountains
BLUE NILE
Blue Nile
Bahr el Arab
Bahr el Ghazal
Malakal
BAHR EL GHAZAL
Sudd
R. Baro
Jonglei
Ethiopia
Wau
French Equatorial Africa
Bahr el Jebel
UPPER NILE
EQUATORIA
Juba
Mount Konyat
Belgian Congo
Kenya
Uganda
Political boundary
Province boundary
Administered by the Sudan
Rivers
Province capital
R. Nile
River names
BLUE NILE
Province name
Kassala
Province capital


ستلهم السمر / دونالد هولى فكرة الكتاب من «حكاوى
كنتربرى» (Canterbury Tales) الشهيرة ، وهى
مجموعة من القصص ألفها الشاعر الإنجليزى جفرى
تشوسر (Geoffrey Chaucer) باللغة الإنجليزية
الوسيطة التى نسبت إليه فيما بعد ، وشاع استعمالها فى
الفترة ما بين ١١٠٠-١٤٨٥م ، وتعد هذه الحكاوى من
روائع الأدب الغربى .
تقدم جميع جفرى تشوسر تسعة وعشرين شخصاً من مختلف
طبقات المجتمع فى العصور الوسطى ، وعبر معهم نهر
التايمز فى رحلة حج إلى ضريح القديس توماس بيكيت
(Saint Thomas Becket) فى كنتربرى ، ووافق
كل منهم على أن يحكى حكايتين فى رحلة الذهاب ،
وحكايتين فى رحلة الإياب ترجية للوقت ، غير أن تشوسر
لم يكتب منها سوى أربع وعشرين حكاية ، ومنها أربع لم
تكتمل . تتضمن الحكايات وصفاً دقيقاً لمظهر أولئك
الحجيج ، وحياتهم الخاصة ، والموضوعات المختلفة التى
تطرقوا إليها ، والتى يدور معظمها حول الحب ، والزواج ،
والرفاق الأسرى ، فجاءت مرآة صادقة لشخصياتهم ، مع
نقد لاذع لمساوئ الكنيسة نجده فى شخصيات الراهب ،
والناسك ، وبائع صكوك الغفران .ولعل محرر الكتاب
عندما اختار عنوان (حكاوى كنتربرى السودانية) كان
يرمز بذلك إلى تشبيه المشاركين فى تأليفه بأولئك الحجيج.